

# تہذیبیہ نیو ویورک



9.6.2014

روایت



## بول اُوسٹر

دارالآداب

تہذیبیہ

ترجمہ کامل یوسف حسین

بول أوستر

مقدمة المترجم

# ثلاثية نيويورك

@ketab\_n

رواية

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الآداب

**ثلاثية نيويورك**

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٣

Twitter: @ketab\_n

## مقدمة المترجم

يستمدّ العمل المائل بين يدي القارئ أهمية من عدّة أبعاد جديرة بالاهتمام حقّاً، وربما كان في مقدمتها أنّ «ثلاثيّة نيويورك» تشكّل اللقاء الأوّل بين القارئ العربي وبين مؤلّفها الرّوائي الأمريكي البارز بول أوستر، وأنها تفتح لنا من ناحية أخرى أفقاً جديداً في التعرّف على جوانب شائعة من إبداعات الأدب الأميركي الحديث، ومن جانب ثالث فإننا بين يدي نموذج مدهش للاشتغال على رواية التّحرّي الأمريكيّة بمنهاج بنيويّ يستهدف فتح آفاق جديدة أمام هذا النوع من الرّوايات الضاربة الجذور في الأدب الأمريكي، ثمّ نحن رابعاً أمام توظيف رائع للمكان في خدمة العمل والنسيج الروائيين، على نحو قلّ نظيره في الأدب العالمي.

ولو لم يكن صرح أهميّة هذا الكتاب قائماً إلا على هذه الأعمدة الأربعة لكفاه هذا وكفانا، غير أنّه من المحقّق أنّ من سيقراً «ثلاثيّة نيويورك» بحبّ وتعاطفٍ سيجد الكثير من الجوانب التي تفرض نفسها بقوة ووضوح.

وإذا كان تقديم كاتب جديد للقارئ العربي يتيح لمن يقوم بجهد هذا التّقديم سعادة حقيقةً قوامها لذّة الاكتشاف، وفرصة تقديم الباهر والمتألّق للقارئ، فإنّه يُلقني في الوقت نفسه على كاهله عبّ

التعريف بجوانب هذا الجديد، سواء فيما يتعلق بالمؤلف، أو بعالمه الروائي.

ومن المؤكد أن تلك مهمة ليست، في حالة بول أوتر و«ثلاثية نيويورك» بالمهمة اليسيرة. وبغرض تبسيط هذه المهمة فإننا نتصور إمكانية الحديث عن ثلاثة جوانب هي على التوالي: مكان بول أوتر على خارطة تيارات الأدب الأمريكي الحديث، وأبعاد عالمه الروائي، وجماليات المكان في «ثلاثية نيويورك».

وإذا شئنا البدء بمحاولة تحديد مكان أوتر على خارطة تيارات الأدب الأمريكي الحديث وجدنا أن من واجبنا المبادرة، على الفور، إلى إيضاح أننا لسنا بين يدي حديث مطول عن تطور هذا الأدب، فمثل هذا الحديث على أهميته ليس مكانه مقدمة مثل هذا العمل الروائي.

وربما كان بوسعنا القول إنه بعد رحيل عملاقي الرواية الأمريكية إرنست همنجواي ووليام فوكنر بدأ كثير من النقاد يستعير التعبير الشهير في دراسات المسرح «موت التراجيديا» ليتنبأ بـ «موت الرواية الأمريكية»، ذلك أن الكتابات الروائية الأمريكية شهدت في هذه الفترة رحيلاً في أرض رمادية أو مسيرة غسقية في مناخ لا يستبين الناقد، دع جانباً القارئ، تحت آفاقها المدهمة كفه، فقد لزم جون بارث الصمت، ولم يكتب غيره من أمثال وليام جادس وتوماس بنشون وسالنجر إلا القليل، بينما غلب طابع الكتابة الصحافية على أعمال نورمان ميللر، وكان من الصعب القول بأن كتاباً مثل سول بيلو وجيمس بالدوين وفيليب روث يحملون الرواية الأمريكية على

أكتافهم، ربّما لأنهم، في نهاية المطاف، يكتبون من منظور جزئي متعلّق غالباً برؤية الأقلّيات التي ينتمون إليها، حتّى وإن وصلت سعة أفق بعض كتاباتهم إلى حدّ منح سول بيلو، على سبيل المثال، جائزة نوبل للأدب.

غير أنّ هذه المسيرة الغسقيّة لم تفرض نفسها طويلاً؛ فقد برزت نوعيّة جديدة من الكتابات مفارقةً لما سبق تماماً، فهي بعيدة عن المبالغة والتضخيم وترفض في الوقت نفسه النزوع إلى الهروب والانسحاب، وتملك الجرأة على مواجهة الآخر والذات والوجود معاً.

وهذه الكتابات الجديدة لم تأت من عدم، ولم تظهر في فراغ، وإنّما كانت التجلّي الأدبي الذي يوازي تحرّكات من النّوع نفسه، لا في المجال الأمريكي وحده، وإنّما على مستوى العالم كلّه، فهي تقف إلى جوار البوب آرت والنزعة الطليعيّة ومسرح الأندرجراوند وسينما الهوبو.

ولم يُقدّر لهذا التيار الذي جاء في أعقاب انحسار أحلام الستينات الكبيرة، وفشل الماويّة، ووصول انتفاضات الشّباب إلى ساحة الصّففر، وتحوّل حركات حرب العصابات والمقاومة اليساريّة إلى أحزاب وحيدة في الشّارع وسدّة السّلطة في الكثير من أرجاء العالم - لم يُقدّر لهذا التيار أن يتبلور بين عشية وضحاها. وإنّما كان لا بدّ أن تنقضي سنوات طويلة على ظهور إبداعاته قبل أن يطلق عليه بوفورد رئيس تحرير مجلّة «جرانتا» في العدد الثامن من المجلّة المخصّص بكامله للكتابات الأمريكيّة الجديدة اسم «الواقعيّة القدرة» ثمّ لم يتردّد بعد ذلك بسنوات في تخصيص العدد التاسع عشر من المجلّة

لكتابات التّيار نفسه تحت عنوان «المزيد من القذارة: الرّواية الأمريكيّة الجديدة».

وفي إطار تيّار «الواقعيّة القذرة» نلتقي بمعالّقة حقيقيين، وإن لم تُقدّر لهم، حتّى الآن على الأقلّ، الشهرة المدويّة التي كانت من نصيب سابقهم، ومع ذلك فإنّه لا سبيل إلى الحديث عن المشهد الرّوائي الأمريكيّ اليوم دون الحديث عن رواد هذا التّيار، وفي مقدّمتهم ريموند كارفر الذي رحل عن عالمنا، وريتشارد فورد الذي يتصدّى لقيادة هذا التّيار حالياً، وتوبياس وولف، وجين آن فيليبس، وريتشارد روسو، وإيلين جيلكريست، وجوي وليامز، وروبرت أولستيد، وغيرهم.

ومن العجيب حقاً أنّه لم يُقدّر لكلمة واحدة من إبداع كتاب هذا التّيار أن تترجم إلى اللّغة العربيّة، وهو أمر يرجع في اعتقاد كاتب هذه السّطور، إمّا إلى عدم متابعة حركة التطوّر في المشهد الرّوائي العالمي، ومنه المشهد الأمريكي، من جانب حركة التّرجمة العربيّة التي تكاد تصل إلى مرحلة التّوقف، وإمّا إلى الطّابع الجزئي، حتّى لا نقول التّعسفي في اختيار ما يترجم من أعمال الأدب الأمريكي بشكل خاصّ، وإمّا أنّ هناك توجّهات بعينها تدفع إلى حجب هذا التّيار عن عيني القارئ العربيّ، خاصّة وأنّ هذا التّيار ظلّ، وما يزال، محارباً من المؤسسات الرسميّة الأمريكيّة، والكثير من روائعه منشور من خلال دور نشر صغيرة تصدر الأعمال الطّليعيّة، في مواجهة الكثير من المصاعب.

هكذا يدهش المرء حين يعلم أن مجموعات كارفر الثلاث الرئيسيّة، وهي «سُكوتاً من فضلكم» و«ما الذي نتحدّث عنه حينها



نتكلّم عن الحبّ و«كاتدرائية» لم تنقل إلى العربيّة، وإن ترجمت بعض قصصها بشكل فرديّ.

والأمر نفسه ينطبق على ريتشارد فورد، إذ لم تنقل إلى العربيّة أيّ من رواياته الخمس، وهي على التوالي: «حياة وحشية» و«كتاب الرياضة» و«قطعة من قلبي» و«منتهى الحظّ السعيد» و«زير النساء»

كما لم تر اللّغة العربيّة رواية توبياس وولف الجميلة «لص الثكنة». ولم يعرف القارئ العربي أعمال جين آن الفريده، وأبرزها: «المغامرات الحقيقيّة للولنج ستونز» و«آلة الأحلام» و«البطاقات السوداء» و«الحواري السريعة». ولم تنشر بالعربيّة رواية ريتشارد روسو الفاتنة «موهوك» ولا مجموعات إيلين جيلكريست المتميّزة «مفيس» و«متيم عشقاً» وغيرها.

وقائمة إبداعات كتاب تيار «الواقعيّة القدر» ممتدة، وقد سمحت لنفسني بإيراد نماذج منها على الأمل الواهي، أولنقل الحلم، المتمثل في أن يأتي ذات يوم الناشر العربي الذي تواتيه الجرأة على أن يحوّل السطور السّابقة إلى جدول أعمال يقوم عبره بنشر كلّ الإبداعات التي أتينا على ذكرها ويضيف إليها المزيد.

وأياً كان الأمر فإنّ بول أوستر لا ينتمي إلى تيار الواقعيّة القدر، حقاً إنّ قارئ كتاباته سيلحظ قدراً معيّناً من التأثير بمنجزات هذا التيار، ولكنّ ذلك رافد واحد ضمن روافد أخرى كثيرة شكّلت عالم أوستر الإبداعي وأثرت فيه بعمق وقوّة.

ويحرص أوستر نفسه في اللّقاءات التي تجري معه على أن يشير إلى أنّه ينتمي إلى تيار لاحق لـ «الواقعيّة القدر» يستفيد من معطياته،

ولكنه يحرص على تجاوزه.

وكثيراً ما يشدد أوستر على أنه يكتب روايات تنتمي إلى روايات التحري، ولكن هذه الإشارة ربما أطلقها أوستر مراراً استجابةً لناشريه أكثر مما أعلنها في معرض توصيفه لانتفاء عالمه الروائي، فكثيراً ما وصف النقاد هذا العالم الروائي الذي أبدعه أوستر بأنه يتحدى محاولة الإحاطة والتصنيف لثرائه وتعدد أبعاده.

وقد يلفت النظر هنا أن أوستر أشار إلى تأثيره بعدد من كتاب رواية التحري، ومنهم راشيل هاميت وريموند تشاندلر وروس ماكدونالد، ولكن هؤلاء الكتاب على وجه الدقة يشتركون في أن النقاد يربطون بينهم وبين كتابة «أدب الحركة» الرفيع المستوى ولا يستبعدونهم من المناقشة وهم يعلنون صراحة تجاهلهم لروايات التحري، الأمر الذي يشير إلى أكثر من معنى وأكثر من دلالة.

وإذا ما انتقلنا كذلك إلى البعد الثاني المتعلق بعالم أوستر الروائي، بادرنا كذلك إلى القول بأننا نستطيع القارئ عذراً إذا ما وجد اختلافاً في التركيز على جزئيات بعينها دون غيرها في غمار تلمسنا لملامح هذا العالم الروائي، فذلك لا يعكس أهمية هذا الجانب دون ذلك أو هذا العمل دون غيره، بقدر ما يعكس اهتماماً شخصياً من جانب كاتب هذه السطور بالأعمال التي يجري التركيز عليها، ربما كمقدمة للقاء جديد مع القارئ عبر تقديم ترجمة لهذه الأعمال له في وقت قد لا يكون بعيداً.

وقد ألمعنا إلى أن عالم أوستر الروائي هو، بحسب اعتقاد الكثير من النقاد من النوع الذي يتحدى محاولات التمييز والتصنيف، وفي

اعتقادنا أن هذا مؤشّر آخر على فريدة هذا العالم وزخم العبقرية التي أبدعته .

جاء أوستر إلى عالم الرواية من زاوية الإلمام العميق بأكثر من ثقافة واحدة، فقد عمل بالترجمة عن الفرنسية، واشتهر بشعره وبترجماته لبودلير وغيره من الشعراء الفرنسيين، وقدّم أيضاً هائلاً من المقالات التي تحاول مدّ جسور العلاقة بين الفرنسية والإنجليزية، ويرى كثيرون أنه قد تأثر بعمق إلى جانب بودلير، بكلّ من كافكا وبيكيت . ونأمل ألا نكون كمن يقفز في الظلام إذا ما ذهبنا إلى القول بأنّ جوهر مشروع بول أوستر هو الانطلاق بالرواية التجريبية، بالاستعانة بزاد من كافكا بشكل خاص، وبأصداء مما تردّد على خشبة بيكيت، للوصول إلى آفاق جديدة .

وقد يكون هناك من يختلف معنا، ولا يتردّد في الذهاب إلى القول بأنّ جوهر حركة أوستر، والكثير من أبناء جيله، هو جوهر سكوفي، رغم حركيته الظاهرة، وأنّ الرواية التجريبية التي ينطلق في غمارها، تردّد، في الحقيقة، صدى صيحة «دعنا نذهب» التي تنطلق في نهاية مسرحية «في انتظار جودو» دون أن يكون هناك أثر لحركة على المسرح .

لكننا نؤثّر أن نترك الحكم في هذا الشأن للقارئ، ليصدره بنفسه مع انتهائه من قراءة الصفحة الأخيرة في «ثلاثية نيويورك» .

وأياً كان الأمر فإنه يظلّ صحيحاً أن أوستر من أولئك الروائيين الذين لا سبيل إلى ربطهم بتيار بعينه، أو اتجاه بذاته، ويستحيل التنبؤ بحدّ أدنى بانطلاقته التالية، أو بموضوع روايته المقبلة .

لكن ذلك لا ينفي ، بالضرورة، إمكانية الحديث عن سمات ، أو خصائص ، أو معالم عامة في عالمه الروائي ، فهناك ذلك الولع المدهش بالمواقف المحيرة التي تطرح على القارئ أيضاً من علامات الاستفهام ، وهناك أيضاً ذلك الافتنان بالأشكال التي يتقاطع بها الصدفة والقدر، وينغمسان في توجه رمزي حافل بالتوتر والغموض معاً.

وقد صدرت «ثلاثية نيويورك» في طبعها الأميركية منجّمة، إذ كانت البداية في العام ١٩٨٥ بصدر رواية «مدينة الزجاج» ثم أعقبها «الأشباح» و«الغرفة الموصدة» في ١٩٨٦ ، وصدرت الطبعة البريطانية للثلاثية كاملة في ١٩٨٧ وحققت نجاحاً فورياً تجلّى في إعادة طبعها من جديد في العام نفسه ثم إصدار طبعات أخرى في الأعوام ١٩٨٩ و١٩٩٠ و١٩٩١ .

ومن منظور كاتب هذه السطور فإنّ أول ما يلفت النظر في «ثلاثية نيويورك» هو تبني بول أوستر لمعطيات المنهاج البنيوي وتطبيقه على رواية التّحرّي، وهكذا فإنّه خلافاً لروايات التّحرّي الأمريكيّة المألوفة، ربّما وصولاً إلى إدجار آلان بو، يترك أوستر الجريمة غامضةً، والقضايا ملتبسةً، والشخصيات والمواقف مُلغزة، بل إنه لا يتردّد في التلاعب بتقاليد الكتابة في إطار روايات التّحرّي على نحوٍ يُضفي عليها تجريدية غير مألوفة، إنّنا نواجه الجريمة، ولكننا في نهاية النفق نلتقي بالنفس، لا بالقاتل ولا بالمجرم .

ويحار المرء أيّ الروايات الثلاث أكثر جدارة بالاهتمام : مدينة الزجاج أم الأشباح أم الغرفة الموصدة؟ ولكن علامة الاستفهام تلك

تبدو عبثية إذا أدركنا أننا في الواقع نتحدّث عن أعضاء مختلفة في جسم واحد هو صميم العمل، أيّ الثلاثية بكاملها.

وتلفت النظر في عالم أوستر الروائي كذلك روايته «قصر القمر» وهي عمل روائي يُروى من خلال ضمير المتحدّث، إذ نجد أنّ الرّواية، وهو طالب في جامعة كولومبيا، يعاني من نزعات تدميرية للذات، وقد تبناه، بصورة رسمية، عجوز غريب الأطوار، مستبد الطبع، رغم أنّه مُقعد، وربّما بسبب عجزه ذلك. وما من شيء يُحسّم في نهاية العمل، وكل ما هنالك أنّ القمر يعاود الإطلال، القمر الذي يتخلّل نسيج العمل، في حضور وغياب يجمع بينهما عنصر القوّة الطاغية، وعبر صياغات كثيرة تتراوح بين اسم المطعم الصّيني الذي يمنح الرّواية عنوانها والرحلات الخيالية للقمر التي يقوم بها سيرانودي برجراك وجول فيرن، والهبوط الفعليّ على سطح القمر في ١٩٦٩.

وربّما كان أهم ما تتسم به هذه الرّواية التي يجذبنا روايتها الثرثار الذرب اللسان، أنّنا نحسّ فيها بالحضور الذي يغيب عن القارئ الفطن لأصداء من سول بيلو وأبطاله الذين لا يكفون عن السعيّ وراء أهدافهم بلا انتهاء.

ومن بين روايات أوستر الستّ تستقطب رواية «بلاد الأشياء الأخيرة» اهتمامنا بتمييزها بالطابع المستقبلي، وإن كانت لا توغل بعيداً في رحيلها إلى آفاق المستقبل. وجوهر العمل يتمثّل في تلك الرحلة المدهشة التي تقوم بها البطلة «أنا» بحثاً عن أخيها في مدينة الأشياء الأخيرة الحافلة بالغرائب، والتي تذكّرنا برواية نوت هامسون الموسومة بـ «الجوع».

وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن كاتب السطور يهتم بشكل خاص بأحدث روايات بول أوتر، وهي «موسيقى الصدفة». فقد راكم أوتر في هذا العمل حصيلة خبرته في الإبداع الروائي، فالرواية عمل أعدت حكته بعناية بالغة، واختزل نطاق سرده إلى أضيق الحدود، فجاء في صياغة رائعة حقاً، ونحن نمضي مع الكاتب عبر السطور إلى نهاية مكثفة على قدر كبير من التوتر والزخم معاً، ويبدو أن الرواية، في جوهرها، تطرح التساؤل المورق: عند أي منعطف تلتقي الأحداث العشوائية والصدف وتتخذ لها طابعاً حتمياً؟

في بداية رواية «موسيقى الصدفة» نلتقي مع «جيم ناش» في لحظة استثنائية من حياته، عامرة بالفرحة الغامرة، وبالتعاسة الحقيقية معاً، فهو من العاملين في إطفاء الحرائق، تهبط عليه ثروة مقدارها مائتا ألف دولار، يرثها عن أبيه الذي لم يلتق به أو يجادته منذ سنوات بعيدة، ولكن هذه الثروة تصل بعد فوات الأوان حقاً.

لماذا؟

إن ثروة أبيه الذي لم يره منذ ثلاثين عاماً تأتي في غير موعدها؛ لأن زوجة ناش قد هجرته دونما رجعة، كما أنه تخلى لأخته عن ابنته الصغيرة لتقوم بتربيتها.

ماذا إذن؟

لن يتوقف جيم ناش أمام علامة الاستفهام هذه طويلاً، وإنما يقرر أن يستسلم لدفق الحرية الغامرة النابعة من التصرفات العفوية والانطلاق بسيارته الجديدة من طراز «ساب» جيئة وذهاباً بلا هدى في أرجاء أمريكا إلى أن تنفذ النقود.

انظر كيف يعبر أوستر عن هذا الموقف، أنه يقول: «إذا كان هناك ما يعكّر الصفو فهو أن الأمر سينتهي، وأنه لن يستطيع مواصلة العيش على هذا النحو إلى الأبد. في البداية بدا المال بالنسبة إليه وكأنه لا ينفد، ولكن بعد أن انطلق مرتحلاً خمسة أشهر أو ستة كان ما يزيد على نصفه قد تمّ إنفاقه، كانت المغامرة تتحوّل على نحو وثيد، وإن كان يقينياً، إلى لغز؛ فقد كان المال مسؤولاً عن حرّيته، ولكن في كلّ مرّة يستخدمه فيها لشراء قسط من تلك الحرّية، كان يحرم نفسه منها كذلك، لقد كفل له المال الانطلاق حرّاً، ولكنّه كان كذلك محرّكاً قوامه الخسارة ينطلق به عائداً إلى حيث بدأ».

ويوغل بنا أوستر في الرحلة مع جيم ناش، فعندما تقلص المال الذي ورثه إلى عشرين ألف دولار فحسب، التقى بشاب ضئيل البنية يدعى جاك بوزي، وهو لاعب بوكر محترف حالفه سوء الحظ طويلاً، ويقرر ناش أن يقدم عشرة آلاف دولار لبوزي لخوض غمار لعبة بوكر كان الأخير قد أعدّها من قبل مع رجلين في منتصف عمريهما ينتميان إلى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة هما «ستون» و«فلاور» اللذان كسبا ثروة طائلة عن طريق ورقه يانصيب اشتريها معاً.

وعلى الرّغم من هذا الوضوح السّافر لمخالفة الحظ لها فإنّ بوزي ينظر إليهما باعتبارهما من النوع الذي يسهل اصطیاده، ويوافق على اقتسام الأرباح مناصفة مع ناش الذي ينظر إلى الأمر كله باعتباره فرصة لشراء فترة أخرى يمضيها في رحاب الحرّية.

ما الذي يحدث؟

عندما يصل ناش وبوزي إلى المزرعة المنعزلة في بنسلفانيا التي يقيم

بها المليونيران الغريباً الأتوار، يلعب أوستر لعبته الخاصة بسرعة هائلة، وهكذا فإنّ بطله، ناش، يُقدّم على اتخاذ سلسلة من القرارات هي أقرب إلى الكوارث المتلاحقة منها إلى أي شيء، قرارات استهدفت دعم بوزي في لعبة البوكر، عندما خانه الحظ، وهكذا يجد ناش أنّه بدلاً من كسب قسط جديد من الحرّية فإنّه حكم على نفسه بالعبوديّة، إذ يرغمها ستون وفلاور على بناء جدار شاهق باستخدام أحجار قلعة إيرلنديّة استوردتها عبر المحيط.

وفي النهاية تندلع سلسلة من أحداث العنف البالغة الضراوة التي تعيد إلى الأذهان لمحات من ضراوة فيلم من أفلام السينما السّوداء. ويلفت النظر بشكل خاص أنّه بينما تعتمد الأحداث في رواية «موسيقى الصدفة» في الجانب الأعظم منها على التفاصيل الواقعيّة القريبة من نسيج الحياة اليوميّة، فإنّ حبكتها، شأن حبكات روايات أوستر التي سبقتها تشقّ طريقاً ملتويّاً بين الممكن وغير المحتمل، دون أن تخطو إلى ما يفوق الطّبيعة صراحة، في ابتعاد صارم ومتعمّد عن الواقعيّة السحريّة، على نحو ما نجد عند جابرييل جارسيا ماركيز وتوني موريسون، على سبيل المثال.

بوسعنا، بفضل ضربات سريعة وحاذقة من ريشة أوستر، أن نتصوّر الشّخصيّات، ولكنّ سبر أغوارها ليس بالمهمّة اليسيرة. فجيمني ناش يتبدّى لنا رجلاً دمثاً، بل ومحبباً، كان يمكن أن يكون قريباً أو جاراً لنا، لولا أنّ حياته انحرفت عن مسارها. وأمّا جاك بوزي فثرثار، ضائع يعتمل في أعماقه غضب لا يؤثر في الأحداث. وأمّا المليونيران، وهما محاسب واختصاصي في قياس البصر، فهما شخصيتان غريبتان تتعاظم هواياتهما ودرجات غرابة أطوارهما إلى حدّ



الوحشية عندما تهبط عليها ثروة طائلة دونما انتظار.

ولا يتردد أوستر في دعم نسيج المشاهد والتصرفات من خلال تفاصيل يتم إحكامها بهدوء ودأب، ولا نملك إلا الشعور بأن الأحداث والموضوعات، بل والحوار ورسم الشخصيات، كل ذلك تم ترتيبه لخلق نوع من الحكاية الرمزية، إذا صح التعبير، ووضِع مفتاحها في غير مكانه.

في ضوء هذا الفهم، يصح التساؤل على سبيل المثال، عن المغزى الحقيقي، للحادثة يتم عبر اطلاعنا على ما يسمّى «مدينة العالم» وهو نموذج ضخم، تفصيلي قام ويلي ستون بإنشائه في الجناح الذي يشغله من الدار.

إننا نقرأ:

«قال فلاور: «مدينة ويلي لا تعدو كونها لعبة، إنها تصوّر فنيّ للبشرية، وهي تُعدّ على نحو من الأنحاء سيرة حياة ذاتية، ولكنها على نحو آخر ما يمكن أن تسميه بالرؤية الطوباوية - مكان يلتقي فيه الماضي والمستقبل معاً، وينتصر فيه الخير، في نهاية المطاف، على الشر. وإذا ما نظرت بعناية فإنك ستري أن الكثير من الشخصيات يمثل ويلي نفسه. هناك، في الملعب، تراه وهو طفل، وثمة تلمحه وهو يسحق العدسات في سنوات نضجه، وهنالك، عند ركن الشارع ترانا ونحن نشترى معاً ورقة اليانصيب... ولكن كل هذه الأشياء وضعت في السياق الأكثر شمولاً، إنها ليست إلا مثلاً، إيضاحاً لرحلة حياة رجل واحد، في مدينة العالم. انظر إلى قاعة المحكمة، المكتبة، المصرف، السجن. إن ويلي يسميها بالعوالم

الأربعة للشمول...» .  
ومعني فلاور قائلاً:

«إذا نظرت إلى السّجن فسوف ترى أنّ كلّ المساجين يعملون بسعادة في أداء مهام مختلفة، وإنّ الابتسامات ترسم على وجوههم جميعاً، وذلك يرجع إلى أنهم قد عوقبوا على جرائمهم، وهم الآن يتعلّمون كيف يستردّون الطيبة الكامنة في أعماقهم من خلال الأشغال الشاقة» .

ولكنّ المتأمّل لكلمات فلاور هذه سيلاحظ، على الفور تقريباً، أنّها تنطبق بصورة ساخرة على ما سيحدث عقب ذلك . ولكن هل هذا هو كل شيء حقاً؟ أم أنّ هذه الكلمات ينبغي أن توضع بدورها في سياق أكثر شمولاً؟ .

ومن ناحية أخرى، بأي معنى يتعيّن أن نفهم قرار ناش بأن يقوم، فيما الآخرون عاكفون على لعبة البوكر، بالعودة إلى «مدينة العالم» لنزع تماثيل فلاور وستون الصّغيرة من النموذج ودسّها في جيبيه؟ .

هنا يقال لنا في نصّ «موسيقى الصدفة» إنّ جيم ناش: «لم يكن واثقاً من السّبب في قيامه بذلك، ولكنّ السبب كان آخر ما يبحث عنه وقتذاك، وحتى إذا لم يكن بمقدوره إيضاح الأمر لنفسه فإنّه كان يعلم أنّ ذلك ضروري إلى أقصى حدّ، كان يعرف ذلك مثلما يعرف اسمه» .

وبوسعنا، بالطبع، تلمّس كثير من التفسيرات في غمار ذلك الفعل، أو الاكتفاء بالنظر إليه على أنّه عمل عفوي، أو على أنّه السرّ السّحري الكامن وراء ضروب سوء الحظ التي ستتوالى عقب ذلك

على ناش وبوزي ، ولكن مرّة أخرى ربّما كان آخر ما يجب أن نتطّلع إليه هنا هو سبب أو إيضاح .

ومن الطريف حقاً أنّ الناقد الأمريكي روبرت تاورز لا يتردّد في أن يقترح علينا أن نقرأ رواية «موسيقى الخطّ» باعتبارها لعبة بوكر روائية، بمعنى أنّ المتفرّج اللاهي في هذه اللعبة - القارئ - يُدعى إلى ملاحظة تداخل عناصر الخيار الحرّ والضرورة والحدس والحساب والتجربة والخطّ الأعمى فيما يتمّ اللّعب بالأوراق، وأن يقوم بذلك دون اكرثات بالعواقب المتيافيزيقية للعبة، فهناك لذّة تُجنى لا من نثر أوستر فحسب، وإنّما كذلك من المزيج العجيب من الابتعاد والتشويق الذي تثيره الرّواية في نفس القارئ.

غير أنّ صحيفة «الأندبندنت» كانت شديدة التوفيق، وأصابت كبد الحقيقة فيما يتعلّق بعالم أوستر الرّوائي بأسره عندما كتب ناقدها الأدبي في معرض التعقيب على «ثلاثية نيويورك» بصفة خاصّة يقول: «تكمّن قوّة أوستر في أنّه يلطم القصص معاً كالخصي الصّلد فتقعقع، وتقدح شرراً، وتتردّد أصداء الارتظام، ولكنها لا تخرج شيئاً يسهل انتزاعه ويمكن أن نسّميه «المعنى» .

وربّما كانت تلك، على وجه الدّقة، إحدى السّمات التي تميّز الأدب العظيم في كلّ زمان ومكان .

وإذا انتقلنا إلى البعد الثّالث المتعلّق بالمكان وتوظيفه في «ثلاثية نيويورك» بادرنا إلى القول بأنّ المكان يشكّل محوراً من المحاور الرئيسيّة التي تدور حولها نظريّة الأدب، ولكنّ وعياً متزايداً بأهميته واشتغاله مكثفاً عليه في إطار الأدب العالمي مؤخّراً جعلاه يتجاوز على

نحو قاطع كونه مجرد خلفيّة تقع فيها الأحداث الدراميّة، كما أنه لم يعد معادلاً مجازياً للشخصيّة الروائيّة فحسب، وإنما أصبح يُنظر إليه على أنه عنصر شكليّ وتشكيليّ من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكّلان بعداً جمالياً من أبعاد النصّ الأدبي.

و«ثلاثيّة نيويورك» تقع في صميم هذا الاتجاه، وتشكّل جزءاً متألقاً من ذلك الاشتغال.

ولست أريد الإثقال على القارئ بتحويل هذا البعد الثالث من أبعاد هذه المقدّمة إلى بحث مسهب في جماليات المكان، فمن الواضح أنّ هذه الصّفحات ليست المكان الأنسب له، ولكنّي أتمنى على القارئ أن يتأمل معي هذه القبضة من التساؤلات عن المكان في «ثلاثيّة نيويورك».

● يشير بشلار في كتابه «جماليات المكان» إلى أنه «في بعض الأحيان نعتقد أننا نعرف أنفسنا من خلال الزمن في حين أنّ كلّ ما نعرفه هو تابع تبيّات في أماكن استقرار الكائن الإنساني الذي يرفض الذوبان، والذي يودّ حتى في الماضي - حين يبدأ البحث عن أحداث سابقة - أن يمكّ بحركة الزمن. إنّ المكان، في مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمن مكثّفاً، وهذه هي وظيفة المكان». والقارئ يلاحظ على الفور حساسيّة العلاقة بين المكان والزمان في الثلاثيّة، فهي ترفض الرّصد الكرونولوجي، وتتحدّى محاولات التجزئ لتدخل في نوع من «المونتاج» الحافل بالتحديات. والآن، من أين نبدأ في مواجهة هذه التحديات؟

● وفقاً لتقسيم مول ورومير تعرف أربعة أنواع من الأماكن حسب السلطة التي تخضع لها هذه الأماكن، وذلك انطلاقاً من أن المكان هو، بصفة عامة، ملك لأحدهم، فهناك الأماكن التالية:

١ - «عندي» وهو المكان الذي أمارس فيه سلطتي ويكون، بالنسبة إليّ، مكاناً حميماً وأليفاً.

٢ - «عند الآخرين» وهو رغم شبهه بالمكان الأول يختلف بالضرورة في أنني أخضع فيه لضغوط سلطة الغير، ولا بدّ لي من التسليم بهذه السلطة.

٣ - «الأماكن العامة» وهي ليست ملكاً لشخص بعينه، ولكنها ملك للسلطة العامة التابعة من الجماعة، والتي يمثلها الشرطة، فالفرد هنا ليس حرّاً، ولكنه «عند» أحد يتحكّم فيه.

٤ - «المكان اللامتناهي» ويكون بصفة عامة خالياً من الناس، كالصحراء، ولكن هذا النوع من الأماكن الذي يرتبط بالمغامرة والحرية والانطلاق والاكتشاف والإفلات من السلطة وابتكار القيم الجديدة أخذ في التقلص على نحو حادّ في عالم اليوم.

الآن، بأيّ معنى يمكن أن تطبّق هذه التقسيمات على «ثلاثية نيويورك»؟ وكيف نفحص الاشتباك بين تقاطعاتها؟ كيف نفهم «عندي» و«عند الآخرين» في «الأشباح» على سبيل المثال؟

● في إطار حديثه عن المكان الفني يذهب يوري لوتمان في كتابه «بناء العمل الفني» إلى القول بأنّ العمل الفني مكان محدّد المساحة، فهو من جانب يشغل حيّزاً معيّناً في الكون الفسيح، ولكنه من جانب

آخر يمثّل في هذا الحيز المحدود حقيقة أوسع منه وأشمل هي العالم اللامتناهي . ويشدّد لوتمان على أهمية الإدراك البصري للعالم، مُبرزاً الدور الذي يلعبه المكان في عملية تشكيل المفاهيم لدى البشر، والإنسان يحاول أن يقرب لنفسه المجرّدات من خلال تجسيدها في ملموسات، وأقرب هذه الملموسات هو الإحداثيات المكانية. فاللامتناهي يصبح عند معظم الناس مكاناً هائل الاتساع، وترتبط كثير من القيم المجرّدة بإحداثيات المكان، فالعالي يصبح قيمةً والمنخفض عكس ذلك والقريب يرتبط بالأجل والبعيد. بالأغرب والمفتوح بالقابلية للفهم والمغلق بالاستعصاء على الفهم وهكذا، ومثل هذه الأنساق نتاج ثقافي، في المقام الأوّل، ولكننا في الأعمال الفنيّة لا ينبغي أن نبحث عن الأنساق الواردة في الثقافة بشكل عام، وإنّما عن الأنساق الخاصّة بكلّ فنّان، بل وبكلّ عمل فنيّ على حدة.

والسؤال الآن هو: إلى أيّ حدّ يمكن أن يشكّل البحث عن الأنساق مدخلاً لقراءة ناجحة وواعية لـ «ثلاثيّة نيويورك»؟

● نتابع في «مدينة الزجاج» محاولة البطل المدهشة لترجمة الحركة في المكان إلى حروف وكلمات ومن ثمّ إلى مفاهيم.

والسؤال الذي لا يمكن إلّا أن يخطر على البال عند رصد هذه المحاولة هو: هل يمكننا تحويل الحركة في «الثلاثيّة» إلى قراءة في المفاهيم بهذا المعنى؟ أو إن شئت الدقّة فقل: هل يمكننا أن نلمح تخرجاً من قلب المدينة إلى الأحياء الأبعد فالضواحي والبلدات المجاورة وأخيراً باريس وكأنّنا بين يدي دعوة غير واعية إلى مفارقة

هذا المكان - اللعنة أم أننا بين يدي رحلة للفهم من خلال الابتعاد والإدراك الأكثر شمولاً؟

. . . . وبعد فهذا كاتب كبير، نقدّمه للقارئ العربي للمرة الأولى، عبر كتاب نرى أنه شديد الخصوصية والتميز، ولا نتردد في الذهاب إلى القول بأن المكتبة العربية لم تعرف نظيراً له، منذ سنوات. وإذا كنّا نستشعر سعادة الارتياح لآفاق جديدة فإننا نتمنى ألا نكون قد قصرنا في وضع خارطة هذا الارتياح في إطارها الصحيح.

المترجم





## محنة الزجاجة



بدأ الأمر باتصال هاتفيّ برقم خاطئ، وفي قلب الليل دوى رنين الهاتف ثلاث مرّات، وتناهى الصّوت من الطّرف الآخر طالباً شخصاً آخر سواه. وعقب ذلك بوقت طويل، عندما غدا بمقدوره التّفكير في الأمور التي وقعت له، كان قد توصل إلى أنه ما من شيء حقيقي، إلّا الصدفة. لكن ذلك حدث بعد وقت طويل. ففي البداية لم يكن هناك إلّا الحدث وعواقبه. وليس لبّ الموضوع هو ما إذا كان الأمر سيصل إلى خلاف ذلك، أم أنّ كل شيء كان مقدراً مع الكلمة الأولى التي نددت عن فم الغريب. وإنّما يتمثل هذا اللبّ في القصة ذاتها، لا في كشفها عمّا إذا كانت تعني شيئاً أو لا.

ليس هناك فيما يتعلّق بكوين إلّا القليل ممّا يمكن أن نتوقف عنده، ولا يهمّ مَنْ كان ولا مِنْ أين جاء ولا ما كان يقوم به. ونحن نعرف، على سبيل المثال، أنه كان في الخامسة والثلاثين من العمر، ونعلم أنه كان متزوجاً، في وقت من الأوقات، وأنه أنجب، وأنّ كلاً من زوجته وولده قد ماتا. ونعرف كذلك أنه عكف على تأليف الكتب. ونعلم، على وجه الدقّة، أنه كان يكتب الرّوايات البوليسيّة. وكانت هذه الأعمال تكتب تحت اسم وليام ولسون، وراح يقدّمها بمعدل رواية كلّ عام تقريباً، الأمر الذي جلب له من المال ما يكفيهِ للعيش بصورة متواضعة في شقّة صغيرة بنيويورك. ولأنه لم يكن يقضي ما يتجاوز خمسة أشهر أوستة في إنجاز الرّواية، فإنّه كان حرّاً في القيام بما يشاء باقي العام. وقد قرأ كثيراً من الكتب، وتأمّل اللوحات، وارتاد دور

العرض السينمائي . وفي الصيف كان يتابع مباريات البيسبول على شاشة التلفزيون، وأما في الشتاء فقد راح يتردد على دار الأوبرا . غير أن ما كان يحب القيام به أكثر من أي شيء آخر هو المشي . ففي كل يوم تقريباً، ممطراً كان أو مشرقاً، بارداً أو حاراً، كان يغادر شقته ليمضي متجولاً في أرجاء المدينة، من غير أن يقصد قط مكاناً بعينه، وإنما ينطلق إلى حيث تمضي به ساقاه .

كانت نيويورك فضاء يستحيل اختراقه، متاهة من خطوات لا نهاية لها، وأياً كان المدى الذي ذهب إليه أو كانت إجادته معرفة الأحياء والشوارع، فإنها كانت تتركه دائماً بشعور بأنه قد ضلّ الطريق . ضلّ الطريق لا في المدينة وحدها، وإنما في داخل ذاته كذلك . وفي كل مرة قام فيها بجولة ساوره شعور بأنه كان يترك نفسه وراءه . وكان بمقدوره، بتكريس نفسه لحركة الشوارع، وبتقليص ذاته إلى عين مبصرة، أن يهرب من الالتزام بأن يفكر، وقد جلب له هذا، أكثر من أي شيء آخر درجة من السلام، وخواء صحياً في الأعماق . كان العالم يقبع خارجه، حوله، أمامه، وجعلت السرعة التي واصل بها التغيير من المستحيل عليه أن يركّز على أي شيء بمفرده وقتاً طويلاً للغاية . كانت الحركة شيئاً ينتمي إلى الجوهر، عملية وضع قدم أمام الأخرى والسماح لنفسه بأن يتبع انطلاقة جسمه . ومن خلال التجول دوغماً هدف، أصبحت كل الأماكن متساوية، ولم يعد موضعه شيئاً يكثرث به . واستطاع في أفضل جولاته أن يشعر بأنه في لا مكان . كانت نيويورك هي اللامكان الذي بناه حول نفسه، وأدرك أنه لا يعتمز مغادرتها أبداً .

كان لكوين في الماضي طموح أكبر، وقد أصدر في صدر العمر عدة

دواوين شعريّة، وكتب مسرحيات ومقالات في النقد، وعمل في إنجاز عدد من الترجمات الضافية، ولكنّه على حين غرّة تخلّى عن هذا كلّهُ تماماً. حدّث أصدقاءه بأنّ جزءاً منه قد مات، وبأنّه لا يرغب في أن يعود هذا الجزء فيطارده. وفي ذلك الوقت حمل اسم وليام ولسون. لم يعد كوين ذلك الجزء منه الذي كان بمقدوره تأليف الكتب، وعلى الرّغم من أن كوين واصل الوجود في كثير من الجوانب، فإنّه لم يعدّ موجوداً بالنّسبة لأحد، إلّا بالنّسبة لنفسه.

واصل التّأليف؛ لأنّه الشّيء الوحيد الذي أحسّ أنّ بمقدوره القيام به، وبدت الرّوايات البوليسيّة حلاً معقولاً، ولم يُعانِ كثيراً في ابتكار القصص المرّكبة التي تقتضيها هذه الرّوايات، وكتب بصورة جيّدة، رغماً عنه غالباً، كأنّما أتى ذلك دون الاضطرار إلى بذل جهد يذكر، ولأنّه لم يكن يعتبر نفسه مؤلّف ما يكتبه، لم يساوره الشّعور بالمسؤوليّة عنه، وبالتالي لم يكن في قرارة نفسه مضطراً للدفاع عنه. فقد كان وليام ولسون، في نهاية المطاف، اختراعاً، وعلى الرّغم من أنّه وُلد في أعماق كوين نفسه، فإنّه يجيأ الآن حياة مستقلّة. وقد عامله كوين باهتمام، بل وبإعجاب في بعض الأحيان، ولكنّه لم يمضِ قطّ إلى حدّ الاعتقاد بأنّه ووليام ولسون شخص واحد، ولهذا السّبب فإنّه لم يكشف عن وجهه قناع الاسم المستعار الذي يستخدمه. كان له وكيل أدبيّ، ولكنها لم يلتقيا قطّ، واقتصرت اتصالاتهما على البريد، ولهذا قام كوين باستئجار صندوق مرّقم في مكتب البريد. وسرى الأمر نفسه بالنّسبة للنّاشر الذي كان يدفع كافّة الأتعاب والمبالغ والعوائد عن حقوق النّشر لكوين عن طريق الوكيل. ولم يتضمّن أيّ كتاب من تأليف وليام ولسون أيّ صورة أو إشارة إلى سيرة حياة المؤلّف؛ ولم

يُدْرَج وليام ولسون في أيّ دليل للمؤلفين، ولم تجر أيّ مقابلات صحافيّة معه، وقامت سكرتيرةٌ وكيله بالردّ على كافّة الرسائل التي تصله. وبقدر ما يستطيع كوين أن يرى فإنّه ما من أحد قد أطلع على سرّه. وفي البداية، عندما علم أصدقاؤه بأنّه قد توقّف عن الكتابة، راحوا يسائلونه عن الكيفيّة التي يعتزم بها أن يتدبّر أمر حياته، فأبلغهم جميعاً بالشيء ذاته: أنّه قد ورث رصيداً موقوفاً عن زوجته. ولكنّ الحقيقة هي أنّ زوجته لم يكن لديها مال قطّ، والحقيقة أيضاً أنّه لم يعد لديه أيّ أصدقاء.

لقد مرّ الآن على ذلك ما يزيد على خمس سنوات. ولم يعد يفكر في ابنه كثيراً، ولم ينزع عن الجدار، إلّا مؤخرأ، صورة زوجته. وبين الحين والآخر كان يساوره فجأة الشعور بما يعنيه احتضان الصبيّ ذي الأعوام الثلاثة بين ذراعيه، ولكنّ ذلك لم يكن تفكيراً على وجه الدقّة، ولا كان تذكّراً، كان شعوراً عضويّاً، بصمّة من بصمات الماضي تُركت على جسمه، وما كان يملك شيئاً حيالها. الآن أصبحت هذه اللّحظات تداهمه بصورة أقلّ تواتراً، وبدا في الغالب الأعمّ وكأنّ الأمور شرعت في التغيّر بالنسبة له. لم يعد يرغب في أن يموت، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يقال إنّه سعيد بأن يكون على قيد الحياة، ولكنّه على الأقلّ لم يعد يضيق ذرعاً بذلك. إنّهُ على قيد الحياة، وقد بدأت صلابة هذه الحقيقة تفتنه شيئاً فشيئاً، وكأنّما أفلح في أن يجيأ بعد موت نفسه، وكأنّما كان على نحو من الأنحاء يعيش حياة أعقبت موته. لم يعد يغفو والمصباح مُضاء، ولم يتذكّر أيّاً من أحلامه منذ عدّة شهور.

أرخی الليل سدوله . وتمتد كوين في فراشه وهو يدخن سيجارة، ويصغي لوقع ارتطام المطر بالنافذة. وراح يتساءل متى تطلع السماء، وما إذا كان سيساوره الشّعور بالانطلاق في جولة طويلة أو أخرى قصيرة في الصّباح . وكانت على الوسادة بجواره نسخة من كتاب «رحلات ماركو بولو» وقد فُتحت على صفحتين محدّتين . كان الشّعور بالوهن يساوره، منذ انتهى من أحدث روايات وليام ولسون، قبل أسبوعين . وقد قام راويته التحريّ الخاص «ماكس ورك» بحلّ سلسلة متشابكة من الجرائم، وعانى في غمار خوضه عدداً من مواقف التعرّض للضرب والإفلات بعد لأيٍ من المآزق . وأحسّ كوين على نحو ما بأنّ جهود بطله قد استفدت قواه . فمع مضيّ السنين أصبح ماكس ورك قريباً جداً من كوين . وبينما ظلّ وليام ولسون شخصيّة مجرّدة، بالنسبة إليه، فإنّ الحياة قد تدفقت في عروق ماكس ورك على نحو متزايد . وفي ثلاثيّ الذوات الذي أصبح عليه حال كوين فإنّ ولسون قد غدا نوعاً من الشّخص المتكلّم من بطنه . وكان كوين نفسه دمية، وأمّا ورك فهو الصّوت المتحرّك الذي يجعل للمشروع هدفاً يسعى وراءه . ولئن كان ولسون وهماً فإنّه رغم ذلك قام بتبرير حياتيّ الآخرَيْن، ولئن كان بلا وجود فإنّه مع ذلك كان الجسر الذي سمح لكوين بأن يعبر من ذاته إلى ورك، وشيئاً فشيئاً أصبح ورك وجوداً في حياة كوين، شقيقه القابع في أعماقه، رفيقه في العزلة .

التقط كوين كتاب ماركو بولو، وشرع في قراءة الصفحة الأولى من جديد «لسوف نظرح الأمور التي رأيناها رأي العين باعتبارها مرثية،

والتي تناهت إلى أسمعنا باعتبارها مسموعة، لكي يكون كتابنا سجلاً دقيقاً خالياً من أي نوع من التلفيق، ولكل من يقرأ هذا الكتاب أو يستمع إليه أن يقوم بذلك بكامل الثقة لأنه لا يضم شيئاً إلا الحقيقة. وفيما شرع كوين في تأمل معنى هذه الجمل وفي قلبها تأكيدات الهشة في ذهنه، دوى رنين الهاتف. وبعد ذلك بوقتٍ طويل، وعندما غدا بمقدوره أن يعيد تصوّر أحداث تلك الليلة، سيتذكّر أنه نظر إلى الساعة، ورأى أنها قد تجاوزت الثانية عشرة، وراح يتساءل عن السرّ في أن يتصل به شخص هاتفياً في تلك الساعة. وحدث نفسه بأن الأمر الذي يتجاوز مجرد الاحتمال هو أن أبناء سيّته في طريقها إليه. ونهض من الفراش، ومضى عارياً إلى الهاتف، والتقط الساعة عند الرنين الثاني.

- نعم؟

ساد صمت طويل على الطرف الآخر من الخطّ، وللحظة ظنّ كوين أن المتصل قد أنهى المكالمة. ثمّ تنهى وقع صوت، كأنما من مسافة بعيدة، لا يشبه أيّ صوت سبق له أن سمعه. كان في وقت واحد صوتاً آلياً ومرتعاً بالانفعال، ولا يتجاوز حدّ الهمس، غير أنه مع ذلك مسموع تماماً، ثمّ بنغمة عجز كوين عن تحديد ما إذا كانت تنتمي لرجلٍ أو لامرأةٍ قال الصوت:

- مرحباً!

تساءل كوين:

- من المتحدّث؟

قال الصوت من جديد:

- مرحباً؟



قال كوين :

- إنني أصغي . من المتحدّث؟

تساءل الصوت :

- هل هذا بول أوستر؟ إنني أودُّ الحديث مع السيّد بول أوستر.

- ليس من أحدٍ هنا بهذا الاسم .

- بول أوستر، من وكالة أوستر للتحريّات الخاصّة .

قال كوين :

- آسف، لا بدّ أنّك قد اتصلت برقم خاطئ .

قال الصوت :

- هذا موضوع مُليح للغاية .

قال كوين :

- ليس هناك ما يمكنني القيام به لك ، فليس من بول أوستر هنا .

قال الصوت :

- إنك لا تفهم الأمر، الوقت يمضي سريعاً في طريق النفاد .

- إذن، أقترح عليك معاودة الاتّصال، فهذه ليست وكالة تحريّات

خاصّة .

أعاد كوين السّماع إلى موضعها . ووقف هناك على الأرضيّة

الباردة، متطلّعاً إلى قدميه، وركبتيه، وعضوه المرتخي . وللحظة ساوره

الشعور بالنّدم على أنّه كان جازماً في حديثه مع المتّصل على هذا

النحو، وحدّث نفسه بأنّه ربّما كان أمراً مثيراً للاهتمام لو أنّه سايره

قليلاً، لربّما استطاع أن يكتشف شيئاً، فيما يتعلّق بالقضيّة، وربّما قدّم

المساعدة بشكل من الأشكال، وحدّث نفسه قائلاً: «ينبغي أن أتعلّم

التّفكير بسرعة أكبر خلال وقوفي» .

لم يكن كوين، شأنه شأن معظم الناس، يعرف شيئاً تقريباً عن الجريمة، ولم يحدث قط أن قام بقتل أحد، ولا سرق شيئاً، ولم يكن من بين معارفه من اقترف ذلك، بل إنه لم يدخل مخفراً من مخافر الشرطة قط، ولم يلتق بتحرراً خاصاً، ولم يتبادل الحديث مع مجرم، وأياً كان ما يعرفه عن هذه الأمور فقد عرفه من الكتب والأفلام والصحف. غير أنه لم يعتبر ذلك أمراً معوقاً له. ولم يكن ما يثير اهتمامه فيما يتعلّق بالقصص التي يكتبها متمثلاً في علاقتها بالعالم، وإنما في علاقتها بالقصص الأخرى. وكان كوين، حتى قبل أن يصبح وليام ولسون، قارئاً نهماً للروايات البوليسية، وعرف أن معظمها كان سميّ التّأليف، وأن أغلبها لا يصمد حتى لأكثر أنواع التدقيق التباساً، ولكنها كانت مع ذلك تندرج في الشكل الأدبي الذي يروق له، وما كان يرفض إلا قراءة الرواية البوليسية النادرة، السيئة على نحو يستعصي الحديث عنه، في حين كان ذوقه فيما يتعلّق بالكتب الأخرى متشدداً، ومدققاً، ربّما إلى حدّ ضيق الأفق. وأما فيما يخصّ هذه الأعمال فلم يُظهر أيّ تمييز من أيّ نوع، على وجه التّقريب. وإذا ما كان في حالة مزاجيّة مناسبة فإنّه لا يواجه صعوبة تُذكر في قراءة عشر روايات أو اثنتي عشرة رواية من هذا النوع إحداها وراء الأخرى. وكان ذلك نوعاً من الجوع يستبدّ به، توفّقاً إلى طعام خاصّ، وما كان يتوقّف إلا بعد الوصول إلى حدّ الامتلاء.

تمثّل ما أحبه في هذه الكتب فيما تثير من شعور بالكمال وبالاقتصاد، ففي الرواية البوليسية الجيدة ما من شيء يجري تبديده، وليست هناك جملة واحدة أو كلمة واحدة تفتقر إلى الأهميّة، وحتى إذا

لم تكن لها أهميتها فإنها تحظى بإمكانية أن تكون مهمة، وهو ما يعني الأمر ذاته. فعالم الكتب تدبّ فيه الحياة، ويغلي بالاحتمالات والأسرار والمتناقضات. ولما كان أيّ شيء يقال أو يرى، وحتى أهون الأشياء وأقلها شأنًا، يمكن أن تكون له صلة بختام القصة، فإنه ما من شيء يجب تجاهله. وكلّ شيء يصبح جوهرًا، وينتقل مركز الكتاب مع كلّ حدث يدفعه قدمًا إلى الأمام. فالمرکز، إذن، هو في كلّ مكان، وما من محيط يمكن رسمه إلا بعد أن يصل الكتاب إلى نهايته.

إنّ التحريّ هو من يرى، من يصغي، من يتحرّك عبر مستنقع الأشياء والأحداث هذا، بحثًا عن الخاطرة، الفكرة التي ستضمّ كلّ هذه الأمور معًا، وتستخرج منها معنى. وبالفعل فإنّ الكاتب والتحريّ يمكن أن يتبادلا المواقع. والقارئ يرى العالم بعيني التحريّ، ويعايش اتّساع نطاق تفاصيله كأنما للمرّة الأولى. ولقد استيقظ في مواجهة الأشياء التي تحيط به وكأنها قد تحدّته، وكأنما هي قد تشرع، بسبب الالتفات الذي جلبه الآن لها، في حمل معنى آخر بخلاف الحقيقة البسيطة الخاصّة بوجودها. واصطلاح «العين الخاصّة» الذي يُطلق على التحريّ كان يحمل بالنسبة لكوين معنى ثلاثيًا. لم يقتصر الأمر على حرف «أ»، الذي يعادل «المحقّق» وإنّما كان حرف «أ» في أسمى أوضاعه، بُرغم الحياة الصغير المغروس في جسم الذات التي تتردّد أنفاسها. وفي الوقت نفسه كانت كذلك العين العضويّة للكاتب، عين الإنسان الذي يتطلّع من ذاته إلى العالم، ويطلب بأن يكشف العالم عن ذاته له. وعلى امتداد خمس سنوات كان كوين يعيش في قبضة هذا التلاعب اللفظي.

كان، بالطبع، قد توقّف منذ فترة طويلة عن التّفكير في نفسه باعتبارها حقيقةً. ولكن كان يعيش الآن في رحاب الدّنيا على الإطلاق، فإنّ ذلك لم يكن إلّا من خلال انتقال واحد تمّ من خلال شخص ماكس ورك الخياليّ. وتعيّن بالضرورة أن يكون تحرّيه حقيقةً، فقد اقتضت طبيعة الكتب ذلك. وإذا كان كوين قد سمح لنفسه بأن يختفي، وبأن ينسحب إلى طيّات حياة غريبة ومتشكّفة فإن ورك قد واصل الحياة في عالم الآخرين، وكلّمًا بدا أنّ كوين يختفي على نحو أكبر، أصبح وجود ورك في ذلك العالم أكثر إلحاحاً. وبينما مال كوين إلى الشّعور بأنّه في غير موضعه وهو في إهابه، غدا ورك عدوانياً، ولاذع اللّسان، وفي مكانه الطّبيعي، في أيّ موضع يتصادف أن يجد نفسه فيه. والأشياء عينها التي تسبّب المشكلات لكوين، ينظر إليها ورك باعتبارها أموراً مسلماً بها، وينطلق في غمار حشد مغامراته في يسر وبلامبالاة تركت أثرها دائماً في نفس مبدعه. ولم يكن قوام الأمر على وجه الدقّة أنّ كوين يرغب في أن يكون ورك، أو حتّى في أن يكون شبيهاً به، ولكنّه كان يبعث الثّقة في نفسه أن يتظاهر بأنّه ورك، وهو عاكف على تأليف كتبه، وأن يعرف أنّ بمقدوره أن يكون ورك إذا ما اختار القيام بذلك، ولو حتّى في خاطره فحسب.

في تلك اللّيلة، وفيما هو يدلف أخيراً إلى رحاب النّعاس، حاول أن يتصوّر ما كان يمكن أن يقوله ورك للغريب، عبر الهاتف. وفي الحلم الّذي تراءى له، ونسيه عقب ذلك، ألفى نفسه وحيداً في غرفة وهو يطلق نيران مسدّس على حائط أبيض لا يعلوه شيء.

أخذ كوين على غيرة في الليلة التالية . وكان قد ظنَّ أنَّ الحادثة قد انتهت، ولم يتوقَّع أن يعاود الغريب الاتِّصال . وقد تصادف أنَّه كان يقتعد المرحاض، في غمار التخلُّص من غائط متصلِّب، عندما دوى رنين الهاتف . كان ذلك في وقت متأخِّر إلى حدِّ ما عن الليلة الماضية، ربَّما في حوالي الواحدة إلَّا عشر دقائق، أو اثنتي عشرة دقيقة . وقد وصل لتوِّه إلى الفصل الَّذي يتناول رحلة ماركو باولو من بكِّيْن إلى آموي، وكان الكتاب مفتوحاً على حجره، وهو ماضٍ لما جاء له في الحَمَّام الصغير . جاء دوي رنين الهاتف كعنصر ضيق واضح . فالردُّ عليه عاجلاً سيعني النهوض دون أن ينظِّف نفسه، وقد كره السير عبر الشقَّة على تلك الحالة . ومن ناحية أخرى فإنَّه إذا فرغ ممَّا هو بشأنه بسرعه العاديَّة فلن يصل إلى الهاتف في الوقت المناسب . وعلى الرِّغم من ذلك ألقى كوين نفسه متردِّداً في التحرك، فلم يكن الهاتف من أدواته الأثيرة، وقد فكَّر أكثر من مرَّة في التخلُّص منه . وما كرهه أكثر من أيِّ شيء آخر كان طغيان هذا الجهاز . فلم يكن يحظى بسلطة مقاطعته رغماً عن إرادته فحسب، وإنَّما كان من المحتمَّ أن يذعن لأمره . وقد قرَّر هذه المرَّة أن يقاوم . ومع دوي الرنين الثالث كان قد أفرغ أمعاءه، وأفلح لدى الرنين الرابع في تنظيف نفسه، ومع الرنين الخامس اجتذب سرواله إلى أعلى، وترك الحَمَّام، وسار في هدوء مجتازاً الشقَّة، ورفع السَّاعة مع الرنين السَّادس، ولكن لم يكن هناك أحد عند نهاية الطرف الآخر، فقد أعاد القوائم بالاتِّصال السَّاعة إلى موضعها .

في الليلة التالية، كان على أهبة الاستعداد . تمدَّد في فراشه، ومضى يطالع صفحات جريدة «ذاسبورتنج نيوز»، وراح ينتظر قيام الغريب

بالإتصال للمرّة الثالثة. وبين الفينة والأخرى، عندما كانت تخونه أعصابه، كان ينهض واقفاً، ويذرع أرجاء الشقّة. ووضع على جهاز التّشغيل أوبرا هايدن «الإنسان في القمر» وراح يستمع إليها، من البداية إلى النهاية، وينتظر، ويواصل الانتظار. وفي الثانية والنصف استسلم أخيراً، ودلف إلى عالم الأحلام.

انتظر في الليلة التالية، واللييلة التي أعقبها كذلك. وفيما كان يوشك على التخلّي عن مشروعه، مدركاً أنّ الصواب قد جافى كلّ افتراضاته، دوى رنين الهاتف من جديد. كان ذلك في التاسع عشر من أيّار (مايو). ولسوف يتذكّر ذلك التاريخ لأنّه يوافق ذكرى زواج والديه - أو كان حريّاً به أن يكون كذلك لو أنّ أبويه كانا مايزالان على قيد الحياة - وقد أبلغته أمّه ذات مرّة بأنّها قد حملت به في ليلة زفافها. وقد احتذبت تلك الحقيقة على الدوام - لمقدرته على أن يحدّد اللحظة الأولى لوجود ما. وعلى امتداد الأعوام احتفل بينه وبين نفسه بعيد ميلاده في ذلك اليوم. وفي هذه المرّة دوى رنين الهاتف أبكر ممّا في اللَّيلتين الأخرين - إذ لم تبلغ السّاعة بعد الحادية عشرة - وفيما هو يمدّ يده ليتلقظ سّاعة الهاتف افترض أنّ الاتّصال من شخص آخر.

قال:  
- مرحباً؟

من جديد ساد صمت عند الطّرف الآخر من الخطّ، فعرف كوين في التّو أنّ المتّصل هو الغريب.

قال من جديد:

- مرحباً؟ ما الذي أستطيع القيام به لك؟

قال الصّوت أخيراً، بالهمس الآليّ نفسه، واللّهجة اليائسة عينها:

- نعم، نعم، الحاجة ماسّة إليه الآن، دوغما تأخير.

- ما الذي تمسّ الحاجة إليه؟

- الحديث. الآن توّاً، الحديث الآن توّاً، نعم.

- ومع من ترغب في الحديث؟

- الرّجل نفسه، دائماً. أوتر. ذلك الذي يدعو نفسه بول أوتر.

لم يتردّد كوين هذه المرّة، فقد كان يعرف ما سيقوم به، والآن وقد حان الوقت، فقد قام به.

قال:

- إنني المتحدّث، ها أنذا بول أوتر.

- أخيراً، عثرتُ عليك أخيراً.

كان بمقدوره أن يستمع إلى تنهيدة الارتفاع في الصوت، الهدوء الملموس الذي بدا فجأة أنه يغلب عليه.

قال كوين:

- ذلك صحيح، أخيراً.

لزم الصّمت للحظة، ليدع الكلمات تستقرّ في الوعي، سواء وعيه أو وعي الطرف الآخر، وأضاف:

- ما الذي أستطيع القيام به لك؟

تناهى الصوت:

- إنني بحاجة للمساعدة. هناك خطر داهم، وهم يقولون إنك

خير من يقوم بهذه الأمور.

- ذلك يعتمد على نوعيّة الأمور التي تقصدها.

- أعني الموت. أعني الموت والقتل.

قال كوين :

- ذلك ليس تخصّصي ، على وجه الدقّة ، فأنا لا أمضي متجوّلاً لقتل الناس .

تناهى الصوت ، مشاكساً :

- لا ، إنني أعني العكس .

- هل سيقوم أحدهم بقتلك ؟

- نعم ، قتلي . ذلك صحيح ، لسوف أتعرّض لجرّيمة قتل .

- وتريد مني حمايتك ؟

- حمايتي ، نعم ، وأن تعثر على الرّجل الذي سيقترف الجريمة .

- أأست تعرفه ؟

- أعرفه . بلى . بالطبع ، أعرفه ، ولكنّي لا أعرف مكانه .

- هل بمقدورك إبلاغني به ؟

- ليس الآن ، ليس عبر الهاتف ، ففي ذلك خطر كبير . يجب أن

تأتي إلى هنا .

- ما رأيك في أن نلتقي غداً ؟

- طيّب ، غداً ، في وقت مبكر غداً ، في الصّباح .

- العاشرة ؟

- طيّب . العاشرة .

تناهى عنوان عبر الصوت : الشّرق ، الشّارع التّاسع والسّتون .

- لا تنسَ ، يا سيّد أوستر ، لا بدّ من مجيئك !

- اطمئن ، سأحضر .



استيقظ كوين في صباح اليوم التالي مبكراً عما اعتاده في عدّة أسابيع. وفيما هو يجتسي قهوته، ويضع الزبد على خبزهِ المحمّص، ويلقي نظرة على نتائج مباريات البيسبول في الصحيفة (خسر فريق الميترز مباراته من جديد، اثنان لقاء واحد، بسبب خطأ تاسع في المرحلة الأخيرة) ولم يخطر بباله أنّه بسبيله إلى التوجّه لموعده. بل إن هذا التعبير «موعده» بدا له غريباً. لم يكن موعده، وإنّما هو موعد بول أوتر. ولم يكن يدري مَنْ عساه يكون ذلك الشخص.

ومع ذلك، وبمرور الوقت، ألقى نفسه يقوم بتقليد جيّد لرجل يستعدّ للخروج. حمل أطباق طعام الإفطار بعيداً عن المائدة، وألقى بالصحيفة على الأريكة، ومضى إلى الحمام، حيث أخذ حماماً، وحلق ذقنه، ومضى إلى غرفة النوم، وقد التفّ بمنشفتين، وفتح خزانة ثيابه، والتقط الثياب التي سيرتديها اليوم. ووجد نفسه ميّالاً لارتداء سترة ووضع ربطة عنق. ولم يكن قد وضع ربطة عنق منذ جنازتي زوجته وابنه، بل إنّهُ لم يكن بمقدوره تذكّر ما إذا كان ما يزال يمتلك ربطة عنق. ولكن ها هي ذي تتدلّى وسط ما بقي من خزانة ثيابه. غير أنّه استبعد سترة بيضاء، باعتبارها رسميّة أكثر ممّا ينبغي، واختار بدلاً منها سترة تجمع مربعاتها الصّغيرة بين اللّونين الرماديّ والأحمر، لتتناسب مع ربطة العنق الرماديّة، وارتداها، وأحكم ربطة العنق، كما لو كان يخوض نوعاً من الغيوبة.

لم يبدأ في التشكّك فيما يقوم به إلّا بعد أن وضع يده على مقبض الباب. قال محدّثاً نفسه: «يبدو أنّي بسبيلي إلى الخروج. ولكن إذا

خرجت فيأى أبن أمضى على وجه الدقة». وبعد ساعة، وفيما هو يترجل من الحاملة رقم ٤ في تقاطع الشارع السبعين مع فيفث أفنيو، لم يكن قد أجاب على هذا السؤال. امتدت إلى جانبه حديقة تألفت خضرتها تحت شمس الصباح، مع ترامي ظلال حادة، عابرة، وإلى الجانب الآخر كان «الفريك» وقد بدا أبيض صارماً، كأنما جرى التخلي عنه للموق. حلق ذهنه للحظة إلى لوحة «الجندي والفتاة المبتسمة» لفيرمير<sup>(١)</sup>، محاولاً تذكر الوضع الذي كانت عليه يداها على وجه الدقة، وهما تلتفان حول القدرح، والخلفية الحمراء للرجل الذي بدا وكأنه بلا ملامح. ولمح بعيني خياله لمحة سريعة من الخريطة الزرقاء على الجدار، وسنى الشمس وهو ينهل من خلال النافذة، وهو يشبه إلى حد كبير سنى الشمس الذي يلفه الآن. ومضى يغد السير، وراح يعبر الشارع، وينعطف شرقاً، وعند ماديسون أفنيو انعطف يمينا، وأوغل بمقدار كتلة مبانٍ باتجاه الجنوب، ثم انعطف

---

(١) فيرمير، جان (١٦٣٢ - ١٦٧٥): يعدّه كثير من النقاد العالمين أعظم رسّام هولندي في كلّ العصور، بعد رمبرانت، وقد سجّل بمزيد من الحب والتعاطف حياة الطبقة المتوسطة في هولندا، في أعقاب النضال الطويل من أجل الاستقلال عن إسبانيا، وقد ولد في مدينة دلفت الهولندية، وليست هناك تفاصيل كثيرة معروفة عن حياته. دارت لوحاته الأولى حول موضوعات دينية وأسطورية، وكانت أكبر في نطاقها وطموحها من لوحاته الأخيرة التي تدور كلها حول الحياة المنزلية، وانهاك الناس في أعمالهم اليومية. ومن أشهر لوحاته، بالإضافة إلى اللوحة المذكورة في المتن، لوحات: منظر من دلفت، خادم تصبّ الحليب، امرأة تحمل وعاء للماء، تتميز كلها، شأن اللوحة المشار إليها، بالرؤية الصافية، والحسّ المهف باللون، ولعله من سخرية القدر أن فيرمير ورمبرانت ماتا غارقين في الديون بينما لوحاتها اليوم بعشرات الملايين من الدولارات.

(هـ . م .)

يساراً، وعرف الموضع الذي هو فيه. حدّث نفسه قائلاً: «يبدو أنني قد وصلت». وقف أمام المبنى، ولقّه الصّمت. لم يُعدِ الأمر فجأةً يبدو كما لو كان يعنيه. وفيما هو يفتح الباب الذي من شأنه أن يُفضي به إلى البهو، أسدى لنفسه كلمة نصح أخيرة؛ قال: «إذا كان هذا كلّه يحدث حقاً، فمن الخير لي، إذن، أن أبقى عينيّ مفتوحتين».

فتحت امرأة باب الشّقة لكوين، ولسبب من الأسباب لم يكن يتوقّع ذلك، فأدخل عليه بعض التشوّش. كانت الأشياء تحدث بسرعة بالغة بالفعل. وقبل أن تُتاح له الفرصة لاستيعاب وجود المرأة، ووصفها لنفسه، وتكوين انطباعاته، مضت تحدّثه، مرغمة إيّاه على الاستجابة. ومن هنا فإنّه حتّى في تلك اللّحظات الأولى خسر أرضاً، وشرع في التعرّ وراء ذاته. وفيما بعد، عندما يُتاح له الوقت لتأمل هذه الأحداث، سيُفليح في تجميع جزئيات هذا اللّقاء مع المرأة. ولكن ذلك كان عملاً من إنجاز الذاكرة، وكان يعرف أنّ الأمور المتذكّرة تميل إلى تخريب ما يجري تذكّره، وكنتيجة لذلك، فإنّه ما كان بوسعه قطّ أن يتأكّد من أيّ منها.

لاحت المرأة في الثلاثين من عمرها، وربّما في الخامسة والثلاثين، تحظى بأفضل متوسط للطول يمكن أن تتمتع به امرأة، وردفاها أعرّض بلمسة ممّا ينبغي، وإلاً فإنّها - وهذا يرجع إلى حُكمك - شهوانيّان؛ شعر فاحم، وعينان سوداوان، وترتسم في هاتين العينين نظرة تجمع بين كبح جماح النّفس والإغواء على نحو ملتبس في الوقت نفسه. وكانت ترتدي رداء أسود، وتضع على شفيتها أحمر شفاه متوهّج الحمرة.

بدأت على شفيتها ابتسامة مترددة، ومال رأسها قليلاً بصورة تحمل معنى التساؤل، وهي تقول:

- السيد أوستر؟

قال كوين:

- ذلك صحيح، إنني بول أوستر.

شرعت المرأة في الحديث:

- أنا فرجينيا ستلمان، زوجة بيتر، وهو في انتظارك منذ الساعة

الثامنة.

قال كوين، ملقياً نظرة عجلى على ساعته، فألفاها العاشرة تماماً:

- ولكن الموعد هو العاشرة.

أوضحت المرأة الموقف:

- لقد كان شديد الاهتمام، ولم يسبق لي قط أن رأته على هذا

النحو من قبل، ولم يكن بوسعه الانتظار، إلاً بمشقة.

فتحت الباب لكوين. وفيما هو يعبر العتبة، ويدخل الشقة،

استطاع الشعور بنفسه وهو يصاب بالتشوُّش القريب من الذهول،

وكأنما أوصد مخه أبوابه فجأة. كان قد أراد استيعاب تفاصيل ما

يوشك أن يراه، ولكن هذه المهمة كانت على نحو من الأنحاء بعيدة

من مطاله في تلك اللحظة، فقد امتدت الشقة من حوله كأنها نوع

من الامتداد الضبابي. أدرك أنها شقة رحيبة، ربما كانت تضم خمس

حجرات أو ستاً، وأنها مؤنثة على نحو مترف، يزينها عدد من الأعمال

الفنية، ومنافض السجائر الفضيّة، واللوحات المؤطرة بشكل محكم

على الجدران. ولكن ذلك هو كل ما هناك، ولا شيء يتجاوز مجرد

انطباع عام، على الرّغم من أنّه كان هناك يتطلّع إلى هذه الأشياء بملّ عينيه .

ألّفى نفسه جالساً على أريكة، وحده، في غرفة الجلوس . وقد تذكّر الآن أنّ السيّدة ستلمان قد طلبت منه الانتظار هناك، ومضت لاستدعاء زوجها . ولم يكن بمقدوره تحديد الوقت الذي انتظر خلاله . ومن المؤكّد أنّه لم يمتدّ إلّا دقيقة أو دقيقتين . ولكن بدا من الطّريقة التي ينهلّ بها الضوء من النوافذ كما لو كان الوقت هو منتصف النهار، غير أنّه لم يخطر بباله أن يلقي نظرة على ساعته، فقد حوّم حوله أريج عطر فرجينيا ستلمان، وشرع في تخيّل ما يمكن أن تكون عليه، وهي مجرّدة من ثيابها، ثمّ فكّر فيما يمكن أن يجول بخاطر ماكس ورك، لو أنّه كان هناك . وقرّر أن يشعل سيجارة، ونفث الدّخان في الغرفة . وأدخل السرور على نفسه أن يرقبه وهو يخرج من فمه في صورة نفثات، ويتبدّد، ويتخذ هيئة جديدة والضوء ينهلّ عليه .

سمع صوت شخص يلجّ الغرفة ورائه، فنهض عن الأريكة، والتفت متوقّفاً أن يرى السيّدة ستلمان . ولكنّه بدلاً من ذلك رأى شاباً يرتدي ثياباً بيضاء بالكامل، وشعره يشبه شعر طفل أشقر، يميل إلى البياض . فكّر كوين، على نحو رهيب، في تلك اللّحظة الأولى في ابنه الرّاحل، ثمّ تبدّدت هذه الخاطرة فجأة مثلما أقبلت .

أقبل بيتر ستلمان وجلس في مقعد وثير مكسوّ بالقטיפيّة الحمراء، قبالة كوين . ولم يفه بكلمة وهو يشقّ طريقه إلى المقعد، كما لم يلقِ بالألّا إلى وجود كوين . بدا أنّ عمليّة الانتقال من مكان إلى آخر تقتضي كل انتباهه، وكأنّ عدم الانتباه إلى ما يقوم به سيفضي به إلى الجمود .

ولم يسبق لكوين أن رأى قطّ أحداً يتحرّك على هذا النحو، وأدرك في الحال أنّ هذا هو الشخص الذي اتّصل به هاتفياً. تصرّف الجسم تماماً على نحو ما فعل الصّوت، بدا شبه آليّ، يراوح بين الإيماءات البطيئة، والسريعة، ويجمع بين التصلّب والتعبير عن الأفكار والمشاعر، وكأنّ التّشغيل خارج عن السيطرة، ولا يتوافق تماماً مع الإرادة التي تكمن خلفه. لاح لكوين أنّ جسم ستلمان لم يستخدم منذ وقت طويل، وأنّ كلّ وظائفه قد أعيد تعلّمها من جديد، بحيث أنّ كلّ حركة أصبحت عمليةً واعيةً وتمّ تفتيتها إلى حركاتها الفرعية المكوّنة لها، الأمر الذي نجم عنه فقدان كلّ الانطلاق والعفوية. بدا الأمر مثل مراقبة دمية تحاول السير دونما خيوط.

كان كلّ ما يتعلّق ببيتر ستلمان أبيض اللون. قميص أبيض، مفتوح عند العنق، وسروال أبيض، وحذاء أبيض، وجوارب بيضاء. وفي مواجهة لمعة بشرته، كانت هناك خفّة شعره الشبيهة بالتبن، وكان أثر ذلك شفافاً على وجه التّقريب، وكأنّما بمقدور المرء أن يرى عبره العروق الزرقاء لبشرة وجهه. وهذه الزرقة كانت تحاكي تقريباً زرقة عينيه: زرقة حليبيّة بدا أنّها تنحلّ إلى مزيج من السّماء والسّحب. ولم يستطع كوين تصوّر نفسه وهو يوجّه كلمة واحدة إلى هذا الشخص. ولاح كأنّ وجود ستلمان هو أمر بالتزام الصّمت.

استقرّ ستلمان، على مهل، في مقعده، وحوّل انتباهه آخر الأمر إلى كوين. وفيما التقت أعينها ساور كوين فجأة الشّعور بأنّ ستلمان قد غدا خفياً، لا تدركه العين. كان بوسعه رؤيته جالساً أمامه على

المقعد، ولكنه في الوقت نفسه شعر بأنه ليس هناك. وخطر لكوين أنّ ستلمان قد يكون ضريراً، ولكن لا، لم يبد ذلك أمراً ممكناً، فقد كان الرجل ينظر إليه، بل ويتمعن فيه، وإذا كان التعرف لم يتوهج على ملامحه فقد ارتسم على تلك الملامح ما يتجاوز النظرة المنطفئة. لم يذّر كوين ما عساه يقوم به، فجلس في مقعده متحيراً، وهو يبادل ستلمان النظر. وانقضى وقت طويل.

قال الشاب، أخيراً:

- لا توجّه أسئلة من فضلك! نعم، لا، أشكر.

صمت للحظة، وأضاف:

- أنا بيتر ستلمان، وأقول هذا بملء إرادتي الحرّة. نعم، ليس ذلك اسمي الحقيقي. لا، بالطبع، ليس ذهني على كلّ ما ينبغي أن يكون عليه، ولكن ما من شيء يمكن القيام به في هذا الصّد. لا، في هذا الصّد، لا، لا، ليس بعد الآن.

إنك تجلس هنالك، وتحدّث نفسك: من هذا الشخص الذي يحادثني؟ ما هذه الكلمات التي تندّ عنه؟ لسوف أقول لك. أو بالحري لن أقول لك. نعم، ولا. ليس ذهني على كلّ ما ينبغي أن يكون عليه. إنني أقول هذا بملء إرادتي الحرّة. ولكنني سأحاول، نعم، ولا، سأحاول أن أقول لك، حتّى إذا كان ذهني يتكبّد من أمره عتاً. شكراً لك.

اسمي بيتر ستلمان، ربّما سمعت بي، ولكن الغالب أنّك لم تسمع بي. لا أهميّة لذلك، فذلك ليس اسمي الحقيقي. وليس بمقدوري تذكّر اسمي الحقيقي، ليس بمقدوري التذكّر. عفواً. ليست لذلك

أهميَّة، أقصد لم يعد بمقدوري بعد الآن التذكُّر.

هذا هو ما يسمَّى بالحديث، أعتقد أن هذا هو الاصطلاح المناسب. عندما تخرج الكلمات، تُخلَق في الهواء، تحيا للحظة، وتموت. غريب. أليس كذلك؟ أنا نفسي ليس لي رأي. لا، لا، مرَّة أخرى. ولكن مع ذلك هناك كلمات ستحتاج إلى امتلاك ناصيتها. هناك الكثير منها. ملايين كثيرة على ما أظن. ربَّما ثلاثة أو أربعة فقط، عفواً، ولكنني في حالة طيِّبة اليوم، أفضل كثيراً من المعتاد. وإذا استطعت أن أقدم لك الكلمات التي تحتاجها فسوف يكون ذلك فوزاً كبيراً. شكراً لك، شكراً لك ملايين المرَّات.

منذ زمن طويل، كان هناك أم وأب. ولست أذكر أيّاً منهما. وهم يقولون إنَّ الأم ماتت، وأما من هم فليس بمقدوري أن أحدِّد ذلك. عفواً! ولكن هذا ما يقولونه.

لا أم، إذن، ها ها. ضحكي على مثل هذا النحو الآن. بطني مليء بالكلام غير المفهوم الذي يندفع منه. ها ها ها. قال الأب الكبير: لا أهميَّة للأمر. بالنسبة لي. أعني بالنسبة للأب الكبير. الأب الكبير ذو العضلات الكبيرة والبوم بوم بوم! لا تطرح أسئلة الآن من فضلك!

إنني أقول ما يقولونه؛ لأنني لا أعرف شيئاً. إنني لست إلاً بيتر ستلمان المسكين، الفتى الذي لا يستطيع التذكُّر. بو! هو! شاء المرء أم أبى. المغفل الساذج. عفواً. يقولون، يقولون. ولكن ما الذي يقوله بيتر الصَّغير المسكين؟ لا شيء. لا شيء. ليس بعد الآن.



كان هنالك هذا. الظلام. الظلام الدّامس. ظلام يشبه الظلام الدّامس. يقولون: تلك كانت الغرفة. وكأنّ في وسعي الحديث عن ذلك. الظلام، أقصد. شكراً لك.

ظلام. ظلام. يقولون لتسعة أعوام. ليست هناك حتّى نافذة. يا لبيتر ستلمان المسكين! البوم، بوم، بوم. وأكوام البراز. بحيرات البول. نوبات الإغماء. عفواً. الخدر والعُري. عفواً. ليس بعد الآن.

هناك الظلام، إذن. ظلام دامس. أقول لك. كان هناك طعام في الظلام، نعم، طعام طريّ، لا شكل له، في الغرفة المظلمة، الصامته. يتناول طعامه بيديه. عفواً. أعني أنّ بيتر كان يتناول طعامه بيديه. ولئن كنت بيتر، فهذا أفضل. أعني، هذا أسوأ. عفواً. أنا بيتر ستلمان، ذلك ليس اسمي الحقيقي. شكراً لك.

يا لبيتر ستلمان المسكين! كان فتى صغيراً. يكاد ينطق كلمات قليلة، ثمّ تخونه الكلمات، ثمّ لا أحد، ثمّ لا، لا، لا. ليس بعد الآن.

عفواً، يا سيّد أوستر. أرى أنّي أدخِل الحزن على نفسك. لا تطرح أسئلة من فضلك! اسمي بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. اسمي الحقيقي هو السيّد «حزين». ما هو اسمك يا سيّد أوستر؟ ربّما كنت أنت السيّد «حزين» الحقيقي، وأنا لا أحد.

بو هو! عفواً! هكذا بكائي ونواحي. بو هو! نحيب، نحيب. ما الذي فعله بيتر في تلك الغرفة؟ ما من أحد يستطيع قول ذلك. بعضهم يقول: لا شيء. أمّا فيما يتعلّق بي فإنّي أعتقد أنّ بيتر لم يكن

بوسعه التّفكير. هل مضى ينظر طارفاً بعينه؟ هل راح يشرب؟ هل مضى يتعفّن؟ ها ها ها. عفواً! في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

ومبل كليك كرامبلتشو بيلو. كلاك كلاك بدراك. نمب نوبز، فلاكلمتش، تشومانا. يا، يا، يا. عفواً! إنني الوحيد الذي يفهم هذه الكلمات.

فيما بعد، وفيما بعد، وفيما بعد. هكذا يقولون. أوغلت طويلاً بحيث ما عاد يمكن لبيتر أن يكون مستقيم الذهن. لن يكون كذلك ثانية أبداً. لا، لا، لا. يقولون إن أحدهم عثر عليّ. لست أتذكّر. لا. لست أتذكّر ما حدث عندما فتحوا الباب ودخل النور. لا، لا، لا. ليس بمقدوري أن أقول شيئاً عن أيّ من هذا. ليس بعد الآن.

لوقت طويل وضعت عينات قائمة. كنت في الثانية عشرة. أو هكذا يقولون. عشت في مستشفى. وشيئاً فشيئاً علموني أن أكون بيتر ستلمان. قالوا: أنت بيتر ستلمان. قلت: شكراً لكم، يا، يا، يا. قلت: شكراً لكم، وشكراً لكم.

كان بيتر طفلاً صغيراً. اضطروا لتعليمه كلّ شيء. وكما تعرف، كيف يمشي. كيف يأكل، كيف يتبرّز ويتبول في المرحاض. لم يكن أمراً سيئاً. وحتى عندما عضضتهم، لم يفعلوا البوم، بوم، بوم. بل إنني توقّفت عن تمزيق ملابسي.

كان بيتر صبيّاً طيباً. ولكن كان من الصّعب تعليمه الكلمات. فلم يكن فمه يعمل بالصّورة المناسبة. وبالطّبع، لم يكن متالكاً لكافّة قدراته الذهنيّة. قال: با با با. ودا دا دا. ووا وا وا. عفواً! استغرق

الأمر المزيد والمزيد من السنوات. والآن يقولون ليتر: يمكنك الذهاب الآن، ليس هنالك المزيد. مما يمكننا القيام به لك. قالوا: بيتر ستلمان، أنت كائن بشري، إنه أمر طيب أن يصدّق المرء ما يقوله الأطباء. شكراً لكم. شكراً جزيلاً لكم.

أنا بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. اسمي الحقيقي هو بيتر رايب (أرنب). في الشتاء اسمي السيد وايت (الأبيض)، وفي الصيف اسمي السيد جرين (الأخضر). انظر إلى هذا حسبها يجلو لك، فأنا أقوله بملء إرادتي الحرّة. ومبل عليك كرامبلتثو بيلو. إنه جميل. أليس كذلك؟ إنني أنحت كلمات على هذا النحو طوال الوقت. ذلك أمر لا سبيل إلى تجبّه، إنَّ الكلمات تتقافز خارجة من فمي فحسب من تلقاء ذاتها، وليس بالوسع ترجمتها.

اسأل، وأسأل، لا جدوى من ذلك. ولكنني سأحدّثك بالأمر. فلست أرغب في أن تكون حزينا، يا سيّد أوستر. إنَّ لك وجهاً رقيقاً للغاية. وأنت تذكّرني بلغو أو بتأوه، لست أدري أيهما. وعيناك تطلّان عليّ. نعم، نعم. بمقدوري أن أراهما. ذلك جيّد للغاية. شكراً لك.

ذلك هو السبب في أنني سأحدّثك بالأمر. لا تطرح أسئلة من فضلك! إنك تتساءل عن كل الباقي. أي عن الأب. الأب الرهيب الذي اقترب كلّ هذه الأمور حيال الصغير بيتر. اطمئن. لقد مضوا به إلى مكان مظلم. لقد سجنوه، وتركوه هناك. ها ها ها. عفواً. في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

يقولون ثلاثة عشر عاماً. ربّما كان ذلك وقتاً طويلاً. ولكنني لا

أعرف شيئاً عن الوقت. إنني جديد كل يوم. إنني أولد عندما استيقظ في الصباح، وأكبر خلال النهار، وأموت في الليل عندما أمضي للنوم. ليست تلك غلطي. إنني في حالة طيبة اليوم. وأنا في حالة أفضل مما كنت عليه في أي وقت من قبل.

لمدة ثلاثة عشر عاماً غاب الأب بعيداً. واسمه بيتر ستلمان أيضاً. غريب. أليس كذلك؟ أن يحمل شخصان اسماً واحداً؟ لست أعرف ما إذا كان ذلك هو اسمه الحقيقي. لكنني لا أظنه ذاتي. إننا معاً بيتر ستلمان. ولكن بيتر ستلمان ليس اسمي الحقيقي. ولذا فقد لا أكون في نهاية المطاف بيتر ستلمان.

أقول ثلاثة عشر عاماً. أو يقولون. لا فرق. لست أدري شيئاً عن الوقت. لكن هذا هو ما يخبرونني به. غداً نهاية ثلاثة عشر عاماً. ذلك أمر سيئ. على الرغم من أنهم يقولون إنه ليس كذلك. إنه أمر سيئ. ولا يفترض أن أتذكر. ولكنني أتذكر بين الحين والآخر، على الرغم مما أقوله.

لسوف يجيء. أقصد أن الأب سيجيء. وسيحاول قتلي. شكراً لك. ولكنني لا أريد ذلك. لا، لا. ليس بعد الآن. بيتر يعيش الآن. نعم. ليس كل شيء على مايرام في رأسه، ولكنه مع ذلك يجيء. وذلك شيء يعتد به. أليس كذلك؟ بمقدورك أن تراهن على هذا بآخر دولار في جيبيك. ها ها ها.

إنني شاعر الآن، في معظم أوقاتي. أجلس كل يوم في غرفتي، وأكتب قصيدة أخرى، وأصوغ كل الكلمات بنفسني، تماماً مثلما كنت أحياناً في الظلام. أبدأ بتذكر الأشياء على هذا النحو، وبالتظاهر بأنني

قد عدت إلى الظلام من جديد. وأنا الوحيد الذي يعرف ما تعنيه هذه الكلمات. وليس من الممكن ترجمتها. وستجعلني هذه القصائد شهيراً. اضرب المسمار على رأسه. يا، يا، يا. قصائد جميلة. جميلة للغاية حتى إن العالم بأسره سيكي تأثراً.

ربما قمتُ بشيء آخر فيما بعد. بعد أن أنتهي من كوني شاعراً. إن عاجلاً أو آجلاً ستنفد الكلمات مني، لعلك تدرك هذا. والجميع بداخلهم هذا القدر على وجه التحديد من الكلمات، وعندئذ أين تراني سأكون؟ أحسب أنني سأرغب في أن أكون، بعد ذلك، من رجال مكافحة الحرائق، وأن أصبح عقب ذلك طبيباً. فلا فرق. وآخر ما سأكونه هو لاعب السير على الجبال العالية. وعندما يوغل بي العمر في مسيرته وأكون قد تعلمت أخيراً كيف أسير كالآخرين، عندئذ سأرقص على الجبال، وسيحسّ الناس بالذهول، حتى الأطفال الصغار. هذا هو ما أحب أن أفعل، أن أرقص على الجبال حتى أموت.

ولكن لا تهتم، فلا فرق، بالنسبة إليّ. إنني رجل غني، كما يمكنك أن ترى. وليس عليّ أن أقلق. لا، لا. ليس على هذا الأمر. يمكنك أن تراهن على هذا بأخر دولار في جيبك. وقد كان الأب غنياً، وحصل بيتر الصغير على المال كلّه بعد أن سجنوا الأب في الظلام. ها ها ها. اعدرني لضحكي. في بعض الأحيان أبدو غريباً للغاية.

إنني الأخير من آل ستلمان. وقد كانوا عائلة كبيرة، أو هذا ما يقولونه. من بوسطن العتيقة، قد تكون سمعت بها. إنني الأخير في

سلالتهم . ليس هناك آخرون . إنني نهاية الجميع . الرجل الأخير . وهذا أفضل ، فيما أعتقد . وليس أمراً مؤسفاً أن ينتهي كل شيء الآن . من الخير للجميع أن يكونوا أمواتاً .

ربما لم يكن الأب رجلاً سيئاً . إنني أقول ذلك الآن على الأقل . فقد حظي برأس كبير . كبير إلى حدّ الضخامة البالغة ، الأمر الذي كان معناه أنّ هناك مجالاً كبيراً ، هناك في داخله . أفكار كثيرة في رأسه الضخم ذاك . ولكن يا لبيت المسكين ! ألم يكن مسكيناً؟ وفي ظروف عسيرة حقاً . بيت الذي لم يكن يستطيع الرؤية أو الحديث ، الذي لم يستطع التفكير ولا الإقدام . بيت الذي لم يكن يستطيع . لا . لا شيء على الإطلاق .

إنني لا أعرف شيئاً عن هذا . كما لا أفهم شيئاً . زوجتي هي التي تحدّثني بهذه الأمور . وهي تقول إنّ من المهم بالنسبة إليّ أن أعرف ، حتّى وإن لم أفهم . ولكن حتّى هذا لا أفهمه . ولكي تعرف ينبغي أن تفهم . أليس الأمر كذلك؟ لكنني لا أعرف شيئاً . ربما كنت بيت ستلمان ، وربما لست كذلك . اسمي الحقيقي هو بيتر نوبودي (لا أحد) . شكراً لك . وما هو رأيك في ذلك؟

إنني أحدثك إذن عن الأب . إنها قصة جيّدة ، حتّى وإن لم أتفهمها . وبمقدوري أن أحدثك بها لأنني أعرف الكلمات . وذلك أمر يُعتدّ به ، أليس كذلك؟ أقصد معرفة الكلمات . في بعض الأحيان أكون شديد الفخر بنفسني ! عفواً . هذا ما تقوله زوجتي . وهي تقول إنّ الأب قد تحدّث عن الربّ . تلك كلمة غريبة بالنسبة إليّ . وعندما تعيد كتابتها معكوسة فإنّها تعطيك معنى آخر مختلفاً عمّا يقصد بها في

صورتها الأولى. أليس كذلك. ووف. ووف. باو واو. أحسب أنّ هذه الكلمات جميلة. بالغة الجمال وصادقة. مثلما الكلمات التي أقوم بصياغتها.

على أيّ حال كنت أقول إنّ الأب قد تحدّث عن الربّ. أراد أن يعرف ما إذا كانت للربّ لغة. لا تسلني عمّا يعنيه ذلك. إنني أحدّثك بذلك لأنني أعرف الكلمات فحسب. ظنّ الأب أن الطفل الوليد قد يتحدّث هذه اللّغة إذا لم يرَ أحداً من الناس. ولكن أيّ طفل كان في هذا الوضع؟ الآن، بدأت تدرك الأمر. ليس عليك أن تشتري الطفل. بالطبع كان بيتر يعرف بعض الكلمات التي تتردّد على ألسنة الناس، ذلك أمر لا سبيل إلى تجنّبه. ولكن الوالد حدّث نفسه بأنّ بيتر قد ينساها. بعد فترة. ولهذا كان هناك الكثير من اليوم بوم بوم. وكلّ مرة يتفوّه فيها بيتر بكلمة كان أبوه يبادره بالدويّ. وفي نهاية المطاف تعلّم الأ يقول شيئاً. يا يا يا. شكراً لك.

احتفظ بيتر بالكلمات في أعماقه. كلّ تلك الأيام والشهور والأعوام. هناك في الظلام يقبع بيتر الصّغير وحيداً، الكلمات تحدّث ضجيجاً في رأسه، وتشاركه وحدته. وهذا هو السّبب في أنّ فمه لا يعمل على النحو الصّحيح. يا لبيتر المسكين! بو هو! هكذا هي الدّموع. الفتى الصّغير الذي لا يمكنه أن يكبر أبداً.

بوسع بيتر أن يحدث النّاس الآن. ولكنّه مازالت في رأسه الكلمات الأخرى. إنّها لغة الربّ، وما من أحد آخر يستطيع التحدّث بها. إنّها تستعصي على الترجمة. وهذا هو السرّ في أن بيتر يجيأ قريباً للغاية من الربّ، ذلك هو السرّ في أنّه شاعر شهير.

كل شيء جيد الآن بالنسبة إليّ، وبمقدوري القيام بأي شيء أريده. في أي وقت، وأي مكان. بل إن لي زوجة. وبمقدورك أن ترى هذا. وقد أتيت على ذكرها من قبل. وقد تكون التقيت بها. إنها جميلة. أليست كذلك؟ واسمها فرجينيا، وذلك ليس اسمها الحقيقي، ولكن ذلك أمر لا يُكثَرُ به، بالنسبة إليّ.

وأياً كان الوقت الذي أطلب ذلك فيه، فإن زوجتي تجلب لي فتاة. إنهن عاهرات. أضع لولبي فيهنّ، فيتأوهن. كان هناك الكثيرات منهنّ. ها ها. يجئن إلى هنا، وأضاجعهن، المضاجعة تثير إحساساً طيباً. تعطينهن فرجينيا النقود، وتغمر السعادة الجميع، يمكنك أن تراهن على ذلك بآخر دولار في جيبيك. ها ها.

يا لفرجينيا المسكينة! إنها لا تحب أن تضاجع. أعني لا تحب أن أضاجعها. ربّما هي تضاجع شخصاً آخر. من يدري؟ لست أعرف شيئاً عن هذا. الأمر ليس جديراً بالاكتراث. ولكن إذا أحسنت التصرف مع فرجينيا فقد تدعُك تضاجعها. سيجعلني ذلك سعيداً، من أجلك، شكراً لك.

وهكذا فإنّ هناك أموراً عديدة عظيمة، وأنا أحاول أن أحدثك بها. أعرف أنّ كل شيء ليس على مايرام في رأسي. وأنه صحيح، وأنا أقول هذا بملء إرادتي الحرة، أنني في بعض الأحيان أصرخ وأصرخ، دونما سبب وجيه، وكأنّما يتعين أن يكون هناك سبب، ولكن دونما وجود سبب أستطيع تبينه، أو يستطيع أي شخص آخر تبينه. لا. ثمّ هناك الأوقات التي لا أقول فيها شيئاً. على امتداد أيام وأيام تمتد بلا انتهاء. لا شيء، لا شيء، لا شيء. أنسى كيفية جعل



الكلمات تخرج من فمي، ثم يغدو من الصَّعب عليّ أن أحيّر حراكاً.  
يا يا. أو حتى أن أرى. ذلك هو الوقت الذي أصبح فيه السيّد  
«حزين».

مازلت أحب أن أكون في الظلام. في بعض الأحيان على الأقل،  
فذلك يجعلني في حالة أفضل، فيما أعتقد. وفي الظلام أتحدّث لغة  
الرّبّ وما من أحد يمكنه سماعي. لا تغضب، أرجوك، فليس  
بمقدوري تجنّب ذلك.

وأفضل شيء هو أنّ الهواء هناك. نعم. وشيئاً فشيئاً تعلّمتُ أن  
أحيا داخله. الهواء والنّور، نعم، ذلك أيضاً، النّور الذي يشعّ فوق  
كلّ الأشياء ويضعها هنالك لكي تراها عيناى. هناك الهواء والنّور،  
وهذا أفضل الأشياء. عفواً. الهواء والنّور. نعم. وعندما يكون  
الطقس صحواً، أحبّ الجلوس قرب النافذة المفتوحة. في بعض  
الأحيان أتطلّع إلى الخارج وأرقي الأشياء الواقعة أسفل النافذة.  
الشّارع والنّاس جميعاً، الطلّاب والسيّارات أحجار الأبنية في الجانب  
الأخر من الطريق. ثمّ هناك الأوقات التي أغمض فيها عينيّ،  
وأجلس هناك، والنسيم ينساب على محياى، والنّور يسكن قلب الهواء  
حواليّ، وفيها وراء عينيّ، وتكسو الحمرة الدنيا بأسرها، حمرة جميلة  
داخل عينيّ، والشّمس تتألّق عليّ وعلى عينيّ.

صحيح أنّي نادراً ما أخرج، فذلك أمر شاقّ بالنسبة إليّ، ولست  
ممنّ يوثق بهم على الدوام، ففي بعض الأحيان أصرخ. لا تغضب  
مني أرجوك، فليس ذلك ممّا يمكنني التغلّب عليه. وتقول فرجينيا إنّي  
ينبغي أن أتعلّم كيف أتصرّف في ملأ من النّاس. ولكنني في بعض

الأحيان لا أستطيع كبح جماح نفسي، فتدوي الصرخات منطلقة مني .  
ولكنني أحب الخروج إلى الحديقة بالتأكيد، فهناك الأشجار والهواء  
والنور. وهناك خير من ذلك كله. أليس كذلك؟ ومع ذلك، أتحسن  
في أعماقي شيئاً فشيئاً. بمقدوري الشعور بهذا. وحتى دكتور  
فيشنجرادسكي يقول هذا. إنني أعرف أنني مازلت الفتى الدمية.  
فذلك أمر لا سبيل إلى تجنبه. لا، لا، ليس بعد الآن. ولكنني في  
بعض الأحيان أحسب أنني سأكبر، في نهاية المطاف، وأغدو حقيقياً.

مازلت في الوقت الراهن، بيتر ستلمان. ذلك ليس اسمي  
الحقيقي. وليس بمقدوري القول من عساني أكون غداً. فكلّ يوم  
جديد، وكلّ يوم أولد مرة أخرى، وأرى الأمل في كلّ مكان، حتى  
في الظلام، أغدو رباً عندما أموت.

هناك كلمات كثيرة إضافية ينبغي الحديث عنها، ولكنني لا أحسب  
أنني سأنطقها. لا. ليس اليوم. فقد نال التعب من فمي. وأعتقد أنّ  
وقت ذهابي قد حان. وبالطبع، فأنا لا أعرف شيئاً عن الوقت.  
ولكنّ الأمر لا يدعو للاكتراث، بالنسبة إليّ. شكراً جزيلاً لك.  
أعرف أنّك ستنقذ حياتي، يا سيّد أوتر، وأنا أعتمد عليك. ولعلّك  
تدرك أنّ الحياة يمكن أن تدوم طويلاً. وكلّ شيء آخر هو في الغرفة،  
مع الظلام، مع لغة الربّ، مع الصرخات. ها أنذا المنتمي إلى  
الهواء، شيء جميل يسطع عليه النور. قد تتذكّر ذلك. أنا بيتر  
ستلمان. ذلك ليس اسمي الحقيقي. شكراً جزيلاً لك.

انتهى الخطاب، وما كان في وسع كوين أن يحدّد الوقت الذي استغرقه، فقد أدرك الآن فحسب، بعد أن توقّفت الكلمات، أنها يجلسان في الظلام. لقد انقضى يوم بأسره، فيما يبدو. وقد غربت الشمس، منجابهة عن الغرفة، خلال حديث ستلمان المنفرد، ولكن كوين لم يلحظ ذلك. وأمّا الآن فقد كان بمقدوره الشعور بالظلام والصمت، وقد راحا يطئنان في رأسه. انقضت عدّة دقائق. وحدث كوين نفسه بأن قول شيء ما الآن هو أمر منوط به، ولكنه لم يستطع التيقن من ذلك. كان بمقدوره سماع صوت تنفس بيتر ستلمان على نحو ثقيل في موضعه عبر الغرفة. وبخلاف ذلك لم تتردّد آية أصوات. ولم يستطع كوين حسم أمره فيما يتعلّق بما يقوم به. وفكّر في عدّة احتمالات، ولكنه مالّبث أن نحّاهما من ذهنه واحداً إثر الآخر. جلس هنالك في مقعده، في انتظار ما سيحدث عقب ذلك.

قطع وقع ساقين ملتفتين في جوربين عبر الغرفة الصمت أخيراً. وتناهت القرعة المعدنية النّاجمة عن إضاءة المصباح، وفجأة غمر الضوء الغرفة. التفتت عينا كوين تلقائياً نحو مصدر الضوء، وهنالك إلى يسار مقعد بيتر حيث كان مصباح مائدة، رأى فرجينيا ستلمان واقفة. كان الشابّ يحدّق أمامه مباشرة وكأنّه كان نائماً وعيناه مفتوحتان. وانحنت السيّدة ستلمان، ولقّت ذراعها حول بيتر، وهمست بنعومة في أذنه.

قالت:

- حان الوقت الآن، والسيّدة سافيدرا في انتظارك.

تطلّع بيتر إليها، وابتسم. قال:

- الأمل يملاً جوانحي.

قبّلت فرجينيا ستلمان وجنة زوجها، برقة، وقالت:

- عليك بوادع السيد أوتر.

نهض بيتر، أو بالأحرى بدأ المغامرة الحزينة، البطيئة، المتمثلة في المناورة لإخراج جسمه من المقعد، وشقّ طريقه على قدميه. وعند كل مرحلة كانت هناك تراجعات وتداعيات وانطلاقات إلى الوراء، مصحوبة بنوبات مفاجئة من الجمود ونخرات وكلمات لم يستطع كوين تبين معناها.

وأخيراً استقام بيتر في وقفته، وانتصب أمام مقعده، وقد ارتسم تعبير الفوز على محياه، وحدّق في عيني كوين، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، ودونما وعي بالذات.

قال:

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء، يا بيتر!

لوح بيتر تلويحة صغيرة متشنجة بيده، ثم استدار، وسار عبر الغرفة. ترنّح في مشيته، وجنح إلى اليمين أولاً، ثم إلى اليسار، وساقاه تنفّكاً وتنعقدان بالتناوب. وفي أقصى الغرفة وقفت في دهليز مضاء امرأة في منتصف العمر ترتدي زي الممرضات الأبيض. وافترض كوين أنها السيدة سافيدرا. وتابع بيتر ستلمان بناظره، إلى أن اختفى الشاب عبر الباب.

جلست فرجينيا ستلمان قبالة كوين، في المقعد الذي كان زوجها

يشغله قبل قليل .

قالت :

كان باستطاعتي أن أوفر عليك عناء ذلك كله ، ولكنني قدّرت أنّه من الأفضل أن تشاهد الأمر بأمّ عينك .

قال كوين :

- إنني أفهم ما تعنيه .

قالت المرأة بمرارة :

- لا ، لا أظنّ أنك تفهمه ، ولا أظنّ أنّ في وسع أحد فهمه .

ابتسم كوين ابتسامة تُفصح عن تقدير الموقف ، وقال :

- ليس الأمر الجوهري هو ما يمكنني أو لا يمكنني فهمه . لقد

استعنت بي للقيام بمهمّة ، وكلّما عجّلت بإيضاحها لي كان ذلك

أفضل . ومّا استوعبته أستطيع القول بأنّ القضية ملحة . ليست لديّ

أية مزاعم بشأن فهم بيتر ، أو ما عانيت منه . الأمر المهم هو أنّني على

استعداد للمساعدة . وأحسب أنّ عليك تقدير هذه المساعدة حقّ

قدرها .

الآن ، راح الدفء ينساب في أعماقه ، وحّدته شيء ما بأنّه قد التقط

النعمة الصّحيحة ، وانبثق من قراره نفسه شعور مفاجئ بالسّرور ، وكأنّه

أفلح لتوّه في عبور حدود داخلية في قلب كيانه .

قالت فرجينيا ستلمان :

- إنك على حقّ . بالطبع ، أنت على حقّ .

صمتت المرأة ، والتقطت نفساً عميقاً ، ثمّ عاودت الصمت من

جديد ، وكأنّها تراجع في ذهنها الأشياء التي توشك على قولها . ولاحظ

كوبن أن يديها تقبضان بإحكام على ذراعي المقعد.  
واصلت حديثها قائلة :

- إنني أدرك أن معظم ما يقوله بيتر مثير للحيرة إلى حد بعيد، ولاسيما في المرة الأولى التي تستمع إليه فيها. كنت أقف في الغرفة المجاورة أصغي إلى ما يقوله لك. لا ينبغي أن تفترض أن بيتر يقول الحقيقة على الدوام. ومن ناحية أخرى فإن من الخطأ الاعتقاد بأنه يكذب.

- تقصدين أنني ينبغي أن أصدق ما يقول، وألا أصدق بعضه الآخر.

- ذلك هو، على وجه الدقة، ما أعنيه.

قال كوبن :

- إن عاداتك الجنسية أو الافتقار إليها لا تعينني، يا سيّدة ستلمان، وحتى إذا كان ما يقوله بيتر صحيحاً فإنه لا يدعو إلى الاكتراث. ففي نوعية العمل الذي أمارسه تلتقين بقليل من كل شيء، وإذا لم تتعلمي التوقف عن إصدار الأحكام فإن ذلك سيؤدي بك إلى أن تضلّي طريقك. إنني معتاد على سماع أسرار الناس، كما أنني معتاد على إمساك لساني. وإذا لم تكن حقيقة ما ذات تأثير على القضية فلا شأن لي بها.

تضرّجت وجنتا السيّدة ستلمان احمراراً:

- كلّ ما في الأمر أنني أردت أن تعرف أن ما قاله بيتر ليس صحيحاً.

هزّ بيتر كتفيه، وأخرج سيجارة، وأشعلها، وقال:

- سواء أكان هذا أو ذاك، فالأمر ليس مهماً. وما يعنيني هو الأمور الأخرى التي قالها بيتر، وأحسب أنها صحيحة، وإذا كانت كذلك فإنني أودّ سماع ما لديك بشأنها.  
- نعم، إنها صحيحة.

قالتها فرجينيا ستلمان، وقد خففت قبضتها المحكمة حول المقعد، ووضعت يدها اليمنى تحت ذقنها. وبدأت ساهمة وكأنها تبحث عن موقف قوامه صدق لا سبيل إلى زعزعته، وأضافت:  
- لبيتر طريقة طفولية في الحديث عن الأمر، ولكن ما قاله صحيح.

- حدّثني عن الأب. عن أيّ شيء تعتقدين أنّ له أهمية.

- والد بيتر من عائلة ستلمان المستقرّة في بوسطن. وأنا على يقين من أنّك سمعت بهذه العائلة؛ فقد كان منها كثير من حكام الولايات في القرن التاسع عشر، وعدد من الأساقفة البروتستانت، ومن السفراء وأحد رؤساء جامعة هارفارد. وفي الوقت نفسه كسبت العائلة أموالاً طائلة، في ميادين صناعة المنسوجات والنقل بالسفن، والله وحده يعلم في أيّ مجالات أخرى أيضاً. والتفاصيل لا أهميّة لها مادمت قد ألمت بفكرة عن خلفيّة الموضوع.

ذهب والد بيتر إلى جامعة هارفارد، شأن جميع أفراد العائلة، ودرس الفلسفة والدين، وكان رجلاً عبقرياً بكلّ المعايير، وكتب أطروحته عن التفسيرات اللاهوتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر للعالم الجديد، ثمّ تولّى وظيفة في قسم الدراسات الدينيّة في جامعة كولومبيا. وبعد وقت قصير من هذا تزوّج والدته بيتر، ولست

أعرف الكثير عنها. وكانت، على نحو ما يبين من الصور التي رأيتها، امرأة جميلة للغاية، ولكنها رقيقة التكوين، تشبه بيتر قليلاً، وتمتّع بهاتين العينين الشاحبتين الزرقاء وبهذه البشرة البيضاء. وعندما ولد بيتر بعد سنوات قليلة، كانت العائلة تقطن شقة كبيرة في ريفرسايد درايف. وكان عمل ستلمان الأكاديمي في ازدهار، فقد أعاد كتابة رسالته، وحوّلها إلى كتاب - حقق انتشاراً طيباً - ورُقّي إلى درجة الأستاذية، وهو في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره، ثم توفيت أم بيتر. وكلّ ما يتعلّق بهذه الوفاة يشوبه الغموض، وقد زعم ستلمان أنها ماتت وهي نائمة، ولكن الأدلة أشارت، فيما يبدو، إلى الانتحار، شيء له علاقة بجرعة كبيرة من الأقراص المنومة، ولكن لم يكن في الوسع إثبات شيء، بالطبع، بل دار بعض الحديث عن قتله إياها ولكن تلك الأقاويل لم تكن إلا شائعات لم تسفر عن شيء، وتمّ إسدال ستار من الكتمان على الأمر بأسره.

كان بيتر في الثانية من عمره، في ذلك الوقت، طفلاً عادياً تماماً. وبعد وفاة أمّه لم تبقَ لستلمان، فيما يبدو، علاقة تُذكر به، وتمّت الاستعانة بمرّبية، وطوال الأشهر الستة التالية، أو نحو ذلك، تولّت رعاية بيتر بشكل كامل، ثمّ قام ستلمان، دوغما مقدمات، بإنهاء عملها، وقد نسيّت اسمها، وأحسب أنها كانت تُدعى الأنسة باربر، ولكنها أدلت بشهادتها خلال المحاكمة. ويبدو أنّ ستلمان كان قد عاد إلى الدار ذات يوم، وأبلغها بأنه سيتولّى أمر تربية بيتر. وقد بعث باستقالته إلى جامعة كولومبيا، وقال للمسؤولين فيها إنه يترك الجامعة ليكرس وقته بالكامل لرعاية ابنه. ولم يكن المال عائقاً، بالطبع، ولم



يكن في وسع أحد القيام بشيء جِبال هذا الأمر.

وبعد ذلك اختفى بشكل أو بآخر. وظلّ في الشقّة نفسها، ولكنّه كان يكاد يغادرها. ولا يعرف أحد حقاً ما الذي حدث، وأحسب أنّه ربّما بدأ بالإيمان ببعض الأفكار الدينيّة المتطرّفة التي كان قد كتب عنها، فجعلته مجنوناً، معتوهاً تماماً. وليست هناك طريقة أخرى لوصف الأمر. لقد سجن بيتر في إحدى غرف الشقّة، وقام بتغطية النوافذ، وأبقاه هناك تسعة أعوام. حاول أن تتخيّل الأمر، يا سيّد أوستر! تسعة أعوام. طفولة بأسرها قُضيت في الظلام، وفي عزلة عن الدّنيا، دونما اتصال بالبشر، إلّا لدى ضربه بين الحين والآخر. إنني أحيما مع نتيجة تلك التجربة، وبمقدوري القول بأنّ الضرر كان رهيباً. إنّ ما رأيته اليوم هو بيتر في أفضل أحواله. وقد اقتضى الأمر ثلاثة عشر عاماً للوصول به إلى هذا الحدّ، وسوف تحلّ بي اللّعنة إذا تركت أحداً يؤذية من جديد.

توقّفت السيّد ستلمان لتلتقط أنفاسها. وأحسّ كوين بأنّها على وشك التّداعي، وأنّ كلمة واحدة تجعلها على شفير الهاوية. وكان عليه أن يبادر بالحديث الآن، وإلّا أفلت الحوار من يديه.

سألها:

- كيف اكتشفت بيتر في نهاية الأمر؟

تخلّصت المرأة من بعض التوتر الذي أصابها، وتنهّدت على نحو مسموع، وحدّقت في عينيّ كوين.

قالت:

- شبّ حريق.

- حريق شبَّ عرضاً، أو حريق تمَّ إشعاله عمدًا؟  
- لا أحد يدري .

- وماذا تعتقد أن حدث؟

- أعتقد أن ستلمان كان في مكتبه، فهو يحتفظ بسجلات تجربته هناك . وأحسب أنه أدرك أخيراً أن الفشل كان مآل عمله . لست أقول إنه قد شعر بالندم على أي شيء أتاه، ولكن حتى إذا نظرنا إلى الأمر من منظوره فإنه كان يعرف أنه قد فشل . أعتقد أنه قد وصل في تلك الليلة إلى نقطة قوامها الاشتمزاز من نفسه، وقرَّر أن يحرق أوراقه . ولكن النار خرجت عن سيطرته، واحترق الجانب الأكبر من الشقَّة . ومن حسن الحظَّ أن غرفة بيتر كانت في الطرف الآخر من قاعة طويلة، ووصل رجال مكافحة الحرائق إليه في الوقت المناسب .

- وعندئذ؟

- استغرق تبين حقيقة كل شيء شهوراً طويلة، فقد أتت النار على أوراق ستلمان، الأمر الذي كان معناه أنه ليس هناك دليل حاسم . ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك حالة بيتر، والغرفة التي أودع فيها، وتلك العوارض الفظيعة على التوافذ، وبالفعل قامت الشرطة بتجميع جزئيات القضية . وتمَّ أخيراً تقديم ستلمان للمحاكمة .

- ماذا حدث في المحكمة؟

- صدر الحكم بجنون ستلمان، وجرى إبعاده .

- وبيتر؟

- تمَّ إرساله بدوره إلى أحد المستشفيات، وبقي هناك إلى ما قبل عامين مضياً .

- هل التقيته هناك؟

- نعم . في المستشفى .

- كيف؟

- كنت المتولية لعلاج طريقته في الحديث . وعملت معه يومياً ، طوال خمس سنوات .

- لست أقصد التطفل ، ولكن كيف أدى ذلك على وجه الدقة إلى

الزواج؟

- الأمر معقد .

- هل يضايقك أن تحدّثني عنه؟

- لا يضايقني في الواقع . ولكني لا أحسبك ستفهم جليّة

الموضوع .

- هناك طريقة واحدة لتبين ما إذا كنت سافهم أو لا .

- طيّب ، لنعبّر عن الأمر بشكل بسيط ، دعنا نُقل إن تلك كانت

خير طريقة لإخراج بيتر من المستشفى ، ومنحه الفرصة لكي يعيش

حياة طبيعيّة بصورة أكبر .

- ألم يكن من الممكن جعلك الوصيّة القانونيّة عليه؟

- كانت الإجراءات شديدة التعقيد . وفضلاً عن ذلك فإن بيتر لم

يكن بعدُ قاصراً .

- ألم تكن تلك تضحية هائلة بالنفس من جانبك؟

- ليس بصورة حقيقيّة . فقد تزوّجت مرّة من قبل ، وكان زواجاً

أقرب إلى الكارثة . لم يعد الأمر شيئاً أريده لنفسِي . وعلى الأقلّ فإنّ

هناك ، بوجود بيتر ، هدفاً لحياتي .

- هل صحيح أنه سيُطلق سراح ستلمان من المستشفى؟

- غداً . لسوف يصل إلى محطة جرانند سنترال في المساء .

- وأنت تشعرين بأنه قد يأتي لمهاجمة بيتر. هل هذا شعور حدسي قوِّي أم أن لديك دليلاً؟

- قليل من الأمرين معاً. قبل عامين كانوا سيُخرجون ستلمان، ولكنه كتب رسالة إلى بيتر، وأطلعت السُّلطات عليها، فتقرَّر أنه لم يكن مُهيئاً بعدُ للخروج، في نهاية المطاف.

- أي نوع من الرسائل كانت؟

رسالة مجنونة. وصف فيها بيتر بأنه فتى شيطاني، وأنه سوف يأتي يوم لتصفية الحساب.

- هل مازلت تحتفظين بالرسالة؟

- لا، لقد قدّمتها للشرطة منذ عامين.

- ولا نسخة منها؟

- آسفة. هل تعتقد أنها مهمّة؟

- قد تكون كذلك.

- بمقدوري محاولة الحصول على نسخة عنها، إذا رغبت في ذلك.

- أحسب أنه لم يردّ منه المزيد من الرسائل، بعد تلك الرسالة.

لم يردّ المزيد من الرسائل. وهم الآن يشعرون بأنّ ستلمان مُهيئاً للإخراج من المستشفى. تلك هي وجهة النظر الرسميّة على أيّة حال، وليس هناك ما أستطيع القيام به لإيقافهم. غير أنّ ما أفكّر فيه هو أنّ ستلمان قد وعى الدرس الذي تلقّاه. وقد أدرك أنّ الرسائل والتهديدات من شأنها أن تؤدّي إلى استمرار إبقائه في المستشفى.

- وهكذا، فإنّك مازلت تشعرين بالقلق؟

- ذلك صحيح.

- ولكن لست لديك فكرة دقيقة عما يمكن أن تكون عليه خطط  
ستلمان .  
- تماماً .

- ما الذي تريدني مني القيام به؟  
- أريدك أن تراقبه بعناية، وأريدك أن تكتشف ما هو بصدده،  
وأريدك أن تبُعدَ عن بيتر.  
- وبتعبير آخر مهمة تتبُّع على نطاق كبير.  
- أعتقد ذلك .

أحسب أنه ينبغي أن تدركي أنه ليس في وسعي منع ستلمان من  
القدوم إلى هذا المبنى . وما أستطيع القيام به هو أن أهدِّرك، فيما  
يتعلَّق بهذا الأمر، وبمقدوري أن أجعل من صميم عملي المجيء معه .  
- إنني أتفهّم هذا مادام هناك نوعٌ من الحماية .

- طيّب . كم عدد المرّات التي ترغبين في أن أطلعك من خلالها  
على ما وصلت إليه؟  
- أودّ أن تقدّم لي تقريراً كلّ يوم . ولنقل اتّصلاً هاتفياً في المساء،  
حوالي السّاعة العاشرة، أو الحادية عشرة .  
- لا بأس .

- هل هناك شيء آخر؟  
- مجرد أسئلة أخرى قليلة . فأنا فضولي، على سبيل المثال، فيما  
يتعلَّق باكتشافك أن ستلمان سيأتي إلى الجرانند سنترال غداً مساءً .  
- لقد جلعت معرفة ذلك همّي، يا سيّد أوستر، فما يتعرّض  
للمخاطر هنا هو أكثر، بالنّسبة إليّ، من أن أدع الأمر للمصادفة .

وإذا لم يتمّ تعقّب ستلمان منذ لحظة وصوله فإنّ بمقدوره الاختفاء في  
يسر من غير أن يترك وراءه أثراً، ولا أريد أن يحدث ذلك.  
- أيّ قطار سيستقلّ؟

قطار السّابعة إلّا الثلث، الذي يصل من پاوكيسي.  
- أحسب أنّ لديك صورة فوتوغرافيّة لستلمان؟  
- نعم، بالطبع.

- هناك أيضاً مسألة بيتر، وأودّ أن أعرف السرّ في أنّك أبلغته هذا  
كله في المقام الأوّل. ألم يكن من الأفضل التّزام الصّمت بهذا الشأن؟  
- لقد أردت ذلك، لكن تصادف أن رفع بيتر سماعة الهاتف  
الإضافي عندما تلقّيت نبأ إخراج أبيه من المستشفى. ولم يكن هناك ما  
يمكنني القيام به في هذا الشأن، ذلك أنّ بيتر يمكن أن يكون بالغ  
العناد، وقد تعلّمت أنّه من الأفضل ألاّ أكذب عليه.

- سؤال أخير، من الذي أشار عليكما باللجوء إليّ؟

- مايكل، زوج السيّدة سافيدرا. وكان يعمل شرطياً، وقد قام  
ببعض التحريّات واكتشف أنّك أفضل رجل في المدينة في هذا النوع  
من الأعمال.  
- أخجلتِ تواضعي.

- ممّا رأيته منك حتّى الآن، يا سيّد أوستر، فإنّني على يقين من أنّني  
قد عثرت على الرّجل المناسب.

حمل كوين هذا على أنّه إشعار له بالنهوض. وجاء هذا بمثابة نجدة  
لإراحة ساقيه في النّهاية. ولقد سارت الأمور على مايرام، وأفضل

كثيراً مما توقّع. وسرى في جسمه صدى إرهاق لم يعرفه خلال سنوات، ولو أنه واصل الجلوس أكثر من ذلك لتداعى بالتأكيد.  
قال:

- أتعابي هي مائة دولار يومياً، يُضاف إليها المصاريف. وإذا كان في وسعك إعطائي مبلغاً على سبيل المقدم فإن ذلك سيكون برهاناً على أنني أعمل لحسابك، الأمر الذي سيكفل لنا علاقة محقق بزبونه تتصف بالتميز. وذلك يعني أن كل ما نتداوله بيننا سيكون طي الكتمان التام.

ابتسمت فرجينيا سلتمان وكأنها تشارك في نكتة من نوع خاص بها، أو لعلها كانت تستجيب فقط للمعنى المزدوج المُحتمل لعبارته الأخيرة. وشأن كثير من الأمور التي حدثت له خلال الأيام والأسابيع التي أعقبت ذلك، لم يستطع كوين التيقن من أي من الأمرين.  
سألته:

- كم تريد؟

- لا يهم، سأترك ذلك لك.

- خمسمائة؟

- سيكون ذلك أكثر من كافٍ.

- طيب، سأمضي لجلب دفتر شيكاتي.

قالتها فرجينيا سلتمان وهي تنهض مبتسمة لكوين، وأضافت:

- سأجلب لك صورة والد بيتر أيضاً، أحسب أنني أعرف مكانها.

شكرها كوين، وقال إنه سينتظر. وراح يرقبها وهي تغادر الغرفة.

ومن جديد ألفى نفسه يتصور ما ستبدو عليه إذا تجردت من ثيابها.

وراح يتساءل: هل هي بسبيلها إلى الاقتراب منه على نحو ما أم أن ذهنه يحاول أن يفسد عليه عمله فحسب؟ وقرّر أن يؤجّل تأملاته، وأن يعود إلى هذا الأمر من جديد، فيها بعد.

عادت فرجينيا ستلمان إلى الغرفة، وقالت:

- هوذا الشيك. آمل أن أكون قد حرّرتَه بشكل صحيح.

حدّث كوين نفسه وهو يفحص الشيك: نعم، نعم، كلّ شيء على خير مايرام. كان سعيداً بحذقه. وقد حرّر الشيك بالطّبع باسم بول أوتر، الأمر الذي كان معناه أنّه لن يكون هناك بالإمكان تحميل كوين مسؤوليّة انتقال شخصيّة تحرّراً خاصّاً من غير ترخيص. وأعاد إليه الثّقّة بنفسه علمه بأنّه وضع نفسه على نحو ما في موضع لا مجال فيه للاّتهام. ولم تضايقه الحقيقة القائلة بأنّه لن يكون بمقدوره صرف قيمة الشيك أبداً. وفهم، حتّى في ذلك الوقت، أنّه لا يقوم بهذا من أجل المال. ودسّ الشيك في جيب سترته الداخلي.

قالت فرجينيا ستلمان:

- آسفة لعدم وجود صورة أكثر حداثة. وهذه الصّورة تعود إلى أكثر من عشرين عاماً، ولكنني أخشى أن تكون أفضل ما في وسعي بذّله.

تطلّع كوين إلى صورة وجه ستلمان، آملاً في ظهور مفاجئ، اندفاع فجائي لمعرفة باطنيّة تساعد في فهم الرّجل. ولكنّ الصّورة لم تفصح له عن شيء، فلم تكن أكثر من صورة رجل. وتأمّلها للحظة أخرى، وخلص إلى أنّها يمكن في يسرٍ أن تكون صورة أيّ شخص.

قال، وهو يضعها في الجيب الذي استقرّ فيه الشيك:



- لسوف أنظر إليها بمزيد من الإمعان، عندما أصل إلى الدار.  
وأنا على يقين من أنه سيكون باستطاعتي تمييزه في المحطة غداً واضحاً  
في الحُسابان قضيةً مرور الزمن.

قالت فرجينيا ستلمان:

- أمل ذلك، فهو أمر مهمٌ للغاية، وأنا أعتد عليك.

قال كوين:

- اطمئني بالأ، فلم يسبق لي أن خذلت أحداً.

صحبتة إلى الباب. ووقفت عنده عدّة ثوانٍ ملتزمة الصمت، من  
غير أن تدري ما إذا كان هناك ما يُضاف، أو ما إذا كان الوقت قد  
حان ليتبادلا التحيّة. وفي تلك البرهة القصيرة الفاصلة احتضنته  
فجأة، وسعت بشفتيها إلى شفثيه، وقبّلته في نهم، دافعة بلسانها  
عميقاً داخل فمه. وأخذ كوين على غيرة، حتى أوشكت متعة اللّقاء  
أن تفوته.

وعندما استطاع أن يتنفس من جديد، أمسكت به السيّدة ستلمان  
على امتداد ذراع منها، وقالت:

- كان ذلك لكي أبرهن لك أنّ بيتر لم يكن يُخبرك بالحقيقة، وأنّه  
من المهمّ أن تصدّقني.

قال كوين:

- إنني أصدّقك، وحتى إذا لم أصدّقك، فلا أهميّة للأمر حقاً.

- أردتك أن تعرف فقط ما أنا قادرة على إتيانه.

أمسكت يمناه بيديها وقبّلتها، قائلة:

- شكراً لك، يا سيّد أوستر، إنني أعتقد حقاً أنّك الشّخص الذي

يفي بالغرض.

وعدها بالاتصال بها في الليلة التالية، ثمَّ وجد نفسه يخرج من الباب، ويهبط بالمصعد، ويغادر المبنى. وعندما مسَّت قدمه الطَّريق في بداية الانطلاق كان اللَّيل قد انتصف.

سبق أن سمع كوين بحالات مماثلة لحالة بيتر ستلمان. فخلال عيشه في ظل شخصيته الأخرى، وبعد وقت لم يمتد طويلاً من ميلاد ابنه، كتب عرضاً لكتاب عن فتى أقيرون المتوحش، وقام ببعض الأبحاث حول الموضوع في ذلك الوقت. وبقدر ما يسعه التذکر فإن أول صورة مكتوبة لمثل هذه التجربة قد تضمنتها كتابات هيرودوتس: فقد قام الفرعون پساتيك بعزل طفلين وليدين في القرن السابع قبل الميلاد، وأمر الخادم المسؤول عنهما بالألا يتفوه بكلمة أبداً في حضورهما. ويقول هيرودوتس، وهو مؤرخ سى الصيت فيما يتعلق بعدم إمكان الاعتماد على ما يذکر، إن الطفلين قد تعلما الحديث، وأن أول كلمة نطقا بها هي الكلمة الفريجية التي تعني الخبز. وفي العصور الوسطى، كرر الأمبراطور المقدس الروماني فريدريك الثاني هذه التجربة، على أمل اكتشاف «اللغة الطبيعية» الحقة للإنسان، وذلك باستخدام أساليب مماثلة، ولكن الطفلين ماتا قبل أن ينطقا بأية كلمة. وأخيراً، وفيما كان بلا شك مجرد زعم لا صحة له، فإن ملك اسكتلندا في أوائل القرن السادس عشر، جيمس الرابع، ذهب إلى أن أطفالاً عزلوا بالطريقة ذاتها وانتهى بهم الأمر إلى الحديث «بلغه عبرية جيدة».

غير أن المتهوسين والمنظرين الإيديولوجيين لم يكونوا وحدهم في اهتمامهم بهذا الموضوع. فحتى رجل حكيم ومتشكك مثل مونتاني<sup>(١)</sup>

---

(١) مونتاني، ميشال إيكيم (١٥٣٣ - ١٥٩٢): الكاتب الأخلاقي الفرنسي الشهير، أبرز =

درس المسألة بعناية، وكتب في أهمّ مقال له تحت عنوان «دفاع عن ريموند سيبوند» يقول: «أعتقد أنّ طفلاً ربّي في عزلة تامّة، بعيداً عن كلّ اتّصال (وتلك ستكون تجربة يصعب القيام بها) سيكون لديه نوع من الكلام، ليعبر به عن أفكاره. وليس ممّا يمكن أن يصدّق أنّ الطّبيعة قد أنكرت علينا هذا المورد الذي منحته لكثير من الحيوانات الأخرى... ولكنه أمر ليس معروفاً بعد نوع اللّغة التي سيتحدّثها هذا الطفل، وما قيل عنها على سبيل التّخمين ليس له الكثير من مظهر الحقيقة».

وفيا وراء مثل هذه التجارب كانت هناك كذلك حالات العزلة بطريق الصدفة، أي حالات أطفال ضلّوا في الغابات، وبحارة جنحت بهم السّفن إلى جزر، وأطفال قامت الذّئاب بتربيتهم، وكذلك حالات الآباء القساة، الساديين، الذين سجنوا أطفالهم، وقيدوهم بسلاسل إلى أسيرتهم، وضربوهم داخل خزّانات، وعذبوهم لا لسبب إلّا خضوعاً لنوبات جنونهم، وقد قام كوين بقراءة في الأدبيّات الهائلة المكرّسة لهذه القصص. كان هناك البحار

---

= أعماله هو كتاب «المقالات» الذي صدرت طبعته الأولى في بوردو عام ١٥٨٠ م، والمقال المشار إليه في المتن جزء من هذا الكتاب، ويُعدّ من أكثر مقالاته إسهاباً، وفيه دفاع مجيد عن نزعة الشك، وكان له تأثير بالغ في عدد من المفكرين والفلاسفة، مثل بيكون وديكارت. ومن المحقّق أنّ وصف أوسترلمونتاني بأنّه «رجل حكيم ومتشكّك» لا يمكن إلّا أن يثير الابتسام، فقد كان الشك أكثر من مجرد صفة تلتصق بمونتاني، لقد كان في الواقع جوهر موقفه الفكري، فقد استعرض مذاهب الفلاسفة القدماء ووجد في النّهاية أنّ أحرارها بالقبول هو مذهب الفورونيين، أتباع فورون مؤسس مدرسة الشكّ في اليونان، والقاتل بأنّ الإنسان عاجز في قرارته وخاٍ وضعيف.

(هـ . م .)

الاسكتلندي ألكسندر سيلكريك (يعتقد البعض أنه النموذج الذي صيغ على غراره روبنسون كروزو) الذي عاش حوالي أربع سنوات وحيداً في جزيرة أمام ساحل تشيلي، والذي قال قبطان السفينة التي أنقذته في ١٠٧٨ م إنه: «نسي إلى حد كبير لغته لعدم استخدامه إياها، بحيث أننا بالكاد استطعنا فهم ما يقول». وبعد أقل من عشرين عاماً، جلب بيتر الهانوفري، وهو صبي متوحش في حوالي الرابعة عشرة من عمره تم اكتشافه صامتاً وعارياً، في غابة خارج مدينة هانوفر الألمانية، إلى محكمة إنجليزية، وفقاً لقانون الحماية الخاصة الذي أصدره الملك جورج الأول. ومنح كل من سويفت وديفو فرصة لقائه، وأدت هذه التجربة إلى إصدار كتيب من تأليف ديفو في ١٧٢٦ م بعنوان «التأكيد على الطبيعة المحض». غير أن بيتر لم يُقدَّر له أن يتعلم الحديث قط، وبعد عدة أشهر أُرسِل إلى الريف حيث عاش حتى بلغ السبعين من عمره، دونما اهتمام بالجنس أو المال أو أية موضوعات دنيوية أخرى. ثم كانت هناك حالة فيكتور، فتى أفيرون المتوحش، الذي عُثر عليه في ١٨٠٠ م. وفي ظل العناية الدائبة والصبورة من قبل دكتور إيتارد، تعلم فيكتور بعض مبادئ الحديث، ولكنه لم يتقدم قط إلى ما يتجاوز مستوى طفل صغير. وقد عُرف على نحو أكبر من فيكتور الفتى كاسبار هاوسر، الذي ظهر في أصيل أحد الأيام في نورمبرج عام ١٨٢٨ م مرتدياً زياً فظيلاً، وبدا بمشقة قادراً على نطق صوت يمكن تمييز معناه، وقد تمكن من كتابة اسمه، ولكنه في كافة المجالات الأخرى تصرف كطفل وليد. وقد تبنته المدينة، وعهدت به إلى مدرّس محلي، وأمضى أيامه جالساً على

الأرض يلهو بدمى على شكل جيات، من غير أن يتناول إلا الخبز والماء، ومع ذلك فقد تطوّر كاسبار، وأصبح فارساً رائعاً، نظيفاً على نحو استحواذي، مولعاً باللونين الأحمر والأبيض، وأظهر ذاكرة فذة بكلّ المعايير، ولاسيما بالنسبة إلى الأسماء والوجوه، ورغم ذلك فقد فضّل البقاء داخل الدار، وآثر الابتعاد عن الضوء الباهر، ولم يُبدِ شأن بيتر الهانوفري، اهتماماً قطّ بالجنس أو المال، ومع استرداده لكافة ذكريات الماضي تدريجياً تمكّن من تذكّر كيفية قضائه سنوات طويلة جالساً على أرضية غرفة مظلمة، يقدم له طعامه فيها رجل لم يحادثه قطّ ولم يتح له أن يراه. وبعد وقت محدود من الكشف عن هذه الأسرار قتل كاسبار على يد رجل مجهول طعنأ بخنجر في حديقة عامّة.

انقضت سنوات منذ أن سمح كوين لنفسه بالتفكير في هذه القصص. فقد كان موضوع الأطفال مؤلماً للغاية بالنسبة إليه، ولاسيما الأطفال الذين تعرّضوا للمعاناة أو لسوء المعاملة، ولقوا حتفهم قبل أن يكبروا. وإذا كان ستلمان هو الرجل حامل الخنجر، وقد عاد لينتقم لنفسه من الفتى الذي سبق أن دمر حياته، فقد أراد كوين أن يكون هناك لإيقافه. وقد عرف أنه لا يستطيع إعادة ابنه إلى رحاب الحياة، ولكن بمقدوره على الأقل أن يحول دون موت ابن آخر. لقد أصبح بمقدوره أخيراً القيام بهذا. وإذ وقف الآن في الشارع فقد لاحت له فكرة ما ينتظره وكأنها حلم رهيب. فكّر في التابوت الصغير الذي احتوى جثمان ولده، وكيف رآه في يوم الجنازة وهو يُدلى إلى باطن الأرض. وقال لنفسه إن تلك كانت العزلة، وإن ذلك كان الصمت. وربما لم يكن مصدر عون له أن اسم ابنه كان بيتر أيضاً.

عند ناصية الشارع الثاني والسبعين استوقف سيارة أجرة، وفيما كانت السيارة تنطلق مقعقة عبر الحديقة نحو الوست سايد، تطلّع كوين إلى خارج النافذة وراح يتساءل عما إذا كانت هذه الأشجار هي ذاتها الأشجار التي رآها بيتر ستلمان لدى خروجه إلى الهواء والنور. تساءل عما إذا كان بيتر قد شاهد الأشياء عينها التي تقع عليها عيناه هو، أو ما إذا كان العالم قد بدا مكاناً مختلفاً بالنسبة إليه. وإذا لم تكن شجرة ما هي شجرة حقاً فقد تساءل عما عساها كانه بالفعل.

بعد أن ترجل كوين من السيارة، أمام بيته، أدرك أنه جائع، فلم يكن قد تناول شيئاً منذ طعام الإفطار في الصباح الباكر وحدث نفسه بأنه من الغريب أن يمر الوقت سريعاً على هذا النحو في شقة ستلمان. وإذا صحت تقديراته فإنه أمضى هناك أربع عشرة ساعة، غير أنه أحس في أعماقه بأنه قد بقي هناك ثلاث ساعات أو أربعاً، على أقصى تقدير. وهز كتفيه إزاء هذا التضارب وقال لنفسه: لا بد لي من أن أتعلّم النظر إلى ساعتى أكثر مما أفعل.

استدار على عقبيه ماضياً في الشارع مائة وسبعة، وانعطف يساراً عند برودواي، وشرع في السير مبتعداً عن قلب المدينة، باحثاً عن مكان مناسب يتناول فيه طعامه. لم يرقه الليلة تناول الطعام في حانة - الأكل في الظلام، وضغط الثرثرة السكرى - على الرغم من أنه كان من الممكن عادة أن يرحّب بذلك. وفيما هو يعبر الشارع مائة واثني عشر، رأى أن مطعم «هايتس» لتناول الوجبات الخفيفة مازال مفتوحاً، وقرّر دخوله. كان مكاناً كثيباً، رغم أنه باهر الإضاءة، به

رفّ على أحد الجدران عليه مجلّات تضمّ صور فتيات في مقتبل العمر، ومساحة مخصّصة للتزويد بالأدوات المكتبيّة، ومساحة أخرى للصّحف، وموائد عديدة للزبائن الدّائمين، ومنضدة طويلة مكسوّة بالفورمايكا وأمامها مقاعد دوّارة. وقف رجل طويل القامة من أبناء بورتوريكو، يعتمر قبعة طهاة مصنوعة من الورق المقوّى، وراء المنضدة. وكان عمله إعداد الطّعام الذي يتألّف بصفة أساسيّة من فطائر هامبرجر مليئة بالغضاريف، وشطائر هشّة محشوّة بالطماطم الشّاحبة اللّون، والخسّ الذابل، بالإضافة إلى الفواكه المخفوقة مع اللّبن، والزبد المخفوق مع البيض، والكعك. وإلى يمينه، محشوراً وراء مسجّل المدفوعات النقديّة، كان صاحب المطعم، وهو رجل صغير الجرم، أصلع، يبدو ما تبقى من شعره مجعّداً، ويبدو رقم إيداع بمعسكر اعتقال منقوشاً بطريق الوشم على ساعده، ويطلّ مهيمناً على مملكته الخاصّة من السّجائر، والغلايين وأنواع السيجار. وقد قبع هنالك في سلبية، يقرأ الطّبعة الليليّة من صحيفة «ديلي نيوز» التي تصدر مبكّرة، قبل سائر الطّبعات الصّباحيّة لليوم التالي.

لاح المكان مقفراً تقريباً في تلك السّاعة. وحول المائدة الخلفيّة جلس عجوزان يرتديان ثياباً مهلهلة، أحدهما بدين للغاية، والآخر شديد النحول، وقد عكفا بمزيد من الاهتمام على قراءة تشكيلات سباق الخيل، واستقرّ قدها قهوة فارغان بينهما على المائدة. وفي الجزء الأمامي، في مواجهة رفّ المجلّات، وقف طالب شابّ وفي يديه مجلّة مفتوحة، وهو يحدّق في صورة امرأة عارية. جلس كوين قبالة المنضدة، وطلب هامبرجر وقهوة. وإذا تحركّ رجل المنضدة لتلبية طلبه فقدّ خاطبه متلفتاً:



- هل شاهدت مباراة الليلة؟
- لقد فاتتني. هل هناك أخبار طيبة؟
- ماذا تعتقد؟

على امتداد سنوات طويلة كان كوين يتبادل الحوار نفسه مع هذا الرجل الذي لم يكن يعرف اسمه. فقد تحدثا، عندما دخل المطعم للمرة الأولى، عن البيسبول، والآن، في كل مرة يدخل فيها كوين المكان، يواصلان الحديث والذكريات. وخلال الموسم يدور الحديث دائماً حول أحدث المباريات. وكانا معاً من مشجعي فريق الميتس، وقد خلق عدم التخلي عن هذه الهواية رابطة مشتركة بينهما.

هزّ رجل المنضدة رأسه، وقال:

- أولاً، هناك مرتان من مرّات الانطلاق قدماً، وقد أطلق «كينجمان» كرتين صاروختين بمجهود فردي. بوم. بوم. يا لهما من رميتين - كأنهما قطعتا الطريق إلى القمر! ولمرة يقوم جونز بالرماية بصورة طيبة، ولا تبدو الأمور شديدة السوء. النتيجة اثنان لواحد، بعد الرمية التاسعة. يحصل بيتسبرج على الرجال في التغيير الثاني والثالث، وبعد القيام بالتغيير الأول، ولذا يمضي فريق الميتس إلى مكان الاحتياطي لدفع «الآن» للعب. وينطلق باعتباره الرجل التالي ليدفع الفريق قدماً. ويقلب فريق الميتس الدنيا رأساً على عقب لتشكيل قوّة على أرضه، أو ربّما يكون بمقدورهم إنجاز اللّعبة المزدوجة، إذا ما ألقيت الكرة في المنتصف. يتقدّم «بيننا» وما يلبث أن يتراجع على نحوٍ مخجل، ويمضي اللّعين بين ساقَي كينجمان. يسجّل رجلان أهدافاً، وذلك كلّ ما هناك، ووداعاً يا نيويورك!

قال كوين، وهو يقضم الهامبرجر:

- ديف كينجهان سَيَّ للغةاية .

قال رجل المنضدة:

- ولكن حذار من فوسترا!

قضم كوين طعامه بعناية، متلمساً بطرف لسانه ما إذا كانت هناك

بعض البقايا المتناثرة، وقال:

- لقد مضى فوستر مع التيار، وأصبح في عداد الماضي، مجرد سكير

وضيع الملامح، ينبغي عليهم شحنة وإعادته إلى سينسناتي بالبريد

السريع .

قال رجل المنضدة .

- نعم، ولكنهم سيكونون أشدءاء، أفضل من العام الماضي على أية

حال .

قال كوين، متناولاً قضمه أخرى:

- لا أدري . يبدو الأمر جيداً على الورق . ولكن ماذا لديهم حقاً؟

إن «ستيرنز» يصاب دائماً، ولديهم لاعبون من الدوري الأقل درجة في

الاحتياطي ولسد العجز . و«بروكس» لا يستطيع التركيز على اللعب .

«موكي» لاعب جيد، ولكنه لم يُصقل بعد، وهم ليس في وسعهم

حسم رأيهم فيما يتعلق بمن يوضع في المكان الصحيح . ومايزال هناك

«راستي» بالطبع، ولكنه أكثر ترهلاً من أن يعدو . وأما فيما يتعلق

بالرماية فينبغي أن تنسى الأمر، فمبقدورنا معاً أن نمضي إلى شيا غداً

ونحصل على عقدين، باعتبارنا اللاعبين الرئيسيين اللذين يستهلان

اللعب .

قال رجل المنضدة:

- قد أجعل منك مديراً، ويمكنك أن تقول لهؤلاء الملاحين إلى أين يمكنهم الذهاب.

قال كوين:

- تستطيع أن تراهن على ذلك بأخر دولار في جيبيك.

بعد أن انتهى كوين من تناول طعامه مضى إلى رفّ الأدوات الكتابية وكانت شحنة من الكراسيات الجديدة قد وصلت، وبدا شكل الكومة مؤثراً، في صورة حشد من الألوان الزرقاء والخضراء والحمراء والصفراء. والتقط كراسة فرأى أن الصفحات تضم السطور الضيقة التسطير التي يفضلها. وكان ينجز كل كتاباته بالقلم، ولا يستخدم الآلة الطابعة إلا في إعداد المخطوط النهائي، وكان يبحث على الدوام عن كراسيات جيدة، متقاربة السطور. والآن، وقد استهلّ العمل في قضية ستلمان، فقد شعر أن شراء كراسة جديدة سيكون من مقتضيات الحال، وسيكون ممّا يعاونه على ترتيب أفكاره أن يوجد موضع منفصل يسجل فيه خواطره وملاحظاته وأسئلته. وقد لا تخرج الأمور بهذه الطريقة عن سيطرته.

ألقي نظرة على كومة الكراسيات محاولاً الوصول إلى قرار بشأن الكراسة التي سيأخذها. وشعر فجأة، لأسباب لم يُقدّر لها أن تتضح قط، بدافع لا يقاوم لالتقاط كراسة حمراء بعينها موجودة في أسفل الكومة. وانتزعها من موضعها، وراح يفحصها، متصفّحاً إيّاها في نشاط بإبهامه. وعجز عن أن يوضّح لنفسه السبب في أنه يجدها جذابة للغاية على هذا النحو. كانت كراسة من النوع القياسي الذي

يبلغ طوله إحدى عشرة بوصة، وعرضه ثماني بوصات ونصف البوصة، ويضمّ مائة صفحة. ولكن شيئاً ما فيها قد اجتذبه، فيما يبدو، وكأنّما كان قدرها الوحيد في الدّنيا أن تضمّ الكلمات التي يسطّرها قلمه. وإذ أوشك على الشّعور بالخرج جِبال حدّة مشاعره، فقد دسّ الكرّاسة تحت ذراعاه، ومضى إلى مسجّل المدفوعات النقديّة، وابتاعها.

إثر عودة كوين إلى شقّته، بعد ذلك بربع السّاعة، أخرج صورة ستلمان والشيك من جيب سترته، ووضعها بعناية على مكتبه. وأزاح البقايا عن سطح المكتب - أعواد ثقاب مستخدمة، أعقاب سجائر، نثار رماد، أنابيب حبر مستنفدة، بضع قطع عملة معدنيّة، أرومات بطاقات سفر، رسوم عابثة صورت خلال الاستغراق في التّفكير، منديل متسخ - ووضع الكرّاسة الحمراء في الوسط. التقط قلمه وكتب الحروف الأولى من اسمه، د. ك (اختصاراً لدانييل كوين) على الصّفحة الأولى. كانت تلك هي المرّة الأولى، طوال ما يزيد على خمس سنوات، التي كتب فيها اسمه على إحدى كرّاساته. ثمّ توقّف لحظة يتأمّل هذه الحقيقة، ولكنّه مالّبث أن نحاها جانباً، باعتبارها لا أهميّة لها. وقلب الصّفحة، وراح يدرس بياضها للحظات، متسائلاً عمّا إذا لم يكن أحقّ بلا حدود. ثمّ دفع بقلمه إلى السّطر الأعلى، وكتب المادّة الأولى في الكرّاسة:

وجه ستلمان. أو: وجه ستلمان على نحو ما كان قبل عشرين عاماً. من المستحيل معرفة ما إذا كان الوجه سيحاكيه غداً أو لا. غير أنّه من المؤكّد أنّه ليس وجه مجنون. أم أنّ هذا ليس إيضاحاً قانونياً؟

بالنسبة لعيني على الأقل يبدو الوجه بعيداً عن الإيجاء بالخطر، إن لم يكن رقيقاً بصورة جليّة، بل إن هناك لمسة من الرقة تحيط بالفم. وأكثر من محتمل أن العينين زرقاوان، تميلان إلى التندّي بالدّمع. وشعر ناحل حتى ذلك الوقت، ربّما وصل إلى حدّ الصلح الآن، وما بقي منه غدا رمادياً وربّما أبيض. وهو يبدو مألوفاً، على نحوٍ غريب، من النوع الذي يميل إلى التأمل، مشدود الأعصاب، شخص قد يتعثر في حديثه، يجالّد نفسه لقمع فيضان الكلمات الذي يتدفق من فمه.

بيتر الصّغير. هل من الضّروري بالنسبة إليّ أن أتخيّل الأمر، أم أن بمقدوري تقبّله على علّاته؟ الظلام. أن أفكّر في نفسي، وقد قبعتُ في تلك الغرفة صارخاً. إنني متردّد جيال الأمر. بل لا أحسب أنني أرغب في فهمه. سعيّاً وراء أيّة غاية؟ تلك ليست القصّة، في نهاية المطاف. إنها حقيقة، شيء يحدث في الدّنيا، ويفترض أن أقوم بمهمّة، أمر واحد محدود، وقد قلت نعم، سأنجزه. وإذا مضى كلّ شيء على مايرام فسيكون الموضوع بسيطاً للغاية، فلم تتمّ الاستعانة بي لكي أفهم، وإنما لكي أعمل فحسب. هذا شيء جديد، ينبغي وضعه موضع الاعتبار بأيّ ثمن.

ومع ذلك، ما هذا الذي يقوله دويين عند بون<sup>(١)</sup>؟ «تطابق ذهن المتأمل مع ذهن خصمه». ولكن ها هو هذا القول ينطبق على ستلمان الأب، وهو أمر قد يكون أسوأ كثيراً.

(١) بون، إدجار آلان (١٨٠٩ - ١٨٤٩): القاصّ والشاعر. والنّاقد الأمريكي أصدر ديوانه الأوّل «تيمورلنك وقصائد أخرى» من ١٨٢٧ م وديوانه الثاني «الأعراف» في ١٨٢٩ م =

أما فيما يتعلق بفرجينيا فإنني في حيرة من أمري. لا يرجع ذلك إلى القبلية وحدها، وقد يمكن تفسيرها بأيّ عدد من الأسباب، ولا ما قاله بيتر عنها، وهو ما لا أهمية له. زواجهما؟ ربما. عدم التوافق الكامل. ترى هل يمكن أن تكون ضالعة في الأمر من أجل المال؟ أم أنها تعمل على نحو من الأنحاء بالتواطؤ مع ستلمان؟ ذلك من شأنه أن يغيّر كلّ شيء. ولكن ذلك، في الوقت نفسه، لا معنى له. لماذا استعانت بي؟ لكي يكون لديها دليل على نواياها الحسنة الواضحة؟ ربما. ولكن ذلك يبدو شديد التعقيد. ومع ذلك: لماذا أشعر بأنها ليست من النوع الذي يوثق به؟

وجه ستلمان، مرّة أخرى. فكّرت في خلال الدقائق القليلة في أنني سبق لي أن رأيته. ربما قبل سنوات في الحي، قبل وقت إلقاء القبض عليه.

أن أتذكر الشعور الناجم عن ارتداء ملابس الآخرين. أعتقد أن البدء يكون بذلك. أحسب أنه لا بدّ من ذلك. في الأيام الخوالي، قبل ثمانية عشر أو عشرين عاماً، عندما لم يكن لديّ مال، وكان

---

= والثالث «الغُدا» وقصائد أخرى» في ١٨٤٥ م. ضمت مجموعته القصصية الأولى قصصاً نشرت في المجلّات ما بين عاميّ ١٨٣٩ و١٩٤٠ م وهي بعنوان «حكايات الغرائب والعربسات» ومن أشهر أعماله كذلك «فلسفة التآليف» الصادر في ١٨٤٦ م و«المبدأ الشعري» الصادر في ١٨٥٠ م. نال شهرة مدوية ولاسيما بعد وفاته، وكان من المعجبين به: بودلير، وايلد، روسيني، بيتل، فرويد، وغيرهم. والكتاب المقتطف من المتن «دوبين» صدر في العام ١٨٤١ م، ولفت الأنظار بغرابة الغازه، وإحكام نسج قصص التحريّ بشكل خاص.

(هـ . م .)

الأصدقاء يمنحونني ملابس لأرتديها. معطف «جي»، على سبيل المثال، في الكلية. والشعور الغريب الذي يساورني بأنني أتسر بل بجلده. ربما كانت تلك البداية.

ثم الأمر الأهم: تذكر من أكون. «تذكر من يُفترض أن أكون. لست أحسب أن تلك لعبة. ومن ناحية أخرى، ما من شيء يستمر بالوضوح. على سبيل المثال: من عسك تكون؟ وإذا كنت تحسب أنك تعرف لماذا تواصل الكذب فيما يتعلق بالأمر؟ ليست لدي إجابة. وكل ما أستطيع قوله هو ما يلي: أصغر إلي! اسمي بول أوتر، وذلك ليس اسمي الحقيقي.

امضى كوين صباح اليوم التالي في مكتبة كولومبيا مع كتاب ستلمان. وصل مبكراً، وكان أول شخص هناك لدى فتح الأبواب. وأدخل الصمت الذي ساد القاعات المرمرية الارتياح إلى نفسه، وكأنه سمح له بدخول سرداب للنسيان. وبعد أن قام، على نحو عاجل، بإطلاع المشرف، الجالس إلى مكتبه وقد أخذه النعاس، على بطاقة تخرجه، التقط الكتاب من أكداس الكتب، وعاد إلى الطابق الثالث، ثم استقر في مقعد جلدي أخضر، وثير، في إحدى قاعات التدخين. وتألقت صباح أيار (مايو) المنير في النماذج وكأنه إغواء ودعوة للتجول دوناً هدف في الهواء الطلق، ولكن كوين قاومه وأدار المقعد بحيث جعل ظهره إلى النافذة، وفتح الكتاب.

كان كتاب «الفردوس والبرج: التصورات الأولى للعالم الجديد» مقسماً إلى قسمين متساويين في الطول، على وجه التقريب، هما: «أسطورة الفردوس» و«أسطورة بابل». وتركز الأول على اكتشافات المكتشفين، ابتداءً من كولومبس واستمراراً حتى راليج. وذهب ستلمان إلى القول بأن أول من زاروا أمريكا كانوا يعتقدون أنهم قد عثروا مصادفة على الفردوس، على «جنة عدن» ثانية. فعلى سبيل المثال كتب كولومبوس في سرده لرحلته الثالثة يقول: «ذلك أنني أعتقد أن الفردوس المفقود يقع هنا، وما من أحد يستطيع دخوله إلا بأمر الرب». وأما فيما يتعلق بأهل هذه الأرض فإن بيتر مارتير سيكتب في وقت مبكر يعود إلى عام ١٥٠٥ قائلاً: يبدو أنهم يقطنون



في ذلك العالم الذهبي الذي يتحدث عنه الكتاب القدامى كثيراً، والذي يجيا فيه البشر ببساطة وبراعة من غير تطبيق للقوانين، ولا قضاة لحسم المنازعات، ولا منازعات قضائية، قانعين بإرضاء الطبيعة». أو على نحو ما سيكتب مونتاني الدائم الحضور، بعد ذلك بأكثر من نصف قرن: «في رأي أن ما نراه بالفعل في تلك الأمم لا يتجاوز كل الصور التي رسمها الشعراء عن العصر الذهبي فحسب، وكل ابتكاراتهم الممثلة للحالة السعيدة عندئذ للبشرية، وإنما كذلك مفهوم الفلسفة ذاتها ورغبتها». ويقول ستلمان إنه منذ البداية نفسها فإن اكتشاف العالم الجديد كان الدافع المعجل بالفكر الطوباوي، والشرارة التي منحت الأمل لقابلية الحياة الإنسانية للكمال، من كتاب توماس مور الصادر في ١٥١٦ حتى نبوءة جيرونيمو دي مينديتا القائلة بأن أمريكا ستصبح دولة ثيوقراطية مثالية، مدينة حقيقية للرب.

غير أن هناك وجهة معارضة. وإذا كان بعض الناس ينظرون إلى الهنود باعتبارهم يعيشون في براءة ما قبل السقوط، فقد كان هناك آخرون حكموا عليهم بأنهم حيوانات متوحشة، وشياطين في إهاب بشر. ولم يؤد اكتشاف أكلة لحوم البشر في الكاريبي إلى التخفيف من حدة هذا الرأي، واستخدم الإسبان هذا الاكتشاف كمبرر لقيامهم باستغلال السكان المحليين بلا رحمة، تحقيقاً لأغراضهم التجارية، ذلك أنك إذا لم تعتبر الإنسان المائل أمامك كائناً بشرياً، فلن تكون هناك إلا كوابح محدودة تسيطر على سلوكك نحوه. ولم يتم اعتبار الهنود بشراً حقيقيين لهم أرواح إلا في عام ١٥٣٧ مع المرسوم البابوي الذي أصدره البابا بولس الثالث. ورغم ذلك فقد استمر الجدل

طوال عدّة مئات من السنين، ووصل من ناحية إلى ذروته في «المتوحّش النبيل» عند لوك وروسو - الأمر الذي أرسى الأسس النظرية للديمقراطية في أمريكا مستقلة - ومن ناحية أخرى الحملة الرامية إلى القضاء على الهنود، وفي الاعتقاد الذي لم يمت بأنّ الهنديّ الجيّد الوحيد هو الهنديّ الميت.

واستهلّ القسم الثاني من الكتاب بتمحيص جديد لفكرة السقوط. وذهب ستلمان، معتمداً إلى حدّ كبير على ميلتون<sup>(١)</sup> والصورة التي رسمها في «الفردوس المفقود» - باعتبارها تمثل الموقف التطهيريّ الأصليّ - إلى القول بأنّ الحياة البشريّة على نحو ما نعرفها لم تظهر للوجود إلّا بعد السقطة فحسب، ذلك أنّه إذا لم يكن هناك شرّ في

---

(١) ميلتون، جون (١٦٠٨ - ١٦٧٤ م): الشاعِر البريطانيّ الشهير، ولد في بريد ستريت، بنثيسايد، وتلقّى تعليمه في مدرسة سانت بول وكريست كوليج في جامعة كامبردج. يتردّد أنّه أنجز رائعته المشار إليها في المتن «الفردوس المفقود» في العام ١٦٦٣ م، ولكن من الثابت أنّه لم يوقّع عقد حقوق عوائد نشرها إلّا في ١٦٦٧ م، وإن كان من المعروف أنّه قد أطلع ابن أخيه على مقاطع من الكتاب الرّابع منها في العام ١٦٤٢ م، وتشير كُرّاساته إلى أنّه فكّر في تأليف عمل إبداعيّ شامل من هذا النوع في وقت أكثر تبكيراً من ذلك. وعلى الرّغم من الاعتراف المبكّر به كعبقريّ في الشعر والنثر على حدّ سواء، إلّا أنّ شهرته تستند أساساً إلى «الفردوس المفقود». وقد تأثر به شعراء القرن الثامن عشر ونقّاده، ولكن حتى في تلك الفترة كانت هناك انتقادات عديدة له ولها، وقد ردّد تي. إس. إليوت صدى انتقادات جونسون وأديسون في ١٩٣٦ م، عندما هاجم ميلتون بضراوة، إلى حدّ القول بأنّ نزعه الحسيّة أودت بها قراءته، وقضى عليها عماء، وأنّه كان يكتب الإنجليزيّة كلغة ميتة، وقد عدّل وجهات نظره تلك في وقت لاحق، ومازال ميلتون يثير الخلاف حتى اليوم، وربّما كان هذا هو الدليل الأقوى على عبقرية الحقيقة.

(هـ . م .)

الجنّة فليس هناك أيّ خير. وكما عبّر ميلتون بنفسه «من قشرة تفّاحة واحدة جرى تذوّقها ظَهَرَ الخير والشرّ في الدّنيا، كتأمين ملتصقين». وقد جاء تعليق ستلمان على هذه الجملة مسهباً إلى حدّ كبير. فهو إدراكاً منه لإمكانية استخدام التوريات والتلاعب بالكلمات أوضح كيف أنّ كلمة «تذوّق Taste» هي بالفعل إشارة إلى الكلمة اللاتينية «Sapere» التي تعني في آن واحد «يتذوّق» و«يعرف» ومن هنا فإنّها تتضمّن إشارة باطنية إلى شجرة المعرفة: مصدر التفّاحة التي جلب مذاقها المعرفة إلى العالم، وهو ما يعني الخير والشرّ. وركّز ستلمان كذلك على أحجية كلمة «Cleave يلتصق» التي تعني «الاتصال» و«الانقسام» وتجسّد على هذا النحو معنيين متساويين ومتعارضين، الأمر الذي يجسّد بدوره وجهة نظر في اللّغة وجد ستلمان أنّها ماثلة في كلّ أعمال ميلتون. ففي «الفردوس المفقود» على سبيل المثال لكلّ كلمة رئيسية معنيان، معنى قبل السّقوط وآخر بعده. وليوضح ستلمان ما يقصده قام بعزل كثير من تلك الكلمات: Sinister وتعني شرّير أو منحوس، Serpentine وتعني أفعواني أو شيطاني، delicious وتعني مبهج أو شهّي - وأوضح أنّ استخدامها السّابق للسّقوط كان خالياً من الإشارات الأخلاقيّة، بينما استخدامها بعد السّقوط كان واقعاً في الظلال، وملتبساً، وترفده المعرفة بالشرّ. ولقد كانت مهمّة آدم الوحيدة في الجنّة هي أن يخترع اللّغة، وأن يخلع على كلّ مخلوق أو شيء اسمه. وفي حالة البراءة تلك فإنّ لسانه كان يمضي قدماً ليوكب العالم في سرعته. ولم تكن كلماته لصيقة فقط بالأشياء التي يراها، وأنما كشفت كذلك جوهر هذه الأشياء، وجلبتها إلى رحاب الحياة بالمعنى

الحرقيّ. فالشيء واسمه أمران يمكن أن يجلّ أحدهما محلّ الآخر. وبعد السقوط لم يعد هذا صحيحاً، وإنما انفصلت الأسماء عن الأشياء، وانتقلت الكلمات إلى مجموعة من العلامات التعسّفيّة، إذ فصلت اللّغة عن الرّب. ومن هنا فإنّ قصّة الفردوس لا تسجّل فقط سقوط الإنسان، وإنما سقوط اللّغة أيضاً.

وفي أواخر سفر التكوين هناك قصّة أخرى عن اللّغة. ويقول ستلمان إنّ قصّة برج بابل هي إعادة صياغة دقيقة لما حدث في الفردوس، ولكن مع توسيع نطاقها وجعلها عامّة في مغزاها لتشمل البشريّة بأسرها. وتتخذ القصّة معنى خاصّاً عندما يتمّ تدبّر موضعها في السفر: الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين الآيات من الأولى إلى التاسعة. وهذه هي الحادثة الأخيرة، على وجه التّحديد، من حوادث ما قبل التّاريخ في الإنجيل. فبعد ذلك يأتي العهد القديم ليكون حصراً سرداً لقصص العبرانيين. وبتعبير آخر فإنّ برج بابل ينهض باعتباره الصّورة الأخيرة قبل البداية الحقّة للعالم.

واستمرّت تعليقات ستلمان صفحات كثيرة، وقد بدأ بمسح تاريخيّ للتقاليد التفسيرية الكثيرة المتعلّقة بالقصّة، وفصل القول فيما يتعلّق بالأخطاء الكثيرة في القراءة التي دارت حولها، وانتهى بإيضاح مطوّل للأساطير ابتداءً من «أجاده» (وهي خلاصة وافية من التفسيرات الحاخامية لا ترتبط بالموضوعات القانونيّة). وكتب ستلمان يقول إنّه جرى بصفة عامّة القبول بأنّ البرج قد بني في حوالي عام ١٩٩٦ بعد الخلق. أيّ مجرد ثلاثمائة وأربعين عاماً بعد الفيضان «لثلاثين يوماً على

وجه كل الأرض»<sup>(١)</sup>. وقد جاء العقاب الذي أنزله الله كاستجابة لهذه الرغبة التي تناقضت مع وصية وردت قبل ذلك في سفر التكوين «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها» وذلك بتدمير البرج، ومن ثم فإنَّ الربَّ قد قضى على الإنسان بطاعة وصيته. غير أنَّ قراءة أخرى رأت في البرج تحدياً للربِّ. وقد حُدِّدَ نمرد، أول حاكم للعالم بأسره، باعتباره مصمِّم البرج: فقد أريد لبابل أن تكون مزاراً يرمز إلى شمولية سلطته. وقد كانت تلك هي الرؤية البرومثوسية للقصة، وهي معلقة على العبارات التالية: «هلمَّ نبين لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسَّماء» و«نصنع لأنفسنا اسماً» وأصبح بناء البرج الرغبة الاستحواذية الجارفة التي سيطرت على البشر، وغدت أكثر أهميَّة، حتى من الحياة ذاتها. وأصبحت كتل الأجر أعلى من البشر. ولم تتوقف النسوة العاملات عن العمل، حتى لولادة أطفالهنَّ، وإنَّما أودعن الأطفال المولودين لتوهم في مبدعاتهنَّ، وواصلن العمل. وكانت هناك فيما يبدو ثلاث مجموعاتٍ مختلفةٍ عاكفةٍ على العمل: أولئك الذين رغبوا في أن يقطنوا السَّماء، وأولئك الذين رغبوا في أن يجاربوا الربَّ، وأولئك الذين أرادوا عبادة الأصنام. وفي الوقت نفسه فقد اتَّحدت المجموعات الثلاث في جهودها، «وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة» وأثارت القوَّة الباطنيَّة للبشريَّة الموحدة سخط الربِّ «وقال الربُّ هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم،

(١) ترجمت كافة النصوص من الكتاب المقدس بمراجعة طبعة جمعيَّة الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، الصادرة في ١٩٧٧ م.

وهذا ابتداءؤهم بالعمل ، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه». وهذا الطرح هو صدى واع لكلمات الرب لدى طرده لأدم وحواء من الفردوس «وقال الرب الإله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً للخير والشر، والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجر الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن» ورغم ذلك فقد ذهبت قراءة أخرى إلى أن القصة قد قصد بها فحسب أن تكون طريقة لإيضاح تنوع الشعوب واللغات. ذلك أنه إذا كان البشر جميعاً قد انحدروا من آدم ومن بنيه، فكيف يمكن تعليل الخلافات الكبيرة بين الثقافات؟ وذهبت قراءة مماثلة إلى أن القصة كانت تفسيراً لوجود الوثنية وعبادة الأصنام - ذلك أنه حتى الوصول إلى هذه القصة يتم بتقديم البشر جميعاً بحسابهم من معتنقي التوحيد. وأما فيما يتعلق بالبرج ذاته فإن الأسطورة تذهب إلى أن ثلث البناء قد غاص في الأرض، وأن الحريق قد أتى على ثلث آخر، وترك ثلثاً قائماً. وقد هاجمه الرب بطريقتين؛ لإقناع الإنسان بأن الدمار عقاب إلهي، وليس ناجماً عن المصادفة. ومع ذلك فإن الجزء الباقي كان من الارتفاع بحيث تبدو شجرة النخيل من أعلاه جندباً صغيراً. وقد قيل كذلك إن في وسع الشخص أن يسير ثلاثة أيام في ظلّ البرج دون أن يغادره. وأخيراً - وقد ركّز ستلمان على ذلك كثيراً - فإن من كان يتطّلع إلى أطلال البرج كان يعتقد أنه ينسى كل ما عرفه.

لم يستطع كوين أن يجد علاقة هذا كله بالعالم الجديد. ولكن في ذلك الموضوع بدا فصل جديد. وعلى حين غرة راح ستلمان يناقش

حياة هنري دارك، وهو قسّ من قسس بوسطن، ولد في لندن عام ١٦٤٩ م (في اليوم الذي تمّ إعدام تشارلز الأوّل خلاله) وقدم إلى أمريكا في ١٦٧٥ م، ولقي حتفه في الحريق الذي شبّ في كامبردج بولاية ماساشوستس في ١٦٩١ م.

يقول ستلمان إنّ هنري دارك عمل في شبابه سكرتيراً خاصّاً لجون ميلتون - من ١٦٦٩ م حتى وفاة الشّاعر، بعد ذلك بخمس سنوات. وكان ذلك أمراً جديداً بالنّسبة لكوين، فقد بدا له أنّه يتذكّر أنّه قرأ في أحد المواضع أنّ ميلتون الضّير كان يُملي أعماله على إحدى بناته. وعلم أنّ دارك كان بيوريتانياً مشتدداً درس اللاهوت وكان من أنصار أعمال ميلتون المتحمّسين. وبعد أن قابل بطله في ملتي صغير في إحدى الأمسيات، دُعي لزيارة دار ميلتون في الأسبوع التالي، وأدى ذلك إلى المزيد من الزيارات، إلى أن بدأ ميلتون بالفعل يثق في دارك، ويعهد إليه ببعض المهامّ اليسيرة، مثل كتابة ما يُملي عليه، أو المضي بالشّاعر الضّير في شوارع لندن، أو قراءة أعمال القدماء على مسامعه. وفي خطاب يرجع إلى عام ١٦٧٢ م كتبه دارك إلى شقيقته في بوسطن أتى على ذكر مناقشات دارت مع ميلتون حول النقاط الأكثر دقّة في تفسيرات الإنجيل، ثمّ مات ميلتون، وشعر دارك بحزن قاهر. وبعد ستّة أشهر، وإذ ألقى إنجلترا صحراء قاحلة بالنّسبة له، وأرضاً لا تقدّم له شيئاً، فقد قرّر الهجرة إلى أمريكا. ووصل إلى بوسطن في صيف ١٦٧٥ م.

لم يُعرف الكثير عن سنواته الأولى في العالم الجديد. وقد تكهن ستلمان بأنّه ربّما كان قد رحل غرباً، منطلقاً إلى أرض لم توقع على

خرائط، غير أنه لم يمكن العثور على برهان حاسم يؤيد وجهة النظر هذه. ومن ناحية أخرى فإن إشارات معينة في كتابات دارك قد ألمحت إلى معرفة وثيقة بعبادات الهنود، الأمر الذي مضى بستلمان إلى النظرية القائلة بأن دارك يحتمل أن يكون قد عاش بين ظهراي إحدى قبائل الهنود لفترة من الوقت، ولكن مهما كان الأمر، فيما يتعلق بذلك، فلم تكن هناك إشارة علنية لدارك حتى ١٦٨٢ م عندما أدرج اسمه في سجلّ الزواج في بوسطن باعتباره متزوجاً بمن تُدعى لوسي فيتس. وبعد عامين أدرج في السجلات باعتباره متولياً رئاسة تجمع بيوريتاني في أطراف المدينة، وقد أنجب الزوجان كثيراً من الأطفال ولكنهم جميعاً ماتوا في طفولتهم. غير أن طفلاً يُدعى جون، وقد ولد في ١٦٨٦ م قد بقي على قيد الحياة. ولكنه ذُكر في عام ١٦٩١ م أنه سقط في حادثة من نافذة بالطابق الثاني، وتوفي. وبعد ذلك بشهر واحد التهمت السنة اللهب الدّار بأسرها، ولقي كل من دارك وزوجته حتفهما في الحريق.

كان يمكن أن يذهب هنري دارك في تضاعيف الغموض الذي يحيط بمستهلّ الحياة الأمريكيّة لولا أن شيئاً واحداً أنقذه من ذلك: إصدار كتيب في عام ١٦٩٠ م بعنوان «بابل الجديدة». ويقول ستلمان إن هذا العمل المحدود الذي لا يتجاوز أربعاً وستين صفحة، كان أبرز الأعمال الرؤيويّة التي صوّرت القارة الجديدة، حتى وقت كتابته، ولو أن دارك لم يميت بعد إصداره بوقت قصير لكان تأثيره أعظم بلا شك. ذلك أنه قدّر كما اتضح لمعظم نسخ الكتيب أن تُدمر في الحريق الذي لقي دارك مصرعه خلاله. وقد تمكّن ستلمان نفسه من اكتشاف نسخة واحدة، وذلك بمحض الصدفة، في عليّة دار عائلته



في كامبردج. وبعد سنوات من البحث الدائب وصل إلى استنتاج مُفاده أن هذه النسخة هي الوحيدة التي ماتزال موجودة.

دافع كتيّب «بابل الجديدة» المكتوب بنثر ميلتوني جريء عن قضية جعل أمريكا فردوساً. وعلى العكس من الكتاب الآخرين الذين تناولوا هذا الموضوع، فإن دارك لا يفترض أن الفردوس مكان يمكن أن يُكتشف، فلم تكن هناك خرائط يمكن أن تؤدّي إليه، وليست هناك أدوات ملاحية يمكن أن تُرشّد الإنسان إلى سواحله، وإنما وجوده ملازم بالحري لأعماق الإنسان، فكرة ما وراءٍ قد يأتي يوم يتم فيه خلقه في الـ «هنا» و«الآن». وكما أوضح دارك فإنّ اليوتوبيا لا وجود لها في أيّ مكان، بل إنها ليست موجودة حتى في «صياغتها اللفظية». ولو أنه كان بمقدور الإنسان أن يجلب هذا المكان الذي طالما حلم به، فإنّ ذلك لن يكون إلا من خلال إقامة صرحه بيديه.

وقد بنى دارك هذه الخلاصة التي وصلت إليها على قراءة لقصة بابل بحسبها عملاً أقرب إلى النبوءة. وبالاعتماد إلى حدّ كبير على تفسير ميلتون للسقوط، قام باتباع خطى معلّمه في تعليق أهميّة فائقة على دور اللّغة. ولكنّه مضى بأفكار الشّاعر خطوة أبعد. وإذا كان سقوط الإنسان يقتضي بالتبعية سقوط اللّغة، أفليس من المنطقي الافتراض بأنّه سيكون من الممكن قهر السّقوط وقلب آثاره من خلال قهر سقوط اللّغة، وبذل قصارى الجهد لإعادة خلق اللّغة التي كان يجري الحديث بها في جنة عدن؟ وإذا كان بمقدور الإنسان أن يتعلّم لغة البراءة الأصليّة تلك، أفلا يترتب على ذلك أنّه يستطيع بمقتضى الأمر استرداد حالة البراءة في أعماقه؟ وذهب دارك للقول بأنّه ما علينا إلا أن ننظر إلى مثال المسيح لكي ندرك أن الأمر كذلك. ألم

يكن المسيح إنساناً مخلوقاً من لحم ودم؟ ألم يتحدث لغة ما قبل السقوط؟ وفي «الفردوس المفقود» ليلتون يتحدث الشيطان «بخداع مزدوج المعنى» بينما المسيح «أعماله لكلياته صنو/كلماته تمنح قلبه الكبير ما يطابقه من القول، وقلبه/يضمّ من الخير والحكمة والعدل/الشكل الأكمل» والربّ ألم يرسل الآن بشارته الحيّة/إلى الدنيا ليعلم الإرادة النهائيّة/ويرسل روحه الحقّة من الآن فصاعداً لتستقرّ/في القلوب الورعة، بشارة كامنة/لكلّ ما تقتضي الحقيقة معرفته مني؟ وبسبب المسيح ألم ينته السقوط نهايةً بهيجة؟ وذهب دارك إلى القول بأنّه ينبغي على هذا أنّه سيكون من الممكن بالنسبة إلى الإنسان أن يتحدث لغة البراءة الأصليّة، وأن يستردّ الحقيقة في أعماق كاملة، ودوننا مساس بها.

وقام دارك، في غمار عكوفه على قصّته بابل عقب ذلك، بتفصيل القول في خطّته، وأعلن رؤيته للأشياء التي ستقع لاحقاً. واقتطف من الآية الثانية من الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين «وحدث في ارتحالهم شرقاً أنّهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا فيها». وذكر دارك أنّ هذه البقعة تثبت الحركة المتّجهة غرباً التي تقوم بها الحياة والحضارة البشريتان، ذلك أنّ مدينة بابل - أو بابليون - كانت تقع في بلاد ما بين النهرين، بعيداً إلى الشرق من الأرض التي نزل بها العبرانيون، وإذا كانت بابل تقع إلى الغرب من أيّ شيء فإنّ هذا الشيء هو جنة عدن، الموقع الأصلي للبشريّة. وواجب الإنسان هو أن يتفرّق في الأرض بأسرها استجابة لوصيّة الربّ القائلة «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» الأمر الذي سيمضي به حتماً إلى الانتقال غرباً. وما هي الأرض الأكثر إيغالاً باتجاه الغرب بالنسبة إلى أراضي

المسيحية بأسرها؟ تساءل دارك: أليست هي أمريكا؟ ومن ثم فإن حركة المستوطنين الإنجليز للعالم الجديد يمكن قراءتها باعتبارها تحقيقاً للوصية القديمة. لقد كانت أمريكا هي الخطوة الأخيرة في هذه العملية. وما إن تمتلئ القارة حتى يحين الوقت لتغيير مصير البشرية. والعائق الذي يحول دون بناء البرج - أي حتمية ملء الإنسان للأرض - ستم إزالته. وفي تلك اللحظة سيكون من الممكن مجدداً أن تتحدث الأرض بأسرها لغة واحدة ولساناً واحداً، وإذا ما قدر لذلك أن يحدث فإن الفردوس لا يعود بعيداً.

وتنبأ دارك بأنه كما جرى بناء برج بابل بعد الفيضان بثلاثمائة وأربعين عاماً فإنه بعد ثلاثمائة وأربعين عاماً من وصول السفينة «ماي فلاور» إلى بلايموث ستُنْفَذ الوصية، ذلك أنه من المؤكد أن البيوريتان، شعب الله المختار الجديد، هم الذين يمسون مصير البشرية بين أيديهم. وعلى العكس من العبرانيين الذين خذلوا الرب، برفض تقبل ابنه، فإن هؤلاء الإنجليز الذين نُقلوا إلى الأرض الجديدة، سيكتبون الفصل الأخير في التاريخ قبل أن تلتقي السماء والأرض آخر الأمر. وشأن نوح في فلكه، سيكونون قد قطعوا الفيضان المحيطي الهائل ليقوموا بمهمتهم المقدسة.

وفقاً لتقديرات دارك فإن ثلاثمائة وأربعين عاماً كان معناها أنه في عام ١٩٦٠ م سيكون الجزء الأول من عمل المستوطنين قد تم إنجازه، وسيكون الأساس قد أُرسِيَ للعمل الحقيقي الذي سيعقب ذلك: بناء بابل الجديدة. وكتب دارك يقول إنه يرى بالفعل مؤشرات مشجعة في مدينة بوسطن، ذلك أنه هناك، وعلى نحو لا يماثله أي مكان في العالم، يُعَدّ الأجر مادة البناء الرئيسية، وهي المادة التي

حُدِّدَتْ، على نحو ما هو موضح في الآية الثالثة من الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين، باعتبارها مادة بناء بابل. وذكر دارك بمزيد من الثقة أنه في ١٩٦٠ م ستبدأ بابل الجديدة في التصاعد، ويشمخ هيكلها نحو السماء كرمز لبعث الروح الإنسانيّة. وستعاد كتابة التاريخ على نحو معكوس، فما تهاوى سيرُفَع عماده، وما تحطّم سيعود كاملاً. ولدى اكتمال البرج سيكون من الضخامة بحيث يستوعب جميع سكان العالم الجديد. وستكون هناك غرفة لكل شخص، وبمجرد دخوله تلك الغرفة فإنه سينسى كل شيء كان يعرفه، وبعد أربعين يوماً وأربعين ليلة، سيخرج إنساناً جديداً يتحدث لغة الربّ، متأهباً لسكنى الفردوس الثاني الدائم.

هكذا انتهى تلخيص ستلمان لكتيب هنري دارك المؤرّخ في ٢٠ ديسمبر ١٦٩٠ م، أي الذكرى السبعين لرسو السفينة ماي فلاور. سدت تهيدة قصيرة عن كوين، وطوى الكتاب. كانت غرفة القراءة خاوية، فانحنى إلى الأمام، وأسند رأسه على كفيه، وأغمض عينيه، وقال بصوت عالٍ: «١٩٦٠ م». وحاول أن يتخيّل صورة لهنري دارك، ولكن شيئاً لم يرد على مخيلته، فلم ترتسم على مرآة ذهنه إلا نيران وحريق يلتهم كتباً، ثم فقد أثر خواطره والموضوع الذي كانت تقوده إليه، وتذكر فجأة أن ١٩٦٠ م كان العام الذي سجن ستلمان ابنه فيه.

فتح الكرّاسة الحمراء ووضعها معتدلة على حجره. وفيما كان يوشك على أن يسطر شيئاً فيها، قرّر أنه قد نال كفايته، فطوى الكرّاسة، ونهض من المقعد، وأعاد كتاب ستلمان إلى المكتب الأمامي. وأشعل سيجارة، في أسفل الدرج، وغادر المكتبة، وخرج إلى أصيل أيار (مايو).

وصل إلى محطة الجرانند سنترال، قبل مواعده بوقت طويل. ولم يكن من المنتظر وصول القطار الذي يستقله ستلمان حتى الساعة السادسة والدقيقة الحادية والأربعين، ولكن كوين أراد أن يتاح له الوقت لدراسة جغرافية المكان، للتيقن من أنه لن يكون بمقدور ستلمان أن يروغ منه. وعندما خرج من النفق وولج القاعة الهائلة، أدرك من خلال إلقاء نظرة على الساعة أنها لم تتجاوز الرابعة إلاً قليلاً. وكانت المحطة قد بدأت بالفعل تمتلئ بجمهور ساعة الذروة. فشق طريقه عبر ضغط الأجسام المقبلة، وقام بجولة في البوابات المرقمة، متطلعاً إلى السلام الخبيثة، والمخارج غير المشار إليها، والتجاويف المحفورة في الجدران التي يغمرها الظلام. وخلص إلى أنه إذا صمم رجل على الاختفاء فإن بمقدوره القيام بذلك في يسر، وعليه أن يعلق الآمال على أن ستلمان لم يتلق تحذيراً بأنه سيكون في انتظاره. وأما إذا كانت الحالة كذلك، وأفلح ستلمان في الروغان منه، فإن ذلك سيعني أن المسؤولية تقع على كاهل فرجينيا ستلمان، وما من أحد غيرها. وأدخل العزاء على نفسه أن يعرف أن لديه خطة بديلة، إن لم تسر الأمور على مايرام. فإذا لم يظهر ستلمان فإن كوين سيمضي مباشرة إلى الشارع التاسع والستين، ويواجه فرجينيا ستلمان بما عرفه.

وبينما هو يتجول في أرجاء المحطة ذكر نفسه بمن يفترض أن يكونه، وقد بدأ في تعلم أن تأثير كونه بول أوستر ليس بالتأثير السيئ تماماً. وعلى الرغم من أنه كان مايزال له الجسم نفسه، والذهن عينه، والخواطر ذاتها، إلا أنه شعر وكأنه انتزع من نفسه على نحو من

الأنحاء، وكأنه لم يعد مضطراً إلى السير حاملاً وقر وعيه. ومن خلال حيلة ذكية من حيل الذهن، تغيير صغير حاذق في الأسماء، أحس بأنه أكثر خفةً وتحرراً، على نحو لا سبيل إلى مقارنته. وعرف في الوقت نفسه أن الأمر بأسره ليس إلا وهماً، ولكن راحة معينة كمنت في قرار ذلك، فهو لم يفقد ذاته حقاً، وإنما هو يتظاهر فحسب، وبمقدوره أن يعود إلى كونه كوين حينها يشاء. وشكلت الحقيقة القائلة بأن هناك الآن هدفاً من وراء كونه بول أوتر - وهو هدف تزايد أهميته الآن بالنسبة له - شكلت نوعاً من التبرير الأخلاقي لهذه التمثيلية التحزيرية، وأعفته من الاضطرار إلى الدفاع عن نفسه، ذلك أن تصوّر نفسه باعتباره أوتر أصبح مرتبطاً في ذهنه بالقيام بالخير من الأعمال في هذا العالم.

راح يضرب في أرجاء المحطة، إذن، وكأنه في إهاب بول أوتر، منتظراً ظهور ستلمان. وتطلّع إلى سقف القاعة الهائلة المقنطر، وراح يتأمل جدارية الأبراج السماوية. كانت هناك مصابيح تمثل النجوم ورسوم خطية للأشكال السماوية. ولم يكن كوين قد تمكن من إدراك الصلة بين الأبراج وأسمائها قط، وكان في مرحلة الصبا قد أمضى ساعات عديدة تحت السماء الملتفة بالليل، محاولاً مطابقة نثار الأضواء الدقيقة مع أشكال الدبية والثيران والرماة والدلاء. ولكن ذلك لم يفض إلى شيء قط، وساوره شعور بالغباء، وكأنما هناك بقعة عمياء في مركز نحه. وراح يتساءل عما إذا كان أوتر في يفاعته أفضل حالاً منه في هذا الشأن.

عبر الطريق، وبعرض الجزء الأكبر من الحائط الشرقي للمحطة،

كانت هناك لوحة عرض صور كوداك، بألوانها الوهاجة التي لا تبدو منتمية إلى الأرض. وقد ضمّ مشهد هذا الشهر شارعاً في إحدى قرى الصيد في نيوإنجلاند، وربما كانت قرية نانتيكين. وتألّق سني ربيعيّ جميل على الأحجار التي رصف بها الشارع، ولاحت زهور متعدّدة الألوان في أصص النوافذ، على امتداد واجهات الدّور، وبعيداً في الأسفل، عند نهاية الشارع، امتدّ المحيط بأموّاجه الشّهباء ومياهه الزّرقاء، الزّرقاء. وتذكّر كوين زيارته لنانتيكيت مع زوجته، منذ وقت، خلال الشّهر الأوّل لحملها، عندما كان ابنه لا يتجاوزر حجم لوزة صغيرة في بطنها. ووجد من المؤلم التّفكير في ذلك الآن، وحاول أن يقهر الصّور التي راحت تتشكّل في رأسه. قال لنفسه: «انظر إلى الأمر من خلال عينيّ أوستر، ولا تفكّر في أي شيء آخر!». وحول انتباهه من جديد، وأحسّ بالارتياح؛ إذ وجد أفكاره تدور حول موضوع الحيتان، والرّحلات التي انطلقت من نانتيكيت في القرن الماضي. وحول ملفيل<sup>(١)</sup> والصفحات الاستهلالية من «موبي ديك». ومن هناك انطلق ذهنه إلى الصّور التي قرأها عن ملفيل في السّنوات الماضية، العجوز الصموت الذي يعمل في مبنى جمارك نيويورك، دونما قرّاء، وقد نسيه الجميع، ثمّ فجأة أو بوضوح بالغ، ودقّة شديدة، رأى واجهة بارتلباي والجدار المبنيّ بالأجر أمامها.

(١) ملفيل، هرمان (١٨١٩ - ١٨٩١ م): الرّوائي، والشاعر الأمريكي، ولد في نيويورك ابناً لعائلة عريقة تمتهن العمل بالتجارة، وبعد تعرّض عمل والده لمشكلات جسيمة ووفاة هذا الوالد في ١٨٣٢ م اضطر إلى وقف الدّراسة وبدء حياته العملية، وعمل على تعليم نفسه، ملتهماً شكسبير، والكتاب المقدّس، وكتاب القرن السابع عشر

ربت أحدهم على ذراع كوين، فالتفت ليواجهه، ورأى رجلاً قصيراً، صامتاً، ممسكاً بقلم جافٍ، يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر، وقد غرس فيه عَلمٌ ورقيٌّ صغير أبيض كُتب على أحد جانبيه: «هذه المادّة الجيِّدة مجاملة من أصمّ أخرس. ادفع أيّ سعر. شكراً لمساعدتك». وعلى الجانب الآخر من العلم كان هناك رسم للأبجدية اليدوية - تعلّم الحديث مع أصدقائك - التي توضح أوضاع اليد لكلّ حرف من الحروف الستة والعشرين. دسّ كوين يده في جيبه، وأعطى الرجل دولاراً. وأوماً الرجل الأصمّ مرّة واحدة بإيجاز، ثمّ مضى تاركاً كوين والقلم في يده.

تجاوزت الساعة الآن الخامسة. ورأى كوين أنه سيكون أقلّ تعرّضاً للاكتشاف في بقعة أخرى، فانتقل إلى قاعة الانتظار. وكانت تلك القاعة بصفة عامّة مكاناً جهماً، مليئاً بالغبار والنّاس، ولكنها الآن، وقد بلغت ساعة الذروة أشدها، امتلأت بالرجال والنساء الذين يحملون الحقائب والكتب والصحف. ولقي كوين مشقّة في

= التأمّلين من أمثال سيرّي. براون، وكثيراً من كتاب التاريخ والأنثروبولوجيا الذين شكّلوا دعماً لأعماله، في وقت لاحق. وتعدّ رائعته الواردة في المتن والصادرة في العام ١٨٥١ م أقرب نقطة بلغتها الولايات المتحدة في إبداع نشرها للمحمي الخاص. والإشارة إلى عمل ملقيل بجمارك نيويورك صحيحة، فقد أصدر روايته الأخيرة «رجل الثقة» في العام ١٨٥٧ م ومينيت جولة قام بها لإلقاء المحاضرات بالفشل، فعمل بجمارك نيويورك، وظلّ حتى نهاية حياته نموذجاً للكاتب العملاق الذي لم يفهمه عصره، ولم يقدره، وطاردته الرقابة وموجات الإهمال والنسيان، ولم تعرف أعماله الشهرة الحقيقيّة إلا ابتداء من عشرينيات القرن الحالي. ولعلّ القارئ لا تغيب عنه الإشارة إليه في نهاية الثلاثيّة.

(هـ - م.٠)



العثور على مقعد. وبعد البحث دقيقتين أو ثلاث دقائق، وجد أخيراً موضعاً على إحدى الأرائك، فجلس فارضاً نفسه بين رجل يرتدي حلة زرقاء وشابّة ممتلئة القوام. وكان الرجل عاكفاً على قراءة القسم الرياضي في صحيفة «نيويورك تايمز»، فاختلس كوين النّظر من فوق كتفه ليقراً تغطية المباراة التي هُزم فيها البارحة فريق المينس، ووصل إلى الفقرة الثالثة أو الرابعة، عندما التفت الرجل ببطء نحوه ورمقه بنظرة غاضبة، ونحى الصحيفة بعيداً عن نظريه.

وحدث بعد ذلك شيء غريب. فقد تحوّل كوين بانتباهه إلى الفتاة الجالسة إلى يمينه ليرى ما إذا كانت هناك مادة يمكن قراءتها في ذلك الاتجاه. وحنّ كوين أنّ عمرها حوالي العشرين. وكانت هناك عدّة بثور على وجنتها اليسرى أخفتها بلمسة من مادة تجميلية حمراء وردية، وراحت تدوير قطعة من العلكة في فمها. غير أنّها كانت تقرأ كتاباً، كتاباً ورقياً الغلاف، لونه متوهج كالنّار، وانحنى كوين إلى يمينه قليلاً ليلقي نظرة على العنوان. وخلافاً لكلّ توقّعاته، كان الكتاب من تأليفه بعنوان «مأزق الانتحار» تأليف وليام ولسون، أوّل رواية يظهر فيها ماكس ورك. وكان كوين قد تصوّر هذا الموقف كثيراً: السرور المفاجئ وغير المتوقّع النّابع من لقاء قرّائه. بل إنّه تخيّل الحوار الذي سيعقب ذلك: سيدو حياً ومتواضعاً، على نحوٍ رقيق، فيما الغريب يُشيد بالكتاب، ثمّ بمزيد من التردّد والتواضع يوافق على أن يكتب إهداء موقعاً على الغلاف الداخليّ، قائلاً: «مادمت تصرّ». ولكنّه الآن، وفيما المشهد يحدث، شعر بخيبة أمل بالغة، بل وبالغضب. لم تُرَق له الفتاة الجالسة إلى جواره، وأثار ضيقه أنّها لم تتجاوز

الصفحات التي كبدته الكثير من الجهد. وأحسّ بدافع يحدوه إلى انتزاع الكتاب من يديها والانطلاق عدواً عبر المحطة به.

تطلّع إلى محيّاها من جديد، محاولاً الاستماع إلى الكلمات التي تردّها في ذهنها، مراقباً عينيها وهما تتفافزان جيئة وذهاباً عبر الصفحة. ولا بدّ أنّه كان يحدّق فيها بشدّة؛ لأنّها بعد لحظة التفتت إليه، وقد بدا الضيق على ملامحها، وقالت:

- هل هناك مشكلة، يا سيّد!؟

ابتسم كوين متراجعاً، وقال:

- لا مشكلة هناك. كنت أتساءل فقط عمّا إذا كان الكتاب قد أعجبك.

هزّت الفتاة كتفيها، وقالت:

- قرأت ما هو أفضل، وما هو أسوأ.

أراد كوين إيقاف الحديث عند هذا الحدّ، ولكنّ شيئاً في أعماقه ألحّ عليه، وقبل أن يتمكّن من النهوض والمغادرة كانت الكلمات قد انسابت من فمه:

- أتجدينه ممتعاً؟

هزّت الفتاة كتفيها؛ وأطلقت صوتاً عالياً بكلماتها:

- نوعاً ما. هناك الجزء الذي يصل فيه التحريّ إلى الطريق، وهو

مخيف إلى حدّ ما.

- هل هو تحرّ ذكيّ؟

- نعم، إنّه ذكيّ، ولكنّه يتحدّث أكثر مما ينبغي.

- أتحيين المزيد من الحركة والإثارة؟

- أعتقد ذلك .

- إذا لم يكن يعجبك فلماذا تواصلين القراءة؟

- لست أدري .

قالتها الفتاة، وهزّت كتفيها مجدداً:

- إنه يساعد في قضاء الوقت، فيما أحسب، على أية حال، ليس بالأمر المهمّ. إنه كتاب لا غير.

كان على وشك إبلاغها بهويته، ولكنه ما لبث أن أدرك أن الأمر لا يدعو للاكتراث. فالفتاة تدعو لليأس، وقد احتفظ على مدى خمس سنوات بهوية وليام ولسون سراً، وهو لن يقدم الآن على الكشف عنها لغريبة لا شأن لها. ومع ذلك فقد كان الأمر مؤلماً، وجالد نفسه يائساً للحفاظ على كبريائه. وبدلاً من أن يلکم الفتاة في وجهها، وقف، على حين غرة، ومضى بعيداً.

في السادسة والنصف اتخذ موضعاً أمام البوابة الرابعة والعشرين. وكان من المتوقع أن يصل القطار في موعده المحدد، وقدّر أنه من موقعه المتقدّم، وسط الطريق إلى باب الخروج، ستكون فرصته في رؤية ستلمان جيّدة. وأخرج الصورة من جيبه، وراح يمعن النظر فيها مجدداً، مبدياً اهتماماً خاصاً بالعينين. وتذكّر أنه قد قرأ في أحد المواضيع أن العينين هما الملمح الذي لا يتغيّر في الوجه أبداً. فهما تظللان على ما هما عليه، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، والإنسان الذي يهتم بهذا الجانب يمكن نظرياً أن يتطلّع إلى عينيّ صبيّ في صورة، ويتعرّف على الشخص نفسه، وهو في شيخوخته. وكانت لكوين شكوكه حيال ذلك، ولكن هذا كان كلّ ما لديه كمنطلق لمسيرته،

الجسر الوحيد الذي يربطه بالحاضر. غير أن وجه ستلمان لم يُفصح من جديد عن شيء يُذكر

بلغ القطار المحطة، وشعر كوين بالضجة التي أحدثها تخرق جسمه: جلبة بدت كأنها تخالط نبضه، وتضخ دمّه في دقات صاحبة. وعندئذٍ امتلأ رأسه بصوت بيتر ستلمان، دفقاً من اللغو يرتطم بجدران جمجمته، وحدث نفسه بأن عليه الاعتصام بالهدوء، ولكن ذلك لم يُحسّن الوضع إلا قليلاً، وعلى الرغم مما كان يتوقّعه من نفسه في هذه اللحظة فقد ساوره شعور بالانفعال الحاد.

كان القطار مزدحماً، وفيما بدأ الرّكاب يملأون الطّريق المنحدر، ويقبلون نحوه، غدوا حشداً هائلاً، وراح كوين يلطم فخذه الأيمن في عصبية بالكراسة الحمراء، ووقف على أطراف أصابع قدميه. كان هناك رجال ونساء، أطفال وكهول، مراهقون وأطفال حديثو الولادة، أثرياء وفقراء، رجال سود ونساء بيضاوات، رجال بيض ونساء سوداوات، شريقيون وعرب، رجال يرتدون ثياباً بنّية ورمادية وزرقاء وخضراء، ونسوة ترتدين ثياباً حمراء وبيضاء وصفراء ووردية، أطفال ينتعلون أحذية رياضية، وأطفال ينتعلون أحذية عادية، وأطفال ينتعلون أحذية رعاة البقر، أناس بدينون، وأناس ناحلون، قوم طوال، وقوم قصار، كلّ منهم مختلف عن الآخرين كافة، وكلّ منهم هو ذاته على نحوٍ يستعصي على التقليل. راح كوين يرقبهم جميعاً، وهو واقف في موضعه، وكأنّه نفى كيانه بأسره إلى عينيه. وكان في كلّ مرّة يقرب خلالها رجل متقدّم في العمر يتوقّع أن يكون ستلمان. وكانوا يقبلون ويمضون على نحوٍ أسرع من أن يدع له مجالاً للشعور

بخيبة الأمل، ولكنه بدا وكأنه يجد في كل وجه أوغل صاحبه في العمر لمسة مما سيكون عليه ستلمان الحقيقي، ومضى ينقل توقعاته مع كل وجه جديد، وكان تراكم الموغلين في العمر يعجل بالوصول الوشيك إلى ستلمان نفسه. وحدث كوين نفسه للحظة قصيرة قائلاً: «هذا هو إذن ما عليه عمل التحري». ولكنه بخلاف ذلك لم يفكر في شيء آخر. ومضى يراقب. وقف بلا حراك وسط جمع غفير متحرك، وأخذ يعين في المراقبة.

وبمرور حوالي نصف الركاب، الآن، لمح كوين ستلمان للمرة الأولى. بدا التشابه مع الصورة مما لا تخطئه العين. لا، لم يدركه الصلح، على نحو ما اعتقد كوين أنه يمكن أن يحدث له. كان شعره أبيض اللون، وقد تراكم فوق رأسه، من غير أن يمتد إليه مشط، في خصلات ترتفع هنا وهناك. كان طويل القامة، ناحلاً، وقد تجاوز الستين من عمره، دونما شك، وبدا محدودباً بعض الشيء، وقد ارتدى، على نحو لا يناسب هذا الوقت من العام، معطفاً بنياً نال منه البلى، ومضى يجر قدميه في سيره. وبدا التعبير المرتسم على وجهه هادئاً، في موضع وسط بين الإغفاء والغرق في التفكير، ولم يلق نظرة على الأشياء من حوله، كما لم يبد أنها كانت تثير اهتمامه. وكان يحمل من المتاع حقيبة واحدة، كانت جميلة ذات يوم، ولكن جلدها لاح الآن مهترئاً. وفيما كان يمضي صعداً في الطريق الصاعد، وضع الحقيبة مرة أو مرتين على الأرض والتقط أنفاسه للحظة. وبدا أنه يتحرك بعناء، وقد نحاه الجمع في سيره قليلاً، ولم يكن متيقناً مما إذا كان عليه أن ينطلق قدماً، أو أن يدع الآخرين يتجاوزونه.

تراجع كوين عدّة أقدام واضعاً نفسه في موضع ينطلق منه سريعاً، إلى اليمين أو إلى اليسار، بحسب ما يحدث. وفي الوقت نفسه أراد أن يكون بعيداً بما فيه الكفاية، بحيث لا يشعر ستلمان بأنّ هناك من يتبعه.

عندما وصل ستلمان إلى عتبة المحطّة، وضع حقيبته على الأرض مجدّداً، ووقف صامتاً. وفي تلك اللّحظة سمح كوين لنفسه باختلاس نظرة إلى يمين ستلمان، مُحمّلاً في سائر الحشد ليتأكّد تماماً من أنّه لم يرتكب أيّ خطأ. وما حدث عندئذٍ تحدّى التفسير، فوراء ستلمان مباشرة لاح للعيان، على بعد بوصات قليلة من كتفه اليمني، رجل آخر، توقّف وأخرج قدّاحة من جيبه وأشعل سيجارة. كان وجهه نسخة طبق الأصل من وجه ستلمان. ولثانية خيّل لكوين أنّه خداع بصريّ، نوع من الهالة التي أحدثتها التيارات الكهرومغناطيسيّة المنبعثة من جسم ستلمان. ولكن لا، فقد تحرك ستلمان الآخر هذا، وتنفس، وأغمض عينيه وفتحهما، وكانت تحركاته مستقلّة على نحو جليّ عن تحركات ستلمان الأوّل. ولقد حظي ستلمان الثاني بما يوحى بالرفاهيّة، فقد كان يرتدي حلّة زرقاء فاخرة، وبدا حذاؤه ملتصعاً، وشعره الأسود مرجّلاً، وفي عينيه ارتسمت النظرة المتمرّسة التي يحظى بها رجل عركته الدّنيا. وكان بدوره يحمل حقيبة واحدة هي حقيبة أوراق سوداء، أنيقة، في حوالي حجم حقيبة ستلمان الآخر.

جد كوين في موضعه، فلم يكن هناك شيء يمكن أن يقوم به الآن ولا يدخل في نطاق الخطأ. وأياً كان الخيار الذي سيقوم به - وقد كان عليه أن يختار - فإنّه سيكون خياراً اعتباطياً، خضوعاً للمصادفة.

ولسوف يطارده الشك حتى النهاية. وفي تلك اللحظة بدأ ستلمان الأول والثاني في شقّ طريقهما من جديد. فانعطف الأول يمينا والثاني يساراً. وتاق كوين إلى أن يكون له جسم أميبا، رغبة منه في أن يقسم نفسه إلى قسمين، وينطلق في اتجاهين، في وقت واحد. قال لنفسه: «افعل شيئاً، افعل شيئاً الآن أيها الأبله»!

دوفا سبب محدّد يدعو لذلك مضى كوين إلى اليسار، وراء ستلمان الثاني. وبعد تسع خطوات أو عشر توقّف. حدّثه شيء ما بأنّه سيندم طوال حياته على ما يقوم به الآن، وكان يتحرّك رغماً عنه مدفوعاً إلى معاقبة ستلمان الثاني على تشويشه إيّاه. والتفت إلى الورا نحو ستلمان الأول فالفاه يجرّ قدميه جرّاً، مبتعداً في الاتجاه الآخر. من المؤكّد أنّ هذا هو الرّجل المنشود. هذا المخلوق الرّث، المحطّم تماماً، والمنفصل عمّا حوله هو يقيناً ستلمان المجنون. تنفّس كوين الصعداء، بصدر مرتجف، والتقط أنفاسه من جديد. لم يكن هناك من سبيل لمعرفة الحقيقة، لا هذه الحقيقة، ولا أيّ حقيقة أخرى. ومضى وراء ستلمان الأول، مبطّناً من مسيرته لتوافق مع مشية العجوز، وتبعه إلى النفق.

بلغت الساعة الآن السابعة، على وجه التقريب، وشرعت الحشود في الانحسار. وعلى الرّغم من أنّ ستلمان بدا كمن يسير في الضباب، إلّا أنّه كان يعرف إلى أين يمضي. فقد توجّه البروفسور مباشرة إلى درج النفق، ودفع أجرة البطاقة في الكشك المخصّص لذلك، وانتظر في هدوء على رصيف القطار الدّاهب إلى تايمز سكوير. وبدأ خوف كوين من أن يتمّ اكتشافه ينجاب عنه، فلم يسبق له أن رأى من قبل قطّ أيّ شخص مستغرق بكلّيته في أفكاره على هذا النحو. وحتى لو

وقف كوين مباشرة أمام ستلمان، فإنه يشك في أن هذا الأخير سيكون قادراً على رؤيته .

انطلقا بالقطار إلى الوست سايد، وسارا عبر ممرات الشارع الثاني والأربعين الشديدة الرطوبة، وهبطا مجموعة أخرى من السلام إلى قطارات السكك الحديدية الدولية. وبعد سبع دقائق أو ثمانٍ استقلالاً قطار برودواي السريع، ومضيا بعيداً عن مركز المدينة محطتين ممتدتين، وترجلاً في الشارع السادس والتسعين، وصعدا على مهل السلام النهائية، وتوقفوا عدة مرات مع وضع ستلمان حقيبته على الأرض والتقاطه لأنفاسه. وخرجا إلى السطح، عند المنعطف، وأطلاً على المساء المكتسي بالزُرقة النيلية. ولم يتردد ستلمان، ودونما توقف لاستجماع شتاته شرع في السير صعوداً في برودواي على امتداد الجانب الشرقي من الشارع. ولعدة دقائق داعب كوين الاعتقاد المجافي للمنطق بأن ستلمان يمضي إلى منزله الكائن في الشارع مائة وسبعة. ولكن قبل أن يستطيع الانغماس في الدُعر بكامل أبعاده حيال هذه الفكرة، توقف ستلمان عند ركن الشارع التاسع والتسعين، وانتظر تغير إشارة المرور من الضوء الأحمر إلى الضوء الأخضر، وعبر إلى الجانب الآخر من برودواي. وعند منتصف كتلة المباني كان هناك فندق رخيص مما يُرتاد للمتعة العابرة، هو فندق «هارموني»، وقد مرّ به كوين مرّات كثيرة من قبل، واعتاد مرأى السكّيرين والمشرّدين الذين يمشون في هذا المكان. وأدهشه أن يرى ستلمان يفتح الباب الأمامي ويدخل البهو. وقد افترض من قبل على نحو من الأنحاء أن العجوز سيجد مقراً مريحاً له على نحو يفوق هذا. ولكن فيما وقف



كوين خارج الباب الزجاجي ورأى العجوز يمضي إلى مكتب الاستقبال، ويكتب ما كان من المحقق أنه اسمه في سجل النزلاء، ويلتقط الحقيبة، ويختفي داخل المصعد، أدرك أن هذا هو المكان الذي قصد ستلمان النزول فيه.

انتظر كوين خارج الفندق، على امتداد الساعتين التاليتين، قاطعاً الرصيف أمام كتلة المباني، جيئة وذهاباً، معتقداً أن ستلمان ربما خرج بحثاً عن طعام العشاء في أحد المقاهي القريبة. ولكن لم يبدُ للعجوز أثر، وفي النهاية توصل كوين إلى أنه قد أوى إلى فراشه. واتصل من كشك الهاتف عند المنعطف بفرجينيا ستلمان مقدماً لها تقريراً كاملاً عما حدث، ثم اتجه إلى داره في الشارع مائة وسبعة.

في صباح اليوم التالي، وفي أيام كثيرة أعقبته، احتلّ كوين موقعاً لنفسه على أريكة في الجزيرة المخصصة لفصل اتجاهات المرور في برودواي والشارع التاسع والتسعين. وكان يصل مبكراً في موعد لم يتجاوز السابعة قط، ويجلس هناك مع قده قهوة مما يُباع للمارة وشريحة معجنات بالزبد، وقد وضع صحيفة على حجره، وعكف على مراقبة باب الفندق الزجاجي. وفي حوالي الثامنة كان ستلمان يخرج على الدوام وقد ارتدى معطفه البني الطويل، حاملاً حقيبة كبيرة عتيقة الطراز من النوع السجادي الذي يعلّق على الجنب، متديلاً من الكتف. ولم يتغير هذا النمط الثابت على امتداد أسبوعين. ثم يمضي العجوز ضارباً في الشوارع بالحّي، متقدماً على مهل، ومحققاً في بعض الأحيان أبطاً تقدّم يمكن تصوّره، متوقفاً، ومعاوداً السير من جديد، ومتوقفاً مجدداً، وكأنّ كلّ خطوة ينبغي أن تقدر وتقاس قبل أن يمكن انجازها، في إطار المجموع الكلي للخطوات. وكان التحرك على هذا النحو صعباً بالنسبة إلى كوين، فقد اعتاد السير في حدة ونشاط، وقد بدأ هذا الانطلاق والتوقف وجرّ القدم يُثقل على أعصابه، وكأنّ إيقاع جسمه يجري تشويشه. لقد كان الأرنب في السباق مع السلحفاة، واضطر لتذكير نفسه مراراً وتكراراً بأنّ عليه التراجع في مشيته.

ظُلّ ما يقوم به ستلمان في هذه الجولات أقرب إلى أن يكون لغزاً بالنسبة إلى كوين. إنّه يستطيع، بالطبع، أن يرى بأمّ عينه ما يحدث، وقد سجلّ كلّ هذه الأمور بدأب في كراسته الحمراء. ولكن مغزى

هذه الأمور واصل مراوغته. فلم يبذ قط أن ستلمان ذاهب إلى جهة بعينها، كما لم يبذ أنه على معرفة بمكان وجوده. ومع ذلك فقد واصل، كما لو كان من خلال تصميم واع، المضي في منطقة محدّدة بشكل ضيق، مقتصرة على الشّارع مائة وعشرة شمالاً والشّارع الثاني والسبعين جنوباً وحديقة ريفر سايد غرباً وأمستردام أفنيو شرقاً. وبغض النظر عن العشوائية التي بدا أن رحلاته تتسم بها فإنه لم يحدث قط أن عبر هذه الحدود. وقد أثارَت هذه الدّقة حيرة كوين لأن ستلمان بدا في كافّة الجوانب الأخرى وكأنه يضرب على غير هدى.

لم يكن ستلمان ينظر إلى ما أمامه، وهو ماضٍ في سيره، وكانت عيناه مرّكزتين على الرّصيف دوماً، وكأنه عاكف على البحث عن شيء. وبين الحين والآخر كان ينحني حقاً، ويلتقط شيئاً من الأرض، ويفحصه عن كثب، ويقبّله في يده مراراً وتكراراً، وذكر ذلك كوين بباحث آثارٍ يتفقد كسرة من فخارٍ في موقع للآثار يعود إلى ما قبل التاريخ. وبين الفينة والأخرى، وبعد العكوف على شيء بهذه الطّريقة، كان ستلمان يُلقي به إلى عُرض الطّريق مجدّداً، ولكنّه كان في أغلب الأحوال يفتح حقيبتيه ويضع الشيء برفق داخلها، ثمّ يدس يده في أحد جيوب معطفه، ويخرج كرّاسة حمراء - مماثلة لكرّاسة كوين، ولكنها أصغر منها - ويكتب فيها بتركيز كبير، للحظة أو لحظتين. وبعد أن يكمل هذه العمليّة يعيد الكرّاسة إلى جيبه، ويلتقط حقيبتيه، ويواصل سيره.

بقدر ما يستطيع كوين أن يحدّد فإنّ الأشياء التي راح ستلمان يجمعها لم تكن لها أيّة قيمة، فقد بدا أنها لا تتجاوز أشياء مكسورة

ألقي بها جانباً، قطعاً من النفايات. وخلال الأيام الماضية لاحظت شمسيةً متهاوية جردت من قماشها، ورأس دمية مطاطية مقطوعاً، وقفازاً أسود، والجزء السفلي من مصباح كهربائي مكسور، وقطعاً كثيرة من مواد مطبوعة (مجلات متسخة، صحف ممزقة) وصورة ممزقة، وقطعاً مجهولة من أجزاء ماكينات، وقطعاً أخرى من أشياء مختلفة لم يستطع تحديدها. وأثارت اهتمام كوين الحقيقة القائلة بأن ستلمان يحمل هذا النثار التافه حمل الجدّ، ولكنه لم يستطع القيام بشيء إلاّ المراقبة وتسجيل ما يراه في الكراسي الحمراء، والتحويم في بلاهة على سطح الأمور. وأسعده في الوقت نفسه أن يعرف أن لدى ستلمان بدوره كرّاسة حمراء، كما لو كان ذلك يشكّل رابطة سرّية بينهما. وتشكك كوين في أن كرّاسة ستلمان تحتوي على إجابات على الأسئلة التي تتراكم في ذهنه، وشرع في إعداد خطط لسرقتها من العجوز، ولكنّ الوقت لم يكن قد حان بعد للقيام بمثل هذه الخطوة.

لم يبدو أن ستلمان يقوم بأيّ شيء آخر، بخلاف التقاط الأشياء من الطّريق. ومن وقت لآخر كان يتوقّف في أحد المواضع لتناول وجبة طعام. وبين حين وآخر يصطدم بأحد الأشخاص، ويدمدم باعتذار عن ذلك. وذات مرّة أوشكت سيّارة أن تدهسه وهو يعبر الشّارع. ولم يحدث أحداً، فلم يمضِ إلى أيّ متجر، ولم يتسم. ولم يكن يبدو حزيناً ولا سعيداً. وحدث مرتين، وقد بدا أن حمولته التي قام بالتقاطها أكبر من المعتاد، أن عاد إلى الفندق في منتصف اليوم ثمّ ما لبث أن ظهر مجدداً بعد دقائق معدودات بحقيبة خاوية. وفي معظم الأيام كان يقضي عدّة ساعات على الأقلّ في حديقة ريفر سايد، ماضياً بصورة

منهجية على امتداد طرق المشاة المرصوفة بالحصى، أو يشق طريقه بين الأشجار منحياً فروعها بعضها، ولم يتراجع بحثه عن الأشياء وسط الخضرة. أحجار، أوراق أشجار، أغصان، كل ذلك شق طريقه إلى حقيقته، بل لقد لاحظ كوين ذات مرة أنه انحنى على فضلات كلب جافة، واشتمها بحرص، واحتفظ بها. وكان كذلك ينال قسطه من الراحة في الحديقة. وفي الأصائل، وغالباً بعد أن يتناول طعام غدائه، كان يقعد أريكة، ويحدق باتجاه نهر الهدسون. وذات يوم حار، على نحو خاص، رآه كوين متمدداً على النجيل يغط في نومه. وعندما يحل الظلام، كان ستلمان يتناول عشاءه في مقهى أبوللو، على ناصية الشارع السابع والتسعين وبرودواي، ثم يعود إلى فندقه لقضاء الليل. ولم يحدث مرة واحدة أن حاول الاتصال بابنه. وقد أكدت فرجينيا ستلمان ذلك لكوين الذي كان يتصل بها هاتفياً بعد عودته إلى الدار.

كان الشيء الجوهرى هو البقاء في إطار من الاهتمام، فقد بدأ كوين يشعر شيئاً فشيئاً بأنه معزول عن مقاصده الأصلية، وراح الآن يتساءل عما إذا لم يكن قد انطلق في مشروع عبثي. لقد كان من الممكن بالطبع أن ينفق ستلمان وقته في الوصول بالعالم إلى اللامبالاة قبل أن يوجه ضربته. ولكن ذلك يعني افتراض أنه مدرك لوجود من يراقبه، وقد شعر كوين بأن ذلك ليس بالأمر المحتمل. لقد أدى عمله على مايرام حتى الآن، وظل على مسافة معقولة من العجوز، مختلطاً بحركة المرور في الشارع من غير أن يلفت الأنظار إليه أو يتخذ إجراءات متطرفة لإبعاد نفسه عن الأنظار. وقد كان من الممكن من ناحية أخرى أن يكون ستلمان قد علم أنه سيكون طوال الوقت

موضع مراقبة - بل علم بذلك مسبقاً - ومن ثم لم يكثرث بمعرفة من يراقبه على وجه التحديد. وإذا كان من المؤكد أنه موضع مراقبة فما أهمية ذلك؟ ففي الإمكان دائماً استبدال المراقب بآخر إذا ما انكشف أمره.

هذه الرؤية للموقف جعلت كوين يحسّ بالارتياح، وقرّر تصديقها على الرغم من أنه لا يملك الأسس للتصديق. فيما أن يكون ستلمان عارفاً ما يقوم به وإما ألا يكون. وإذا لم يكن من العارفين فإن كوين سيختبئ ويهدر وقته سدى. ولشدة ما هو أفضل أن يعتقد أن خطواته تحقق بالفعل غرضاً بعينه. وإذا كان هذا التفسير يقتضي معرفة من جانب ستلمان فإن كوين سيتقبل هذه المعرفة باعتبارها موضعاً للتصديق، في الوقت الحاضر على الأقل.

بقيت مشكلة كيفية شغل ذهنه وهو يتعقب العجوز. ولقد كان معتاداً على التجوّل، وعلمته جولاته عبر المدينة أن يفهم الأتصال بين الداخل والخارج. وباستخدام الحركة دوغما هدف كأسلوب لقلب الأمور كان بمقدوره في أفضل أيامه أن يجلب الخارج إلى أعماقه، ويغتصب على هذا النحو سيادة الباطني. ومن خلال غمر نفسه بالأمور الخارجية، وإغراقها في ما هو خارجي فقد أفلح في تحقيق درجة محدودة من السيطرة على نوبات يأسه. ومن ثم كان التجوال نوعاً من الغياب الذهني. ولكنّ تبّع ستلمان لم يكن تجوالاً. كان بمقدور ستلمان التجوّل والتخبّط كضرب من بقعة لأخرى، ولكن ذلك كان ميزة حرم منها كوين، وذلك أنه الآن مرغم على التركيز على ما يفعله، حتى إذا كان ما يفعله تافهاً للغاية. ومراراً وتكراراً بدأت

أفكاره في الشُّرود بعيداً، وما أسرع ما كانت تحذو خطاه حذوها. وكان معنى ذلك أنه معرّض باستمرار لخطر الإسراع في خطاه والارتطام بستلمان من وراءه. وتحسباً لهذه الورطة ابتكر كثيراً من الأساليب لتحقيق البطء في السير. واستهدف ذلك أن يحدث نفسه بأنّه لم يعد دانييل كوين، وإنما هو الآن بول أوتر، ومع كلّ خطوة بخطوة كان يحاول التأقلم على نحو مريح بصورة أكبر مع مقتضيات هذا التحوّل. ولم يكن أوتر أكثر من أسم بالنسبة إليه، قشرة خارجية بلا مضمون. وأن يكون أوتر معناه أن يكون إنساناً لا داخل له، إنساناً بلا أفكار. وإذا لم تكن هناك أفكار متاحة له، وإذا ما غدت حياته الداخليّة بعيدة عن متناوله، فليس هناك، إذن، مكان يتراجع إليه. وباعتباره أوتر فإنه لم يكن بمقدوره استدعاء آية ذكريات، أو مخاوف، آية أحلام، أو متع، وذلك لأنّ كلّ هذه الأشياء، وهي خاصّة بأوتر، كانت خاوية وغائمة بالنسبة إليه. وكان عليه بناء على هذا أن يظلّ على السطح وحده، متطلّعاً إلى الخارج لمواصلة التماسك. ومن هنا فإنّ إبقاء ستلمان تحت ناظره لم يكن مجرد إبعاد لنفسه عن ركب خواطره، وإنما كان الخاطرة الوحيدة التي سمح لنفسه بأنّ تطرأ على ذهنه.

حقّق هذا الأسلوب، على امتداد يوم أو يومين، نجاحاً معتدلاً، ولكن حتّى أوتر شرع في التهاوي من فرط الملل. وأدرك كوين أنّه بحاجة إلى شيء إضافي لشغل أفكاره، مهمّة صغيرة تصحبه، فيما هو يواصل عمله. وفي النهاية كانت الكرّاسة الحمراء هي التي أتاحت له الخلاص، وبدلاً من تدوين بضعة تعليقات عرضيّة، على نحو ما

فعل في الأيام القليلة الأولى، قرّر أن يسجّل جميع التفاصيل التي يستطيعها فيما يتعلّق بستلمان. وباستخدام القلم الذي حصل عليه من الأصمّ الأخرس انطلق في مهمّته بحماس. لم يدوّن إيماءات ستلمان فقط، وإنما وصف كلّ شيء يختاره ليدسّه في حقيبته، أو ينبذه بعيداً عنها، ووضع جدولاً زمنياً دقيقاً للأحداث كافة، ووضع بعناية بالغة مخطّطاً دقيقاً لمسيرات ستلمان، راصداً كلّ شارع يمضي فيه، وكلّ انعطافة يقوم بها، وكلّ توقّف يحدث. وبالإضافة إلى شغل بال كوين فإنّ الكرّاسة الحمراء أدت إلى الإبطاء من حركته، ولم يعد خطر الارتطام بستلمان من الخلف قائماً. وإنما كانت المشكلة بالأحرى مسايرته واللّحاق به، والتيقّن من أنّه لم يختفِ، ذلك أنّ السّير والكتابة ليسا بالنشاطين اللذين يسهل الجمع بينهما. وإذا كان كوين قد أمضى السّنوات الخمس السّابقة محاولاً القيام إمّا بهذا الأمر وإمّا بذاك فإنّه يحاول الآن القيام بهما معاً، في وقت واحد. وفي البداية ارتكب كثيراً من الأخطاء. وكان من الصّعب، بصفة خاصّة، أن يكتب دون النّظر إلى الصّفحة، واكتشف أنّه كتب غالباً سطرين، بل ثلاثة أسطر، بعضها فوق البعض الآخر، مفرزاً كتلة متشابكة تستعصي على القراءة. غير أنّ النّظر إلى الصّفحة كان معناه التوقّف. وهذا من شأنه زيادة إمكانيّة فقدانه أثر ستلمان. وبعد انقضاء بعض الوقت وصل إلى أنّ الأمر هو بصفة أساسيّة مسألة الوضع المتّخذ في الكتابة. وجرب الكتابة والكرّاسة أمامه بزاوية خمس وأربعين درجة، ولكنّه سرعان ما وجد أنّ معصمه الأيسر قد ناله التعب. وبعد ذلك جرب إبقاء الكرّاسة مباشرة أمام وجهه وعيناه تحدّقان عبرها، ولكن ثبت أنّ هذا الأسلوب غير عمليّ. وعقب ذلك حاول أن يسند



الكراسة على ذراعه اليمنى فوق مرفقه بعدة بوصات، مع إسناد ظهر الكراسة براحة يده اليسرى، ولكن هذا ألم يده التي يكتب بها، وجعل الكتابة في النصف السفلي من الصفحة شيئاً مستحيلاً. وأخيراً قرّر إسناد الكراسة على ورکه الأيمن، تماماً كما يفعل الفنان بحاملة ألوانه، وقد شكّل هذا تحسناً، فلم يعد حمل الكراسة يشكّل عبئاً، وأصبح بمقدور يده اليمنى حمل القلم دون أن تثقلها واجبات أخرى. وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب كانت له سلبياته كذلك، فإنه بدأ خير تدبير، من حيث توفير الراحة، عبر مسافة طويلة، ذلك أن كوين غدا قادراً الآن على أن يوزّع انتباهه بصورة متساوية تقريباً بين ستلمان وكتابته، ملقياً بنظرة على هذا وبعد قليل بأخرى على تلك، ومشاهداً الشيء وكتاباً عنه بدفق الحركة ذاته. ومضى كوين متتبّعاً ستلمان تسعة أيام أخرى وقلم الأصم الأخرس بيده اليمنى والكراسة على ورکه الأيسر.

كانت أحاديثه الهاتفية الليلية مع فرجينيا ستلمان موجزة. وعلى الرغم من أن ذكرى القبله كانت ماتزال ماثلة بقوة في ذهنه، فإنه لم تحدث أيّ تطورات عاطفية أخرى. وفي البداية كان كوين يتوقّع أن يحدث شيء، فقد شعر بأنه بعد هذه البداية الواعدة سيجد السيدة ستلمان بين ذراعيه، لكنّ صاحبة المهمة المنوطة به سرعان ما تراجع، وراء قناع العمل، ولم تشر مرة واحدة إلى لحظة توهج العاطفة المنفردة تلك. وربما كان كوين قد ضلّ الطريق في عقده الآمال، وخلط مؤقتاً بين نفسه وبين ماكس ورك، وهو رجل لم يحدث قطّ أنه لم يستفد من مثل هذه المواقف. أو ربما كان الأمر قوامه أن

كوين بدأ يحسّ بوحدته على نحو أكثر حدّة. لقد انقضى وقت طويل منذ تمّدد جسم دافئ إلى جواره، ذلك أنه في حقيقة الأمر بدأ في اشتهااء فرجينيا ستلمان في لحظة رؤيته لها، وقبل أن تحدث القبلة بوقت طويل، كما لم يمنعه حجبها الحالي للتشجيع من مواصلة تخيلها عارية. وراحت صور داعرة تنداح في رأس كوين كل ليلة، وعلى الرّغم من أنّ فرص تحويلها إلى واقع بدت بعيدة، إلاّ أنّها ظلّت ترفيهاً بهيجاً. وعقب ذلك بوقت طويل، وبعد أن فات الأوان بكثير، أدرك أنّه كان في أعماقه يغذّي الأمل الفروسي في حلّ القضية على نحو بالغ الذكاء وإبعاد الخطر عن بيت ستلمان بسرعة كبيرة وعلى نحو لا رجعة فيه بحيث يظفر برغبة السيّدة ستلمان طوال الوقت الذي يريده. وقد كانت تلك غلطة، بالطبع، ولكنّها، من بين كلّ الغلطات التي ارتكبتها من البداية إلى النّهاية، لم تكن الأسوأ.

كان ذلك في اليوم الثالث عشر على بدء القضية. وقد عاد كوين إلى البيت في ذلك المساء منحرف المزاج، وكان يحسّ بالإحباط، وعلى تمام الأهبة للتخليّ عن كلّ شيء. فعلى الرّغم من اللّعبة التي لعبها مع نفسه، ورغماً عن القصص التي اختلقها لإقناع نفسه بمواصلة المسيرة، فقد بدا أنّ القضية لا أساس لها. كان ستلمان عجوزاً، خرفاً، نسي ابنه، ويمكن مراقبته حتّى نهاية الزّمان، ومع ذلك فلن يحدث شيء. ورفع كوين سماعة الهاتف، وأدار القرص على رقم شقّة ستلمان.

قال لفرجينيا ستلمان:

- أصبحت على أهبة الاستعداد لطّي صفحة الموضوع، فمن كلّ ما رأيته يتضح أنّه ليس هناك تهديد لبيت.

ردت المرأة قائلة :

- هذا هو على وجه الدقة ما يرغب في أن نعتقده، فلست تدري مدى حذقه ومدى صبره .

- ربما كان صبوراً، ولكنني لست كذلك . أعتقد أنك تبدين مالك، وأنا أهدر وقتي .

- هل أنت واثق من أنه لم يرك؟ على هذا يتوقف الكثير .

- لن أراهن بحياتي على هذا، ولكن نعم، إنني واثق من ذلك .

- ما قولك إذن؟

- أقول إنه ليس لديك ما يدعو للقلق، على الأقل في الوقت

الحالي، وإذا ما حدث أي شيء، في وقت لاحق، فاتصلي بي . سأتي عدواً، عند أول إشارة لوقوع مشكلة .

قالت فرجينيا ستلمان، بعد فترة صمت :

- قد تكون على حق .

وبعد فترة صمت أخرى، أضافت :

- أتساءل عما إذا كان في وسعنا الوصول إلى حل وسط، لمجرد

إدخال قليل من الطمأنينة على نفسي .

- ذلك يعتمد على ما تفكرين فيه .

- لا شيء إلا هذا: دع الأمر يأخذ مجراه، أياماً قليلة أخرى،

للتأكد بصورة مطلقة .

قال كوين :

- بشرط واحد، عليك تركي أقوم بذلك بطريقتي الخاصة، دونما

مزيد من الضوابط، ويتعين أن تكون لي حرية محادثته وتوجيه الأسئلة

إليه، للوصول إلى لب الموضوع، بصورة نهائية .

- ألن يكون هذا أمراً حافلاً بالمخاطرة؟

- ليس عليك أن تقلقي ، فلن أكشف عن وجودنا، ولن يخمن حتى من أكون، أو ما أسعى إليه .

- كيف ستحقق ذلك؟

- هذا أمر منوط بي، فلديّ كافة أنواع الحيل التي تملأ جعبتي، وما عليك إلا الثقة بي.

- ليكن، سأوافق على ذلك، فلا أحسب أن هناك ضيراً من ورائه.

- طيب. سأتيح للأمر عدّة أيام أخرى، ثم نرى إلى أين مضى بنا ذلك.

- سيّد أوسترا!

- نعم؟

- إنني ممتنة كثيراً لك. فقد كان بيتر في حالة طيبة، في الأسبوعين الأخيرين، وأنا أعلم أن ذلك يرجع الفضل فيه إليك. وهو يتحدث عنك طوال الوقت. أنت تشبه... لا أعرف... تشبه بطلاً، بالنسبة إليه.

- وما هو شعور السيّدة ستلمان؟

- ذلك هو شعورها أيضاً.

- يسعدني سماع ذلك، ربّما سمحت لي ذات يوم بأن أشعر بالامتنان نحوها.

- كلّ شيء ممكن، يا سيّد أوسترا. عليك أن تتذكّر ذلك.

- سأذكّره، وسأكون أحمق، إن لم أتذكّره.

أعدّ كوين عشاءً خفيفاً مؤلفاً من البيض المخفوق وشرائح الخبز، واحتسى زجاجة جعة، ثمّ جلس إلى مكتبه، وعكف على الكراسية الحمراء. كان قد أمضى عدّة أيام في الكتابة فيها، مسوداً صفحة وراء أخرى، بيدٍ متوتّرة، عجلي، ولكنّه لم يشعر بالميل حتّى الآن إلى قراءة ما كتب. وأمّا الآن، وقد لاحت النهاية في الأفق، فقد حدّث نفسه بأنّ في إمكانه المخاطرة بإلقاء نظرة.

كان معظم ما كتبه بما تتعدّر قراءته، وخاصّة في المقاطع الأولى، وعندما أفلح في التوصل إلى معاني الكلمات، لم تبدّ له جديرة بالعناء. «يلتقط قلماً وسط مجموعة مبانٍ، يفحص أشياء، يتردّد، يضعها في الحقيبة... يشتري شطيرة من ركن للأطعمة السريعة الإعداد... يجلس على أريكة في حديقة ويقرأ في الكراسية الحمراء». بدت له هذه الجمل غير جديرة بأن تكتب.

كان الأمر بأسره متعلّقاً بالأسلوب. فإذا كان الهدف هو فهم ستلمان، ومعرفته بصورة جيّدة، بما يكفي للتنبؤ بما سيقوم به، بعد ذلك، فإنّ ستلمان يكون قد أخفق. لقد بدأ بمجموعة محدودة من الحقائق: خلفيّة ستلمان ومهنته، وسجن ابنه، اعتقاله وإيداعه المصحّ، كتاب يضمّ رؤية فكرية ملتبسة، كُتِبَ في وقت يفترض أنّه كان خلاله مايزال عاقلاً، وفي المقام الأوّل يقين فرجينيا ستلمان من أنّه الآن بين يدي محاولة إلحاق الأذى بابنه، ولكن بدا أنّ لا علاقة بحقائق الماضي بحقائق الحاضر. وساور كوين شعور عميق بخيبة

الأمل، إذ كان قد تصوّر على الدوام أن مفتاح عمل التحرّي الجيّد يتمثّل في المراقبة الدّقيقة للتفاصيل، وكلّما زاد التمحيص دقّة جاءت النتائج أكثر نجاحاً. وكان الافتراض الضمني هو أن السلوك الإنساني يمكن فهمه، وأنّه تحت الواجهة الّلامتناهية للإيماءات والأصوات المتابعة وضروب الصّمت كان هناك في نهاية المطاف تماسك، نظام، مصدر للتّحفيز. ولكن بعد المجالدة لاستيعاب كلّ هذه المؤشّرات المتّمة إلى السّطح، أحسّ كوين بأنّه ليس أقرب إلى ستلمان ممّا كان عليه عندما بدأ في تتبّعه. لقد عاش حياة ستلمان، وسار بخطاه، ورأى كلّ ما شاهده، والشّيء الوحيد الذي يشعر به الآن هو استحالة النفاذ إلى أعماق الرّجل، وبدلاً من تضيق المسافة التي تفصله عن ستلمان أحسّ بالعجوز ينزلق مبتعداً عنه، حتى وهو ما يزال ماثلاً أمام عينيه.

ودونما سبب محدّد يعيه، قلب صفحة جديدة من الكراسية الحمراء، ورسم خريطة صغيرة للمنطقة التي يضرب ستلمان في أرجائها.

ثمّ شرع، مستطلعاً ملاحظاته بعناية، في تعقب الحركات التي قام بها ستلمان في يوم واحد هو اليوم الأوّل الذي احتفظ فيه بسجّل كامل لجولات العجوز، وحدّد هذا التعقب بالقلم. وكانت النتيجة كالآتي:

ذهل كوين جيال الطّريقة التي طاف بها ستلمان حول حافة المنطقة، دون أن يغامر مرّة واحد بالتوغّل إلى المركز، وبدا الشّكل

نهر الهدسون

ریفر ساید بارک

ریفر ساید درایف

وست ایند آفتیو

برودوای

\* الفتنق

آمستردام آفتیو

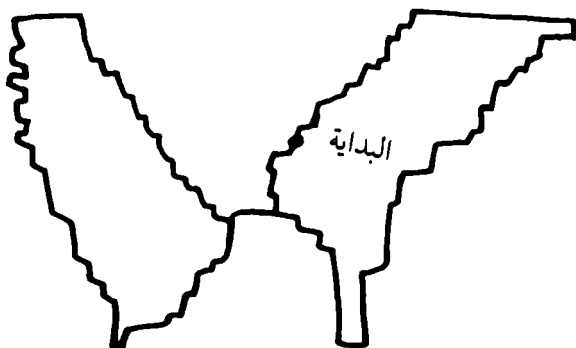
المرسوم أمامه وكأنه يشبه قليلاً خريطة ولاية خيالية من ولايات الغرب الأوسط، وباستثناء كتل المباني الإحدى عشرة صعداً في برودواي، عند البداية، وسلاسل الأشكال اللولبية التي مثلت جولات ستلمان في ريفر سايد بارك، ماثلت الصورة مستطيلاً. ومن ناحية أخرى، وفي ضوء الشكل الخاص لشوارع نيويورك الذي يحاكي ربع دائرة فقد يكون كذلك صفراً أو حرف «e» باللغة الإنجليزية.



انتقل كوين إلى اليوم التالي، وصمّم على أن يرى ما سيحدث، ولم تكن النتائج مماثلة على الإطلاق:

وقد ذُكرت هذه الصورة كوين بطائر، وربما بطائر من النوع الذي يُصاد، وقد مدّ جناحيه، وحلّق في الهواء عالياً. وبعد لحظة بدت هذه القراءة له بعيدة الاحتمال. اختفى الطائر، وبدلاً منه كان هناك شكلان مجرّدان يرتبطان بالجسر الصغير الذي شكّله ستلمان بالسّير

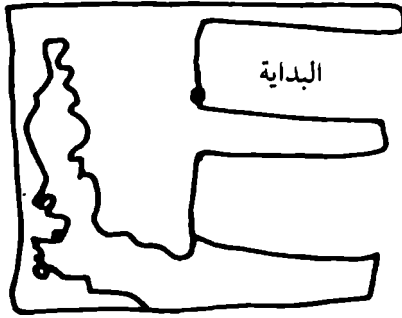




غرباً على امتداد الشارع الثالث والثمانين. وتوقف كوين لحظة ليتأمل ما يقوم به، أترأه كان يخطّ لغواً؟ أكان يهدر المساء متهافت الذهن أم هو يحاول العثور على شيء؟ أدرك أن آياً من الردين لا سبيل إلى قبوله. وإذا كان يقتل الوقت فلماذا اختار مثل هذه الطريقة المرهقة للقيام بذلك؟ هل كان مشوشاً للغاية بحيث لم تعد لديه الشجاعة للتفكير؟ ومن ناحية أخرى، إذا لم يكن يزجي الوقت فحسب فما الذي يقوم به بالفعل؟ بدا له أنه يبحث عن علامة، كان يقوم بالتفتيش في سديم حركات ستلمان، بحثاً عن تألق التعرف. وقد يتضمّن ذلك شيئاً واحداً: أنه قد واصل رفض تصديق عشوائية تصرفات ستلمان. أراد أن يكون هناك معنى لها، مهما كان مدى غموضه. وقد كان هذا في ذاته شيئاً غير مقبول، ذلك أنه كان يعني أن كوين يسمح لنفسه بإنكار الحقائق، وكان هذا، على نحو ما يعرف حقّ المعرفة، أسوأ شيء يمكن لتحراً أن يقوم به.

ورغم ذلك فقد قرّر المضيّ قدماً في الأمر. لم يكن الوقت متأخراً، بل لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة بعد، وفي حقيقة الأمر فإنّ

ذلك ما كان ليُحدِثُ ضرراً. ولم تحمل نتائج الخريطة الثالثة شبهها بالأخرين.



لم يعد هناك مجال للتساؤل عما يجري، فقد أحسَّ كوين باليقين من أنه إذا نحى جانباً الخربشات من الحديقة فإنه سيكون أمام حرف إي «E» باللغة الإنجليزية. وبافتراض أن الشكل الأول قد مثل في حقيقة الأمر حرف «O» فإنه يبدو عندئذ من المشروع الافتراض بأنَّ جناح الطائر المنتمي للشكل الثاني قد شكَّل حرف «W». وبالطبع فإنَّ الحروف O - W.E تشكل هجاء كلمة، ولكنَّ كوين لم يكن على استعداد للتوصُّل إلى أيِّ استنتاجات. فهو لم يبدأ عملية جردة إلاَّ باليوم الخامس من جولات ستلمان، وهوية الحروف الأربعة الأولى هي موضع للتخمينات. وساوره الشعور بالندم لعدم البدء قبل ذلك، وقد أصبح الآن يعرف أنَّ لغز تلك الأيام الأربعة لا سبيل لاستعادة ملامحه. ولكنَّ ربما سيكون بمقدوره أن يعوِّض الماضي بالانطلاق قدماً، فقد يمكنه، بالوصول إلى النهاية، أن يحدس البداية.

بدا أن شكل اليوم التالي يُسفر عمّا يحاكي حرف «R». وكما هو الحال بالنسبة للحروف الأخرى فقد كان معقداً من خلال مجموعة من ضروب عدم الانتظام وعمليات التقريب والأشكال التجميعية المزخرفة في الحديقة. وحاول كوين، وهو مايزال يتشَبَّث بما يشبه الموضوعية، أن ينظر إليه، وكأنه لم يكن يتوقَّع حرفاً من حروف الهجاء. وقد اضطر إلى الاعتراف بأنه ليس هناك ما هو يقيني: فهو يمكن بالمثل أن يكون مجرداً من المعنى. وربما كان يتطلَّع إلى صور من السحاب، على نحو ما فعل وهو طفل صغير. ومع ذلك فإن المصادفة كانت أبرز من أن يتم تجاهلها. ولو أن خريطة واحدة قد شابهت حرفاً، بل وربما خريطتان شابهتا حرفين، لنحى الأمر كله باعتباره مصادفة عجيبة، ولكن انطباق ذلك على أربع خرائط على التوالي كان مُضِيّاً بالأمر إلى آفاق بالغة النأي.

أسفر اليوم التالي عن حرف «O» مشدّب الجانب، كعكة مسحوقة عند أحد الجانبين مع ثلاثة أو أربعة خطوات خشنة تبرز الجانب الآخر إلى الخارج قليلاً، ثم جاء حرف «F» منمَّق مصحوبٌ بالتموجات المعتادة، المتمية إلى فنّ الروكوكو إلى أحد الجانبين. وبعد ذلك كان هناك حرف «B» وقد بدا كصندوقين وضعا أحدهما فوق الآخر كيفما اتفق، مع خروج مادة النشارة المستخدمة في حزم الصندوقين عن الحواف. وعقب ذلك كان هناك حرف «A» متمايل يشبه السلم بشكل من الأشكال مع سلام متدرّجة عند كل خطوة إلى أعلى. وأخيراً كان هناك حرف «B» آخر يميل على نحو مهتزّ على نقطة واحدة مقلوبة، كهرم مقلوب رأساً على عقب.

ثم نسخ كوين الحروف على التوالي: «OWEROFBAB» وبعد قلبها ربع ساعة، وتبديلها، وإعادها بعضها عن البعض الآخر وإعادة ترتيب سياقها، عاد إلى الترتيب الأول وكتبها بالطريقة التالية: «OWER OF BAB». بدا الحل غريباً للغاية، بحيث أن أعصابه كادت أن تخونه. فمع التسليم بكلّ العواقب المترتبة على حقيقة ضياع الأيام الأربعة الأولى منه، وأن ستلمان لم يتم ما بدأه بعد، بدت الإجابة على نحو لا مهرب منه: THE TOWER OF BABEL أيّ «برج بابل».

حلقت خواطر كوين إلى الصفحات الأخيرة من كتاب أ. جوردون بيم، وإلى اكتشاف الكتابات الهيروغليفية على الجدار الداخلي للصدع. حروف كتبت في أغوار الأرض ذاتها، وكأنما كان كاتبها يحاولون قول شيء ما عاد من الممكن فهمه. ولكن مع إعادة التفكير في الأمر لم يبدو ذلك مناسباً للمقام، ذلك أن ستلمان لم يترك رسالته في أيّ مكان، وصحيح أنه قد خلق الحروف بحركات خطاه، ولكنها لم تكتب. كان ذلك شبيهاً برسمك لوحة في الهواء بإصبعك، فالصورة تختفي خلال إنجازك لها. وليست هناك نتيجة، ولا أثر يميز ما قمت به.

ومع ذلك فقد وجدت الصورة بالفعل، لا في الشوارع، حيث تمّ رسمها، وإنما في كراسة كوين الحمراء. وراح يتساءل عما إذا كان ستلمان قد جلس في كلّ ليلة في غرفته، ومضى يرسم خط سيره لليوم المقبل، أم أنه قد حسن أسلوبه من خلال مواصلة ما يقوم به. وكان من المستحيل معرفة ذلك. وراح كذلك يتساءل عن الهدف الذي

حققته هذه الكتابة في ذهن ستلمان. أتراها كانت مذكرة كتبها لنفسه، أم أنها قصد بها أن تكون رسالة لأخرين؟ وخلص كوين إلى أنها على الأقل قد عنت أن ستلمان لم ينس هنري دارك.

لم يرغب كوين في أن يستسلم للذعر. وفي غمار جهد بذله للسيطرة على نفسه، حاول أن يتصور الأمور في أسوأ ضوء ممكن، فربما من خلال النظر إلى الجانب الأسوأ لا يبدو سيئاً كما حسبه. وقد طرح هذا الجانب على النحو التالي. أولاً: كان ستلمان عاكفاً حقاً على تدبير شيء ضد بيتر. الاستجابة: كان هذا هو الافتراض الأول على أية حال. ثانياً: عرف ستلمان أنه ستم مراقبته، وعرف أن حركاته سترصد، وأن رسالته ستفتح مغاليقها. الاستجابة: ذلك لم يغير من الحقيقة الجوهرية: أنه يتعين حماية بيتر. ثالثاً: ستلمان أخطر كثيراً مما كان متصوراً من قبل. الاستجابة: ذلك لا يعني أن بمقدوره الإفلات بفعلته.

وقد ساعده ذلك على نحو من الأنحاء. ولكن الحروف واصلت إفزاعه. كان الأمر بأسره بالغ القتام، وشديد الوحشية في دورانه حول المعاني، حتى إنه لم يرغب في تقبله، ثم حلت الشكوك، وكأنما جرى استدعاؤها، وملأت رأسه بأصوات ساخرة، منعمة. كان قد تصور الأمر بأسره. لم تكن الحروف حروفاً على الإطلاق، وهو لم يرها إلا لأنه أراد رؤيتها، وحتى إذا كانت الرسوم تكوّن حروفاً فإنها ليست إلا رمية من غير رام، ولا شأن لستلمان بها. كان كل شيء أمراً عرضياً، حيلة دبرها بحق نفسه.

قرّر المضيّ إلى فراشه، ونام نوماً متقطّعاً، واستيقظ ، وعكف على الكتابة في الكرّاسة الحمراء نصف ساعة، وعاد إلى الفراش من جديد. وكانت آخر خاطرة دارت في رأسه قبل النعاس هي أنّه ربّما كان أمامه يومان آخران، إذ إنّ ستلمان لم يكمل رسالته بعد. فقد تبقى الحرفان الأخيران، وهما «E» و«L». ومضى ذهن كوين بعيداً، ووصل إلى أرض مستحيلة من النثار، مكانٍ يحفل بالأشياء المجرّدة من الكلمات والكلمات المجرّدة من الأشياء، ثمّ مجالداً سباته لمرة أخيرة، حدّث نفسه بأنّ «إيل» هو الاسم العبري للربّ.

وفي غمرة حلمه الذي نسيه فيما بعد، ألفى نفسه في مجّمع فضلات مدينة طفولته، وهو يبحث في جبل من النفايات.

جرى أول لقاء مع ستلمان في ريفر سايد بارك. وكان ذلك في منتصف أصيل يوم سبت من النوع الذي يحفل بالدرجات، ومن يقومون بجولات مع كلابهم، وبالأطفال. وكان ستلمان جالساً بمفرده على أريكة، محدقاً في اللاشيء، والكراسة الصغيرة الحمراء في حجره. وغمر الضياء المكان بأسره، ضياءً هائل بدا وكأنه يشع من كل شيء تقع عليه العين، وفوق الرؤوس من أغصان الأشجار، وواصل التنسيم انسيابه وهو يهز الأوراق بوشوشة مفعمة حباً، وبصعودٍ وهبوطٍ يواصلان التنفس وكأنهما اندياح الأمواج وتراجعها.

خطط كوين تحركاته بعناية فجلس على الأريكة إلى جوار ستلمان، متظاهراً بأنه لم يره، وعقد ذراعيه على صدره، وراح يحدق في الاتجاه الذي يحدق فيه العجوز. ولم يفه أي منها بكلمة. ووفقاً لحسابات كوين التي قام بها في وقت لاحق، فإن هذا الوضع استمر ربع الساعة أو ثلثها، ثم، ودونما سابق إنذار التفت نحو العجوز، وتطلع إليه مباشرة، وثبت في عناد عينيه على الملمح الجانبي للوجه المتجعد، وركز كل قوته في عينيه، كما لو كان بمقدوره أن يبدأ في إحداث ثقب عن طريق الحرق في جمجمة ستلمان. واستمر هذا التحديق مدة خمس دقائق.

التفت ستلمان إليه آخر الأمر وقال له بصوت صاوح، على نحو مذهش:

- آسف، لكنه لن يكون من الممكن أن أحادثك.

قال كوين:

- لم أقل أيّ شيء .

قال ستلمان :

- ذلك صحيح ، ولكن عليك أن تدرك أنني لست معتاداً على  
محادثة الغرباء .

- أكرّر القول بأنني لم أقل أيّ شيء .

- نعم ، لقد سمعتك في المرّة الأولى ، ولكن ألسنت مهتمةً بمعرفة  
السبب؟

- أخشى ألا أكون مهتمةً بذلك .

- أحسنت القول ، بمقدوري أن أرى أنك رجل حصيف .

هزّ كوين كتفيه ، رافضاً الردّ ، وقد غدا كلّ كيانه الآن يشعّ  
باللامبالاة .

ابتسم ستلمان ابتسامة مشرقة حيال هذا ، ومال نحو كوين ، وقال  
بصوت يوحى بالتواؤم :

- أعتقد أننا بسبيلنا إلى التفاهم .

قال كوين ، بعد فترة صمت طويلة :

- ذلك أمر لم يتحقّق بعد .

ضحك ستلمان ضحكة قصيرة مدوّية «هوه» ثمّ واصل الحديث :

- لا يرجع الأمر إلى أنني أكره الغرباء باعتبارهم كذلك ، وإنما كلّ ما

هنالك أنني أفضل عدم محادثة أيّ شخص لا يقدّم نفسه إليّ ، فلنكيّ أبداً لا  
بدّ أن يكون لديّ اسم .

- ولكن ما إن يعرفك إنسان باسمه حتى يكفّ عن أن يكون

غريباً .

- تماماً ، ذلك هو السبب في أنني لا أحادث غرباء أبداً .



كان كوين متأهباً لمواجهة هذا، ويعرف كيف يردّ عليه، ولم يكن بالذي يدع نفسه للسقوط في الشَّرْكَ. ولَمَّا كان من النَّاحِيَةِ الفَنِيَةِ بول أوستر، فإنَّ ذلك هو الاسم الَّذِي وجب عليه حمايته، وكلّ شيءٍ آخر، بما في ذلك الحقيقة سيكون تليقاً، وقناعاً يحجبه ويضمن سلامته.

قال:

- في تلك الحالة يُسعدني أن أرضيك. اسمي كوين.

قال ستلمان متأملاً، ومشيراً برأسه:

- آه، كوين.

- نعم، كوين. كاف. واو. ياء، نون.

- فهمت، نعم، نعم، فهمت، كوين، إحم. نعم، أمر مشير

للاهتمام للغاية. كوين، اسم له رنين شائق، يتناغم مع توين. أليس كذلك؟

- ذلك صحيح، توين.

- وسين كذلك، إذا لم أكن مخطئاً.

- لست مخطئاً.

- إحم، أمر مشير للاهتمام للغاية، أرى هناك كثيراً من الإمكانيات

لهذه الكلمة، كوين هذه، هذه... وعلى سبيل المثال

كوينتاسنس... أوف كويدق، كويك. وكويل، وكواك، وكويرك.

إحم، تتناغم مع جرّين، دع جانباً كين. إحم. أمر مشير للاهتمام

للاهمية، دوين، وفين، ودين، وجين، وپين، وتين، وبين، بل

ويتناغم مع جين. إحم وإذا ما نطقها بالصورة الصّحيحة تناغمت

مع بين. إحم. نعم، أمر مثير جداً للاهتمام. إنني أحب اسمك كثيراً، يا سيد كوين، فهو يخلق في اتجاهات كثيرة في وقت واحد. نعم، لقد لاحظت ذلك بنفسى كثيراً.

- معظم الناس لا يكثرثون بمثل هذه الأمور، وينظرون إلى الكلمات على أنها أحجار، أشياء كبيرة لا سبيل إلى تحريكها، ولا تدب الحياة فيها، كعنصر لا يتغير أبداً.

- الأحجار يمكن أن تتغير، فالرياح أو الماء يمكن أن ينحتها، ويمكن أن تتآكل، ويمكن أن تسحق، وفي وسعك أن تحولها إلى هشيم، أو إلى حصى، أو غبار.

- بالضبط، كان بمقدوري، في التو، أن أعرف أنك رجل حصيف، يا سيد كوين. لو أنك تعلم فقط كيف أساء الكثيرون فهمي. وقد عانى عملي من ذلك، عانى على نحو فظيع. - عملك؟

- نعم عملي، مشروعاتي، أبحاثي، تجاربي. - آه.

- نعم، ولكن رغم النكسات فإن ذلك لم يفت في عضدي. ففي الوقت الحالي، على سبيل المثال، أعكف على أمر من أهم الأمور التي أنجزتها على الإطلاق. وإذا سار كل شيء على مايرام، فأعتقد أنني سأمسك بمفتاح سلسلة من الاكتشافات. - مفتاح؟

- نعم. مفتاح. شيء يفتح الأبواب المغلقة. - آه.

- آه، بالطبع، إنني أقوم، في الوقت الحالي، بجمع البيانات فقط،  
وبتعبير آخر بحشد الأدلة، ثم سيتعين عليّ ترتيب مكتشفاتي. إنه  
عمل مرهق إلى حدّ كبير، لن تصدّق مدى صعوبته، وخاصّة بالنسبة  
لرجل في مثل سنيّ.  
- بمقدوري التخيل.

- ذلك صحيح. هناك الكثير ممّا يتعيّن القيام به، ووقت محدود  
للغاية لإنجازه. وفي كلّ يوم أنهض في الفجر، ويتعيّن عليّ الخروج  
في كافّة أشكال الطقس، وأن أتقلّ على الدوام، سائراً، وكأثماً إلى  
الأبد، على قدميّ، ماضياً من مكان إلى آخر، وذلك يرهقني كثيراً،  
وفي وسعك التيقن من ذلك.

- ولكنّ الأمر يستحقّ ذلك.

- إنه يستحقّ أيّ شيء في الحقيقة. وما من تضحية تفوقه قدراً.  
- حقاً.

- ما من أحد أدرك ما أدركته، إنني الأوّل، وأنا الفريد في بابي.  
وذلك يُلقي على كاهلي عبّ مسؤوليّة كبيرة.  
- العالم على كتفيك.

- نعم، بمعنى من المعاني، العالم، أو ما بقي منه.

- لم أدرك أنّ الأمر بهذا السوء.

- إنه بهذا السوء، وربّما أسوأ من ذلك.

- آه.

- العالم، يا سيّدي، تحوّل إلى شظايا، ومهمّتي أن أعيده إلى ما  
كان عليه.

- لقد تحمّلتَ مسؤوليّةَ كبيرة.

- إنني أدرك ذلك، ولكنني لا أنظر إلا إلى المبدأ. ذلك بمقدور إنسان واحد. لو أنني استطعت إرساء الأسس، فإن أيدٍ أخرى يمكنها القيام بمهمّة إعادة البناء ذاتها. والشيء المهمّ هو المنطلق، الخطوة النظريّة الأولى. ومن سوء الطالع أنه ليس هناك شخص آخر يمكنه القيام بذلك.

- هل أحرزت تقدماً كبيراً؟

- خطوات عملاقة هائلة. وفي الحقيقة فإنني أحسّ بأنني على وشك تحقيق إنجاز كبير.

- يسعدني سماع ذلك.

- نعم، إنها فكرة تُدخِل الطمأنينة على النفس، وكلّ ذلك بسبب مهارتي، ووضوح ذهني المتألق.

- لست أشكّ في ذلك.

- لقد أدركت الحاجة إلى أن أضع لنفسي حدوداً، إلى أن أعمل في حدود مجال صغير بما يكفي لجعل النتائج كلّها حاسمة.

- مقدّمة المقدّمة، إذا صحّ التعبير.

- ذلك صحيح تماماً، مبدأ المبدأ، منهاج العمل. لقد تشظّى العالم، يا سيّدي، لم نفقد شعورنا بالهدف فحسب، وإنما فقدنا اللّغة التي يمكننا بها الحديث عنه. وتلك بلا شكّ موضوعات رويّة، ولكنّها لها ما يناظرها في العالم المادّي. وقد تمثّلت ضربتي العبقريّة في أن أقصر نفسي على الأمور العضويّة، على المباشر والملموس. إن دوافعي سامية، ولكنّ عملي يحدث في دنيا الحياة اليوميّة. وهذا هو

السَّبب في أنني أتعرَّض كثيراً لإساءة الفهم، ولكن لا أهمية لذلك فقد تعلَّمت كيف أنحي هذه الأشياء جانباً.

- استجابة جديدة بالإعجاب.

- إنها الاستجابة الوحيدة، الوحيدة التي تليق برجل له مكاني.  
إني في غمار عملية ابتكار لغة جديدة. ومع وجود عمل كهذا يتعين عليّ القيام به، لا يمكنني الاكتراث بسخف الآخرين. وعلى أية حال فإن هذا كلّه جزء من المرض الذي أحاول إيجاد علاج له.

- لغة جديدة؟

- نعم، لغة ستقول أخيراً ما يتعين علينا قوله، ذلك أن كلمائنا لم تعد تطابق العالم. فعندما كانت الأشياء كلًّا واحداً، كنّا نشعر بالثقة في أن كلمائنا ستعبّر عنها، ولكن شيئاً فشيئاً تحطمت هذه الأشياء، تمزقت، انهارت، تحوّلت إلى فوضى، ومع ذلك ظلت كلمائنا على حالها، ولم تؤقلم ذاتها مع الواقع الجديد. ومن هنا فإننا في كلّ مرّة نحاول الحديث فيها عمّا نراه نتحدّث بشكل زائف، ونشوّه الشيء الذي نحاول أن نطرحه، وقد حوّل ذلك كلّ شيء إلى ركام مضطرب. ولكنّ الكلمات كما تفهمها أنت نفسك قادرة على التغيّر. والمشكلة هي في كيفية إظهار ذلك، وذلك هو السرّ في أنني أعمل بأبسط السبل الممكنة، وهي من البساطة بحيث أنّ الطفل نفسه يمكنه أن يستوعب ما أقوله. تأمل كلمة تشير إلى شيء، «المظلة» على سبيل المثال، وعندما أقول كلمة «مظلة» فإنك ترى الشيء في ذهنك، ترى نوعاً من العصي، وقوائم معدنيّة من النوع الذي يطوى في أعلاها تشكّل هيكلًا يحمل قماشاً لا ينفذ منه الماء ولا يلتصق به، وعندما

يفتح فإنه يحميك من المطر. وهذه الجزئية الأخيرة مهمة، فالشمسية ليست مجرد شيء، وإنما هي شيء يؤدي وظيفة، وبتعبير آخر يعبر عن إرادة الإنسان. وعندما تتمهل لتأمل الأمر فإنك تجد أن كل شيء مماثل للمظلة، من حيث أنه يؤدي وظيفة، فالقلم للكتابة، والحذاء للانتعال، والسيارة للانتقال. والآن، السؤال الذي أطرحه هو ما يلي: ماذا يحدث عندما يكف شيء عن أداء وظيفته؟ أهو ما يزال الشيء أم أنه غدا شيئاً آخر؟ عندما تنزع القماش عن المظلة هل ماتزال المظلة مظلة؟ إنك تفتح القوائم المعدنية، وترفعها فوق رأسك، وتمضي في المطر، وتبتل حتى النخاع. هل من الممكن الاستمرار في تسمية هذا الشيء بالمظلة؟ إن الناس يقومون بهذا بصفة عامة. وعند الحد الأقصى سيقولون إن المظلة قد كُسرت. وبالنسبة إليّ فإن هذا خطأ خطير، ومصدر كل المشكلات، فالشمسية لأنها لم تعد تستطيع أداء وظيفتها كفت عن أن تكون مظلة، ربما كانت كذلك في وقت من الأوقات، ولكنها الآن تغيرت إلى شيء آخر. غير أن الكلمة بقيت على حالها، ومن ثم فإنها لم تعد تستطيع التعبير عن الشيء، إنها غير دقيقة، إنها زائفة، وهي تخفي الشيء الذي يفترض أن تكشف عنه. وإذا لم يكن بمقدورنا تسمية أداة عادية تنتمي للحياة اليومية شيئاً نمسكه في أيدينا، فكيف يمكن أن نتوقع الحديث عن أشياء تهمننا بصورة حقيقية؟ وما لم يكن بمقدورنا البدء في تجسيد مفهوم التغيير في الكلمات التي نستخدمها فإننا سنواصل الضياع.

- وعملك؟

- عملي بسيط للغاية. لقد جئت إلى نيويورك لأنها أكثر الأماكن

بؤساً واستدعاءً للقنوط، فالانكسار في كلِّ مكان، والاضطراب شامل. وما عليك إلا أن تفتح عينيك لترى ذلك. النَّاس المحطَّمون، والأشياء المكسورة، والأفكار المهشَّمة. المدينة بأسرها كومة نفاية. إنها تتفق مع أغراضني على نحوٍ مثير للإعجاب. وأجد الشَّوارع مصدرًا لا ينتهي للمادَّة، ومستودعًا لا ينفد للأشياء المهشَّمة. وفي كلِّ يوم أنطلق بحقيقتي، وأجمع الأشياء التي تبدو جديدة بالتقصِّي، وتُقدِّر عَيْناتي الآن بالمشات، من المكسور إلى المحطَّم، من المنبجج إلى المدهوس، من المسحوق إلى الفاسد.

- وماذا تصنع بهذه الأشياء؟

- أطلق عليها أسماء.

- أسماء؟

- اخترع كلمات تتطابق مع الأشياء.

- آه، الآن أدرك جليَّة الأمر. ولكن كيف تقرَّر ذلك؟ كيف تعرف

ما إذا كنت قد وجدت الكلمة الصَّحيحة؟

- إنني لا أخطئُ أبداً، وتلك دلالة على عبقريتي.

- هل يمكنك أن تضرب لي مثلاً؟

- على إحدى كلماتي؟

- نعم.

- آسف، لكنَّ ذلك لن يكون ممكناً، لعلَّك تدرك أنَّ هذا هو

سرِّي. وبمجرد قيامي بنشر كتابي فسوف تعرف، ومعك العالم كلُّه.

ولكنني، في الوقت الحاضر أحتفظ بالأمر لنفسني.

- معلومات محظورة التَّداول.

- ذلك صحيح . سرية للغاية .

- إنني آسف .

- ينبغي ألا تشعر بخيبة الأمل . فلن يطول الوقت قبل قيامي  
بترتيب مكثفاتي، ثم تبدأ أمور عظيمة في الحدوث سيكون ذلك  
أهم حدث في تاريخ البشرية .

\*\*\*

تم اللقاء الثاني بعد الساعة التاسعة بقليل، في صباح اليوم التالي .  
وكان يوم أحد، وقد خرج ستلمان متأخراً ساعة عن مواعده المؤلف .  
وقطع المسافة المقابلة لكتلتي المباني التي اعتاد أن يقطعها في طريقه إلى  
المكان الذي درج على تناول طعام الإفطار فيه، وهو مقهى ماي  
فلاور، وجلس إلى مائدة بين مقعدين طويلين في أحد الأركان في  
مؤخرة المقهى . وتبع كوين، وقد ازدادت الآن جرأته، العجوز إلى  
المقهى وجلس إلى المائدة نفسها في مواجهته تماماً . ولدقيقة أو دقيقتين  
بدا أن ستلمان لم يلاحظ وجوده، ثم رفع وجهه عن قائمة المأكولات  
التي كان يمسك بها، وراح يدقق النظر في ملامح كوين بطريقة  
تجريدية، وبدا أنه لم يتعرف عليه باعتباره صاحب لقاء أمس .

تساءل:

- هل تعارفنا من قبل؟

قال كوين:

- لا أعتقد ذلك . اسمي هنري دارك .

أوما ستلمان برأسه، قائلاً:

- آه، رجل يبدأ بالأمور الأكثر أهمية، يعجبني ذلك .



قال كوين :

- لستُ من النوع الذي يدور حول الموضوع .

- الموضوع؟ أي نوع من الموضوعات عساه يكون؟

- الموضوعات التي تحترق، بالطبع .

- آه، الموضوعات التي تحترق، بالطبع .

تطلع ستلمان إلى وجه كوين، بمزيد من التدقيق الآن، ولكن بما  
بدا كذلك أنه حيرة مؤكدة، وواصل حديثه :

- آسف، لكنني لا أذكر اسمك . أتذكر أنك ذكرته لي منذ وقت

قريب، ولكنه يبدو الآن وقد تبدد من ذاكرتي .

قال كوين :

- هنري دارك .

- هذا هو، إذن، لقد عاد الآن إلى ذاكرتي، هنري دارك .

صمت ستلمان للحظة طالت، ثم هز رأسه قائلاً :

- من سوء الطالع أن ذلك ليس بالأمر الممكن، يا سيدي!

- ولم لا؟

- لأنه ليس هناك هنري دارك .

- طيب، ربما كنت هنري دارك آخر، في مقابل ذلك الذي لا

وجود له .

- إحم، نعم، إنني أفهم وجهة نظرك . صحيح أنه في بعض

الأحيان يحمل شخصان اسماً واحداً . من المحتمل تماماً أن يكون

اسمك هنري دارك، ولكنك لست «هنري دارك» .

- أهو صديق لك؟

ضحك ستلمان، كما لو كان الأمر نكتة جيّدة، وقال:  
- لم تصب كبد الحقيقة. لم يحدث أن كان هناك قطّ شخص يدعى  
هنري دارك. لقد اختلقته، ابتكرته ابتكاراً.  
قال كوين، مصطنعاً عدم التصديق:  
- لا!

- نعم، إنّه شخصيّة وردت في كتاب قمت بتأليفه ذات يوم، وهي  
مختلقة تماماً.

- أجد أنّ ذلك ممّا يصعب تقبّله.

- وكذلك وجده الجميع، لقد خدعتهم جميعاً.

- مدهش. لم بحق السماء قمت بذلك؟

- كنت بحاجة إليه، فقد كانت لديّ في ذلك الوقت أفكار معيّنة،  
بالغة الخطورة، ومحطّ اختلاف الآراء؛ ولذا تظاهرت بأن مصدرها  
يعود إلى شخص آخر، كانت تلك طريقة لحماية نفسي.

- كيف استقرّ رأيك على اسم هنري دارك؟

- إنّه اسم جيّد. ألا تعتقد ذلك؟ إنني أحبّه كثيراً، فهو مليء  
بالغموض، ومناسب تماماً في الوقت نفسه. وقد ناسب أغراضني  
بصورة جيّدة، وفضلاً عن ذلك فإنّ له معنى سريّاً.

- الإشارة إلى الظلام؟

- لا، لا، لا شيء على هذا القدر من الوضوح. السرّ يكمن في  
الحرفين الأولين، هـ. د.، كان ذلك أمراً مهمّاً للغاية.

- كيف ذلك؟

- ألا تريد أن تخمّن؟

- لا أعتقد ذلك.

- آه. حاول! قم بثلاثة تخمينات، فإذا لم توفق فإنني سأحدثك  
بجلیة الأمر.

صمت كوين للحظة، محاولاً بذل قصارى جهده، وقال:  
- ه. د. إنها ينصرفان إلى هنري ديفيد، كما في حالة هنري ديفيد  
ثورو.

- ذلك ليس حتى بالتخمين القريب من الصواب.  
- ماذا عن ه. د. ببساطة ونقاء؟ اختصاراً لاسم الشاعرة هيلدا  
دوليتل.

- تخمين أسوأ من الأول.  
- ليكن، تخمين آخر. ه. د. ه. د. . . لحظة واحدة. . . ما  
رأيك. . . لحظة واحدة. . . آه. . . نعم، ها قد وصلنا. ه. د. ترمز  
للفيلسوف الباكي، هيراقليطس. . . ود. للفيلسوف الضاحك  
ديموقريطس. هيراقليطس وديموقريطس. . . قطبا الجدل.

- إجابة حاذقة.  
- هل حالفني الصواب؟  
- لا، بالطبع. ولكنها إجابة حاذقة رغم ذلك.  
- ليس بمقدورك القول بأنني لم أحاول.  
- لا، ليس ذلك بمقدوري، وذلك هو السبب في أنني سأكافئك  
بالإجابة الصحيحة؛ لأنك حاولت. هل أنت على استعداد؟  
- على استعداد.

- الحرفان ه. د. في الاسم هنري دارك يشيران إلى «همتي دمتي».  
- من؟

- همتي دمتي .

- من؟

- همتي دمتي . تعرف من أقصد . البيضة .

- كما في الأنشودة «همتي دمتي جلس على الحائط»؟

- بالضبط .

- لست أدرك ما تعنيه .

- همتي دمتي : أنقى تجسيد للوضع الإنساني . أصغ بعناية ، يا سيدي ، ما هي البيضة؟ إنها ذلك الذي لم يولد بعد . لغز . أليس كذلك؟ ذلك أنه كيف يمكن أن يكون همتي دمتي حياً دون أن يكون قد وُلد؟ ومع ذلك فإنه حيّ ، لا تخطئ في هذا الصدد . ونحن نعرف ذلك لأن بمقدوره الحديث . وأكثر من هذا أنه فيلسوف من فلاسفة اللّغة . لقد قال همتي دمتي بلهجة ساخرة للغاية : «عندما استخدم كلمة ، فإنها تعني ما اخترت أن تعنيه تماماً ، لا أقل ولا أكثر» . قالت أليس : «السؤال المطروح هو ما إذا كان في وسعك أن تجعل الكلمات تعني كثيراً من الأشياء المختلفة» . قال همتي دمتي : «السؤال المطروح هو أيها يكون السيد . ذلك هو كل ما في الأمر» .

- لويس كارول .

- «من خلال الزجاج الشفاف» الفصل السادس .

- أمر مثير للاهتمام .

- إنه أكثر من مثير للاهتمام ، يا سيدي . إنه أمر جوهري . أصغ بعناية ، فقد تتعلم شيئاً . في خطابه القصير الذي ألقاه على مسامع أليس يرسم همتي دمتي مستقبل الآمال الإنسانية ، ويقدم المفتاح

المفّضي إلى خلاصنا: أن نصبح سادة الكلمات التي نتحدّث بها، أن نجعل اللغة تلبي احتياجاتنا. لقد كان همتي دمتي عرّافاً، رجلاً عرّافاً بالحقائق التي لم يكن العالم على استعداد لها.

- رجل؟

- عفواً! إنّها زلّة لسان. أعني أنّه كان بيضة. لكنّ زلّة اللسان تلقي ضوءاً، وتساعد في إثبات وجهة نظري. ذلك أنّ كلّ البشر هم بيّض، على سبيل المجاز. إنّنا نوجد، ولكننا لم نحقق بعد الهيئة التي هي قدرنا. إنّنا احتمال محض خالص، مثال لما لم يصل بعد، ذلك أنّ الإنسان مخلوق ساقط، ونحن نعرف ذلك من سفر التكوين. وهمتي دمتي مخلوق ساقط كذلك. إنّهُ يسقط عن حائطه، وما من أحد يستطيع أن يعيده مجدداً، لا الملك، ولا جياده، ولا رجاله. ولكن ذلك هو ما يتعيّن علينا جميعاً الآن أن نكافح لإنجازه، إنّهُ واجبنا كبشر: أن نللمم البيضة من جديد ونعيدها إلى موضعها، ذلك أنّ كلامنا، يا سيّدي، هو همتي دمتي، ومساعدته هي مساعدة لأنفسنا.

- حجة مقنعة.

- من المستحيل العثور على شائبة تشوبها.

- أو تصدّعات في البيضة.

- بالضبط.

- وهي في الوقت نفسه أصل هنري دارك.

- نعم، ولكن في الأمر ما يفوق ذلك. بيضة أخرى في واقع

الأمر.

- هناك أكثر من بيضة؟

- يا للسماء! نعم، هناك الملايين من البيض. ولكنّ البيضة التي أعنيها شهيرة، على نحو خاص. وربما كانت أبرز بيضة على الإطلاق.

- لقد بدأت تحيرني في أمري.

- إنني أتحدّث عن بيضة كولومبوس.

- آه، نعم، بالطبع.

- أتعرف القصة؟

- الجميع يعرفها.

- إنها قصة جذابة. أليس كذلك؟ فعندما جابهته مشكلة كيفية إيقاف البيضة على حافتها، ضغط قليلاً على الأسفل، وشرخ القشرة بما يكفي لإيجاد تسطح معين يسند البيضة عندما يُبعد يده.

- لقد نجح هذا الأسلوب.

- بالطبع نجح، فقد كان كولومبوس عبقرياً، وقد سعى للوصول

إلى الفردوس، واكتشف العالم الجديد. ولم يمضِ بعدُ أو أن تحوّل إلى فردوس.

- حقاً.

- أعتزف بأنّ الأمور لم تمضِ على مايرام تماماً بعد. ولكنّ الأمل

مايزال قائماً. ولم يفقد الأمريكيون رغبتهم في اكتشاف عوالم جديدة.

هل تذكر ما حدث في ١٩٦٩؟

- أتذكر كثيراً من الأشياء. ما الذي تعنيه؟

- سير البشر على القمر. فكّر في ذلك، يا سيدي العزيز. لقد سار

البشر على القمر.

- نعم، أتذكر. وقد قال الرئيس: لقد كان ذلك أعظم حدث منذ بدء الخليقة.

- كان على حق. الشيء الوحيد الذي قاله ذلك الرجل. وماذا تعتقد أن القمر يشبهه؟

- ليست لدي فكرة.

- هلم! هلم! فكر مجدداً!

- آه، نعم. الآن أدرك ما تقصده.

- أسلم بذلك. التشابه ليس تاماً. ولكن من الصحيح أنه في فترات معينة، وخاصة في الليالي الصافية، يبدو القمر مماثلاً تماماً لبيضة.

- نعم، مماثل للغاية.

في تلك اللحظة، أقبلت نادلة حاملة إفطار ستلمان، ووضعت على المائدة أمامه فرمق العجوز الطعام بابتهاج، ورفع السكين على النحو اللائق بيده اليمنى، وكسر قشرة البيضة المسلوقة سلقاً خفيفاً، وقال:  
- وكما يمكنك أن ترى، يا سيدي، فإنني لا أترك حجراً دون أن أقلبه.

جرى اللقاء الثالث في وقت لاحق من اليوم نفسه. كان الأصيل قد أوغل في مسيرته: الضياء يبدو مثل شاش امتد على قوالب الأجر وأوراق الشجر، والظلال تمتد متطاولة. ومن جديد لاذ ستلمان بريفر سايد بارك، وبحافتها هذه المرة، ناشداً قسطه من الراحة على نجيل نام على هضبة مستديرة في الشارع الرابع والثمانين تُعرف باسم مونت توم. وكان إدجار الآن هو قد أمضى في هذه البقعة ذاتها صيفي عامي

١٨٤٣ و١٨٤٤ م ساعات طويلة محدّقاً في نهر الهدسون. وقد عرف كوين هذا لأنّه دأب على معرفة مثل هذه الأمور. وقُدِّر له أن يجلس هناك كثيراً بدوره.

ساوره قليل من الخوف ممّا يتعيّن عليه القيام به. دار حول الصّخرة مرتين أو ثلاثاً، ولكنّه لم يفلح في اجتذاب اهتمام سلتمان، ثمّ جلس بجوار العجوز وحيّاه، فلم يتعرّفه العجوز على نحو يستعصي على التصديق. وكانت تلك هي المرّة الثالثة التي يقُدّم كوين نفسه فيها، وفي كلّ مرّة حدث ذلك كما لو كان كوين شخصاً آخر. ولم يستطع أن يقرّر ما إذا كان ذلك مؤشراً جيّداً أو سيّئاً. وإذا كان سلتمان يدّعي فإنّه ممثّل لم يعرف له العالم نظيراً. ففي كلّ مرّة ظهر فيها كوين قام بذلك على نحو مفاجئ. ومع ذلك، لم يطرف لسلتمان جفن. ومن ناحية أخرى فإنّه إذا كان سلتمان لم يتعرّفه حقّاً، فما الذي يعنيه هذا؟ هل يمكن لأحد أن يكون غير متقبّل للأمر على هذا النحو؟

سأله العجوز عمّن يكون.

قال كوين:

- اسمي بيتر سلتمان.

ردّ سلتمان:

- ذلك اسمي، إنني بيتر سلتمان..

قال كوين:

- إنني بيتر سلتمان الآخر.

- آه، تقصد ابني. نعم، ذلك ممكن، إنك تبدو مثله تماماً.



بالطبع، بيتر أشقر وشعرك فاحم السّواد. لست هنري دارك، وإنما شعرك فاحم السّواد. لكنّ النَّاس يتغيرون. أليس كذلك؟ في لحظة أنت شيء، ثمّ في اللّحظة التالية أنت شخص آخر. تماماً.

- لقد تساءلت كثيراً عن جليّة أمرك، يا بيتر، وحدثت نفسي مرّات كثيرة بقولي: «ترى ما هو حال بيتر». -  
- إنني أفضل كثيراً الآن. شكراً لك.

- يسعدني سماع ذلك. لقد قال أحدهم إنك لقيت حتفك. وقد أحزنتني ذلك للغاية. -  
- لا، لقد شُفيتُ تماماً.

- بمقدوري رؤية ذلك. تبدو في خير حال، وتحدّث بطلاقة كذلك.

- يمكنني استخدام كلّ الكلمات الآن، وحتى الكلمات التي تبدو عسيرة لمعظم الناس، بمقدوري نطقها كلها. -  
- إنني فخور بك، يا بيتر!  
- كلّ ذلك بفضلك.

- الأطفال هبة كبيرة. لقد قلت ذلك على الدّوام. هبة لا يعادها شيء.

- إنني على يقين من ذلك.

- أما بالنسبة إليّ فهناك أيام طيبة وأيام سيّئة. وعندما تحلّ الأيام السيّئة أفكّر في الأيام التي مرّت رخاء. الذاكرة هبة كبيرة، يا بيتر، إنّها ثاني أفضل شيء بعد الموت.

- بلا شك .

- بالطبع ، علينا أن نعيش في الحاضر أيضاً . وعلى سبيل المثال فإنني موجود حالياً في نيويورك . وغداً قد أكون في موضع آخر ، فأنا أسافر كثيراً . اليوم هنا ، وغداً راحل . ذلك جزء من عملي .

- لا بد أنه عمل مجدّد للنشاط .

- نعم ، إنه مجدّد نشاطي للغاية . وذهني لا يكفّ عن العمل .

- يطيب لي سماع ذلك .

- صحيح أنّ السنين تثقل كاهلي . ولكن لدينا الكثير ممّا نشعر

بالامتنان لوجوده . الزمن يوغل بنا في العمر ، ولكنّه يمنحنا كذلك الليل والنهار ، وعندما نموت فإنّ هناك دائماً من يحلّ محلّنا .

- إنّنا جميعاً نوغل في العمر .

- عندما تكبر سنك فقد يكون لديك ابن يخفّف عنك .

- أتمنى ذلك .

- عندئذٍ ستكون محظوظاً على نحو ما كنت . تذكّر ، يا بيتر ، أنّ

الأطفال هبة كبرى .

- لن أنسى ذلك .

- وتذكّر أيضاً أنّك لا ينبغي أن تضع كل ما لديك من بيض في

سلة واحدة . وبالمقابل لا تُخصّص دجاجاتك قبل أن تفقس من بيضها .

- لا ، سأحاول أخذ الأمور في موعدها .

- وأخيراً ، لا تقل أبداً شيئاً تعرف في قرارة نفسك أنه ليس

صحيحاً .

- لن أفعل ذلك .

- الكذب شيء سيء، فهو يجعلك تأسف حتى على كونك قد وُلدت. وألاً تكون قد وُلدت فتلك لعنة. إنك محكوم عليك بأن تحيا خارج الزمن، وعندما يحدث ذلك لا يكون هناك ليل ولا نهار، بل ولا تتاح لك الفرصة حتى للموت.  
- أدرك ما تعنيه.

- الكذبة لا يمكن إلغاؤها أبداً. وحتى الحقيقة ليست كافية لذلك، إنني أب، وأعرف هذه الأمور. تذكر ما حدث لأب بلادنا. لقد أجتت شجرة الكرز، ثم قال لأبيه: «ليس بمقدوري أن أكذب». وعقب ذلك بوقت قصير ألقى قطعة نقد معدنية عبر النهر. وهاتان القصتان حدثان مهمان في التاريخ الأمريكي. فقد اجتت جورج واشنطن الشجرة وألقى بقطعة النقد. أتفهم؟ لقد كان يبلغنا حقيقة جوهرية، أي أن المال لا ينبت الشجر. وهذا ما جعل بلادنا عظيمة، يا بيتز، والآن تحتل صورة جورج واشنطن كل دولار. هناك درس مهم ينبغي تعلمه من هذا كله.  
- أتفق معك.

- بالطبع، من سوء الحظ أن الشجرة قد اجتتت. تلك الشجرة كانت شجرة الحياة، وكان يمكن أن تجعلنا محصنين ضد الموت. والآن نرحب بالموت بأذرع مفتوحة، وخاصة عندما يتقدم العمر بنا. وذلك معنى العبارة القائلة: «الحياة هي وعاء الكرز». فلو أن الشجرة ظلت قائمة لكُتبت لنا حياة خالدة.  
- نعم، إنني أدرك ما تعنيه.

- في رأسي أفكار من مثل هذا النوع، فذهني لا يكفّ عن العمل.  
وقد كنت على الدوام طفلاً ماهراً، يا بيتر، ويسعدني أنك تفهم ما أعنيه.

- بمقدوري تتبّع ما تقصده على وجه الدقة.

- ينبغي على الأب دوماً أن يعلم ابنه الدروس التي تعلّمها.  
وبتلك الطريقة تنقل المعرفة من جيل إلى جيل ونغدو أكثر حكمة.  
- لن أنسى ما حدّثتني به.

- الآن، يا بيتر، سيكون بمقدوري أن ألقى حتفي سعيداً.  
- إنني سعيد.

- ولكن ينبغي ألا تنسى أيّ شيء.

- لن أنسى، يا أبي، أعدك بذلك.

في صباح اليوم التالي كان كوين أمام الفندق في مواعده المؤلف.  
وكان الطقس قد تغيّر في النهاية. وبعد أسبوعين من تألق الأفق تقاطر  
الرذاذ الآن على نيويورك، وامتلات الشوارع بصوت إطارات  
السيّارات المبتلة المنطلقة في طريقها. جلس كوين على الأريكة  
ساعة، وهو يحمي نفسه من الرذاذ بمظلة سوداء، معتقداً أنّ ستلمان  
سيظهر في أيّ لحظة، وعكف على كعكته وقهوته، وقرأ تقريراً عن  
هزيمة فريق الميتس في مباراة الأحد، ومع ذلك لم يبدُ أثر للعجوز.  
وحدّث نفسه بأنّ عليه الالتزام بالصبر، وشرع في مطالعة باقي  
الصّحيفة. ومرّت أربعون دقيقة. وصل إلى القسم المالي من  
الصّحيفة وكان على وشك قراءة تحليل لدمج الشركات عندما اشتدّ

المطر. نهض عن الأريكة متردداً، ودفع نفسه إلى مدخل إحدى الدور على الجانب الآخر من الشارع أمام الفندق. وقف هناك بحذائه المبتل ساعة ونصف الساعة. ومضى يتساءل: هل مرض ستلمان؟ وحاول أن يتخيله راقداً في فراشه، وقد كساه عرق الحمى، وقد يكون العجوز قد لقي حتفه خلال الليل، ولم يُكتشف جثثانه بعد. وحدث نفسه بأن مثل هذه الأشياء تحدث للناس.

كان اليوم هو الذي ينبغي أن يحسم الأمر، وقد أعد له كوين خططاً مفصلة بذل فيها جهداً كبيراً. وأمّا الآن فإن تقديراته وصلت إلى طريق مسدود. وأزعجه أنه لم يأخذ هذا الظرف الطارئ في الحسبان.

ورغم ذلك فقد تردد. وقف هنالك تحت المظلة يرقب المطر وهو يتحدّر عنها في قطيرات بديعة. وفي الساعة الحادية عشرة شرع في التوصل إلى قرار، وبعد ذلك بنصف ساعة عبر الشارع وسار أربعين خطوة بمحاذاة كتلة المباني، ودخل فندق ستلمان. كان المكان يفوح برائحة طارد الصراصير والسجائر المسحوقة في المنافض. وجلس عدد قليل من النزلاء الذين لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه، في البهو، وقد تمددوا على مقاعد بلاستيكية صفراء. وبدا المكان موحشاً، جحيماً من صنع الأفكار المتبدلة.

جلس رجل أسود عظيم الجرم وراء مكتب الاستقبال، وقد شمّر عن ساعديه ووضع أحد مرفقيه على النضد، وأسند رأسه على كفه المفتوح، ويده الأخرى راح بقالب صفحات صحيفة شعبية، من غير أن يكاد يتوقف إلا لقراءة الكلمات. وقد بدا ضجراً كما لو كان قد أمضى حياته بأسرها هناك.

قال كوين :

- أودّ أن أترك رسالة لأحد نزلائكم .

قال الرجل :

- لا نزلاء هنا، نحن ندعوهم بالمقيمين .

- لأحد المقيمين لديكم، إذن، أودّ أن أترك رسالة .

- ومن عساه يكون يا فتى!؟

- ستلمان، بيتر ستلمان .

تظاهر الرجل بالتفكير للحظة، ثم هز رأسه :

- لا، لا أستطيع تذكر أي شخص بذلك الاسم .

- أليس لديك سجلّ .

- بلى، عندنا دفتر، لكنّه في الخزانة .

- الخزانة؟ عمّ تتحدّث؟

- أتحدّث عن الدفتر، يا فتى، فالرئيس يجب الاحتفاظ به في

الخزانة .

- لا أفترض أنك تعرف مجموعة أرقام فتحها؟

- آسف، فالرئيس هو الوحيد الذي يعرفها .

تنهّد كوين، ودسّ يده في جيبه، وأخرج ورقة مالية من فشة

الخمسة دولارات، ووضعها على النضد مبقياً يده فوقها .

أتساءل :

- لا أفترض أنه تصادف أن لديك نسخة من الدفتر . هل لديك؟

قال الرجل :

- ربّما، سيتعيّن عليّ البحث في مكنتي .

رفع الرَّجُل الصَّحِيفَةَ الَّتِي وَضَعَتْ مَفْتُوحَةً عَلَى النُّضْدِ، وَتَحْتَهَا بَدَا السَّجَلُ.

قال كوين رافعاً يده عن الورقة المائيّة:

- صدفة سعيدة.

ردّ الرجل، ساحباً الورقة المائيّة على امتداد النضد، جاذباً إيّاها إلى خارج الحافّة ومنتهياً بها إلى جيبه:

- نعم، أحسب أنني محظوظ اليوم. ما هو اسم صديقك الذي

ذكرته؟

- ستلمان. عجوز أشيب.

- السيّد الذي يرتدي المعطف؟

- صحيح.

- إننا نسّميه البروفسور.

- هذا هو الرَّجُل المطلوب. هل لديك رقم غرفته، لقد نزل

بالفندق منذ أسبوعين.

فتح الكاتب السجلّ، وقلّب صفحاته، ومرّ بإصبعه على عمود من

الأسماء والأرقام، وقال:

- ستلمان، الغرفة ٣٠٣. لم يعد موجوداً هنا.

- ماذا؟

- غادر الفندق.

- عمّ تتحدّث؟

- استمع، يا فتى، أقول لك ما هو مدوّن هنا. ستلمان غادر

الفندق البارحة ولم يعد له وجود هنا.

- هذا أكثر ما سمعته جنوناً.

- لا يعنيني ما هو. فهو مكتوب ومدون هنا.

- هل سجل عنواناً يُرسل إليه بريده لاحقاً؟

- أتمزح؟

- في أي وقت غادر الفندق؟

- عليك أن تسأل لوي، الكاتب الليلي، وهو يأتي في الساعة

الثامنة.

- هل يمكنني مشاهدة الغرفة؟

- آسف. فقد أجزتها هذا الصباح. والرجل نائم فيها.

- ما هو شكله؟

- مقابل خمسة دولارات تطرح أسئلة كثيرة.

قال كوين ملوحاً بيده في ياس:

- دع عنك الأمر، فلا أهمية له.

سار عائداً إلى شقته تحت مطر منهمر، وابتل رغم المظلة. وقال  
محدثاً نفسه: يا لها من وظيفة رائعة! لقد كفاني من معاني الكلمات!  
وألقي بالمظلة باشمزاز على أرض غرفة الجلوس، ثم نزع سترته،  
وطوح بها إلى الحائط، فتناثر رذاذ الماء في كل مكان.

اتصل هاتفياً بفرجينيا ستلمان، وقد استبد به الحرج، بحيث لم  
يفكر في أي شيء آخر. وفي لحظة ردّها أوشك أن يعيد السّاعة إلى  
موضعها.

قال:

- لقد فقدت أثره.



- أواثق أنت من ذلك؟

- لقد غادر حجرته البارحة. ولست أدري أين هو.

- إنني خائفة يا بول!

- هل أتصل بكما؟

- لست أدري. أعتقد ذلك، ولكنني لست متأكدة.

- ما الذي يعنيه ذلك؟

- لقد ردّ بيتر على نداء الهاتف، صباح اليوم، خلال وجودي

بالحمام. وهو يرفض إبلاغي بهوية المتحدث. ومضى إلى غرفته، وأغلق مصاريع النافذة، وامتنع عن الحديث.

- لكنّ ذلك حدث من قبل.

- نعم، وهذا هو السرّ في عدم تأكدي. ولكنه لم يحدث منذ وقت

طويل.

- يبدو الأمر سيئاً.

- هذا ما أخشاه.

- لا تقلقي، فلديّ بضع أفكار، وسأعكف على تنفيذها فوراً.

- كيف أتصل بك؟

- سأحادثك هاتفياً كلّ ساعتين، في أيّ مكان كنت.

- أتعدّ بذلك؟

- أجل، أعدك.

- إنني خائفة للغاية، ولا أستطيع احتمال ذلك.

- الخطأ كلّه يقع على كاهلي. لقد ارتكبت خطأ أبله، وإنني

أسف.

- لا، لا لوم عليك، فليس هناك أحد يستطيع مراقبة شخص على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً. ذلك مستحيل، لسوف تضطر إلى أن تسكن في إهابه.

- تلك هي المشكلة، لقد ظننت أنني داخل إهابه.

- لم يفت الأوان بعد. أليس كذلك؟

- كلا. ما يزال هناك متسع من الوقت. لا أريدك أن تقلقي.

- سأحاول ألا أقلق.

- طيب. سأتصل بك.

- كل ساعتين؟

- كل ساعتين.

أنهى المكالمة، على نحو بديع للغاية. وعلى الرغم من كل شيء فقد أفلح في إبقاء فرجينيا ستلمان على هدوئها، ووجد من المتعذر تصديق ذلك، ولكنها ماتزال، فيما بدا، تثق به. غير أن ذلك ما كان ليعينه على شيء، ذلك أنه في حقيقة الأمر كذب عليها، فلم تكن لديه بضع أفكار. لم تكن لديه حتى فكرة واحدة.

ها قد مضى ستلمان الآن. أصبح العجوز جزءاً من المدينة. كان نقطة، علامة ترقيم، حجراً في حائط لا نهائي من الأحجار. بمقدور كوين المضيّ عبر الشوارع كلّ يوم طوال ما بقي من عمره، ومع ذلك فلن يعثر له على أثر. لقد تدنّى كلّ شيء إلى مستوى المصادفة، إلى كابوس من الأرقام والاحتمالات، ولم تكن هناك أيّة مفاتيح للغز، أيّة خيوط للحلّ، أيّة خطوات للقيام بها.

عاد كوين بذهنه إلى بداية القضية. لقد كانت مهمّته حماية بيتر، لا مراقبة ستلمان، فهذه المراقبة كانت وسيلة، طريقة لمحاولة التنبؤ بما سيحدث. وكانت النظرية أنّه من خلال مراقبة ستلمان سيعلم بنواياه نحو بيتر. وقد تبع العجوز لمُدّة أسبوعين، فما الذي يمكنه إذن أن يستنتجه؟ ليس كثيراً. فقد كان سلوك ستلمان أشدّ غموضاً من أن يوحى بأيّة إيماءة.

كانت هناك، بالطبع، إجراءات مُتشدّدة معيّنة يمكنهم القيام بها. فمقدوره أن يقترح على فرجينيا ستلمان الحصول على رقم هاتف غير مدرج في الدليل، وذلك من شأنه أن يكفل التخلّص من المكالمات المزعجة، على الأقلّ بصورة مؤقتة، وإذا لم يؤدّد ذلك إلى نتيجة فبمقدورها الانتقال إلى مكان آخر، بوسعها مغادرة الحيّ، وربما ترك المدينة كليّة. وفي أسوأ الأحوال يمكنها اتّخاذ هويّات جديدة، والعيش بأسماء مختلفة.

ذكّرت هذه الخاطرة الأخيرة بشيء مهمّ، فقد أدرك أنّه حتى الآن لم يضع موضع التساؤل بجدّيّة ظروف الاستعانة به لأداء هذه المهمّة،

فقد حدثت الأمور بصورة سريعة للغاية، وسلّم بأنه سيحلّ محل بول أوستر. وبمجرّد أن قفز إلى الاسم فقد كَفَّ عن التّفكير في أوستر نفسه. فإذا كان هذا الرّجل تحرّياً جيّداً، على نحو ما اعتقد آل ستلمان، فقد يكون بمقدوره أن يقدّم يد المساعدة في حلّ القضية. وسينفض كوين يده منها، ويغتنفر له أوستر ما قام به، وسيعملان معاً لإنقاذ بيتر.

تصفّح الصّفحات الصّفراء في دليل الهاتف بحثاً عن وكالة أوستر للتحرّيات. فلم يجدها مدرجة فيها. غير أنّه عثر في الصّفحات البيضاء على الاسم. كان هناك بول أوستر واحد في مانهاتن، يقطن في ريفرسايد درايف، غير بعيد عن مسكن كوين، ولم يكن هناك ذكر لوكالة تحرّيات خاصة، ولكنّ ذلك لم يكن يعني أيّ شيء. وربّما كان معناه أن أوستر لديه عمل كثير، بحيث لم تكن به حاجة للإعلان عن وكالته. التقط كوين سماعة الهاتف، وكان على وشك أن يطلب الرّقم، عندما خطرت بباله فكرة أفضل، فهذا الأمر أكثر أهميّة من أن يترك لمحادثة هاتفية. ولم يرغب في التعرّض لمخاطرة التملّص منه. ولما لم يكن لأوستر مكتب فمعنى ذلك أنّه يعمل في المنزل. ولسوف يمضي كوين إلى هناك، ويحادثه وجهاً لوجه.

ها قد أقلعت السّماء الآن، وعلى الرّغم من أنّها كانت ماتزال متّسحة باللّون الرماديّ، إلّا أنّه كان في وسع كوين أن يرى إلى الغرب أعمدة من الضّياء تتسرّب عبر السّحب. وفيما سار صعداً في ريفرسايد درايف تناهت إلى وعيه الحقيقة القائلة بأنّه لم يعد منهمكاً في مراقبة ستلمان، وساوره شعور بأنّه فقد نصف نفسه، فعلى امتداد

أسبوعين قيده خيط خفي إلى العجوز. وأياً كان ما فعله ستلمان فإنه قد فعل هو مثله، وحيثما ذهب ستلمان فإنه هذا حذوه. لم يعتد جسمه هذه الحرّية الجديدة، وعلى امتداد كتل المباني القليلة الأولى سار بإيقاع جرّ العجوز لقدميه. لقد انتهت الرقية السحرية، ومع ذلك فإن جسمه لم يُحط بذلك علماً.

كان المبنى الذي يقيم فيه أوستر واقعاً في منتصف كتلة المباني الطويلة الممتدة بين الشارعين المائة والسادس عشر والمائة والتاسع عشر، جنوب كنيسة ريفر سايد ومقبرة جرانت مباشرة. كان مكاناً يحظى بالرعاية، متألق المقابض، نظيف الزجاج، تحيطه تلك الرصانة البورجوازية التي نالت إعجاب كوين في تلك اللحظة. وكانت شقة أوستر في الطابق الحادي عشر. وضغط كوين على زرّ النداء الداخلي متوقفاً سماع صوت يحادثه عبر جهاز الاتصال الداخلي. ولكن زرّ النداء الداخلي استجاب له دون أيّ حوار، ففتح كوين الباب بدفعه إلى الداخل، وسار عبر البهو، واستقلّ المصعد إلى الطابق الحادي عشر.

فتح رجل الباب. كان طويل القامة، أسمر البشرة، في منتصف الثلاثينات، يرتدي ملابس مجمّدة، وبدا أنه لم يخلق لحيته منذ يومين، وأمسك في يده اليمنى قلم حبر لم يُردّ إليه غطاؤه، وقد استقرّ بين إبهامه والإصبعين الأوّل والثاني المقابلين له، ومازال في وضع الكتابة. وبدا الرجل مندهشاً؛ إذ ألقى غريباً أمامه.

- تساءل متردداً:

- نعم؟

ردّ كوين بأقصى ما استطاع من تهذيب:

- هل كنت تتوقّع شخصاً آخر؟

- زوجتي، في الواقع، وهذا هو السبب في ضغطتي للزّر، دون السؤال عن هويّة الطّارق.

قال كوين، معتذراً:

- آسف لإزعاجك، ولكنني أبحث عن بول أوستر.

قال الرّجل:

- إنني بول أوستر.

- ترى هل أستطيع الحديث معك. الأمر مهمّ للغاية.

- يتعيّن أن تخبرني بموضوع الحديث أولاً.

- تطلّع كوين إلى الرّجل بجديّة، وقال:

- إنني أكاد أعرفه، وأخشى أن يكون معقداً، معقداً للغاية.

- ما هو اسمك؟

- آسف، اسمي كوين.

- كوين ماذا؟

- دانييل كوين.

بدا أنّ الاسم يذكر أوستر بشيء، وصمت للحظة شاردأ، وكأنه يبحث في تلافيف ذاكرته. ودمدم محدثاً نفسه: «كوين، إنني أعرف ذلك الاسم من مكان ما». وعاد إلى الصّمت ثانية، مركزاً على نحو أكبر للوصول إلى ردّ، وقال:

- إنك لست شاعراً، هل أنت كذلك؟

قال كوين:

- كنت كذلك، لكنني لم أكتب قصائد منذ زمن طويل.

- لقد أنجزت ديواناً، منذ سنوات طويلة. أليس كذلك؟ أحسب أن عنوانه كان «مهمّة لم تنته». ديوان صغير الحجم، له غلاف أزرق.

- نعم، أنا من قام بتأليفه.

- لقد أعجبني كثيراً، وعلقت الآمال على رؤية المزيد من أعمالك، بل وتساءلت عمّا عساه حدث لك.

- إنني مازلت موجوداً، بشكل من الأشكال.

وسّع أوستر فتحة الباب وأوماً لكوين بالدخول إلى الشقّة. كانت مكاناً بهيجاً من الدّاخل، غريب الشكل، به عدد من الممرّات الممتدّة، وقد تناثرت الكتب في كلّ مكان، واعتلت الجدران لوحات لفنانين لم يعرفهم كوين، وتناثرت على الأرض لعب أطفال - شاحنة حمراء، دبّ بني اللون، وحش فضائي أخضر. ومضى به أوستر إلى غرفة الجلوس، وقدم له مقعداً مكسوّاً بغطاء، وقد نال منه البلى. ومضى إلى المطبخ لإحضار بعض الجعة، وعاد حاملاً زجاجتين وضعهما على الصّندوق الخشبيّ الذي يستخدم كهاثدة صغيرة لتقديم القهوة وجلس على الأريكة أمام كوين.

استهلّ أوستر الحديث بقوله:

- أكان شيئاً متعلّقاً بالأدب ذلك الذي أردت محادثتي بشأنه؟

قال كوين:

- كلا. أتمنى لو أنه كان كذلك. ولكن هذا الموضوع لا شأن له بالأدب.

- كان متعلقاً بماذا إذن؟

صمت كوين وراح يُجيب بصره في أرجاء الغرفة من غير أن يرى شيئاً، وحاول البدء بالحديث:

- يساورني شعور بأن هناك خطأ فظيماً. لقد جئت إلى هنا باحثاً عن بول أوتر، التحري الخاص.  
- لماذا؟

ضحك أوتر، فانفجر كل شيء في تلك الضحكة، متحولاً إلى نثار. وأدرك كوين أن حديثه لم يكن إلا لغواً، فقد كان يمكنه بالمثل أن يسأل عن «الثور الرئيسي الجالس»، فما كان الأثر الذي سيركه ليختلف عن الأثر الذي أحدثته كلماته.

كرّر بصوت رقيق:

- التحري الخاص.

- أخشى أن تكون قد قابلت بول أوتر غير المقصود.

- إنك الوحيد المدرج اسمه في دليل الهاتف.

قال أوتر:

- قد يكون ذلك صحيحاً، لكنني لست تحرياً.

- من أنت إذن؟ ما هو عملك؟

- إنني كاتب.

- كاتب؟

قالها كوين وكأن الكلمة نحيب.



قال أوستر:

- آسف. ولكن هذا هو ما أعمله.

- إذا كان ذلك صحيحاً فلا أمل إذن، والأمر بأسره كابوس.

- لست أدري عمّ تتحدّث.

حدّثه كوين بالأمر. بدأ من البداية، ومضى سارداً القصة بكاملها، خطوة فأخرى، فقد كان الضّغط يتصاعد بداخله منذ اختفاء ستلمان في صباح ذلك اليوم، وانسرب منه الآن في صورة دفع منهمر من الكلمات. تحدّث عن المكالمات الهاتفية الموجهة إلى بول أوستر، وعن قبوله للقضية الذي يستعصي على التفسير، وعن لقائه بيتر ستلمان، وعن حوارهِ مع فرجينيا ستلمان، وعن قراءته كتاب ستلمان، وعن تتبّعه ستلمان ابتداءً من محطة الجرانند سنترال، وعن جولات ستلمان اليومية، وعن الحقيبة السجّادية والأشياء المكسورة، وعن الخرائط المزعجة التي شكّلت الحروف، وعن أحاديثه مع ستلمان، وعن اختفاء ستلمان من الفندق، وعندما بلغ النهاية، قال:

- أتعتقد أنني مجنون؟

قال أوستر الذي أصغى بانتباه إلى حديث كوين:

- كلا، لو أنني كنت في موضعك فلربما قمت بالشيء نفسه.

حلّت هذه الكلمات برداً وسلاماً على كوين، وكأنّ العبء لم يعدّ، بعد طول انتظار، واقعاً على كاهله وحده. وشعر بأنّه يودّ أن يعانق أوستر، معلناً له صداقته مدى الحياة.

قال كوين:

- إنني لا أصطنع الأمر، بل إن لديّ دليلاً على ما أقول.

أخرج حافظة نقوده، واستلَّ منها الشيك ذا الخمسمائة دولار الذي حرَّره فرجينيا ستلمان، قبل أسبوعين. وسلَّمه إلى أوستر، قائلاً:

- كما ترى، فهو محرَّر باسمك.

تطلَّع أوستر إلى الشيك باهتمام، وأوماً برأسه:

- يبدو أنه شيك مطابق تماماً للأصول.

قال كوين:

- طيِّب، إنَّه لك. أريدك أن تأخذه.

- ليس بمقدوري تقبُّله.

- لا جدوى منه، بالنسبة إليّ.

قالها كوين ناظراً حوله في أرجاء الشقَّة، وأضاف مشيراً على نحو

غامض:

- اشتر لنفسك المزيد من الكتب، أو بضع ألعاب للأطفال.

لزم أوستر الصَّمت لحظة، وقال:

- أنت من كسب هذا المال، وهو من حقِّك. ومع ذلك فهناك

شيء واحد سأقوم به من أجلك. بما أنَّ الشيك محرَّر باسمي، فسوف

أحصل لك على قيمته النقديَّة، سأمضي به إلى مصرفي غداً صباحاً،

وأودعه في حسابي، وأعطيك المال لدى تحصيله.

لم يحجر كوين رداً.

قال أوستر:

- ليكن؟ هل اتَّفقنا؟

قال كوين، بعد لُي:

- ليكن، لسوف نرى ما يحدث.

وضع أوستر الشيك على مائدة القهوة، وكأئماً ليقول إن الأمر قد حسم، ثم استند بظهره إلى الأريكة، وحدّق في عينيّ كوين. وقال:  
- هناك أمر أكثر أهميّة من الشيك. حقيقة إدراج اسمي في هذا الأمر. لست أفهم ذلك على الإطلاق.

- لقد تساءلت عمّا إذا كنت قد صادفت بعض المشكلات مع هاتفك مؤخراً، فالخطوط تتشابك في بعض الأحيان. ويحاول شخص الاتصال برقم، وعلى الرغم من أنه يطلب بشكل صحيح فإنه يتّصل بشخص آخر.

- نعم، حدث ذلك لي من قبل، ولكن حتى لو تحطّم هاتفني تحطياً فإنّ ذلك لا يفسّر المشكلة الحقيقيّة. إنه يحدثنا بالسّرّ في أنّ المكالمة قد وصلت إليك، وليس بالسّرّ في أنهم أرادوا محادثتي في المقام الأوّل.

- هل من الممكن أن تكون على معرفة بالأشخاص المعنّين بالأمر؟  
- لم يسبق لي أن سمعتُ قطّ بآل ستلمان.  
- ربّما أراد أحدهم أن يوقعك في مأزق ضاحك.  
- لست أتعامل مع هذه النّوعيّة من النّاس.  
- ليس في وسعك أن تتوقّع أبداً ما يمكن أن يحدث.  
- ولكن الحقيقة أنّ الأمر ليس مزحة، إنّها قضيةٌ حقيقيّة تتعلّق بأناس حقيقيين.

قال كوين، بعد فترة صمت طويلة:  
- نعم، إنّني أدرك ذلك.

وصلا إلى نهاية ما يمكنها الحديث عنه . وفيما وراء هذه النقطة لم يكن هناك شيء : الخواطر العشوائية لأناس لا يعرفون شيئاً . وأدرك كوين أن عليه الانصراف . فقد مكث هناك قرابة الساعة ، وقد حان وقت اتصاله بفرجينيا ستلمان . ورغم ذلك فقد تردّد في النهوض . كان المقعد مريحاً ، وتصاعد تأثير الجعة قليلاً إلى الرأس . وكان أستر هو أول شخص على جانب من الذكاء والثقافة يقابله منذ وقت طويل ، فقد قرأ أعمال كوين القديمة ، وأعجب بها ، وتطلّع إلى المزيد منها . وعلى الرغم من كل شيء فقد كان من المستحيل على كوين ألا يشعر بالسعادة من جرّاء هذا .

جلسا هنالك وقتاً قصيراً دون أن يقولوا أي شيء . وفي النهاية هزّ أستر كتفيه هزّة خفيفة بدت وكأنها إقرار بأنهما قد وصلا إلى نقطة مسدودة . ثم نهض وقال :

- كنت أوشك على إعداد طعام غداء لنفسي ، وليس جعله لاثنين بالمشكلة .

تردّد كوين . وبدا الأمر كما لو أن أستر قد قرأ أفكاره ، ووصل إلى الشيء الذي تاق إليه أكثر من غيره ، أن يأكل ، أن يكون لديه عذر للبقاء قليلاً . قال :

- ينبغي عليّ الانصراف حقاً ، ولكن نعم ، أشكرك ، قليل من الطعام لا يضرّ .

- هل يروقك البيض باللحم؟

- يروقني كثيراً .

انصرف أوستر إلى المطبخ لإعداد الطعام، وكان كوين يودّ لو عرض عليه مساعدته، ولكنه لم يستطع التزحزح من موضعه، وأحسّ كأنّ جسمه من حجر. وفي ضوء غياب أية فكرة أخرى، أغمض عينيه. وفي الماضي كان ممّا يريجه أن يجعل العالم يختفي عن ناظريه. غير أنّه في هذه المرّة لم يجد داخل رأسه ما يثير الاهتمام. وبدا كأنّ الأشياء وصلت إلى حدّ التوقّف هناك، ثمّ بدأ يسمع في الظلام صوتاً، صوتاً أبله ينشد مردّداً الجملة ذاتها مراراً وتكراراً: «ليس بمقدورك إعداد البيض المخفوق دون كسر البيض». فتح عينيه لكي يجعل الكلمات تتوقّف.

كان هناك خبز وزبد، والمزيد من الجعة، وسكينان وشوكتان، وملح وفلفل، ومناديل مائدة، وبيض مخفوق، طبقان من البيض المخفوق يترجرجان في الصحنين الأبيضين. وتناول كوين طعامه بتركيز ونهم، ملتهماً الوجبة في ما بدا أنّه ثوانٍ قليلة. وبعد ذلك بذل جهداً كبيراً ليظلّ هادئاً. وقد جثمت الدّموع على نحوٍ غامضٍ وراء عينيه، وبدا صوته وكأنّه يرتجف وهو يتحدث، ولكنه أفلح على نحوٍ ما في إمساك أعصابه. وليبرهن على أنّه ليس ناكراً للجميل تتمحور أفكاره حول ذاته شرع في طرح أسئلة على أوستر عن كتاباته. وكان أوستر متحفّظاً قليلاً بشأن هذا الموضوع، ولكنه أقرّ أخيراً بأنّه يعكف على تأليف كتاب يضمّ عدداً من المقالات. وكان المقال الذي يعكف حالياً على كتابته يدور حول «دون كيوخوته».

قال كوين:

- إنه أحد كتبي المفضّلة.

- نعم، وهو من كتبي المفضلة كذلك. ليس هناك ما يماثله.  
سأله كوين عن المقال.

- أحسب أنك تستطيع أن تصفه بأنه مقال تأملي، إذ إنني لا  
أستهدف حقاً البرهنة على شيء. وفي حقيقة الأمر فإنني لم أبذل فيه  
جهداً كبيراً. إنه قراءة تأملية حسبها يمكنك القول.  
- ما هو جوهر المقال؟

- إن له علاقة أساساً بتأليف الكتاب: مَنْ كتبه، وكيف تمّت  
كتابته.

- هل هناك سؤال تطرحه في هذا الشأن؟

- بالطبع، لا. ولكنني أقصد الكتاب الموجود داخل الكتاب الذي  
ألفه سرفانتس<sup>(١)</sup>، الكتاب الذي نُحْيَلُ أنه يقوم بكتابته.  
- آه.

- الأمر بسيط للغاية. فسرفانتس، إذا كنت تتذكر، يبذل جهوداً  
كبيرة لإقناع القارئ بأنه ليس المؤلف، وهو يقول إن الكتاب ألفه

---

(١) سرفانتس، ميغيل دي (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) الروائي والكايب الدرامي الإسباني  
الذائع الصيت، ولد في الكالا إيناً لعائلة عربية وإن عضها الفقر بآنيابه وقد جُرح  
وشلّت يراه في معركة ليبانتو في ١٥٧١ م، وأسر في ١٥٧٥ م وأمضى السنوات  
الخمس التالية سجيناً في الجزائر، ثم أمضى ما بقي من عمره في كفاح مرير لكسب  
عيشه من الأدب ومن عمل حكومي متواضع. صدرت أولى محاولاته الروائية في  
١٥٨٥ م وصدر الجزء الأول من رائعته الواردة بالمتن «دون كيخوته» في ١٦٠٥ م  
والجزء الثاني في ١٦١٥ م وكتب عدداً من المسرحيات بقيت لنا منها ١٦ مسرحية،  
وأصدر مجموعة قصصية متميزة في ١٦١٣ م.

باللغة العربية السيد حميد بن نجلي، ويصف سرفانتس كيف أنه اكتشف المخطوط بالمصادفة ذات يوم في سوق طليطلة، وأنه يستعين بخدمات أحدهم ليترجمه له إلى اللغة الإسبانية، وبعد ذلك يقدم نفسه باعتبار أنه لا يعدو أن يكون محرراً للترجمة. وفي حقيقة الأمر فإنه لا يستطيع أن يشهد بدقة الترجمة ذاتها.

قال كوين :

- ومع ذلك فإنه يمضي إلى القول بأن صياغة السيد حميد بن نجلي لقصة دون كيخوته هي الصياغة الوحيدة الحقيقية، وكل الصياغات الأخرى مزورة كتبها مدعون، وهو يشدد على أن كل شيء في الكتاب قد حدث حقاً في الدنيا.

- تماماً، لأن الكتاب هو في نهاية المطاف هجوم على أخطار الإيهام، وما كان بمقدوره على نحو جيد للغاية أن يطرح عملاً من أعمال الخيال للقيام بذلك. أكان بوسعه ذلك؟ كان عليه أن يزعم أنه عمل حقيقي.

- ومع ذلك فقد تشككت على الدوام فإن سرفانتس قد التهم كل تلك القصص العاطفية القديمة. فلا يمكنك أن تكره شيئاً بمثل هذا العنف ما لم يكن جزء منك بحبه كذلك. وبمعنى من المعاني فإن دون كيخوته لم يكن إلا بديلاً لنفسه.

- أوافقك الرأي. أي صورة يمكن أن تكون أفضل لكاتب من إظهار رجل سحرته الكتب؟  
- تماماً.

- ولما كان يُفترض في حالتي أن يكون الكتاب حقيقياً فإنه ينبغي على ذلك أنه يجب أن يكتب القصة شاهد عيان للأحداث التي وقعت فيه. ولكن السيد حميد، المؤلف المعترف به، لا يظهر قط. فهو لا يزعم مرة واحدة أنه كان حاضراً ما حدث. وهكذا فإن السؤال الذي أطرحه هو هذا: من هو السيد حميد بن نجلي؟  
- نعم، إنني أدرك ما تقصده.

- النظرية التي أطرحها في المقال قوامها أنه تجميع لأربعة أشخاص مختلفين. سانشو بانزا هو، بالطبع، الشاهد. ليس هناك مرشح آخر لأنه الوحيد الذي يرافق دون كيخوته في كل مغامراته. ولكن سانشو لا يستطيع القراءة أو الكتابة، ومن هنا فإنه ليس المؤلف. ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن سانشو يحظى بموهبة عظيمة فيما يتعلق باللغة. وعلى الرغم من إساءة استعمال الألفاظ التافهة من جانبه، فإن بمقدوره الحديث بلا انتهاء عن كل شخص آخر في الكتاب. يبدو لي أن من المحتمل تماماً أنه أملى القصة على شخص آخر، أي على الحلاق والقس، صديقي دون كيخوته الطيبين. وقد وضعنا القصة في الشكل الأدبي المناسب - باللغة الإسبانية - ثم سلمنا المخطوط إلى سيمون كاراسكو، العزب من سالامانكا الذي يمضي لترجمته إلى اللغة العربية. ويعثر سرفانتس على الترجمة، ويجعلها تترجم إلى الإسبانية ثم ينشر الكتاب «مغامرات دون كيخوته».

- ولكن لماذا يتكلف سانشو والآخرين كل هذا العناء؟

- لشفاء دون كيخوته من جنونه، فهم يريدون إنقاذ صديقهم. تذكر أنهم في البداية يحرقون كتب الفروسية الخاصة به، ولكن ذلك



لا يُفْضِي إلى نتيجة، ذلك أن الفارس لا يتخلّى عما يسلب لَبّه، ثمّ في وقت أو آخر، يمضون للبحث عنه متتكرّين في أشكال مختلفة - كامرأة تواجه محنة، كفارس المرايا، كفارس القمر الأبيض - لكي يجتذبوا دون كيخوته إلى الدّار من جديد. وفي نهاية المطاف يُكلّلون بالنّجاح بالفعل. وكانت الفكرة هي الإمساك بمراة في مواجهة جنون دون كيخوته، لتسجيل كلّ انطلاقة عبثية ومثيرة للسخرية من انطلاقات خياله، بحيث أنّه عندما يقرأ الكتاب، في نهاية المطاف، يرى خطأ الأساليب التي يلجأ إليها.

- يعجبني ذلك.

- نعم، ولكن هناك انعطافة أخيرة، فدون كيخوته لم يكن في رأيي مجنوناً حقاً، وإنما كان يتظاهر بأنه كذلك. وفي حقيقة الأمر فقد دبّر الأمر كلّه بنفسه. تذكّر أنّه على امتداد الكتاب تشغله مسألة الجيل المقبل، فهو يتساءل مراراً وتكراراً عن مدى دقّة كاتب سيرة حياته في تسجيل مغامراته. وهذا يفترض معرفة من جانبه، فهو يعرف مسبقاً بوجود من يسجّل سيرة حياته، ومن عساه يكون غير سانشو بانزا التابع الأمين، ذلك الذي اختاره دون كيخوته لهذا الغرض على وجه الدقّة؟ وبالطريقة نفسها اختار الثلاثة الآخرين للقيام بالأدوار التي حدّدها لهم. فلقد كان دون كيخوته هو الذي دبّر أمر رباعيّ ابن نجلي. ولم يختار المؤلفين فحسب، وإنما ربّما كان هو الذي ترجم المخطوط العربي إلى الإسبانية إذ لا ينبغي أن نتصوّر أنّ ذلك أمر يتجاوز قدرته. وبالنسبة إلى رجل بالغ البراعة في فنّ التنكّر، ويجعل بشرته تميل إلى اللّون الأسمر، ويرتدي الملابس العربيّة، فإنّ ذلك لا

يمكن أن يكون أمراً بالغ الصعوبة، وأحبّ أن أتخيّل ذلك المشهد في سوق طليطلة، فسرفانتس يستعين بدون كيخوته ليكشف مغاليق قصة دون كيخوته نفسه. وذلك أمر بالغ الجمال.

- ولكنّك لم توضح بعد السرّ في أن رجلاً مثل دون كيخوته يقطع استمرارية حياته الهادئة لينغمس في مثل هذه الخدعة المعقدة.

- ذلك هو الجانب الأكثر إثارة للاهتمام. ففي اعتقادي أن دون كيخوته كان يُجري تجربة. لقد أراد أن يختبر مدى قابلية رفاقه للانخداع. إذ راح يتساءل: هل من الممكن الوقوف أمام العالم بأقصى قدر من الثقة بالنفس وإطلاق الأكاذيب واللغو؟ هل من الممكن القول إن طواحين الهواء هي فرسان مسلّحون وأن حوض الحلاق هو غطاء واقٍ للرأس وأن الدّمى بشر حقيقيّون؟ هل سيكون من الممكن إقناع الآخرين حتى بإقرار ما قاله على الرّغم من أنهم لا يصدّقونه؟ وبتعبير آخر إلى أي مدى سيتحمّل الناس الهرطقات إذا كانت مصدر تسلية لهم؟ والإجابة واضحة. أليست كذلك؟ إلى أي مدى يمكن تصوّره. ذلك أن البرهان على ذلك هو أننا مازلنا نقرأ الكتاب، ومايزال مسلياً إلى حدّ كبير بالنسبة إلينا، وذلك هو في نهاية المطاف ما يريده، أي شخص من كتاب - أن يُسليه.

تراجع أوتر مستنداً إلى الأريكة، وابتسم بسرور ساخر، وأشعل سيجارة. وقد كان من الواضح أن الرّجل يستمتع بوقته، ولكنّ الطبيعة المحدّدة لذلك السرور راوغت كوين. فلقد بدا أنه نوع من الضّحك بلا صوت، نكتة توقّفت قبل نقطة التّفجير الضّاحك للموقف، مرح معمم لا هدف له. وكان كوين على وشك أن يقول

شيئاً في معرض الردّ على نظريّة أوستر، ولكنّه لم يمنح الفرصة لذلك .  
فعندما فتح فمه ليتحدّث قاطعته صلصلة مفاتيح عند الباب  
الأمامي، وتردّد صوت فتح الباب ثمّ إغلاقه، واندفاعه فجائيّة  
لمجموعة من الأصوات . وأضاء وجه أوستر بالبهجة لدى سماعه  
الصوت، ونهض من مقعده، واستأذن من كوين، وانطلق مسرعاً نحو  
الباب .

سمع كوين ضحكاً يتردّد في الدهليز، صادراً عن امرأة أولاً، ثمّ  
عن طفلٍ - وقد تردّد الصوت أعلى فأعلى، ثمّ تقطّع في نثار مُدوّ - ثمّ  
انطلاقه جهيرة لضحكات أوستر. وتحدّث الطفل، قائلاً:  
- أبي، انظر ماذا وجدت!

ثمّ أوضحت المرأة أنّ ما عثر عليه الطفل كان ملقى في الشارع،  
ولمّ لا؟ إنّه يبدو جيّداً تماماً. وبعد لحظة سمع الطفل يعدو نحوه  
مقبلاً من الدهليز. واندفع الطفل نحو غرفة الجلوس، ولمح كوين،  
وتجمّد في موضعه. كان فتى أشقر الشعر، في حوالي الخامسة أو  
السادسة من العمر.

قال كوين:

- مساء الخير.

انكمش الطفل مسرعاً، واعتصم بالخجل، وأفلح في الردّ بما لا  
يتجاوز «مرحباً» خافتة. وكان يمسك في يده اليمنى بشيء أحمر لم  
يستطع كوين تبيّنه. فسأله عمّا عساه أن يكون.

ردّ باسماً يده ليريه إيّاه:

- إنّه يويو، وجدته في الطريق.

- هل هو سليم؟

هزّ الطفل كتفيه في إشارة صامتة مبالغ فيها.

- لا أعرف. سيري لا تستطيع تشغيله، وأنا لا أعرف كيفية القيام بذلك.

سأله كوين عمّا إذا كان بمقدوره أن يجربّه، فسار الطفل نحوه، ووضعته في يده. وفيما هو يفحص اليبويو كان بمقدوره سماع صوت تنفّس الطفل إلى جواره وهو يرقب كلّ حركة يأتيها. كان اليبويو من النّوع المطاطي، مشابهاً للأنواع التي كان يلهو هو بها قبل سنوات، ولكنه أكثر تعقيداً بشكل من من الأشكال، فهو من إبداعات عصر الفضاء. وقام كوين بتوسيع الأنشطة الموجودة في نهاية الخطّ حول إصبعه الأوسط، ونهض واقفاً، وجرب اليبويو، فنذّ عنه وهو يهبط صوت صفير منغم، وانطلقت داخله شرارات. وشهق الطفل من المفاجأة، ولكنّ اليبويو توقّف متدلّياً في نهاية خيطه.

دمدم كوين قائلاً:

- قال فيلسوف عظيم يوماً إنّ الطّريق الصّاعد والطّريق الهابط هما طريق واحد.

قال الفتى:

- لكنك لم تجعله يصعد. لقد هبط فقط.

- ينبغي عليك أن تواصل المحاولة.

كان كوين عاكفاً على الاستعداد لمحاولة أخرى عندما دخل أوستر وزوجته الغرفة. وتطلّع بناظريه فرأى المرأة أولاً. وفي تلك اللّحظة القصيرة عرف أنّه يواجه مازقاً. كانت امرأة ممشوقة القوام، نحيفة،

شقرء باهرة الجمال، تفيض بالحويوة والسعادة، وبدا أنها تجعل كل ما حولها يتبدد بقوة حضورها. وكان ذلك شديد الوطأة على كوين. أحس أن أوستر يغيظه بالأشياء التي فقدها، وقد أجاب على ذلك بالحسد والغضب، ورتاء للذات حافل بالعذاب. نعم إنه بدوره كان يجب أن تكون له هذه الزوجة وهذا الطفل، وأن يجلس طول النهار مثرثراً عن الكتب العتيقة، وأن يحاط باليويوات وأطباق البيض باللحم وأقلام الخبر. وراح يناشد نفسه أن تسعى تحقيق هذا كله.

رأى أوستر اليويو في يده، وقال:

- أرى أنكما قد التقيتما بالفعل.

ثم قال للصبي:

- دانييل، هذا هو دانييل.

وقال لكوين بالابتسامة الساخرة ذاتها:

- دانييل، هذا هو دانييل.

انفجر الصبي، وقال:

- الجميع دانييل.

قال كوين:

- صحيح، أنا أنت، وأنت أنا.

صاح الصبي وقد مدّ ذراعيه وراح يدور في الغرفة

كالجيروسكوب:

- وتستمر في الدوران.

قال أوستر ملتفتاً إلى المرأة:

- وهذه هي زوجتي، «سيري».

ابتسمت الزوجة ابتسامتها، وقالت إنها سعيدة بلقاء كوين، وكأنها تعني ذلك، ثم مدت يدها إليه فصافحها شاعراً بالنحافة المذهلة لعظامها، وسألها عما إذا كانت نرويجية.

قالت:

- كثيرون لا يعرفون هذا.

- هل جئت من النرويج؟

قالت:

- بشكل غير مباشر، عن طريق نورفيلد، بولاية مينيسوتا.

وضحكت الزوجة فأحس كوين بجزء إضافي آخر صغير من نفسه يتهاوى.

قال أوستر:

- أعلم أن هذا اقتراح يأتي في آخر لحظة، ولكن إذا كان لديك

بعض الوقت، فلم لا تبقى وتتناول طعام العشاء معنا.

قال كوين مجاهداً للسيطرة على نفسه:

- آه، هذا كرم بالغ، ولكنني يتعين عليّ الانصراف حقاً، فقد

تأخر بي الوقت الآن.

وبذل جهداً أخيراً، مبتسماً لزوجته أوستر، وملوحاً للصبي، وقال

وهو يسير نحو الباب:

- إلى اللقاء يا دانييل!

صحبه أوستر إلى الباب، وقال:

- سأتصل بك حالما تُصرف قيمة الشيك، هل اسمك مسجل في

دليل الهاتف؟

قال كوين :

- نعم، وهو الاسم الوحيد من نوعه .

قال أوستر:

- إذا احتجت إليّ لأي شيء فاتّصل بي، سيسعدني أن أساعدك .

مدّ أوستر يده ليصافحه، وأدرك كوين أنه ما يزال يمسك باليويو، فوضعه في يد أوستر اليمنى، وربّت على كتفه ومضى .

ها قد حلّ الضياع الآن بكوين. فلم يعد لديه شيء، ولم يعد يعرف شيئاً، وكان يعرف أنه لا يعرف شيئاً، فهو لم يُرسل إلى البداية مجدداً فحسب، وإنما أصبح الآن قبل البداية، وقبل البداية بكثير، بحيث أن الوضع كان أسوأ من أيّ نهاية كان في وسعه تخيلها.

أوضحت ساعته أن الساعة قد بلغت السادسة تقريباً. ومضى كوين إلى الدّار من خلال الطّريق الذي جاء عبره، موسّعاً في خطاه مع كلّ كتلة مبانٍ جديدة يقطعها. ولدى بلوغه الشّارع الذي يقيم فيه كان يعدو عدواً. وحدّث نفسه بأنّ اليوم هو الثاني من حزيران (يونيو). وحاول أن يتذكّر ذلك. هذه هي نيويورك، وغداً سيكون الثالث من حزيران (يونيو). وإذا ما سار كلّ شيء على مايرام فإنّ اليوم الثالث سيكون الرابع من حزيران (يونيو). ولكن ما من شيء مؤكّد.

مرّت منذ وقت طويل الساعة التي كان ينبغي أن يتصل فيها بفرجينيا ستلمان، وناقش نفسه إذا كان ينبغي عليه القيام بذلك. هل سيكون من الممكن تجاهلها؟ هل بوسعه الآن التخلّي عن كلّ شيء على هذا النحو؟ قال لنفسه: نعم، هذا ممكن. بوسعه أن ينسى القضية، ويعود إلى مألوف عاداته، ويؤلّف كتاباً آخر. بمقدوره القيام برحلة إذا أراد ذلك، أو مغادرة البلاد لبعض الوقت، بإمكانه الذهاب إلى باريس، على سبيل المثال. نعم ذلك بالإمكان، ولكنّه حدّث نفسه بأنّ أيّ مكان سيكون مناسباً، أيّ مكان على الإطلاق.



جلس في غرفة الجلوس، وراح يتطلع إلى الجدران، وتذكر أنها كانت في وقت من الأوقات بيضاء اللون، ولكنها الآن أفرزت ظلاً غريباً من ظلال اللون الأصفر، وربما ضربت ذات يوم إلى المزيد من القمام، وانحدرت إلى الرمادي، أو حتى إلى البني مثل قطعة من فاكهة يتقادم بها العهد. وقال لنفسه إن حائطاً أبيض يصبح أصفر، ويغدو حائطاً رمادياً. يُستنفد الطلاء، وتجمثم المدينة متربّصة بسخامها، ويتداعى الجصّ من الدّاخل. تغيّر ثمّ مزيدٌ من التغيّر.

دخّن سيجارة، ثمّ أخرى، ثمّ أخرى، ونظر إلى يديه فرأى أنها متسختان، ونهض ليغسلهما. وفي الحمام، ومع انسياب الماء في المغسلة، قرّر أن يخلق ذقنه كذلك. وضع رغوة الصّابون على وجهه، وأخرج شفرة نظيفة، وشرع في حلاقة ذقنه، ولسبب من الأسباب وجد أن النّظر إلى المرأة ليس بالأمر السّار، فواصل تجنّب النّظر إلى عينيه. قال محدثاً نفسه: إنك توغل في العمر، وتحوّل إلى «ضرطة» قديمة. ثمّ مضى إلى المطبخ وتناول وعاء من الكورنفلريكس، ودخّن سيجارة أخرى.

بلغت السّاعة الآن السّابعة. ومن جديد ناقش نفسه في ما إذا كان عليه الاتّصال هاتفياً بفرجينيا ستلمان. وفيما هو يمعن في التّفكير في المسألة، خطر بباله أنه لم يعد له رأي في هذا الموضوع. فقد أدرك الحجّة التي تؤيّد القيام بالاتّصال، وفي الوقت نفسه استوعب الحجّة الدّاعية لعدم إجراء الاتّصال. وفي النّهاية حسمت قواعد آداب السّلوك الأمر. فلن يكون من الإنصاف الاختفاء دون إبلاغها أولاً. وبعد ذلك سيكون الأمر مقبولاً تماماً. وذهب إلى القول المنطقي بأنك

مادمت تخبر الناس بما أنت مُقدِّمٌ عليه فلا بأس بالأمر، ثم تغدو حراً في القيام بما تريده.

غير أن الرِّقم كان مشغولاً. وانتظر خمس دقائق أخرى وطلبه من جديد. ومجدداً كان الرِّقم مشغولاً. وعلى امتداد السَّاعة التالية راوح كوين بين طلب الرِّقم والانتظار، ليصل دائماً إلى النتيجة ذاتها. وفي النهاية طلب عاملة الهاتف وسألها عمَّا إذا كان الهاتف الذي يحمل هذا الرِّقم معطلاً، فأبلغته أنه سيتم تقاضي ثلاثين سنتاً منه مقابل هذه الخدمة، ثم تناهت إلى سمعه قرقعة الخطوط، وصوت اتِّصال آخر، وأصوات أخرى. وحاول كوين تخيُّل ما تبدو عليه عاملات الهاتف، ثم حادثته المرأة الأولى مجدداً: كان الرِّقم مشغولاً.

لم يدر كوين كيف يفسر الأمر. فقد كانت هناك احتمالات كثيرة للغاية حتى إنه لم يستطع مجرد البدء. ستلمان؟ السَّاعة مرفوعة؟ شخص آخر تماماً؟

قام بتشغيل جهاز التلفزيون، وتابع الجولتين الأوليين في مباراة فريق الميتس. ثم اتَّصل بالرِّقم من جديد. الشيء نفسه. وفي قَمَّة الجولة الثالثة سجَّل فريق سانت لويس. قاعدة مقتحمة. لعبة خارج الملعب تؤدَّى خارجه، وتحليق هو إلى التضحية أقرب. وحقق فريق الميتس تعادلاً مع تلك الانطلاقة في النِّصف الذي احتكروه من جولتهم في رمية مزدوجة من ولسون وأخرى فردية من يونجبلود. وأدرك كوين أنه لم يكثرث بالأمر، وأطلَّ إعلان تجاريّ عن نوع من الجعة، فأوقف الصَّوت، وللمرَّة العشرين حاول الاتِّصال بفرجينيا ستلمان، وللمرَّة العشرين حدث الشيء نفسه، وفي قَمَّة الجولة الرَّابعة

سَجَل فريق سانت لويس خمس انطلاقات فأوقف كوين الصّورة كذلك إلى جوار الصّوت. وعثر على كراسته الحمراء، وجلس إلى مكتبه، وكتب بانتظام على امتداد السّاعتين التاليتين، ولم يكثر بمراجعة ما كتبه، ثمّ اتّصل هاتفياً بفرجينيا ستلمان، وتلقّى إشارة بانشغال الرّقم. وألقى بالسّماعه بعنف بالغ حتى إنّ البلاستيك شرح. وعندما حاول الاتّصال من جديد، لم يصدر عن الهاتف الصوت المشير إلى إمكانيّة الاتّصال. ونهض ومضى إلى المطبخ، وأعدّ وعاء آخر من الكورنفلريكس، ثمّ ذهب إلى الفراش.

في حلمه، الذي نسيه في وقت لاحق، ألقى نفسه سائراً في برودواي، وقد أمسك بيد ابن أوتر.

أمضى كوين اليوم التّالي منطلقاً على قدميه. وقد بدأ مبكراً، بعيد السّاعة الثامنة، ولم يتوقّف للتّفكير في المكان الذي سيتوجّه إليه، وتصادف أنه رأى في ذلك اليوم أشياء لم يلحظها من قبل قطّ.

كان يمضي كلّ عشرين دقيقة إلى كشك للهاتف، ويطلب رقم فرجينيا ستلمان. ومثلما كان الحال عليه البارحة كذلك كان اليوم، ولكن غدا كوين الآن يتوقّع أن يكون الرّقم مشغولاً، ولم يعد يكثر لذلك. وغدت علامة شغل الخطّ مقابلاً لخطاه. بندول إيقاع يتردّد نبضه بانتظام في قلب ضجّة المدينة العشوائية. وكان هناك شعور بالارتياح في الفكرة القائلة بأنّه ما إن يطلب الرّقم حتى يجد الصّوت هناك في انتظاره، دون أن ينحرف عن رفضه قطّ، نافياً الحديث وإمكانيّة الحديث، دائماً كخفق قلب. لقد حيل الآن بينه وبين بيتر وفرجينيا ستلمان. ولكن في وسعه أن يُرضي ضميره بفكرة أنه ما يزال

يحاول، وأياً كان الظلام الذي يمضيان به إليه فإنه لم يتخلَّ عنها بعد.

مضى في برودواي إلى الشارع الثاني والسبعين، وانعطف شرقاً إلى سنترال بارك وست، ومضى إلى الشارع التاسع والخمسين وتمثال كولومومبس. وهناك انعطف من جديد شرقاً، ماضياً على امتداد سنترال بارك ساوث حتى ماديسون أفنيو، ثم مضى قدماً باتجاه قلب المدينة إلى محطة الجراندي سنترال. وبعد الدوران عشوائياً على امتداد عدة كتل بين المباني، واصل المسير جنوباً لمسافة ميل، ووصل إلى تقاطع برودواي مع فيث أفنيو والشارع الثالث والعشرين، وتمهّل ليلقي نظرة على فلايرون بيلدنغ، ثم غير المسار إلى أن بلغ سفنث أفنيو، وعندها اتجه يساراً وأوغل في المسير باتجاه قلب المدينة. وفي شريدان سكوير انعطف شرقاً من جديد، وسار متمهلاً عبر ويفرلي بليس، قاطعاً سكست أفنيو، وواصل السير إلى واشنطن سكوير. واجتاز القوس، وشق طريقه جنوباً وسط الحشود، متوقفاً قليلاً ليشاهد لاعباً وهو يؤدّي ألعابه على حبل غير محكم الشد بين وتد خفيف وجذع شجرة، ثم غادر الحديقة الصغيرة عند ركنها الشرقي بقلب المدينة، ومضى خلال مشروع الإسكان الجامعي بيقع النجيل الأخضر المتناثرة فيه، وانعطف يمينا إلى شارع هيوستون. وفي وست برودواي انعطف مجدداً، إلى اليسار هذه المرة، ومضى قدماً إلى كانال. وانعطف بزواوية إلى يمينه، ومضى في حديقة تشبه جيب الصديري ودار حول شارع فارريك، وسار إلى جوار المبنى رقم ٦ الذي كان يقطنه ذات يوم، ثم استعاد خط سيره الجنوبي، عائداً من جديد إلى وست برودواي حيث يختلط بشارع فارريك. ومضى به

وست برودواي إلى قاعدة المركز التجاري العالمي، ومنها إلى بهو أحد الأبراج حيث أجرى المكاملة الثالثة عشرة اليوم لفرجينيا ستلمان. وقرّر أن يتناول شيئاً، ودخل أحد محال إعداد الوجبات السريعة، في الطابق الأرضي، وتناول الشطيرة على مهل، فيما كان ينجز بعض العمل في الكراسية الحمراء. وفيما بعد يمّ باتجاه الشرق مجدداً، متحوّلاً خلال الشوارع الضيقة في حيّ المال والأعمال، ثمّ أوغل باتجاه الجنوب، نحو باولنج جرين، حيث شاهد الماء والنوارس المحلّقة فوقه في منتصف النهار. وفكّر للحظة في الانطلاق في جولة باستخدام عبّارة ستيتين أيلاند، ولكنه عدل عن ذلك، وبدأ بالعودة من خلال الطّريق نفسه إلى الشّمال. وانحرف يمينا في شارع فولتون، وسار في إيست برودواي الذي يشكّل طريقاً يمضي باتجاه الشمال الشرقيّ، ويجتاز وِخَم لُور إيست سايد صعوداً إلى الحيّ الصّيني. ومن هناك شقّ طريقه إلى باوري، ماضياً عبر الشارع الرّابع عشر، ثمّ مضى يساراً في خطّ شافولي عبر يونيون سكوير، وواصل المسير مبتعداً عن قلب المدينة، على امتداد بارك أفنيو ساوث. وفي الشّارع الثّالث والعشرين انطلق مسرعاً باتجاه الشّمال، وبعد عدد محدود من كتل المباني انعطف يمينا من جديد، ومضى مسافة تعادل كتلة مبانٍ واحدة، ثمّ سار في ثرد أفنيو بعض الوقت. وفي الشّارع الثّاني والثلاثين انعطف يمينا، ووصل إلى سكند أفنيو، وانعطف يساراً، ومضى صعوداً لمسافة تعادل ثلاث كتل مبانٍ، ثمّ انعطف يمينا لمرّة أخيرة، وعند ذلك ألقى نفسه أمام فرست أفنيو، وعندئذٍ اجتاز كتل المباني السّبع الباقية إلى مبنى الأمم المتّحدة، وقرّر أن ينال قسطاً قليلاً من الرّاحة. وجلس على مقعد خشبيّ في السّاحة، والتقط نفساً عميقاً، مسترخياً

في الهواء تحت الضياء بعينين مغمضتين، ثم فتح الكراسية الحمراء،  
والتقط قلم الأصم الأخرس من جيبه، وفتح صفحة جديدة.

للمرة الأولى منذ شرائه الكراسية الحمراء لم يكن لما كتبه في ذلك  
اليوم من صلة بقضية ستلمان، وإنما ركز بالأحرى على الأشياء التي  
رآها خلال سيره. ولم يتوقف للتفكير في ما يقوم به، ولم يحلل النتائج  
المحتملة لهذا التصرف غير المؤلف، وشعر بدافع يحذوه إلى تسجيل  
حقائق معينة، وأراد أن يسجلها على الورق قبل أن ينساها:

اليوم، ومثلما لم يحدث من قبل: المشردون،  
الضائعون، السيّدات المثقلات بمواد التسوق، الهائمون  
على وجوههم والسكرارى. إنهم يتراوحون بين البائسين  
فحسب والمنكرين على نحو تعس، وحيثما التفت  
وجدتهم هنالك، في الأحياء المترفة والتعسة.

بعضهم يستجدي بما يشبه الكبرياء، ويبدون كما لو  
كانوا يقولون: أعطني هذا المال، وسرعان ما سأكون مع  
بقيتكم، مندفعاً جيئةً وذهاباً في جولاتي اليومية. وتخلّى  
آخرون عن الأمل في التخلّص من تشردهم. يجلسون  
هنالك في الطريق الفرعي ومعهم قبعاتهم أو قده أو علبة،  
دون أن يكثرثوا حتى بالتطلع إلى المازة، وهم أشدّ انكساراً  
حتى من أن يشكروا أولئك الذين يلقون بقطعة نقد معدنية  
إلى جوارهم. ومع ذلك فهناك آخرون يحاولون العمل  
مقابل المال الذي يتلقونه: فهناك العميان الذين يبيعون  
الأقلام، ومدمنو الشراب الذين يغسلون زجاج سيّارتك.  
والبعض يروون القصص، وتكون عادة صوراً مأساويةً  
عن حياتهم، وكأنما ليقدموا لمن يقدمون لهم المال شيئاً مقابل رقة  
قلوبهم، حتى وإن كان هذا الشيء كلمات فحسب.

وللبعض الآخر مواهب حقيقية. العجوز الأسود - على سبيل المثال - الذي مضى اليوم يرقص رقصاً إيقاعياً وهو يقذف بالسجائر على طريقة المشعوذين، ما يزال على احتفاظه بكبريائه، إذ بدا واضحاً أنه كان من ممثلي المسرح الكوميدي، وقد ارتدى حلة أرجوانية مع قميص أخضر وربطة عنق صفراء، وقد ثبتت على فمه ابتسامة شبه مستعادة من أيام المسرح. وهناك أيضاً المصورون الذين يرسمون بأصابع الطباشير على الأرض، والموسيقون: عازفو الساكسفون، وعازفو الجيتار، وعازفو الكمان، بل إنك قد تصادف عبقرياً، كما حدث لي اليوم.

عازف كلارينت، لا يبدو منتمياً إلى مرحلة زمنية معينة، يعتمر قبعة تحفي وجهه، ويجلس متربّعاً في طريق فرعي، على طريقة ملاعبي الحيات. وأمامه ديتان على شكل قردين مائلاً بالزنبك، وفي يد أحدهما رق وفي يد الآخر طبل. ومع انطلاق أحدهما في هز الرق والآخر في دق الطبل، الأمر الذي يؤدي إلى انبعاث إيقاع غريب ودقيق، يمضي الرجل في ارتجال تنويعات دقيقة ولا متناهية على الكلارينت التي يحملها، وجسمه يتأرجح متصلباً إلى الأمام وإلى الوراء، مقلداً بنشاط إيقاع القردين. وقد عزف على نحو طروب، وتدفق، أنغاماً رقيقة مناسبة بطبقة نغمية هادئة، وكأنه سعيد بكونه هناك مع صديقيه الالين، منغمساً في العالم الذي أبدعه، من غير أن يتطلع إلى أعلى قط. وتواصل ذلك بلا انتهاء، وعلى النحو نفسه في نهاية المطاف دائماً، ومع ذلك فكلما امتد استماعي تعذرت عليّ المغادرة.

لأن يكون المرء في قلب الموسيقى، ولأن يُجْتَذَب إلى

دائرة تكراراتها، فربما كان ذلك هو الموضع الذي يمكنه أن  
يختفي فيه .

لكنّ السحّاذين والعازفين والمصوّرين لا يشكّلون إلاّ  
جزءاً صغيراً من سكّان عالم التشرّد. إنهم الأرستقراطية،  
نخبة السّاقطين. وأمّا الأكثر عدداً فهم أولئك الذين ليس  
لديهم ما يقومون به، ولا مكان يتوجّهون إليه. الكثيرون  
سكارى، ولكنّ هذا التّعبير لا ينصف الدّمار الذي  
يجسّدونه. أشخاص ضخام يجسّدون اليأس، ويرتدون  
الخرق، وقد خدشت وجوههم، وأخذت تدمى، يجروّن  
أقدامهم جرّاً عبر الشوارع، وكأنهم قيّدوا إلى سلاسل.  
نائمون في مداخل البيوت، ويجروّن أقدامهم على نحوٍ  
مجنون وسط حركة المرور، ويتهاكون منهارين في  
الحواري، ويبدون في كلّ مكان في اللّحظة التي تبحث  
خلالها عنهم. إنّ بعضهم سيموت جوعاً، وبعضهم الآخر  
سيلقى حتفه من جرّاء التعرّض للبرد والمطر، وفريق ثالث  
سيتمرّض للضرب، أو يجرّق، أو يُعذّب.

ومقابل كلّ شخص يضلّ في هذا الجحيم على وجه  
التّحديد، هناك كثير من الآخرين الذين أودعوا في سجن  
جنونهم، عاجزين عن الخروج إلى العالم الذي يقف عند  
اعتاب أجسامهم، وعلى الرّغم من أنّهم يبدون هنالك،  
إلاّ أنّه لا يمكن حسابهم في عداد الموجودين. فعلى سبيل  
المثال، هناك الرّجل الذي يمضي في كلّ مكان بمجموعة من  
عصيّ قرع الطّبول، لاطماً بها الرّصيف بإيقاع طائش،  
عبيّ، منحنيّاً على نحو مرتبك وهو يتقدّم في الشّارع  
ويقرع الإسمنت مراراً وتكراراً. وربّما كان يحسب أنّه  
يؤدّي عملاً مهمّاً، ولو لم يقم بما هو عاكف عليه فلربّما



انهارت المدينة، وربما كان القمر سيخرج عن مداره،  
ويرتطم بالأرض. وهناك من يحادثون أنفسهم، ومن  
يدمدمون، ومن يصرخون، ومن يلعنون، ومن يتأوهون  
الماً، ومن يسردون على أنفسهم القصص وكأنهم يحكونها  
لشخص آخر. وهناك الرجل الذي رأته اليوم جالساً  
وكأنه كومة من القمامة أمام محطة جراند سنترال، والحشود  
تطلق متجاوزة إياه، وهو يقول بصوت عالٍ مليء بالفرح:  
«فرقة المارينز الثالثة... التهام النحل... النحل يزحف  
خارجاً من فمي». أو المرأة التي كانت تهتف برفيق خفي:  
«وماذا إذا لم أكن أريد ذلك! وماذا إذا لم أكن أريد ذلك!»  
هناك النساء بأكياس تسوقهن، والرجال بعلبهم  
المصنوعة من الورق المقوى، وهم يحملون ما لديهم من  
مكان لآخر، منتقلين إلى الأبد، وكأنهم لمكان وجودهم أهمية  
تذكر. وهناك الرجل الملتفت بالعلم الأمريكي. والمرأة التي  
تضع قناع هالوجين على وجهها. وهناك الرجل الذي  
يرتدي المعطف الذي نال منه البلي، وقد لفَّ حذاه في  
الخرق، حاملاً قميصاً أبيض على حمالاته وقد تمَّ كيُّه على  
نحو رائع، وما زال على حاله في الغلاف البلاستيكي الذي  
يستخدمه محلُّ الكيِّ والتنظيف. وهناك الرجل الذي  
يرتدي حلة رجال الأعمال وقدماه عاريتان، وقد اعتمر  
غطاءً مما يُستخدم لوقاية الرأس في مباريات كرة القدم  
الأمريكية. وهناك المرأة التي غطت ملابسها من قمة رأسها  
حتى أخص قدمها بأزرار حملات الانتخابات الرئاسية.  
وهناك الرجل الذي يسير وقد وضع رأسه بين كفيه منحرفاً  
في البكاء على نحو هستيري، وهو يردد مراراً وتكراراً:  
«لا، لا، لا. مات. لم يموت. لا. لا. لا. مات. لم  
يمت.»

قال بودلير<sup>(١)</sup>: يلوح لي أنني سأظلّ على الدوام سعيداً  
في المكان الذي لست موجوداً فيه. أو إذا شئنا المزيد من  
الدقة: حيث لا أوجد أعثر على ذاتي، أو بالأحرى إذا شئنا  
المواجهة المباشرة: في أيّ مكان خارج العالم.

كان المساء قد أرخى على وجه التقريب سدوله. وطوى كوين  
الكراسة الحمراء، ووضع القلم في جيبه. وأراد أن يفكر شوطاً قصيراً  
آخر في ما كتبه ولكنه وجد أنه لا يستطيع ذلك. فقد كان النسيم  
حوله رقيقاً، ويوشك أن يكون عليلاً، وكأنه لم يعد ينتمي إلى  
المدينة. ونهض من المقعد وتمطى ماداً ذراعيه وساقيه، ومضى إلى  
كشك للهاتف فاتصل بفرجينيا ستلمان، ثم مضى لتناول طعام  
العشاء.

أدرك، في المطعم، أنه قد وصل إلى قرار في هذه الأمور. فقد  
كانت الإجابة هنالك، حتى من غير أن يدري بها، جاثمة في رأسه،  
وقد اكتمل تكوينها. إنه يدرك الآن أن إشارة انشغال الخط لم تكن

---

(١) بودلير، شارل (١٨٢١ - ١٨٦٧ م) الشاعر الفرنسي الكبير، يتألف ديوانه الصادر في  
١٨٥٧ م بعنوان «أزهار الشر» من ١٠١ قصيدة غنائية رائعة الصياغة، وتعدّ من  
عيون الشعر الفرنسي، وربما كانت تستمدّ جانباً من الافتتان العالمي بها من أنها تمثّل  
محاولة جريئة لإبداع النظام والجمال، من خلال اكتشاف العلاقات الخفية، أو  
التوافقات في عالم ينظر إليه أساساً باعتباره قبيحاً، وقاهراً، وعبر لغة لها موسيقاها  
الخاصة، وصور موحية يستكشف بها الشاعر معناه الخاص الذي يضيفه على العزلة  
والنفي والخطيئة والضجر والكآبة. ولا يخلو من دلالة أن يكون بول أوستر قد قدّم  
ترجمات تفصيلية لجوانب من عالم بودلير.

(هـ . م .)

عشوائية، وإنما كانت علامة دالة، وكانت تخبره بأنه ليس في وسعه بعد فض اشتباكه مع القضية، حتى وإن أراد ذلك. وكان قد حاول الاتصال بفرجينيا ستلمان لكي يبلغها أنه قد نفذ يديه، ولكن الأقدار لم تسمح بذلك. وتوقف كوين لكي يتأمل هذا. أكانت كلمة «القدر» هي حقاً الكلمة التي أراد استخدامها؟ وقد بدت وكأنها خيار مضجّر وعتيق الطراز. ومع ذلك فقد اكتشف، وهو يضرب عميقاً باحثاً في أغوارها، أن ذلك هو بالضبط ما قصد قوله. أو إذا لم تكن كذلك بالضبط فقد جاءت أقرب إلى ما يقصده من أي لفظ كان يمكن أن يفكر فيه. القدر بمعنى ما كان، ما تصادفت كينونته. كان شيئاً مثل ضمير الغائب غير المحدّد في عبارة «إنها تمطر» أو «إنه الليل». لم يقدر كوين أن يعرف قطّ إلام يشير ضمير الغائب غير المحدّد. ربّما كان وضعيّة معمّمة للأمر على نحو ما كانت، حالة الكينونة التي على أساسها وقعت أحداث العالم. وما كان في وسعه أن يكون أكثر تحديداً من ذلك في طرحه للأمر. ولكن ربّما لم يكن يبحث عن أي شيء محدّد حقاً.

كان ذلك هو القدر، إذن. وأياً كان مدى تفكيره فيه، وأياً كان مدى عمق رغبته في أن يكون مختلفاً، فإنه لم يكن هناك ما يمكن القيام به حيال الأمر. كان قد قال نعم في مواجهة اقتراح عرض عليه، والآن لم يعد بمقدوره استرجاع «نعم» تلك أو القيام بإلغائها. وكان معنى ذلك شيئاً واحداً: أن ينجز الأمر. ولا يمكن أن يكون هناك ردّان. فالمسألة هي إمّا هذا وإمّا ذاك، وهكذا قضي الأمر، سواء شاء أم لم يشأ.

بدا جلياً أن الأمر المتعلق بأوستر هو من قبيل الخطأ. فرجماً كان هناك ذات يوم تحرراً خاصاً في نيويورك يُدعى بول أوستر. لقد كان زوج ممرضة بيتر رجل شرطة متقاعد، وبالتالي فلم يكن شاباً. وفي أيام عمله كان هناك بلاشك أوستر يحظى بسمعة طيبة، وقد فُكّر فيه بصورة طبيعية عندما طُلب منه أن يشير بتحرراً خاصاً يمكن الاستعانة به. وقد ألقى نظرة على دليل الهاتف، ووجد شخصاً واحداً يحمل هذا الاسم، وافترض أنه أمام الرجل الصحيح، ثمّ قدّم رقم الهاتف لآل ستلمان. وعند هذه النقطة حدث الخطأ الثاني، إذ وقع تشابك في الخطوط، واختلط رقمه برقم أوستر، ومثل هذا الأمر يحدث كلّ يوم، وهكذا تلقى تلك المكالمات التي كان مقدراً لها على أية حال أن تصل إلى الرجل الخطأ. هذا كلّهُ يفسّر الأمر.

غير أن مشكلة واحدة بقيت. إذا كان عاجزاً عن الاتصال هاتفياً بفرجينيا ستلمان، وإذا كان، كما يعتقد، قد أريد به ألاّ يتصل بها فكيف يتصرّف بالضبط؟ لقد كانت وظيفته أن يحمي بيتر، وأن يتأكد من أنه لن يلحق به أذى. فهل هناك أهمية لما تعتقده فرجينيا ستلمان مادام هو عاكفاً على القيام بما يفترض فيه أن يؤديه؟ ينبغي على نحو مثالي لمن يؤدي عملاً أن يكون على اتصال وثيق بمن كلّفه بأداء هذا العمل. ولقد كان ذلك دائماً أحد مبادئ ماكس ورك. ولكن أكان ذلك ضرورياً حقاً؟ ومادام كوين يؤدي عمله فكيف يمكن أن يكون ذلك أمراً مهماً. وإذا كانت هناك ضروب من سوء الفهم فمن المؤكّد أنه من الممكن إزالتها لدى تسوية القضية.

بإمكانه الماضيّ قدماً، إذن، على نحو ما يرغب. وليس عليه أن

يتصل بعد الآن بفرجينيا ستلمان. وبمقدوره التخلي عن إشارة انشغال الخط التي تبدو كما لو كانت تنبأ بالغيب. ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك ما يوقفه، وسيكون من المستحيل على ستلمان الاقتراب من بيتربلا علم كوين.

دفع قيمة ما تناوله في المطعم، ووضع عوداً لتنظيف الأسنان معالجاً بالمشول في فمه، وشرع في السير مجدداً. وفي الطريق توقف عند فرع لسيتي بنك يعمل على مدار اليوم، ودقق في حسابه عن طريق الجهاز المخصص لذلك. كان هناك ثلاثمائة وتسعة وأربعون دولاراً في حسابه، فسحب ثلاثمائة دولار، ودسّ النقود في جيبه، وواصل طريقه مبتعداً عن قلب المدينة. وفي الشارع السابع والخمسين انعطف يساراً، ومضى إلى بارك أفنيو. وهناك انعطف يميناً وواصل السير شمالاً حتى الشارع التاسع والستين الذي انعطف عنده إلى كتلة المباني التي يقيم فيها آل ستلمان. وبدا المبنى على حاله الذي كان عليه في اليوم الأول. وألقى نظرة عجلية ليتبين ما إذا كانت هناك أضواء في الشقة، ولكنه لم يستطع تذكر أي النوافذ كانت نوافذهم. وبدا الشارع ساكناً تماماً، لم تشقه سيارات، ولم يعبره مارّة. وخطا كوين عبره إلى الجانب الآخر، ووجد لنفسه بقعة في حارة ضيقة، واستقرّ هناك لقضاء الليلة.

انقضى وقت طويل يستحيل تحديده بالضبط. فيقينا أن أسابيع قد مرّت، بل ربّما تكون أشهر قد انقضت. وصورة هذه الفترة أقلّ اكتمالاً ممّا كان يمكن أن يوّد المؤلف، ولكنّ المعلومات محدودة، وقد فضّل أن يتجاوز في صمت ما لا سبيل إلى التيقّن منه بصورة قاطعة. ولما كانت هذه القصة مبنية على أساس الحقائق بصورة تامّة فإنّ المؤلف يشعر بأنّ من واجبه ألاّ يتجاوز حدود ما يمكن التيقّن منه، وأن يقاوم بأيّ ثمن مخاطر الاختلاق. وحتى الكراسية الحمراء التي قدّمت حتى الآن صورة مفصّلة لتجارب كوين، هي موضع شكّ. وليس بمقدورنا أن نحدّد على وجه اليقين ما حدث لكوين خلال هذه الفترة، وذلك لأنّه عند هذا الموضع من القصة بدأ يفقد سيطرته. ظلّ معظم الوقت في الحارة. ولم تكن بالموضع الذي لا يبعث على الشعور بالرّاحة، عندما يعتاد المرء استخدامه، كما أنّ له ميزة هي أنّه محتجب بصورة جيّدة عن الأنظار. وبمقدوره من هناك مراقبة كلّ عمليّات القُدوم إلى مبنى آل ستلمان والانصراف منه. فما من أحد غادر المبنى أو دخله من غير أن يتبيّنه. وقد أدهشه، في البداية، أنّه لم ير أيّاً من فرجينيا أو بيتر، ولكن كان هناك كثير من رجال توصيل الطلبات إلى المنازل يأتون وينصرفون باستمرار، وأدرك بالفعل أنّه ليس من الضروري بالنسبة إليهما أن يغادرا المبنى، فكلّ شيء يمكن إحضاره إليهما. وعندئذ فهم كوين أنّها بدورها كانا يقبعان في موضعهما منتظرين داخل شقّتهما انتهاء القضية. تأقلم كوين شيئاً شيئاً مع حياته الجديدة. وكان هناك عدد من

المشكلات التي واجهته، ولكنه أفلح في حلها واحدة إثر الأخرى. فأولاً، وقبل كل شيء، كانت هناك مسألة الطعام. ولأن اليقظة التامة كانت مطلوبة منه فقد تردّد في مغادرة موقعه على الإطلاق، ومهما كان قصر الوقت الذي يستغرقه الأمر، وعذبه أن يفكر في أنّ شيئاً قد يحدث في غيابه، وبذل قصارى جهده للوصول بالمخاطر إلى الحد الأدنى. وقد قرأ في أحد المواضع أنه بين الثالثة والنصف والرابعة والنصف فجرأ كان هناك عدد أكبر من الناس المستغرقين في النوم بالمقارنة بأيّ وقتٍ آخر. وعلى الصعيد الإحصائي فإنّ الفرص كانت أفضل لعدم حدوث شيء خلال تلك الساعة؛ ومن هنا فقد اختارها كوين موعداً لشراء احتياجاته. وفي لكسنجتون أفنيو، غير بعيد إلى الشمال، كان هناك متجر بقالة يفتح أبوابه طوال الليل، وفي الثالثة والنصف من فجر كل يوم كان كوين ينطلق إلى هناك بسرعة خاطفة (للتريّض، وكذلك لتوفير الوقت) ويشتري ما يحتاجه للساعات الأربع والعشرين التالية، وقد اتّضح أنّ هذه الاحتياجات لم تكن بالكثيرة، وقد أخذت في التقلّص يوماً بعد الآخر، فقد تعلّم كوين أنّ الأكل لا يحلّ بالضرورة مشكلة الطعام، فالوجبة ليست إلاّ دفاعاً متهافتاً في مواجهة حتمية الوجبة التالية. والطعام نفسه لم يكن قطّ رداً على مسألة الطعام: إنه يؤخّر فقط اللحظة التي ستطرح فيها هذه المسألة بالحاج، ومن هنا فإنّ الخطر الأعظم كان يكمن في التهام الطعام بأكثر مما ينبغي، ولو أنّه تناول منه قدراً أكبر ممّا ينبغي فإنّ شهيته لتناول الوجبة التالية ستزيد، وهكذا تمسّ الحاجة إلى مزيد من الطعام لإشباعه. وقد تمكّن كوين تدريجياً، بمراقبة نفسه مراقبة مستمرة وعن كثب، من قلب هذه العملية إلى عكسها. وكان طموحه

أن يأكل أقل قدر ممكن، وبهذه الطريقة يبعد الجوع. وفي أفضل العوالم قد يكون بإمكانه أن يصل إلى الصفر المطلق، ولكنه لم يرغب في أن يكون بالغ الطموح في ظروفه الحالية. وبدلاً من ذلك فقد وضع في ذهنه الصيام المطلق باعتباره مثلاً أعلى، حالة من الكمال كان بإمكانه أن يطمح إليها من غير أن يحققها أبداً. فلم يرد أن يجمع نفسه إلى حد الموت - وقد ذكر نفسه بذلك كل يوم - فقد أراد أن يترك نفسه حراً في أن يفكر في الأشياء التي تعنيه حقاً. وفي الوقت الحالي كان معنى ذلك إبقاء القضية في مرتبة الصدارة من فكره. ومن حسن الحظ أن هذا قد تطابق مع طموحه الآخر: أن يجعل الثلاثمائة دولار تدوم أطول وقت ممكن. وغني عن القول إن كوين فقد الكثير من وزنه، خلال هذه الفترة.

وكان النوم مشكلته الثانية، فلم يكن بمقدوره الاستيقاظ طوال الوقت، ولكن كان ذلك هو ما يقتضيه الموقف حقاً. وهنا أيضاً اضطرّ للقيام ببعض التنازلات، وكما هو الحال بالنسبة لتناول الطعام فقد شعر بأن بمقدوره الاكتفاء بأقل مما اعتاده، وبدلاً من الساعات المراوحة بين الست والثمان التي اعتاد إنفاقها في النوم فقد قرّر الاقتصاد على ثلاث ساعات أو أربع. وقد كان التأقلم مع هذا الوضع صعباً، ولكن أصعب الأمور تمثل في كيفية توزيع هذه الساعات للحفاظ على الحد الأقصى من اليقظة، ولم يكن بمقدوره بجلاء أن ينام الساعات الثلاث أو الأربع متواصلة، فقد كانت المخاطر أكبر من أن تسمح بذلك. ومن الناحية النظرية فقد كان الاستخدام الأكثر كفاءة للوقت هو النوم ثلاثين ثانية كل خمس دقائق



أوست، فذلك سيقفل من فرص عدم رصده ربما إلى درجة عدم إمكان حدوث ذلك، ولكنه أدرك أن ذلك مستحيل عضويًا. ومن ناحية أخرى فقد حاول مستخدمًا هذه الاستحالة كنوع من النموذج أن يدرّب نفسه على نيل فترات قصيرة من النوم مراوحاً بين النوم واليقظة بقدر ما يستطيع. وكان ذلك صراعاً طويلاً يقتضي انضباطاً وتركيزاً، وذلك لأنه كلما طالت التجربة ازداد إرهاقه. وقد جرّب في البداية فترات متتابعة من النوم واليقظة مدة كل منها خمس وأربعون دقيقة، ثم خفضها تدريجياً إلى ثلاثين دقيقة، وقرابة النهاية كان قد بدأ بالتمكن من تحقيق فترات نوم تصل إلى خمس عشرة دقيقة بقدر طيب من النجاح. وقد ساعدته في جهوده كنيسة قريبة كان جرسها يقرع كل خمس عشرة دقيقة - دقة كل ربع ساعة، دقتان عند انتصاف الساعة، ثلاث دقات عند مرور ثلاثة أرباع الساعة، وأربع دقات عند اكتمال الساعة، تتبعها دقات يتطابق عددها وموعد الساعة من النهار أو الليل. وقد عاش كوين بمقتضى إيقاع تلك الساعة، ووجد بالفعل صعوبة في تمييزها عن نبضه. واعتباراً من منتصف الليل كان يبدأ هذا الروتين، مغمضاً عينيه ومنطلقاً إلى النوم قبل أن تدق الساعة اثنتي عشرة دقة. وبعد خمس عشرة دقيقة يستيقظ، وينام عند الدقة المزدوجة، المشيرة لانتصاف الساعة، ويستيقظ من جديد عند الدقة الثلاثية، المشيرة إلى ثلاثة أرباع الساعة، وفي الثالثة والنصف يمضي للحصول على طعامه، ويعود بحلول الرابعة، ثم يمضي للنوم ثانية. وقد غدت أحلامه في هذه الفترة محدودة. وعندما كانت تترأى له، كانت تبدو غريبة: رؤى قصيرة للمباشر - ليديه وحذائه، والجدار الطويّ بجواره. ولم تكن هناك لحظة لا يحسّ فيها بالإعياء المميت.

كانت مشكلته الثالثة تتمثل في المأوى، ولكن هذه المشكلة تم حلها بصورة أيسر من المشكلتين الأخرين. ومن حسن الحظ أن الطقس ظل دافئاً، وفيما تحول الربيع إلى صيف، لم تمطر السماء إلا قليلاً. وبين الحين والآخر، كان هناك قليل من الرذاذ، وانهمر المطر مدراراً مرة أو مرتين، مع الرعد والبرق، ولكن الأمر لم يكن شيئاً في مجمله، ولم يتوقف كوين قط عن الإشادة بحظه. وفي مؤخره الحارة كان هناك صندوق معدني للنفاية، وعندما يهطل المطر ليلاً كان كوين يلوذ بهذا الصندوق ليحتمي به. وفي داخله كانت الرائحة طاغية، وكانت تتخلل ملابسه وتدوم أياماً في كل مرة، ولكن كوين فضل ذلك على أن يغرقه ماء المطر، فهو لم يكن يرغب في التعرض لمخاطرة الإصابة بالبرد أو المرض. ومما يدعو للسعادة أن غطاء الصندوق كان ملتويًا وخارجاً عن الشكل الأصلي بحيث لا يغلقه بإحكام. وفي أحد الأركان، كانت هناك فتحة، اتساعها ست بوصات أو ثمان، وقد شكّلت نوعاً من فتحة تهوية ليتنفس كوين من خلالها مخرجاً أنفه إلى رحاب الليل. وبالوقوف على ركبتيه فوق النفاية وإسناد جسمه إلى أحد جدران الصندوق، وجد أنه ليس بعيداً عن الراحة كل البعد.

وفي الليالي الصافية كان ينام تحت الصندوق، واضعاً رأسه بحيث أنه ما إن يفتح عينيه حتى يستطيع رؤية باب مبنى ستلمان الأمامي. وأما فيما يتعلق بإفراغ مثانته، فإنه كان يقوم بذلك عادة في الركن القصي للحارة، وراء صندوق النفاية، مديراً ظهره للشارع. وأما أمعاؤه فكانت مسألة أخرى، ولهذا الغرض كان ينسل إلى صندوق النفاية ليضمن ألا يزعجه أحد. وكان هناك كذلك عدد من براميل

النفاية البلاستيكية إلى جوار الصندوق، ومن أحدها كان في وسعه عادة أن يحصل على ما يكفي من الجرائد النظيفة لتنظيف نفسه، على الرغم من أنه اضطر ذات مرة في حالة طارئة إلى استخدام صفحة من الكراسة الحمراء. وأما فيما يتعلق بالاغتسال وحلاقة الذقن فإنها كانا امرين من الأمور التي تعلم كوين أن يجيا بغيرها.

وتظل من قبيل الألباز الكيفية التي أفلح بها كوين في إخفاء نفسه خلال هذه الفترة، ولكن يبدو أن أحداً لم يكتشفه أو يبلغ السلطات بوجوده. ولا شك في أنه عرف في وقت مبكر مواعيد حضور جامعي القمامة، وتأكد من أنه سيكون خارج الحارة لدى مجيئهم، وكذلك الحال بالنسبة لبواب المبنى الذي كان يتخلص من النفاية كل مساء بوضعها في الصندوق والبراميل. ورغم غرابة ذلك فإن أحداً لم يلحظ وجود كوين، وبدا الأمر كما لو أنه قد ذاب في جدران المدينة.

شغلت مشكلات الشؤون اليومية والحياة المادية جانباً معيناً من كل يوم. غير أنه أتيح لكوين في معظم الوقت أن يتفرغ لما يريد. ولأنه لم يكن يرغب في أن يراه أحد فقد اضطر إلى تجنب الآخرين بقدر ما يستطيع، فما كان بمقدوره النظر إليهم، وما كان باستطاعته محادثتهم، وما كان بوسعه التفكير فيهم. وقد نظر كوين دائماً إلى نفسه باعتباره إنساناً يجب أن يكون بمفرده. وفي حقيقة الأمر فإنه طوال السنوات الخمس الماضية قد سعى بنشاط من أجل الوحدة. ولكن الآن فحسب، وفيما تواصلت حياته في الحارة، بدأ في فهم الطبيعة الحقة للعزلة، ولم يعد لديه ما يلجأ إليه إلا نفسه. ومن بين كل الأمور التي اكتشفها خلال الأيام التي أمضاها هناك، كان هذا هو الشيء الذي لم

يشك فيه : أنه كان يسقط . غير أن ما لم يفهمه هو ما يلي : في غمار كونه يسقط كيف يمكن أن يُتَوَقَّع منه أن يمسك بنفسه كذلك؟ أكان من الممكن أن يكون في القمّة والقاع في الوقت نفسه؟ لم يبدو له أن لذلك معنى .

أمضى ساعات طويلة متطلّعاً إلى السّماء . ومن موقعه في مؤخّرة الحارة ، مندساً بين صندوق النفاية والحائط ، كانت هناك أشياء قليلة أخرى يمكن رؤيتها ، ومع مضي الأيام بدأ يسعد بالعالم الممتدّ فوق رأسه . وقد أدرك أن السّماء ليست ساكنة في المقام الأوّل ، وحتى في الأيام الصّافية ، عندما تبدو الزرقة في كلّ مكان ، كانت هناك تغيّرات صغيرة دائبة ، تقلقلات تدريجيّة فيما السّماء تصفو وتتشعّح بالألوان القائمة ، ويطلّ البياض المفاجئ للطائرات والطّيور والورق الذي تتقاذفه الرّيح . وعقدت السّحب الصّورة ، وأمضى كوين أصائل عدّة في تأملها ، محاولاً تعلّم طرق انسيابها ليرى ما إذا كان من الممكن التنبؤ بما سيحدث لها . وأصبح على معرفة وثيقة بالسّحب الرّقيقة الشّبيهة بالصّوف وهي تمضي على ارتفاع عالٍ للغاية ، والسّحب المؤلّفة من أكّداس مدوّرة ذات قاعدة مسطّحة ، والسّحب الممتدّة في صورة طبقة أفقيّة خفيفة من سحب رماديّ ، والسّحب المطرة المنتشرة في طول السّماء وعرضها ، وجميع تركيباتها المختلفة ، ويرصد كلّ منها بدورها ، ويرى كيف تتغيّر السّماء تحت تأثيرها . وأفرزت السّحب كذلك موضوع اللّون ، وكان هناك نطاق عريض لتأمله يمتدّ من الأسود إلى الأبيض ، مع ما لا نهاية له من الرّمادي فيما بينهما . وقد تعيّن فحص هذه التدرّجات الرّماديّة وقياسها وسبر أغورها ، وفوق

هذا كانت هناك الألوان الفاتحة الرقيقة التي تتكوّن عندما تتداخل الشمس والسحب في أوقات معينة من النهار. وكان نطاق المتغيرات هائلاً، والنتيجة تعتمد على درجات الحرارة في مستويات الطبقات الجوية المختلفة وأنواع السحب المماثلة في السماء والمكان الذي تصادف وجود السماء فيه في لحظة معينة، ومن هذا كله جاءت الألوان الحمراء والحمراء الوردية التي أحبها كوين أشد ما يكون الحب، والألوان الأرجوانية والقرمزية والبرتقالية والخضراء الفاتحة والذهبية والصفراء المشعة. وما من شيء دام طويلاً، فسرعان ما كانت الألوان تتبدد، وتتداخل مع غيرها، وتنتقل بعيداً، أو تختفي ويبدأ مع مقدم الليل. وعلى الدوام كانت هناك ريح تعجل بهذه الأحداث. ونادراً ما كان كوين يشعر بهذه الريح في مجثمها بالحارة، ولكن من خلال مراقبة تأثيرها على السحب كان بوسعها أن يجدرس مدى قوتها ونوعية الهواء الذي ينطلق في إطارها. وقد انطلقت فوق رأسه جميع أنواع المناخ نوعاً بعد الآخر، من الإشراق إلى العواصف، ومن الاكفهرار إلى التلألؤ، وكان من المتاح له أن يرقب انبلاجات الفجر، وانسدالات الغسق، وتحولات الظهيرة، وبدايات المساء والليالي، وحتى في سوادها لم تكن السماء ساكنة، فالسحب كانت تنساب في الظلام، والقمر يتخذ أشكالاً لا نهاية لها، والريح تواصل هبوبها. وفي بعض الأحيان يستقر نجم في رقعة السماء التي يرقبها كوين، وكان يتساءل فيما هو يتطلع عما إذا كان النجم مازال هناك، أو ما إذا كان قد احترق منذ وقت طويل.

هكذا جاءت الأيام وانقضت، ولم يظهر أثر لستلمان. ونفذت نقود كوين في نهاية المطاف. وكان منذ بعض الوقت يقوي نفسه استعداداً

لتلك اللحظة، وقرابة النهاية أدخر ما لديه من مال بمزيد من التدقيق، ولم ينفق قطعة نقد واحدة ضئيلة القيمة دون أن يحكم أولاً على مدى ضرورة ما ظن أن الحاجة ماسة إليه، ودون أن يقدر أولاً العواقب كافة، وما لهذا التقدير وما عليه. ولكن حتى أشد ضروب توفيره تقتيراً لم تستطع وقف مسيرة ما هو محتم.

اكتشف كوين في وقت ما من منتصف آب (أغسطس) أنه لم يعد يستطيع الصمود. وقد أكد المؤلف هذه الحقيقة من خلال البحث الدقيق. غير أنه من المحتمل أن تكون هذه اللحظة قد حلت في وقت مبكر عن ذلك يعود إلى أواخر تموز (يوليو)، أو في وقت لاحق يعود إلى أوائل أيلول (سبتمبر)، إذ إن كل التحريات المتمية إلى هذا النوع ينبغي أن تسمح بهامش من الخطأ. ولكن بحسب ما يعرف المؤلف بعد التدقيق في البراهين بعناية وتقليب كل التناقضات الظاهرة فإنه يقدر أن الأحداث التالية قد وقعت في آب (أغسطس)، وعلى وجه التحديد فيما بين الثاني عشر والخامس والعشرين من ذلك الشهر.

لم يبق لكوين شيء تقريباً الآن، فكل ما هنالك قطع نقد معدنية تبلغ قيمتها أقل من دولار. وكان على يقين من أن نقوداً قد وصلته خلال غيابه هذا. وكان كل ما عليه هو الحصول على شيكاته من صندوق بريده في مكتب البريد وأخذها إلى البنك وصرف قيمتها. وإذا مضى كل شيء على مايرام فإن بمقدوره العودة إلى الشارع التاسع والستين شرقاً، خلال ساعات قليلة. ولن يقدر لنا أن نعرف قط العذابات التي عاناها لاضطراره إلى مغادرة موقعه.

لم يكن لديه ما يكفي لكي يستقل الحافلة، وللمرة الأولى إذن من عدة أسابيع بدأ المسير، وكان من الغريب أن يمضي على قدميه مجدداً، منتقلاً بانتظام من مكان إلى آخر، مرجحاً يديه إلى الأمام والوراء، شاعراً بالرّصيف تحت نعليّ حذائه، ومع ذلك فهذا هو ذا يمضي غرباً في الشارع التاسع والسّتين، منعطفاً إلى اليمين عند ماديسون أفينو، ومستهللاً مسيرته إلى الشّمال. كانت ساقاه ضعيفتين، وأحسّ بأنّ رأسه قد خلّق من هواء. واضطرّ للتوقّف بين الفينة والأخرى، ثمّ التقاط أنفاسه. وذات مرّة، وهو على حافة السّقوط، اضطرّ للتّشبث بأحد أعمدة الإنارة. ووجد أنّ الأمور تمضي على نحو أفضل إذا ما رفع قدميه قليلاً بقدر الإمكان، جازاً إياهما إلى الأمام بخطوات متمهّلة زاحفة. وبهذه الطّريقة فإنّ بمقدوره المحافظة على قوّته لاجتياز الأركان حيث كان عليه أن يوازن نفسه بعناية قبل كلّ خطوة وبعدها، في غمار صعود الرّصيف والهبوط منه.

في الشارع الرّابع والثمانين توقف للحظة أمام أحد المحالّ. وكانت هناك مرآة على الواجهة، وللمرة الأولى منذ بدأ المراقبة التي كان يقوم بها شاهد نفسه. لم يكن الأمر راجعاً إلى أنّه كان يخشى مواجهة صورته. وإنّما لم يخطر ذلك بباله. كان أكثر انشغالاً بمهمته من أن يفكر في نفسه، وكأنّما كفت مسألة مظهره عن الوجود. والآن، وفيما راح ينظر إلى نفسه في مرآة المتجر، لم يشعر بالصّدمة أو بخيبة الأمل. لم يساوره شعور حيال ذلك على الإطلاق، ففي حقيقة الأمر أنّه لم يتعرّف الشّخص الذي رآه أمامه باعتباره ذاته، وظنّ أنّه قد لمح غربياً في المرآة، وللوهلة الأولى التفت حوله بحدّة ليرى من يكون. ولكنّه لم

يكن بجواره أحد، ثم التفت عائداً ليفحص المرأة بمزيد من الإمعان. وراح يدرس الوجه المماثل أمامه قسمة وراء الأخرى، وعلى مهل بدأ يلاحظ أنّ هذا الشخص يحمل شيئاً معيناً بالإنسان الذي اعتقد أنّه ذاته. نعم، بدا أنّه أكثر من محتمل أن يكون هذا هو كوين. غير أنّه، حتى الآن، لم يساوره الشعور بالضيق، فقد كان التحوّل في مظهره قاسياً للغاية بحيث لم يملك إلاّ الافتتان به. وكان قد تحوّل إلى شريد نصلت ألوان ملابسه، وغدا أشعث، وأفسدت القذارة مظهره. وكست وجهه لحية سوداء كثيفة تعلوها نقاط بيضاء صغيرة. وكان شعره طويلاً ومتشابكاً، وقد تكوّم في شكل كتل وراء أذنيه، وزحف مجعداً حتى كتفيه تقريباً. وذكّر نفسه أكثر من أي شيء آخر بروبنسون كروزو، وتعجّب من السرعة التي طرأت بها هذه التغيّرات عليه، فلم تنقض إلاّ عدة أشهر، وفي ذلك الوقت أصبح شخصاً آخر. وحاول أن يتذكّر نفسه، على نحو ما كان من قبل، ولكنه وجد ذلك متعذراً. وتطلّع إلى كوين الجديد هذا، وهزّ كتفيه، فلا أهمية لذلك حقاً. لقد كان شيئاً من قبل، وأصبح الآن شيئاً آخر، ولم يكن ذلك أفضل أو أسوأ. كان مختلفاً، وهذا هو كلّ ما هنالك.

واصل سيره ابتعاداً عن قلب المدينة لعدد آخر من كتل المباني، ثم انعطف يساراً، وعبر الجادة الخامسة، وسار بمحاذاة سور سنترال بارك. وعند الشارع السادس والتسعين دخل الحديقة، وألقى نفسه سعيداً بأن يكون وسط العشب والأشجار. وكان الصيف الماضي قد أتى على الكثير من الخضرة، وهنا وهناك برزت الأرض في بقع بنية



مُتربة. ولكن الأشجار في الأعالي كانت ماتزال مليئة بالأوراق، وفي كل مكان تألق عناق النور والظل الذي لاح لكوين جميلاً وعجائيباً. وكان ذلك في الضحى، وماتزال هناك ساعات طويلة قبل حلول الأصيل.

سيطر على كوين في منتصف الحديقة دافع قوي يجذوه إلى نيل قسط من الراحة. ولم تكن هنا شوارع ولا كتل من مباني المدينة لإبراز مراحل التطور، وبدا له فجأة أنه كان يسير منذ ساعات، وأن الوصول إلى الطرف الآخر من الحديقة سيستغرق كما أحس يوماً كاملاً أو يومين من السير المترنح. وواصل المسير للحظات أخرى، ولكن ساقيه خانتاه أخيراً. وكانت هناك شجرة بلوط لا تبعد كثيراً عن الموضع الذي وقف فيه، فيمم كوين نحوها، مترنحاً مثلما يترنح سكير يتلمس طريقه إلى فراشه بعد ليلة بكاملها من المرح الصاخب. واستخدم الكرّاسة الحمراء وسادة له ورقد على مرتفع من العشب إلى الشمال مباشرة من الشجرة، وأغفى. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ينام فيها يوماً غير متقطع منذ شهور، ولم يستيقظ إلا بعد حلول صباح اليوم التالي.

أشارت ساعته إلى التاسعة والنصف، فانكمش خوفاً من التفكير في الوقت الذي فقده، ونهض من مكانه، وشرع في الانطلاق غرباً، وقد دهش لعودة قوته إليه، ولكنه لعن نفسه للساعات التي أهدرها في استردادها. وما كان شيء ليبعث العزاء في نفسه. وأياً كان ما يقوم به الآن فقد ساوره شعور بأنه سيكون متأخراً على الدوام. ففي وسعه أن يعدو مئات السنين، ومع ذلك فسيصل بعد إغلاق الأبواب مباشرة.

خرج من الحديقة في الشارع السادس والتسعين، وواصل مسيرته غرباً. وعند ركن جادة كولومبوس رأى كشك هاتف ذكره فجأة بأوستر والشيك ذي الخمسمائة دولار. وربما كان بمقدوره أن يوفر الوقت للحصول على المال الآن، ففي وسعه أن يمضي مباشرة إلى أوستر، ويضع المال في جيبه، ويتجنب الرحلة إلى مكتب البريد والبنك. ولكن هل سيكون المال في متناول يد أوستر؟ وإذا لم يكن في متناول يده فقد يستطيعان ترتيب الالتقاء في بنك أوستر.

دخل كوين كشك الهاتف، ودسَّ يده في جيبه، وأخرج ما بقي من النقود: كان هناك عُشراً دولار، وربع دولار وثمانية سنتات. طلب دليل الهاتف للحصول على رقم هاتف أوستر، واستردَّ عُشراً دولار، ثانية من صندوق الإعادة، معيداً وضعه من جديد، وطلب الرقم، رفع أوستر السّاعة لدى الرنين الثالث.

قال كوين:

- إنني كوين.

سمع تأوهاً على الطرف الآخر من الخطّ، وتناهى إليه صوت أوستر مثقلاً بالضيق الشديد:

- أين كنت تحتفي بحق الجحيم؟ لقد أتصلت بك ألف مرّة.

- كنت مشغولاً، أعمل في القضية.

- القضية؟

- القضية. قضية ستلمان. أتذكر؟

- بالطبع أذكرها.

- هذا هو السرّ في اتّصالي. أريد المجيء للحصول على المال الآن.

الخمسمائة دولار.

- أي مال؟

- الشيك. أتذكر؟ الشيك الذي أعطيتك إياه. الشيك المحرّر باسم بول أوستر.  
- بالطبع أذكره. ولكن ليس هناك مال. هذا هو السبب في محاولتي الاتصال بك.

صاح كوين، وقد فقد أعصابه فجأة:

- ليس لك الحق في إنفاقه. ذلك المال من حقي.  
- لم أنفقه. فقد تمّ ردّ الشيك.  
- لست أصدّقك.

- تستطيع الحضور إلى هنا والاطّلاع على رسالة البنك، إذا أردت. إنها أمامي الآن على المكتب، فلم يكن الشيك مقبولاً.  
- هذا عبث.

- نعم، إنّه كذلك. ولكنّه لم تعد له أهميّة الآن. أليس كذلك؟  
- إنّ له أهميّة، بالطبع، فأنا أريد المال لمواصلة القضية.  
- ولكن لسيت هناك قضية. لقد انتهى كلّ شيء.  
- عمّ تتحدّث؟

- عن الشيء الذي تتحدّث عنه بالذات: قضية ستلمان.  
- ولكن ماذا تعني بقولك «لقد انتهى كلّ شيء»؟ إنّي مازلت أعمل فيها؟

- لست أستطيع تصديق ما أسمعه!  
- كفّ عن التزام الغموض، على هذا النحو اللعين، فليست لديّ أدنى فكرة عمّا تتحدّث عنه.

- لست أستطيع تصديق أنك لا تعرف. أين كنت بحق الجحيم؟  
ألا تقرأ الصحف؟

- الصحف؟ اللعنة. قل الذي تعنيه. ليس لدي وقت لقراءة  
الصحف.

ساد صمت على الطرف الآخر من الخط، وللحظة أحس كوين  
بأن المكالمة قد انتهت، وأنه قد غط في نومه بشكل من الأشكال، وأنه  
استيقظ الآن لتوه ليجد سِاعة الهاتف في يده.  
قال أوستر:

- لقد قفز ستلمان من جسر بروكلين، وانتحر، قبل شهرين  
ونصف الشهر.

- إنك تكذب!

- لقد نُشر الحادث في الصحف كافة. وبمقدورك التأكد بنفسك.

لم يجر كوين رداً.

واصل أوستر الحديث:

- لقد كان ستلمان الذي تعرفه. ستلمان الذي كان أستاذاً في

جامعة كولومبيا، وهم يقولون إنه مات في الهواء، قبل أن يرتطم  
جسمه بالماء.

- وببتر؟ ماذا عن بوتر؟

- لا أدري.

- هل يعرف أحد بأمره.

- من المستحيل تحديد ذلك. عليك أن تصل إلى ذلك بنفسك.

قال كوين:

- نعم. أعتقد ذلك.

ومن غير أن يودع أوستر أعداد السّماعَة إلى موضعها. والنقطة عُشر الدولار الآخر، واستخدمه لطلب رقم فرجينيا ستلمان، وكان مايزال يحفظ الرّقم عن ظهر قلب.

نطق صوت مسجّل آلياً الرّقم، وأعلن أنّه لم يعد في الخدمة، ثمّ كرّر الصوت الرّسالة، وبعد ذلك انقطع الخط.

لم يستطع كوين التيقّن من مشاعره. وفي تلك الدقائق الأولى، بدا وكأنه لم يشعر بشيء، أو كأنّ الأمر بأسره لم يصل إلى شيء على الإطلاق، وقرّر تأجيل التّفكير فيه، وحدث نفسه بأنّه سيُتاح الوقت لذلك. وأمّا الآن فإنّ الشيء الوحيد الذي بدا مهمّاً هو الذهاب إلى الدّار. فليسوف يعود إلى شقّته، وينزع ملابسه، ويأخذ حماماً ساخناً، ثمّ يتصفّح المجلّات الحديثة، ويستمع إلى عدّة أسطوانات، ويقوم بتنظيف الشّقة قليلاً، ثمّ إنه قد يشرع في التّفكير في الموضوع.

عاد سيراً إلى الشّارع مائة وسبعة. وكان مفتاح منزله مايزال في جيبه، وساوره الشّعور بالسّعادة وهو يفتح الباب الخارجيّ للدّار ويصعد مجموعات الدرج الثلاث المفضية إلى شقّته، ولكنّه خطأ عندئذٍ إلى داخل شقّته، وكانت نهاية الأمر.

لقد تغيّر كلّ شيء. فقد بدا وكأنه مكان آخر تماماً، وفكّر كوين في أنّه لا بد أن يكون قد دخل شقّة أخرى بطريق الخطأ، فراجع إلى المدخل ودقّق في رقم الباب. لا، إنه لم يخطئ فهي شقّته، وقد كان مفتاحه هو الذي فتح الباب. وعاد إلى الدّاخل، وتأمّل الموقف بجملة. لقد أعيد ترتيب الأثاث، وحيث كانت هناك ذات يوم مائدة

يوجد الآن مقعد، وحيث كانت هناك أريكة فإن مائدة تنتصب أمامه. كانت هناك صور جديدة على الجدران، وسجادة جديدة على الأرض. وماذا عن مكتبه؟ بحث عنه بناظره، ولكنه لم يجده. ودقق في الأثاث بمزيد من العناية، وأدرك أنه ليس أثاثه، فما كان هناك في آخر مرة كان قد تم إبعاده من الشقة، ولم يعد هناك وجود لمكتبه، واختفت كتبه، والرسوم الطفولية التي رسمها ابنه الراحل اختفت كذلك. ومضى من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم. وكان فراشه قد اختفى ومراة تزينه لم يعد لها وجود. وفتح الجارور العلوي من حامل المرأة الذي وجده هناك. كانت ملابس داخلية نسائية تمتد متشابكة في مجموعات عشوائية: سراويل، صدريات، سراويل تحيئة.

وفي الجارور التالي استقرت كتزات نسائية. ولم يمضِ كوين أبعد من ذلك. فعلى منضدة، قرب الفراش، كانت هناك صورة مؤطرة لشاب أشقر، مكتنز الوجه. وظهر الشاب نفسه في صورة أخرى، مبتسماً وواقفاً وسط الجليد، وقد أحاط بذراعه فتاة سقيمة المظهر، كانت تبسم بدورها. ووراءهما امتد منحدر تزليج، وبدا رجل يحمل معدّات التزلج على كاهله، وبدت السماء الشتائية الزرقاء.

عاد كوين إلى غرفة الجلوس، وجلس على أحد المقاعد، ورأى سيجارة دُخنت حتى منتصفها وعليها آثار أحمر شفاه في منفضة السجائر، فأشعلها ومضى يدخنها، ثم توجه إلى المطبخ، وفتح الثلاجة ووجد بعض عصير البرتقال ورغيف خبز، فشرب العصير، وتناول ثلاث شرائح من الخبز، ثم عاد إلى غرفة الجلوس فجلس على المقعد من جديد. وبعد ربع ساعة سمع وقع أقدام صاعدة على

الدرج، وصليل مفاتيح خارج الباب، ثم دخلت الشقة الفتاة التي رآها في الصورة. كانت ترتدي الزي الرسمي للممرضات وتمسك بكيس مواد بقالة بين ذراعيها. وعندما لمحت كوين سقط منها الكيس، وصرخت، أو أنها صرخت أولاً، ثم سقط منها الكيس، فلم يستطع كوين التيقن من حدوث أي الأمرين أولاً. وتمزق الكيس منفثحاً لدى وقوعه على الأرض، وانسكب الحليب محدثاً مساراً أبيض نحو حافة السجادة.

وقف كوين، ورفع يده في إيماءة سلام، وأبلغ الفتاة بأن عليها أن تطمئن، فلم يكن بسبيله إلى إيذائها، وكل ما أراد معرفته هو السر في أنها تقطن شقته. وأخرج المفتاح من جيبه، ورفع في الهواء وكأنه يبرهن على حسن نواياه. وقد استغرق إقناعها بعض الوقت ولكن ذعرها تراجع في نهاية الأمر.

لم يعن ذلك أنها قد بدأت تثق فيه، أو أنها كانت أقل خوفاً، فقد ظلت إلى جوار الباب المفتوح، على استعداد للانطلاق وثباً باتجاهه عند أول إشارة لحدوث مشكلة. وظل كوين محتفظاً بالمسافة التي تفصله عنها حتى لا يزيد الموقف سوءاً، وواصل الحديث، موضحاً مراراً وتكراراً أنها تقطن في منزله. وقد بدا بجلاء أنها لم تصدق كلمة مما قاله، ولكنها راحت تستمع إليه لترجحه، وذلك دون شك على أمل أنه سيقنع بالخروج ويغادر الشقة في نهاية المطاف.

قالت:

- إنني أقيم هنا منذ شهر، إنها شقتي، وقد وقعت عقد إيجار لمدة عام.

تساءل كوين للمرة السابعة أو الثامنة؟

- ولكن ما السرّ في أنّ لديّ مفتاحاً؟ ألا يقنعك ذلك؟

- هناك مئات الطرق كان يمكنك الحصول بها على ذلك المفتاح.

- ألم يجبروك بأنّ شخصاً يسكن هنا عندما أجروك المكان؟

- قالوا إنّه كان هناك كاتب. ولكنّه اختفى. ولم يدفع الإيجار منذ

شهور.

صاح كوين:

- إنّهُ أنا، إنّني الكاتب.

نظرت إليه الفتاة، ببرودة وضحكت:

- كاتب؟ هذا أغرب ما سمعته في حياتي. ما عليك إلا أن تتأمّل

مظهرك. لم أر في حياتي بأسرها ما هو أسوأ من هذا.

دمدم كوين على سبيل التفسير:

- لقد واجهت بعض الصعوبات مؤخراً، ولكنها مؤقتة فحسب.

- قال لي مالك المبنى إنّهُ سعيد على آية حال بالتخلّص منك، فهو

لا يحبّ المستأجرين الذين ليست لديهم وظائف يعملون فيها، فهم

يستخدمون قدرأ أكثر من اللازم من التدفئة ويستخدمون أجهزة الدّار

حتى التّلف.

- هل تعرفين ما حدث لأشيائي؟

- آية أشياء؟

- كتبي، أثنائي، أوراقي.

- لا أعلم. ربما باعوا منها ما استطاعوا، وألقوا بالباقي، لقد نقل

كل شيء قبل انتقالي إلى هنا.



تنهد كوين تنهيدة عميقة، فقد وصل إلى نهاية ذاته. وبمقدوره  
الشعور بذلك الآن، وكأنما اتضحت حقيقة كبرى لناظريه في نهاية  
المطاف. لم يعد هناك شيء.

تساءل:

- هل تدركين ما يعنيه هذا؟

قالت الفتاة:

- إنه، بصراحة، لا يعنيني. تلك مشكلتك، وليست مشكلتي،  
وكل ما أريده أن تخرج من هنا الآن تَوًّا. هذه شقَّتِي، وأريد أن  
تخرج. وإذا لم تغادر المكان فسوف استدعي الشرطة، وأجعلهم  
يلقون القبض عليك.

لم تعد للأمر أهمية. بمقدوره أن يقف هنالك مجادلًا الفتاة باقى  
النهار من غير أن يستعيد شقَّته ثانية. لقد مضت، وهو قد انتهى،  
كل شيء انتهى. راح يدمدم بشيء يستعصي على الفهم، واعتذر منها  
عن الوقت الذي استغرقه، وخرج من الباب متجاوزاً إياها.

لم يدهش كوين لدى انفتاح باب المبنى الواقع في الشارع التاسع والستين بلا مفتاح؛ ذلك لأنه لم يكثرث لما يحدث، كما لم يدهش عندما وصل إلى الطابق التاسع، ومضى في الممر إلى شقة آل ستلمان، ووجد أن بابها مفتوح كذلك. وكان أبعد ما يكون عن الدهشة عندما وجد الشقة خاوية. وكان المكان قد جُرد من جميع ما فيه، ولم يبقَ شيء في الغرف. وكانت كل غرفة متماثلة مع الغرف الأخرى كافة: أرضية خشبية وأربعة جدران بيضاء. وكان متعباً إلى حدّ الإعياء، والشيء الوحيد الذي استطاع التفكير فيه هو أن يغمض عينيه.

مضى إلى إحدى الغرف في مؤخرة الشقة، مساحة صغيرة لا تتجاوز عشر أقدام في ستّ أقدام، ولها نافذة مزودة بشبكة من السلك تطلّ على مسقط النور، وتبدو الأكثر إعتاماً من بين كلّ الغرف. وفي داخل هذه الغرفة كان هناك باب ثانٍ يُفضي إلى مهجع بلا نوافذ ويضمّ مرحاضاً ومغسلة. وضع كوين الكرّاسة الحمراء على الأرضية، وأخرج القلم الذي تلقاه من الأصمّ الأخرس من جيبه ودسّه في الكرّاسة الحمراء، ثمّ نزع ساعتَه، ووضعها في جيبه. وبعد ذلك نزع جميع ملابسه، وفتح النافذة، وألقاها منها قطعة قطعة بادئاً بفردة حذائه اليمنى، فاليسرى، فجورب أبعه بالآخر، فقمصيه وسترته وسرواله الداخلي فسرواله. ولم ينظر إليها ليرقبها في سقوطها، كما لم يتحقّق ممّا إذا كانت قد استقرّت على الأرض في موضع بعينه، ثمّ أغلق النافذة، وردد في وسط الأرضية، وراح في سبات.

عندما استيقظ كانت الظلمة تلفّ الغرفة، فلم يستطع التيقّن من

الوقت الذي انقضى، وما إذا كان في ليل اليوم الذي نام فيه أم في ليل اليوم التالي. وحدث نفسه بأنه لم يكن في الليل على الإطلاق، فربما كان داخل الغرفة وحده هو المظلم، وكانت الشمس تتألق في الخارج، فيما وراء النافذة. ولعدة لحظات راح يفكر في النهوض والمضي إلى النافذة لتبين جلية الأمر، ولكنه قرّر أنه لا أهمية لذلك، وحدث نفسه بأنه إذا لم يكن الليل قد حلّ الآن فإنه سيقبل في وقت لاحق. إنّ ذلك أمر مؤكد، وسواء نظر من النافذة أم لم ينظر فإن الرد سيكون هو ذاته. ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان الوقت ليلاً هاهنا في نيويورك فمن المؤكد أنّ الشمس مشرقة في مكان آخر. ففي الصيف، على سبيل المثال، لا شك أنّ الوقت هو منتصف الأصيل، والفلاحون الذين يزرعون الأرز يمسخون العرق عن جباههم. فالليل والنهار ليسا إلا لفظين نسبيين، ولا يشيران إلى حالة مطلقة. وفي أي لحظة بعينها فإنّ الوقت يتمثل فيهما معاً، والسبب الوحيد في أننا لم نعرف ذلك هو أنه ليس بمقدورنا أن نكون في مكانين في وقت واحد. ففكر كوين كذلك في النهوض والذهاب إلى غرفة أخرى، ولكنه أدرك عندئذٍ أنه سعيد تماماً حيث هو. فقد كان الوضع مريحاً هاهنا في الموضع الذي اختاره، ووجد أنه يستمتع بالرقاد على ظهره وعيناه مفتوحتان، متطلعاً إلى السقف، أو ما كان يمكن أن يكون السقف لو أنه كان بمقدوره رؤيته. ولم يكن ينقصه إلا شيء واحد، وذلك الشيء هو السماء، فقد أدرك أنه قد افتقد وجودها فوق رأسه بعد الأيام والليالي الطويلة التي أمضاها في العراء. ولكنه في الدّاخل الآن، وأياً كانت الغرفة التي اختارها ليعسكر فيها. فإنّ السماء ستظلّ محتجبة، ولا سبيل إلى الوصول إليها حتىّ عند أبعد آفاق بصره.

حدّث نفسه بأنّه سيمكث هنا حتّى يعجز عن ذلك، سيكون هناك ماء من المغسلة ليظفّي به الظمأ، وسيشتري له ذلك بعض الوقت، وسوف ينال منه الجوع بالفعل، ويضطرّ لتناول الطّعام، ولكنّه كان يعمل منذ وقت طويل على الوصول باحتياجاته إلى القليل للغاية بحيث كان يعرف أنّ تلك النّقطة مايزال أمامها عدّة أيّام قبل أن تحلّ. وقرّر ألاّ يفكّر فيها إلّا حين يضطرّ إلى ذلك، فلم يكن هناك معنى للقلق، حسبما راح يحدث نفسه، ولا معنى لمضايقة نفسه بأمر لا أهميّة لها.

حاول أن يفكّر في الحياة الّتي عاشها قبل أن تبدأ القصة، وقد سبّب له ذلك كثيراً من المشاقّ، فقد بدا بعيداً للغاية بالنّسبة إليه الآن. وتذكّر الكتب الّتي ألفها باسم وليام ولسون، وحدّث نفسه بأنّه كان من الغريب أن يقوم بذلك، وراح يتساءل الآن عن السرّ في أنّه فعل ذلك. وفي قرارة فؤاده أدرك أنّ ماكس ورك قد مات. لقد مات في موضع ما على الطّريق إلى قضيتّه التّالية، ولم يستطع كوين حمل نفسه على الشّعور بالأسف، فلقد بدا الأمر كلّه بلا أهميّة الآن. عاد بتفكيره إلى مكتبه وآلاف الكلمات الّتي كتبها هناك، وعاد بذهنه إلى الرّجل الّذي عمل وكيلاً له، وأدرك أنّه ليس بمقدوره تذكّر اسمه. وكانت أشياء كثيرة آخذة بالاختفاء الآن، وكان من الصعب عليه تتبّعها، وحاول أن يشقّ طريقه متذكّراً تشكيل فريق الميتس وضعاً إثر وضع، ولكنّ ذهنه شرع في الشّروء. وتذكّر أنّ اللّاعب الأوسط كان موكي ولسون، وهو لاعب واعد في مقببل العمر، وكان اسمه الحقيقي وليام ولسون. ومن المؤكّد أنّه كان هناك أمر مثير للاهتمام في

غمار ذلك . وتابع كوين الفكرة للحظات قليلة ولكنه تخلّى عنها بعد ذلك . فلقد ألغى الاثنان اللذان يُدعيان وليام ولسون أحدهما الآخر، وذلك كلّ ما هنالك . ولوّح كوين بيديه مودّعاً في ذهنه كلاً منهما . فلسوف ينتهي الأمر بفريق المبتس مجدّداً إلى احتلال المرتبة الأخيرة، ولن يعاني أحد من جرّاء ذلك .

في المرّة التالية التي استيقظ فيها كانت الشّمس تتألّق في الغرفة، وكانت هناك صينيّة طعام إلى جواره على الأرضيّة، والبخار يتصاعد من الأطباق بما يبدو أنّه وجبة من اللّحم المشوي . وقد تقبل كوين هذه الحقيقة دونما اعتراض، ولم تثر دهشته ولا قلقه . قال محدّثاً نفسه : نعم، من المحتمل تماماً أنّ الطّعام ينبغي أن يترك لي هنا . ولم يكن فضولياً لمعرفة كيفيّة حدوث ذلك أو السّبب فيه، بل ولم يخطر بباله أن يترك الغرفة ليلقي نظرة على باقي الشّقة بحثاً عن إجابة، وإنّما قام بدلاً من ذلك بفحص الطّعام الموضوع على الصينيّة عن كثب، ورأى أنّه بالإضافة إلى شريحتين كبيرتين من اللّحم المشوي، كانت هناك سبع قطع من البطاطس المحمّرة، وطبق من الهليون، وشريحة من الخبز الطّازج، وسلطة ودورق زجاجي من النيذ الأحمر، وقطع من الجبن، وكمثريّ للتحلية . وكان هناك منديل مائدة كتّانيّ أبيض، وأدوات المائدة من أفخم الأنواع، فتناول الطّعام، أو نصفه بالأحرى، وهو القدر الذي استطاع التهامه .

بعد تناول وجبة الطّعام، شرع كوين في الكتابة في الكراسيّة الحمراء، وواصل الكتابة، إلى أن عادت الظّلمة إلى الغرفة . كان هناك مصباح صغير يتدلّى من وسط السّقف، ومفتاح إضاءة له

بالقرب من الباب، ولكن فكرة استخدامه لم ترق لكوين. ولم ينقض وقت طويل إلا وكان قد غط في النوم مجدداً. وعندما استيقظ كان ضياء الشمس يملأ الغرفة وصينية طعام أخرى بجواره على الأرض، فتناول ما استطاع من الطعام، وعاد عقب ذلك إلى الكتابة مجدداً في الكراسي الحمراء.

وقد انبثق معظم المواد التي كتبها في تلك الفترة من أسئلة هامشية حول قضية ستلمان. فقد تساءل كوين، على سبيل المثال، عن السرّ في أنه لم يكثرث لإلقاء نظرة على تقارير الصحف الخاصة بإلقاء القبض على ستلمان في ١٩٦٩ م، وبحث مشكلة ما إذا كان الهبوط على سطح القمر في ذلك العام نفسه مرتبطاً بأية وسيلة بما حدث، وتساءل عن السرّ في أنه صدّق أوستر، فيما يتعلق بموت ستلمان. وحاول أن يفكر في البيض وكتب عبارات من نوع «بيضة جيدة» و«بيضة على وجهه» و«وضع بيضة» و«متشابهان كبيضتين». وتساءل عما كان يمكن أن يحدث لو أنه تتبّع ستلمان الثاني بدلاً من ستلمان الأول. وسأل نفسه عن السرّ في أن كريستوفر، القديس الراعي للسفر، قد طوّبه البابا في ١٩٦٩ م في وقت الرحلة إلى القمر تماماً. وتمعن في السؤال المتعلق بالسرّ في أن دون كيخوته لم يرغب ببساطة في أن يؤلف كتاباً مماثلاً للكتب التي أحبها، وإنما عمد إلى أن يعيش مغامراته. وتساءل عن السرّ في أن الحروف الأولى من اسمه مماثلة للحروف الأولى من اسم دون كيخوته. وفكر فيما إذا كانت الفتاة التي انتقلت للسكنى في شقته هي نفسها الفتاة التي كانت تقرأ كتابه في محطة الجراندي سنترال. وتساءل عما إذا كانت فرجينيا ستلمان قد

استعانت بتحرُّرٍ خاصٍ آخر بعد عدم اتِّصاله بها. وسأل نفسه عن السَّرِّ في تصديقه قول أوستر فيما يتعلَّق برَدِّ البنك للشيك. وفكَّر في بيتر ستلمان، وتساءل عمَّا إذا كان قد نام في الغرفة التي يعيش فيها الآن. وتساءل عمَّا إذا كانت القضية قد انتهت حقًّا، وما إذا كان ما يزال يعمل على حلِّها. وتساءل عمَّا يمكن أن تشبهه الخريطة التي تُوقَّع عليها كلُّ خطوة خطاها في حياته وما هي الكلمة التي ستشكِّل الخريطة هجاءها.

عندما حلَّ الظلام غرق كوين في النَّوم، وعندما غمر الضياء الكون، تناول الطَّعام، وعكف على الكتابة في الكرَّاسة الحمراء. ولم يكن بمقدوره قطَّ التيقُّن من الوقت الَّذي انقضى خلال كلِّ فترة راحة، ذلك أنَّه لم يكثرث لعدِّ الأيام والسَّاعات. غير أنَّه بدا له أنَّ الظلام بدأ شيئاً فشيئاً يتغلَّب على الضياء، وأنَّه بينما كانت السَّيادة في البداية لتألَّق الشمس، فإنَّ الضوء غداً تدريجياً أضعف وأسرع انحساراً. وفي البداية عزا ذلك إلى تغيُّر الموسم. فمن المؤكَّد أنَّ الانقلاب الربيعي قد مرَّ بالفعل، وربَّما كان الانقلاب الصيفي يقترب. ولكن حتَّى بعد حلول الشتاء وانقلاب هذه العمليَّة، نظرياً فإنَّ كوين لاحظ أنَّ فترات الظلام قد واصلت مع ذلك الزيادة على حساب فترات الضياء، وبدا له أنَّه يتاح له وقت يزداد قصراً لتناول طعامه والعكوف على الكتابة في الكرَّاسة الحمراء، وبدا له بالفعل أنَّ هذه الفترات قد تقلَّصت إلى ما لا يتجاوز عدَّة دقائق، فذات مرَّة على سبيل المثال انتهى من تناول الطَّعام واكتشف أنَّ لديه من الوقت ما يكفي لكتابة ثلاث جمل فحسب في الكرَّاسة الحمراء. وفي المرَّة التَّالية

التي حلّ فيها الضياء أفلح في كتابة جملتين، وبدأ يضرب صفحاً عن وجباته ليكرّس نفسه للكرّاسة الحمراء، من غير أن يتناول الطعام إلاّ حين يشعر أنّه لم يعد يستطيع الصّمود. ولكنّ الوقت استمرّ في التناقص، وسرعان ما غدا عاجزاً إلاّ عن تناول قضمة أو قضمتين قبل حلول الظلام، ولم يفكّر في إضاءة المصباح الكهربائي لأنّه نسي وجوده منذ زمن بعيد.

تزامنت فترة امتداد الظلام هذه مع تناقص الصّفحات المتاحة في الكرّاسة الحمراء، وشيئاً فشيئاً راح كوين يقرب من النّهاية، وأدرك في إحدى اللّحظات أنّه كلّما أكثر من الكتابة اقترب الوقت الذي لا يستطيع فيه كتابة أيّ شيء، وبدأ يزن كلماته بعناية كبيرة، مكافحاً للتعبير عن ذاته بقدر ما يستطيع من الاقتضاب والوضوح، وشعر بالندم لإهداره كثيراً من الصّفحات في مستهلّ الكرّاسة الحمراء. وفي حقيقة الأمر أنّه شعر بالأسف لاهتمامه بالكتابة حصراً عن قضية ستلمان وذلك لأنّ القضية غدت نائية عنه الآن، ولم يعدّ يكثرث للتّفكير فيها، فقد كانت جسراً إلى موضع آخر في حياته، وأمّا الآن وقد عبرها فإنّ معناها غاب عنه. ولم يعدّ كوين يهتمّ بنفسه، وإنّما كتب عن النجوم والأرض وآماله بالنّسبة إلى البشريّة، وساوره شعور بأنّ كلماته قد فصلت عنه، وأنها الآن جزء من العالم بأكمله، حقيقةً ومتعيّنة مثل حجر أو بحيرة أو زهرة. ولم تعدّ لها صلة به. وتذكّر لحظة ميلاده، وكيف اجتذّب برفق من رحم أمّه. وتذكّر الرّقة اللّامتناهية للعالم والنّاس الذين أحبّهم، ولم يعدّ هناك ما يهمّ الآن غير جمال هذا كلّه. وأراد أن يواصل الكتابة عنه، وآله أن يعرف أنّ



ذلك لن يكون بمقدوره. ورغم ذلك فقد حاول أن يواجه نهاية الكراسية الحمراء بشجاعة، وتساءل عما إذا كان بمقدوره أن يكتب بلا قلم، وإذا كان باستطاعته أن يتعلم الحديث، وأن يملا الظلام بصوته لافظاً الكلمات في رحاب الهواء، والجدران والمدينة، حتى وإن لم يجل الضياء ثانية قط.

وكانت الجملة الأخيرة في الكراسية الحمراء هي: «ماذا سيحدث عندما لا تعود هناك صفحات أخرى في الكراسية الحمراء؟».

عند هذا الموضع تغدو القصة غامضة؛ فقد نفدت المعلومات، والأحداث التي أعقبت هذه الجملة الأخيرة لن يُقدَّر لأحد أن يعرفها، ولسوف يكون من قبيل الحماقة إطلاق تخمين في هذا الصدد.

عدت إلى الوطن من رحلة إلى أفريقيا في شباط (فبراير)، قبل ساعات من تعرّض نيويورك لعاصفة ثلجية. واتّصلت بصديقي أوستر هاتفياً في المساء، فاستحثني على القدوم لمقابلته في أقرب وقت ممكن، وقد كان هناك شيء شديد الإلحاح في صوته بحيث لم أجرؤ على الرفض، رغم إرهاقي الشديد.

أوضح لي أوستر، في شقته، القليل الذي يعلمه عن كوين، ثم انطلق في وصف القضية الغريبة التي أصبح طرفاً فيها بالمصادفة، وقال إن القضية استحوذت عليه، وأراد الحصول على نصيحتي فيما يتعين عليه القيام به. وبعد أن أصغيت إليه بدأت أشعر بالغضب لأنه عامل كوين بمثل هذه اللامبالاة. وكِلْتُ له اللوم لعدم قيامه بدور أكبر في الأحداث، ولعدم فعله شيئاً لمساعدة الرجل الذي كان من الجلي أنه يواجه مشكلة.

بدا أن أوستر مقتنع بما أقول. وقال إن ذلك هو، في حقيقة الأمر، السبب في طلبه أن أزوره. فقد كان يشعر بالذنب، ومست حاجته إلى التخلص من هذا الشعور، وقال إنني الشخص الوحيد الذي يمكنه الوثوق به.

كان قد أمضى الشهور الأخيرة في محاولة الوصول إلى كوين، ولكن دون أن تُكَلِّلَ جهوده بالنجاح، فلم يعد كوين يقيم في شقته، وباءت كل المحاولات للاتصال بفرجينيا ستلمان بالفشل، وعندئذٍ اقترحتُ عليه أن نلقي نظرة على شقة ستلمان، فقد أوحى لي حدس على نحو من الأنحاء بأن هذا هو المكان الذي سيكون نهاية المطاف بالنسبة إلى كوين.

ارتدينا معطفينا، واستقللنا سيارة أجرة إلى الشارع التاسع والستين شرقاً. وكان الثلج يتساقط منذ ساعة وغدت الطرقات بالفعل حافلة بالأخطار، وصادفنا بعض الصعوبات في الوصول إلى المبنى، ثم انسللنا إليه مع أحد المستأجرين، وكان عائداً إلى داره لتوه. ومضينا إلى أعلى، وعثرنا على باب كان ذات يوم باب شقة آل ستلمان. ولم يكن مغلقاً، فدخلنا الشقة في حذر، واكتشفنا سلسلة من الغرف الخاوية، العارية من أي شيء. وفي غرفة صغيرة في مؤخرة الشقة، لا تشوب نظافتها شائبة، شأن باقي الغرف، كانت الكراسي الحمراء ملقاة على الأرضية. والتقطها أوستر، وتصفحها لوقت قصير، وقال إنها كرسي كوين، ثم دفعها إليّ وقال إنني ينبغي أن أحفظ بها، فقد ضايقه الأمر كله إلى حدّ بالغ، بحيث أنه كان يخشى الاحتفاظ بالكرسي بنفسه. وقلت إنني سأحفظها إلى أن يكون على استعداد

لقراءتها، ولكنّه هزّ رأسه نافياً، وأبلغني بأنّه لا يريد أن يراها مرّة أخرى، ثمّ غادرنا الشّقة وانطلقنا إلى الجليد. وكان البياض يلفّ المدينة بأسرها الآن، والثلج يواصل التساقط، وكأنّه لا نهاية له.

وأما فيما يتعلّق بكوين فإنّ من المستحيل بالنّسبة إليّ أن أحدّد أين هو الآن. ولقد تتبعت الكرّاسة الحمراء بأدقّ ما أستطيع، وأيّ لون من ألوان مفارقة الدّقة في القصة ينبغي ألاّ يلام فيه أحد غيري، وكانت هناك لحظات تصعب فيها قراءة النصّ، ولكنني بذلت قصارى جهدي في ذلك، وأحجمت عن القيام بأيّة تفسيرات. والكرّاسة الحمراء هي، بالطبع، نصف القصة، كما في وسع أيّ قارئ حسّاس أن يدرك. وأما بخصوص أوستر فإنني مقتنع بأنّه تصرف في الأمر بأسره على نحو سيّء. وإذا كانت صداقتنا قد انتهت فهو الملموم في ذلك. وبالنّسبة إليّ فإنّ أفكاري تظلّ محوّمة حول كوين. ولسوف يكون معي على الدّوام. وإنني لأتمنّى له التوفيق، كائناً ما كان الموضع الذي اختفى فيه.



## الزّشباع



هناك أولاً وقبل كل شيء «بلو». وفيما بعد هناك «وايت»، ثم عقب ذلك ثمة «بلاك»، وقبل البداية هناك «براون». وقد أدخله براون إلى الساحة، وعلمه الحيل، وعندما أوغل براون في العمر حلّ بلو محلّه. وعلى ذلك النحو بدأ الأمر. المكان نيويورك، والزمان هو الحاضر، ولن يتغير أيّ منهما. يمضي بلو كلّ يوم إلى مكتبه، ويجلس إلى قمطره في انتظار حدوث شيء. ولوقت طويل لا يحدث شيء، ثمّ يلج المكتب رجل يُدعى وايت. وعلى ذلك النحو بدأ الأمر.

تبدو القضية بسيطة، فوايت يريد من بلو أن يتتبع رجلاً يُدعى بلاك، ويواصل رصده مادام ذلك ضرورياً. وخلال عمل بلو لحساب براون، قام بكثير من مهامّ المراقبة، ولم تبدُ هذه المهمة مختلفة، بل ربّما كانت أيسر من معظم القضايا.

وبلو بحاجة إلى العمل؛ ولذا فإنّه يُصغي إلى وايت، ولا يطرح الكثير من الأسئلة، ويفترض أنّها قضية زواج، وأنّ وايت زوج غيور. ولا يُدلي وايت بالكثير من التفاصيل، ويقول إنّه يريد تقريراً أسبوعياً يُرسل إليه على صندوق بريد قام بتحديد رقمه مكتوباً بالآلة الناسخة من أصل ونسخة إضافية على ورق يتميز بطول وعرض قام بتحديدهما، وسوف يتمّ إرسال شيك كلّ أسبوع عن طريق البريد إلى بلو، ثمّ يبلغ وايت بلو بالمكان الذي يقطنه بلاك، ويصف له ملامحه وما إلى ذلك. وعندما يسأل بلو وايت عن الزمن الذي يعتقد أنّ القضية ستستغرقه يقول وايت إنّهُ لا يعرف، ويقول: ما عليك إلّا مواصلة إرسال التقارير، حتى إشعار آخر.

وإنصافاً لبلو فإنه يجد الأمر غريباً بعض الشيء، ولكن القول بأنه يتوجس وتساوره وتخوفات، عند هذا المنعطف، يعني الذهاب شوطاً أبعد مما يُحتمل. ومع ذلك فإن من المستحيل بالنسبة إليه ألا يلاحظ أشياء معينة فيما يتعلق بوايت. وعلى سبيل المثال اللحية السوداء والحاجبان الكثيفان بشكل بالغ، ثم هناك البشرة التي تبدو بيضاء على نحو مُغالي فيه وكأنما يكسوها الذرور. وليس بلو بالهاوي في فن التنكر، ولا يصعب عليه أن يكتشف أسرار هذا التنكر المائل أمامه. ففي نهاية المطاف كان براون أستاذه، وفي قمة ازدهار نشاطه كان براون هو الأكثر بروزاً في هذا النوع من الأعمال. وهكذا يبدأ بلو في الاعتقاد بأنه كان مخطئاً، وأن القضية ليست لها علاقة بالزواج، ولكنه لا يتجاوز هذا لأن وايت ما يزال يواصل الحديث معه، ويتعين على بلو أن يركز على فيض كلماته.

يقول وايت إن كل شيء تم ترتيبه. وهناك شقة صغيرة تقع في الجانب المقابل مباشرة لشقة بلاك، وقد قمت باستئجارها بالفعل، ويمكنك الانتقال إلى هناك اليوم، وسيتم دفع الإيجار إلى أن تنتهي القضية.

يقول بلو إنها فكرة جيدة، ويأخذ المفتاح من وايت، ولسوف يؤدي هذا إلى إزالة عناء العمل التمهيدي.

يرد وايت ممسداً لحيته: بالضبط.

وعلى هذا النحو يسوى الأمر، ويوافق بلو على تولي المهمة، ويتصافحان تأكيداً لهذا، وإظهاراً لحسن نواياه يعطي وايت لبلو مقدماً عشر ورقات من فئة الخمسين دولاراً.

على ذلك النحو بدأ الأمر، إذن. الشاب بلو ورجل يدعى وايت



ويبدو جلياً أنه ليس الرّجل البادي للعيان. لا أهميّة لذلك، هذا ما قاله بلو لنفسه بعد انصراف وايت. فأنا على يقين من أن لديه أسبابه الخاصّة. وفضلاً عن ذلك فتلك ليست مشكلتي، والشئ الوحيد الذي يجب أن يعنيني هو عملي.

إنه الثالث من شباط (فبراير) ١٩٤٧ م. ولا يعرف بلو بالطبع أن القضية ستستمرّ لسنوات. ولكنّ الحاضر ليس أقلّ ظلاماً من الماضي، وغموضه يعادل أيّ شيء وقد يحمله المستقبل في طياته. هذا هو حال الدنيا: خطوة فأخرى، وكلمة فأختها. وهناك أمور معيّنة لا يحتمل أن يكون بمقدور بلو أن يعرفها عند هذا المنعطف، ذلك لأنّ المعرفة تأتي وثيدة، وعندما تأتي فإنّ ذلك يكون غالباً لقاء ثمن شخصيّ باهظ.

يغادر وايت المكتب، وبعد لحظة يلتقط بلو السّاعة ويتصل بمن ستكون مستقبلاً السيّدة بلو، ويبلغ حبيبته بقوله: لسوف أختفي في مهمّة. لا تقلقي إذا لم أتصل بك لبعض الوقت. سأفكر فيك طول الوقت.

يأخذ بلو حقيبة رماديّة صغيرة من فوق الرفّ، ويضع فيها مسدسه من عيار ٣٨ ومنظاراً مكبراً وكراّسة وأدوات أخرى متعلّقة بالمهنة، ثمّ يرتّب قمطره، وينظّم أوراقه، ويغلق المكتب. ومن هناك يمضي إلى الشّقة التي استأجرها له وايت. ليس العنوان بالأمر المهم، ولكن دعنا نفترض جدلاً أنّها في روكلين هايتس، في شارع هادئ نادراً ما يطرقه أحد، ولا يبعد كثيراً عن الجسر، وربّما كان شارع أورينج. وقد قام والت ويتمان في ١٨٥٥ م بتنفيذ الطّبعة الأولى من ديوانه «أوراق

العشب» يدوياً في هذا الشارع، وهنا قام هنري وارد بيتشر من على منبر كنيسته ذات اللون الأحمر الطوبى بشن حملات ضد العبودية. ويكفي هذا القدر من الحديث عن لون الشارع.

إنها شقة صغيرة ذات غرفة واحدة، في الطابق الثالث من مبنى حجرى بني اللون يتألف من أربعة طوابق. ويحسّ بلو بالسعادة عندما يرى أنها مجهزة بصورة كاملة، وفيما هو يمضي في أرجاء الغرفة متفقداً قطع الأثاث، يكتشف أن كل شيء في المكان جديد تماماً: الفراش، المائدة، المقعد، السجادة، الأغطية الكتانية، لوازم المطبخ، وكل شيء. وهناك مجموعة كاملة من الملابس معلقة في خزانة الملابس، وتساءل بلو عما إذا كانت الملابس يقصد بها أن يرتديها، ويجربها فيجدها مناسبة له، ويقول لنفسه وهو يذرع الغرفة إنها ليست أكبر مكان تُقدّر لي رؤيته، ولكنها مريحة بما يكفي، مريحة بما يكفي.

يعود إلى الخارج، ويعبر الشارع، ويدخل المبنى المقابل، وفي الدهلز يبحث عن اسم بلاك على أحد صناديق البريد، ويعثر عليه: بلاك - الطابق الثالث. حتى الآن كل شيء مناسب، ثم يعود إلى غرفته، ويعكف على العمل.

يغرق ما بين السّائتر المسدلة على النافذة، ويلقي نظرة على الخارج، ويرى بلاك جالساً قبالة مائدة في غرفته عبر الشارع. وبقدر ما يستطيع بلو أن يميّز ما يجري فإنه يستنتج أن بلاك يكتب. وتؤكد له نظرة عبر المنظار المكبر أنه بالفعل يكتب، غير أن العدسات ليست من القوّة بحيث تلتقط الكتابة ذاتها، وحتى لو كانت على هذا القدر من القوّة فإن بلو يشكّ في أنه سيكون بمقدوره أن يقرأ الخطّ مقلوباً،

ومن هنا فإنَّ كلَّ ما يستطيع أن يقوله على وجه اليقين هو أنَّ بلاك يكتب في كراسة مستخدماً قلم حبر أحمر. ويخرج بلو كراسته ويكتب: السَّاعة الثَّالثة من بعد الظهر - ٣ شباط (فبراير)، بلاك يكتب على مكتبه.

يتوقَّف بلاك بين الحين والآخر في غمار عمله، ويحدِّق إلى الخارج عبر النَّافذة، ويعتقد بلو في وقت من الأوقات أنه ينظر إليه مباشرة، فيبتعد عن مرمى نظره. ولكنَّه يدرك لدى القيام بمزيد من التدقيق أنَّها نظرة جوفاء يُقصد بها التأمل أكثر من النَّظر، نظرة تجعل الأشياء خفيَّة، ولا تتيح المجال لاستيعابها. وينهض بلاك من مقعده بين الحين والآخر، ويختفي في جزء محتجب من الغرفة يفترض بلو أنَّه ركن، أو ربَّما حَمَّام، ولكنَّه لا يُمضي في ذلك لوقت طويل، وإلَّا يعود على الدَّوام في التَّو إلى مكتبه، ويستمرُّ هذا ساعات كثيرة، من غير أن يعرف بلو من خلال جهوده المزيد عنه. وفي السَّاعة السَّادسة يكتب بلو الجملة الثَّانية في كراسته: يستمرُّ هذا ساعات كثيرة.

لا يرجع الأمر إلى أنَّ بلو يشعر بالضَّجر، وإلَّا إلى أنه يحسُّ بفتور الهمة. فمن غير التَّمكُّن من قراءة ما يكتبه بلاك يبدو كلُّ شيء بلا معنى حتَّى الآن. وينصرف ذهن بلو إلى أنَّ بلاك ربَّما كان مجنوناً يخطِّط لنسف العالم، وربَّما هذه الكتابة علاقة بتركيبته السَّريَّة، ولكن مثل هذه الفكرة الصَّبيانيَّة تجعل بلو يشعر بالحرج تَوَّأ. ويقول لنفسه إنَّ الوقت مبكر للغاية على معرفة أيِّ شيء، ويقرَّر أن يمتنع في الوقت الحالي عن إصدار آية أحكام.

ينتقل ذهنه من جزئيَّة إلى أخرى، ويستقرُّ بالفعل على من ستصبح

السيدة بلو مستقبلاً، ويتذكر أنها كانا نخططان للخروج معاً الليلة، ولو لم يظهر وايت في المكتب اليوم، ولولا قضيته الجديدة لكان معها الآن يذهبان في البداية إلى المطعم الصيني في الشارع التاسع والثلاثين حيث يتصارعان مع أعواد تناول الطعام، ويمسك أحدهما بيد الآخر تحت المائدة، ثم يشاهدان عرض فيلمين في سينما پارامونت. وللحظة قصيرة تترأى في ذهنه صورة واضحة على نحو مذهل لمحياها، (وهي تضحك خافضة عينيها مصطنعة الحياء) ويدرك أنه يفضل كثيراً أن يكون معها على الجلوس في هذه الغرفة الصغيرة لوقت لا يعلمه إلا الله. ويفكر في الاتصال بها هاتفياً لتبادل حديث قصير، ويتدرد، ثم يقرر الامتناع عن القيام بذلك؛ فهو لا يرغب في الظهور بمظهر الضعيف. فلو أنها عرفت إلى أي حد تمس حاجته إليها فإنه سيبدأ في فقدان نقطة قوته، ولن يكون ذلك أمراً جيداً، فالرجل ينبغي أن يكون الأقوى دائماً.

الآن ها هو بلاك قد قام بتنظيف مائدته، ووضع مكان أدوات الكتابة طعام العشاء. وها هو يمضغ طعامه على مهل، محدقاً إلى خارج النافذة بطريقته الشاردة تلك. ولدى مرأى الطعام يدرك بلو أنه جائع، ويبحث في المطبخ عما يؤكل، ويستقر رأيه على وجبة مؤلفة من اليخنة المعلبة، وينتهي من أمر صلصة مرق اللحم بالاستعانة بشريحة من الخبز الأبيض. ويراوده أمل في أن بلاك سيخرج بعد العشاء، ويشعر بما يشجعه عندما يرى دفقاً فجائياً من النشاط في غرفة بلاك، ولكن كل ذلك لا ينتهي إلى شيء، فبعد ربع الساعة يجلس بلاك إلى مكتبه ثانية، وفي هذه المرة يقرأ كتاباً. ويرتمي ضوء

مصباح إلى جواره، ويتاح لبلو أن يرى وجه بلاك على نحو أفضل من ذي قبل. ويُقدَّر بلو أن عمر بلاك معادل لعمره، مع إضافة عامين أو حذفهما، أي أنه فيما بين أواخر العشرين وأوائل الثلاثين. وهو يجد وجه بلاك سمحاً، ولا شيء يميّزه عن ألف وجه آخر يراها المرء كل يوم. ويأتي ذلك محيياً لآمال بلو، وهو ما يزال في قرارة نفسه يأمل في أن يكتشف أن بلاك مجنون. ويتطّلع بلو عبر المنظار المكبر، ويقرأ عنوان الكتاب الذي يعكف بلاك على قراءته: «والدن» لمؤلفه هنري ديفيد ثورو<sup>(١)</sup>. ولم يقدر لبلو أن يسمع به من قبل، وها هو ذا يكتبه بعناية في كراسته.

(١) ثورو، هنري ديفيد (١٨١٧ - ١٨٦٢ م): مؤلف أمريكي، ولد في كونكورد بولاية ماساشوستس الأمريكية، وتلقّى تعليمه في هارفارد، وأصبح من أتباع إمرسون وصديقاً شخصياً له. أصدر خلال حياته كتابين، أولهما في ١٨٤٩ م بعنوان «أسبوع في كونكورد ونهر مريمك»، ووصف فيه رحلة قام بها في ١٨٣٩ م مع أخيه، وثانيهما «والدن» المشار إليه في المتن، ويحمل كذلك عنواناً آخر هو «الحياة في الغابات» وذلك في ١٨٥٤ م، ولم يجذب وقت صدوره اهتماماً يذكر، ولكنه قدّر له أن يلقي التقدير، باعتباره من أبرز الكتب في القرن العشرين. وقد وصف فيه تجربته التي استمرت عامين وقامت على الاكتفاء الذاتي، إذ بنى لنفسه كوخاً على حافة بحيرة والدن، قرب كونكورد. ويتناول في الكتاب الحياة في هذا الكوخ، وتجاربه الزراعية، وزواجره وجيرانه، والحياة والنباتات البرية، وشعوره بالماضي المتسمي إلى الهنود الحمر، وقد تحدّى بجرأة النزعة المادية وأخلاقيات مفهوم العمل في عصره. ومن أهمّ كتاباته كذلك مقالة بعنوان «العصيان المدني» صدرت أصلاً في العام ١٨٤٩ م بعنوان «مقاومة الحكم المدني» ودافع فيها عن حقّ المواطن في رفض دفع الضرائب لأسباب تتعلق بالضمير، وقد سجن لفترة قصيرة في ١٨٤٥ م لرفضه دفع الضرائب احتجاجاً على حرب المكسيك وعلى العبودية. وقد صدرت يومياته التي تقع في ١٤ مجلداً في ١٩٠٦ م كما صدرت في العام نفسه أعماله الكاملة في ٢٠ مجلداً، وتمّ البدء بإصدار طبعة مدققة من أعماله في ١٩٧١ م.

(هـ . م .)

وهكذا ينقضي باقي المساء بعكوف بلاك على القراءة وبلو على مراقبته وهو يقرأ. ومع مضي الوقت يزداد تثبيط همّة بلو، فهو ليس معتاداً على الجلوس على هذا النحو، ومع إطباق الظلام عليه، الآن، يبدأ ذلك في الإثقال على أعصابه. فهو يحبّ الانطلاق والنشاط والانتقال من مكان إلى آخر وأداء الأشياء، وكان يقول لبراون، عندما يعهد إليه بجمّة سكونيّة، بشكل خاص: إنني لست من طراز شرلوك هولمز أعطني شيئاً يمكنني أن أغرس فيه أسناني. والآن، وقد غدا يعمل لحسابه، فهذا هو ما يحصل عليه: قضية لا يقوم فيها بشيء، ذلك أنّ مراقبة شخص وهو يكتب ويقرأ ترقى إلى مرتبة عدم القيام بشيء، والسبيل الوحيد المتاح أمام بلو لإدراك معنى ما يحدث هو أن يكون داخل ذهن بلاك، ليدرك ما يفكر فيه، وذلك بالطبع أمر مستحيل. ومن هنا فإنّ بلو يأخذ شيئاً فشيئاً في ترك ذهنه يشرّد عائداً إلى الأيام الخوالي، يفكر في براون، وفي بعض القضايا التي عملا فيها معاً، متذوّقاً ذكرى انتصاراتهما. فعلى سبيل المثال كانت هناك «قضية ريديمان» التي تتبعا فيها أثر موظف البنك الذي اختلس ربع مليون دولار، وحلّ تلك القضية تنكّر بلو في هيئة رجل مراهنات على سباق الجياد، وأغرى ريديمان بأن يراهن معه، وتمّ ردّ مصدر النُقود التي راهن بها إلى الأوراق الماليّة المختلصة من البنك، ونال الرّجل جزاءه العادل. والأفضل من ذلك «قضية جراي». فقد تغيب جراي لمُدّة عام، وكانت زوجته على أهبة التسليم بأنّه قد لقي حتفه، وقد بحث بلو عبر كلّ القنوات المعتادة، وعاد خاوي الوفاض، ثمّ ذات يوم، وفيما هو يوشك على تقديم تقريره النهائي عثر مصادفة على جراي في حانة تقع على بعد كتلتين من المباني من الموضع الذي كانت

زوجته تجلس فيه مقتنعة بأنه لن يعود أبداً. وكان الاسم الذي يحمله جراي هو «جرين»، ولكنّ بلو عرف، على الرّغم من هذا، أنّه جراي، إذ كان يحمل معه في كلّ مكان صورة للرجل خلال الأشهر الثلاثة الماضية، ويعرف ملاحه عن ظهر قلب. وقد اتّضح أنّ السرّ في الأمر هو فقدان الذاكرة، وقد اصطحب بلو جراي إلى زوجته، وعلى الرّغم من أنّه لم يتذكّرها وواصل تسمية نفسه بجرين، إلاّ أنّه وجدها من النوع الذي يروقه، وبعد أيام خطبها. وهكذا أصبحت السيّدة جراي تدعى السيّدة جرّين، وتزوّجت الرجل نفسه للمرّة الثّانية، وبينما لم يتذكّر جراي الماضي قطّ - ورفض في عناد الإقرار بأنّه قد نسي أي شيء - فإنّ ذلك لم يمنعه فيما يبدو من العيش على نحو مريح في الحاضر. وبينما كان جراي قد عمل مهندساً في حياته السّابقة فإنّه باعتباره جرّين يعمل الآن مسؤولاً عن المشرب في إحدى الحانات على بعد كتلتين من المباني. وقال إنّّه يحبّ مزج المشروبات والحديث مع النّاس الذين يتدفّقون على الحانة، وليس بمقدوره تصوّر القيام بأيّ شيء آخر. وأكّد لبراون وبلو في حفل الزّفاف قوله: لقد ولدت لأكون مسؤولاً عن مشرب، ومن هما ليعترضاً على اختيار رجل لما يصنعه بحياته.

الآن يقول بلو لنفسه: تلك كانت الأيام الخوالي، يقوها وهو يعكف على مراقبة بلاك عبر الطريق وهو يطفىّ النّور في غرفته. كانت مليئة بالتحوّلات الغريبة والمصادفات المسليّة. طيّب، ليست كلّ القضايا من النوع المثير للاهتمام، ويتعيّن عليك أن تأخذ الجيد مع السيّئ.

يستيقظ بلو، المعتصم دائماً بالتفاؤل، في صباح اليوم التالي، في حالة مزاجية مرحة. وفي الخارج، يتساقط الثلج على الشارع الهادئ، وينقلب كل شيء إلى اللون الأبيض. وبعد مراقبة بلاك وهو يتناول إفطاره على المائدة قرب النافذة ويقرأ صفحات قليلة أخرى في كتاب «والدن» يراه بلو وهو يتراجع إلى مؤخرة الغرفة، ثم يعود إلى النافذة مرتدياً معطفه. الوقت بعد الثامنة بقليل، ويمدّ بلو يده بحثاً عن قبعته ومعطفه وملفَعته وحذائه الطويل العنق، ويرتدي ملابسه متعجلاً، ويهبط إلى الشارع بعد أقل من دقيقة مقتفياً أثر بلاك. إنه صباح بلا ريح، ومن الهدوء بحيث كان بمقدوره سماع صوت تساقط الثلج على أغصان الأشجار. إنه ما من أحد آخر يبدو للعيان في الشارع، ويترك حذاء بلاك مجموعة واضحة من الآثار على الرصيف الأبيض. يتبع بلو الآثار عند المنعطف ويرى بلاك وهو يمضي إلى الشارع التالي وكأنه يستمتع بالطّقس. ويحدّث بلو نفسه بأنّ هذا ليس سلوك رجل يوشك على الهرب. وبعد شارعين، يدخل بلاك متجر بقالة صغير، ويظلم هناك لعشر دقائق أو لعشرين دقيقة، ثم يخرج مثقلاً بكيسين مصنوعين من الورق البني وفيهما أشياء كثيرة. ومن غير أن يلحظ بلو الذي يقف في مدخل أحد البيوت على الجانب الآخر من الشارع يشرع في العودة إلى شارع أورينج ويحدّث بلو نفسه بأنّ بلاك يُعدّ مؤونة كافية لمواجهة العاصفة، ثم يقرّر المخاطرة بفقدان أثر بلاك، ويمضي بدوره إلى المتجر للقيام بالشيء عينه. ويحدّث نفسه بأنه ما لم تكن تلك خدعة، وما لم يكن بلاك يعتزم إلقاء موادّ البقالة والهرب بعيداً، فإنّه من المؤكّد إلى حدّ بعيد أنّه في الطّريق إلى البيت. ومن



هنا يقوم بلو بتسويق ما يحتاجه، ويتوقف في المتجر المجاور لشراء صحيفة وعدة مجلات، ثم يعود إلى غرفته في شارع أورينج. وبالتأكيد فإنّ بلاك جالس إلى مكتبه قرب النافذة عاكفاً على الكتابة في الكرّاسة عينها، شأنه بالأمس.

تغدو الرؤية ضعيفة بسبب سقوط الثلج، ويعاني بلو صعوبة في رصد ما يجري في غرفة بلاك، وحتى المنظار المكبر لا يُجدي كبير نفع. ويظلّ النهار كالحأ، وعبر الثلج المتساقط بلا انتهاء، لا يبدو بلاك أكثر من ظلّ. ويسلم بلو نفسه لانتظار طويل، ثمّ يستقرّ مع صحفه ومجلّاته. وهو قارئٌ ذووب لـ «ترو ديتكتيف» ويحاول ألاّ تفوته شهراً واحداً. والآن ومع توافر الوقت لديه يقرأ العدد الجديد بدقّة، بل ويتوقّف لقراءة الإشارات والإعلانات الصغيرة المنشورة في الصّفحات الأخيرة. وهناك وسط القصص البارزة عن الذين يلقون القبض على العصابات، وعن العملاء السريين، نشر مقال قصير يمَسّ وتراً عميقاً في نفس بلو، وحتى بعد أن يفرغ من المجلّة فإنّه يجد من الصعب عليه أن يمنع نفسه من التّفكير فيه. ويبدو أنّه قبل ربع قرن، وفي منطقة غابات تقع خارج فيلادلفيا، عُثر على صبيّ صغير مقتولاً، وعلى الرّغم من أن الشرطه بادرت إلى البدء في العمل على كشف أسرار القضية، إلّا أنّها لم تفلح أبداً في الوصول إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ فلم يقتصر الأمر على عدم وجود مشتبه بهم، وإنّما لم يكن في الوسع كذلك التعرّف على هويّة الصّبيّ. من هو، ومن أين جاء، ولمّ كان هناك - كلّها أسئلة ظلّت بلا أجوبة. وبالفعل فقد تمّ إسقاط القضية من قوائم الملفّات التي يجري العمل فيها، ولولا الطّبيب الذي عهد إليه بتشريح الجثّة لُنسيّت تماماً. وقد استحوذت هذه

الجريمة على ذهن هذا الرجل الذي كان اسمه «جولد»، وقبل دفن الجثة صنع قناعاً يحفظ ملامح الوجه نقلاً عن وجه الصبي، ومنذ ذلك الحين كرس ما يتاح له من وقت لذلك اللغز. وبعد عشرين عاماً بلغ سن التقاعد، وترك عمله، وشرع في قضاء كل لحظة منكباً على القضية. ولكن الأمور لم تسر على مايرام، فلم يحقق تقدماً، ولم يقترب خطوة واحدة من حل لغز الجريمة. ويصف المقال المنشور في «ترو ديتكتيف» كيف أنه يعلن الآن عن مكافأة قيمتها ألفا دولار لأي شخص يمكنه أن يقدم معلومات عن الصبي الصغير. كما يضمّ المقال كذلك صورة عتيقة منسوخة للرجل وهو يمسك بالقناع في يديه. والنظرة المرتسمة في عينيه تبدو ذاهلة للغاية، ومفعمة بالتوسّل، بحيث يكاد بلو يستطيع أن يحوّل عينيه عنها. ويوغل جولد الآن في العمر، وهو يخشى أن يدركه الموت قبل أن يحلّ القضية. ويؤثر هذا بعمق في نفس بلو. ولو كان ذلك مُستطاعاً لما تمّنى شيئاً أفضل من أن ينحّي ما يقوم به جانباً ويحاول مساعدة جولد، وهو يحدث نفسه بأنه ليس هناك الكثير من هذا الطراز من الرجال. ولو أنّ الصبي كان ابن جولد لكان هناك معنى لما صنع، أيّ الانتقام ببساطة ووضوح، ولكان في وسع أيّ شخص أن يتفهّم ذلك، ولكنّ الصبي كان غريباً تماماً بالنسبة إليه، وبالتالي فليس هناك شيء ذو طابع شخصي في الأمر، وما من إشارة إلى دافع خفيّ. وهذه الفكرة هي التي تؤثر تأثيراً بالغاً في نفس بلو. فجولد يرفض قبول عالم يستطيع فيه قاتل صبي صغير أن يلوذ بالفرار، حتّى ولو كان هذا القاتل في عداد الأموات الآن، وهو على استعداد للمخاطرة بحياته وسعادته لتقويم

هذا الوضع الخاطئ. ثم يفكر بلو في الصبي الصغير للحظة، محاولاً تخيل ما وقع حقاً، ومجرباً الشعور بما يتحتم أن يكون الصبي قد استشعره، ثم يتضح له أن القاتل لا بد أن يكون أحد أبوي الطفل، وإلا لكان قد تم الإبلاغ عن غيابه. ويحدث بلو نفسه بأن ذلك لا يؤدي إلا إلى جعل الأمور أكثر سوءاً. وفيما هو يشرع في الشعور بالغيثان، جبال هذه الفكرة، متفهماً تماماً الآن ما شعر به جولد حتماً طوال الوقت، أدرك أنه بدوره كان قبل ربع قرن صبياً صغيراً، وأنه لو عاش ذلك الصبي لكان في مثل عمر بلو الآن. وقد حدث بلو نفسه قائلاً: كان يمكن أن يحدث ذلك لي. وإذا لم يعرف ما عساه يصنع غير ذلك فقد قام بقص الصورة من المجلة، وألصقها على الجدار فوق فراشه.

هكذا تمضي الأيام الأولى. بلو يراقب بلاك، وأمور قليلة تحدث. يكتب بلاك، ويقراً، ويقوم بجولات قصيرة في الحي، ولا يبدو أنه يلاحظ وجود بلو. وأما فيما يتعلق ببلو فيحاول ألا يستسلم للقلق، ويفترض أن بلاك يراهن على الوقت، ويقبع مستكيناً بانتظار حلول اللحظة المناسبة. وإذا كان بلو يعمل منفرداً فإنه يدرك أنه لا يتوقع منه القيام بالمراقبة المستمرة. ففي نهاية المطاف ليس بمقدورك أن تراقب شخصاً، على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، ذلك أنه يتعين أن يكون هناك وقت لنومك، ولتناول طعامك، وتنظيف ملابسك، وما إلى ذلك. ولو أن وايت كان يريد مراقبة بلاك على مدار الساعة لكلف بذلك شخصين أو ثلاثة لا شخصاً واحداً. ولكن بلو بمفرده وليس بمقدوره القيام بما يتجاوز الممكن.

ومع ذلك فإنه يبدأ بالشعور بالقلق بالفعل، على الرغم مما يحدث به نفسه، وذلك أنه إذا كان يتعين مراقبة بلاك فإنه يبني على ذلك أنه لا بد من مراقبته في كل ساعة من كل يوم. وما هو أقل من المراقبة الدائمة لن يكون مراقبة على الإطلاق. ويجادل بلو بالقول إن الوقت لن يطول قبل أن تتغير الصورة بكاملها. لحظة واحدة من عدم الانتباه - نظرة عجلى إلى جانبه، توقف لهرش رأسه، أصغر تناوب - وبسرعة ينسلّ بلاك مبتعداً ويقرّف أي عمل فظيح يُعدُّ لارتكابه، ومع ذلك فإنه بالضرورة ستحلّ مثل هذه اللحظة، بل المئات والآلاف منها كل يوم. ويجد بلو أن ذلك مما يثير الانزعاج، وأياً كان عدد مرّات تقلبيه هذه المشكلة في ذهنه فإنه لا يقترب من حلّها، ولكن هذا ليس بالشيء الوحيد الذي يثير انزعاجه.

لم تتح لبلو، حتى الآن، فرصة تُذكر للجلوس في سكّون، وقد تركه هذا الكسل الجديد في شيء من الحيرة والضياع؛ فللمرة الأولى في حياته أعيد إلى ذاته من غير أن يكون هناك ما يتشبّث به، لا شيء مما يستعان به لتمييز لحظة عمّا تليها. ولم يُقدّر له قطّ أن يمنح الكثير من التفكير للعالم القابع بداخله، وعلى الرغم من أنه كان يعرف على الدوام أنه هناك، إلا أنه ظلّ كمّاً مجهولاً، لم يُكتشف، وبالتالي يغمره الظلام، حتى بالنسبة إليه. لقد تحرك بسرعة على امتداد سطح الأشياء، بقدر ما يسعه أن يتذكر، مركزاً انتباهه على هذه الأسطح وحدها لكي يستوعبها، محيطاً بأحدها، ثمّ منتقلاً إلى ما يليه، وقد سعد بالعالم دائماً على هذا النحو، ولم يطلب من الأشياء أكثر من أن تكون هناك. وقد كانت هناك، حتى الآن، ظاهرة على نحو متوهج

في ضوء النهار، ومُحدّثة إياه بوضوح عما هي عليه، ذواتها على نحو شديد الكمال ودونما شيء آخر بحيث أنه لم يضطر قط إلى التوقف أمامها أو النظر إليها مرتين. وأما الآن، ومع إبعاد العالم على نحو ما هو عليه عنه، على حين غرة، ومن غير وجود لشيء يراه إلا ظلّ غامض يُدعى بلاك، فإنه يجد نفسه غارقاً في التفكير في أمور لم تخطر له قط على بال من قبل، وقد بدأ ذلك بدوره في إزعاجه. وإذا كان التفكير، ربّما، كلمة أقوى مما ينبغي عند المنعطف الحالي، فإن لفظاً أكثر اعتدالاً بقليل - وهو التأمّل، على سبيل المثال - لن يكون بعيداً عن إصابة الهدف. ذلك أن مصدر هذه الكلمة في اللّغة الإنجليزيّة Speculate المستمدّ من اللفظة اللّاتينيّة Speculatus هو بمعنى مرآة أو زجاج مما تُرى الأشياء على صقاله. كما أنه في غمرة التجسّس على بلاك عبر الشّارع، يبدو وكأنّ بلو يتطلّع إلى مرآة، وبدلاً من مجرد مراقبة شخص آخر فإنه يجد أنه يراقب نفسه أيضاً. إن إيقاع الحياة بالنسبة إلى بلو يتمهّل للغاية وعلى نحو مفاجئ إلى حد بعيد بحيث أنه بمقدوره أن يرى الآن الأشياء التي لم ينتبه إليها في السّابق، ومنها على سبيل المثال المسار المنحني للضوء الذي يعبر الغرفة كلّ يوم، والطريقة التي تعكس الشّمس بها في ساعات معيّنة الجليد على الرّكن القصيّ للسقف في غرفته. نبض قلبه، صوت نفسه، ارتداد طرفه إليه - الآن يدرك بلو هذه الأحداث الصّغيرة، وأياً كانت محاولاته لتجاهلها فإنها تلحّ على ذهنه، كعبارة عبثيّة تعاد مراراً وتكراراً، وهو يعرف أنها لا يمكن أن تكون صحيحة، ولكنّ هذه العبارة تكتسب شيئاً فشيئاً معنى، على ما يبدو.

الآن يبدأ بلو بطرح نظريات معينة عن بلاك، عن وايت، عن المهمة التي عهد إليه بإنجازها. وهو يكتشف أن ابتكار القصص يمكن أن يكون متعة في حد ذاته، ويتجاوز كونه وسيلة تساعد في إزفاء الوقت. وهو يفكر في أن بلاك ووايت ربما كانا أخوين، وأن الأمر متعلق بمبلغ كبير، ميراث على سبيل المثال، أو رأس مال مستثمر في شراكة. وربما أراد وايت أن يبرهن على عدم كفاءة بلاك، وأن يدفع به إلى مؤسسة للعلاج النفسي والعقلي وسيطر على ثروة العائلة وحده، ولكن بلاك أكثر حذقاً من أن يقع في ذلك، وقد عمد إلى الاختباء، منتظراً أن تحفّ حدة الضغوط. وتجعل نظرية أخرى يطرحها بلو من وايت وبلاك خصمين يتسابقان نحو الهدف نفسه - حلّ معضلة علمية على سبيل المثال - ويرغب وايت في أن تتم مراقبة بلاك لكي يتيقن من أنه لم يسبقه إلى الهدف. وتذهب قصة أخرى إلى القول بأن وايت عميل منشق على مكتب التحقيقات الفيدرالي، أو منظمة تجسس من نوع ما، ربما كانت أجنبية، وقد ضرب ضربة لحسابه لإجراء تحقيق هامشي لم يصدّق عليه رؤساؤه بالضرورة، وبمقدوره من خلال الاستعانة بخدمات بلو للقيام بعمله بدلاً منه أن يبقى مراقبة بلاك سرّاً، وفي الوقت نفسه يواصل القيام بمهامه المعتادة. وتزايد قائمة هذه القصص يوماً بعد الآخر، فيعود بلو في بعض الأحيان بخاطره إلى قصة سابقة، ليضيف إضافات متميزة وجزئيات، وفي أوقات أخرى يستأنف الأمر بشيء جديد، مؤامرات للقتل على سبيل المثال، ومشروعات اختطاف للحصول على فديات كبيرة. ومع تتابع الأيام يدرك بلو أنه لا نهاية للقصص التي يستطيع

أن يروها، ذلك أن بلاك ليس إلا نوعاً من الفراغ، ثقباً في نسيج الأشياء، وقصة واحدة تستطيع أن تملأ هذا الثقب، شأنها شأن أية قصة أخرى.

غير أن بلو لا يلفظ الكلمات متصنعاً، وذلك لأنه يعرف أنه يود أن يعلم بالقصة الحقيقية أكثر من أي شيء آخر. ولكنه يعلم كذلك في هذه المرحلة المبكرة أن الصبر مطلوب، ومن هنا فإنه يبدأ شيئاً فشيئاً بالاستقرار، ومع كل يوم ينقضي يجد نفسه أكثر شعوراً بالارتياح حيال موقفه، وأكثر استسلاماً بقليل للحقيقة القائلة بأن أمامه مسيرة طويلة.

ومن سوء الطالع أن الأفكار التي تدور حول من ستغدو في المستقبل السيدة بلو تعكّر صفو سلاحه الذهني المتزايد، ذلك أن بلو يفتقدها أكثر من ذي قبل، ولكنه يشعر على نحو من الأنحاء كذلك بأن الأمور لن تكون كما كانت من قبل، وليس بمقدوره أن يحدّد مصدر هذا الشعور. ولكن بينما يشعر بالرّضا على نحو معقول عندما يقصر أفكاره على بلاك، على غرفته، على القضية التي يعمل فيها، فإنه عندما تدخل من ستصبح السيدة بلو مستقبلاً مجالاً وعيه، يتملّكه نوع من الذعر، وفجأة تنقلب سكينته إلى عذاب، ويشعر وكأنه يسقط من مكان مظلم يشبه الكهف، بلا أمل في العثور على طريق للخروج. وفي كل يوم تقريباً يحسّ بما يغويه بالتقاط سماعه الهاتف والاتصال بها، ظاناً أنه قد تؤدّي لحظة اتصال حقيقية إلى إبطال مفعول الرقية السحرية. ولكن الأيام تنقضي، ويظلّ من غير اتصال هاتفي بها. ويزعجه هذا بدوره لأنه لا يتذكّر وقتاً في حياته كان فيه

على مثل هذا القدر من التردّد في القيام بشيء يريده بمثل هذا الجلاء البالغ. ويقول محدثاً نفسه: إنني أتغير. وشيئاً فشيئاً أغدو مختلفاً عمّا كنت عليه. ويعيد إليه هذا التفسير بعض الطمأنينة، على الأقلّ لبعض الوقت، ولكنه في نهاية المطاف يتركه شاعراً بأنّه أكثر غرابة ممّا كان عليه. وتنقضي الأيام ويغدو من المتعذّر عليه الامتناع عن رؤية صور لمن ستغدو السيّدة بلو مستقبلاً في ذهنه، وخاصّة خلال الليل، وهنالك في ظلام غرفته وهوراقد على ظهره مفتوح العينين، يعيد تذكّر جسمها قطعة فأخرى، بادئاً بقدميها، فكاحليها، وشاقاً طريقه إلى أعلى ساقها، ثمّ على امتداد فخذيها، صاعداً من البطن إلى النّهدين، ثمّ ضارباً في سعادة وسط اللبونة، ينحدر إلى عجيزتها، ثمّ صعداً من جديد على ظهرها، ليجد أخيراً عنقها، ومنطلقاً إلى الأمام نحو محياها البدريّ الباسم. ترى ماذا تفعل الآن؟ هكذا يتساءل في بعض الأحيان. وماذا تعتقد بشأن هذا كلّ؟ لكنّه لم يستطع الوصول قطّ إلى إجابة مُرضية. وإذ يسهه أن يبتكر حشداً من القصص التي تناسب الحقائق المتعلّقة ببلاك، فإنّه حيال من ستغدو السيّدة بلو مستقبلاً لا يسود إلا الصّمت والحيرة والخواء.

يحلّ اليوم الذي يتعيّن أن يكتب فيه تقريره الأوّل. وهو يحظى بخبرة كبيرة في هذا النوع من الكتابات، ولم يُقدّر له أن يصادف عناء فيها قطّ. ويتمثّل أسلوبه في التمسك بالحقائق الخارجيّة، فيصف الأحداث وكأنّ كلّ كلمة تتطابق تماماً مع الشيء الذي تصفه ولا تدفع الموضوع إلى أي بعد إضافي، فالكلمات بالنسبة إليه شفافة، إنّها نوافذ كبيرة تقف بينه وبين العالم، وهي حتّى الآن لم تحجب عنه الرؤية



قط، بل إنها لا تبدو موجودة. آه، هناك لحظات يتسخ فيها الزجاج ويضطر بلو إلى تنظيفه في بقعة أو في أخرى، ولكن ما إن يجد الكلمة المناسبة حتى يغدو كل شيء واضحاً، وبالعودة إلى المواد التي سبق أن كتبها في كراسه، وبالتنقيب فيها لإنعاش ذاكرته، وللتشديد على الملاحظات ذات الأهمية يحاول أن يصوغ كلاً متماسكاً، متجاوزاً الإشارة الهامشية والتجميلية. وفي كل تقرير كتبه حتى الآن تحظى الأعمال بالأولوية على التفسيرات. على سبيل المثال سار «الهدف» من كولومبوس سيركل إلى كارنيجي هول. ما من إشارة إلى الطقس. وما من ذكر لحركة المرور، وما من محاولة لتخمين ما يفكر فيه الهدف. ويقتصر التقرير على الحقائق المعروفة التي يمكن التحقق من دقتها، ولا يحاول المضي وراء ما يتجاوز هذا الحد.

غير أنه في مواجهة حقائق قضية بلاك يزداد إدراك بلو لورطته. هناك بالطبع الكراسة، ولكنه عندما يتصفحها ليرى ما كتبه فإنه يشعر بخيبة الأمل إذ يجد مثل هذه الندرة في التفاصيل، ويبدو الأمر كما لو أن كلماته، بدلاً من أن ترسم الحقائق وتجعلها تبرز في العالم بصورة ملموسة، قد دفعتها للاختفاء. ولم يحدث هذا لبلو من قبل. وينظر عبر الشارع فيرى بلاك جالساً إلى مكتبه كالعادة. ويتطلع بدوره من النافذة في تلك اللحظة، ويخطر ببال بلو فجأة أنه ليس في وسعه بعد الآن الاعتماد على الإجراءات القديمة. مداخل التحقيق، العمل التمهيدي، روتين التحري - ما من شيء من هذا له أهمية بعد الآن. ولكن عندئذ، وعندما يحاول تخيل ما سيحل محل هذه الأشياء، فإنه يضل الطريق. وعند هذا المنعطف فإن بلو لا يمكنه إلا أن يحدس ما ليست عليه القضية. غير أن تحديد ما هي عليه يتجاوز قدرته.

يعدّ بلو آتته النّاسخة على المائدة، ويتأمّل باحثاً عن أفكار، محاولاً أن يكرّس نفسه للمهمّة التي يعكف على إنجازها. وهو يعتقد أنّ صورة صادقة للأسبوع الأخير قد تشمل القصص المختلفة التي اختلقها لنفسه عن بلاك. وبوجود القليل غير ذلك ممّا يذكر في التقرير فإنّ هذه الانطلاقات إلى عالم الإيهام ستعطي على الأقلّ بعض النّكهة لما حدث، ولكن بلو يجبر نفسه على تنحية هذا جانباً، مدركاً أنّ هذه القصص لا علاقة لها حقاً ببلاك. ويقول إنّ هذه ليست، في نهاية المطاف، قصّة حياتي، ويفترض أن أكتب عنه، لا عن نفسي.

ومع ذلك فإنّ هذا الاتجاه يظلّ كإغواء لا يليق بالمقام، وعلى بلو أن يجاهد نفسه لبعض الوقت قبل أن يبعده، وهو يعود إلى البداية ويشقّ طريقه عبر القضيّة خطوة فآخري، مصمّماً على القيام بما طلب منه تماماً، ويقوم بكتابة التقرير بمزيد من العناء، بالأسلوب القديم، معالجاً كلّ جزئية بعناية بالغة وبدقّة متزايدة، بحيث تنقضي عدّة ساعات قبل أن يُفلح في الانتهاء من التقرير. وفيما هو يراجع النتائج يجد نفسه مضطراً للاعتراف بأنّ كلّ شيء يبدو دقيقاً. ولكن لماذا يشعر بعدم الرضا، على هذا النحو، وبالاضطراب البالغ حيال ما كتبه؟ ويقول لنفسه: إنّ ما حدث ليس هو حقّاً ما وقع. ولأوّل مرّة في تجربته في كتابة التقارير، يكتشف أنّ الكلمات لا تؤدّي وظيفتها بالضرورة، وأنّ من الممكن أن تؤدّي إلى إضفاء الغموض على الأشياء التي تحاول قولها. ويتطلّع بلو في أرجاء الغرفة، ويركّز انتباهه على الأشياء المختلفة، أحدها بعد الآخر. إنّهُ يرى المصباح ويقول لنفسه: مصباح. ويرى الفراش ويقول لنفسه: فراش. ويشاهد الكرّاسة

ويقول لنفسه: كراسة. ويفكر في أنه لن يجديه شيئاً أن يدعو المصباح فراشاً أو يدعو الفراش مصباحاً. لا، فهذه الكلمات تتناسب بشكل محكم مع الأشياء التي تعبر عنها، وفي اللحظة التي ينطقها بلو فيها فإنه يشعر باغتراب عميق، وكأنه أثبت لتوه وجود العالم، ثم ينظر إلى الخارج، عبر الطريق، ويرى نافذة بلاك. إنها مظلمة الآن، وبلاك نائم. ويقول بلو لنفسه إن تلك هي المشكلة، أي محاولة العثور على قليل من الشجاعة. ذلك ولا شيء غيره. إنه هناك، ولكن رؤيته مستحيلة، وحتى عندما أراه فإن الأمر يبدو وكأن الأضواء قد أطفئت.

يودع تقريره في مغلف ويمضي إلى الخارج، ويسير إلى الركن، ويضعه في صندوق للبريد، ويقول لنفسه قد لا أكون أكثر الناس ذكاء في العالم، ولكنني أبذل قصارى جهدي، أبذل قصارى جهدي.

وبعد ذلك، يبدأ الثلج بالذوبان. وفي اليوم التالي تتألق الشمس مشرقة وتغرّد مجموعات من القُبرات على أغصان الأشجار، ويستطيع بلو سماع الصوت البهيج الصادر عن تساقط قطرات الماء من حافة السقف والأغصان وأعمدة المصابيح. ولا يبدو الربيع بعيداً على نحو مفاجئ، ويقول لنفسه: إن هي إلا أسابيع قليلة ويكون كل صباح شبيهاً بهذا الصباح.

ينتهد بلاك فرصة تحسن الطقس للتجول إلى مدى أبعد من ذي قبل، ويتبعه بلو، ويساوره شعور بالارتياح لعودته إلى الحركة من جديد، ويواصل بلاك سيره. ويأمل بلو بأن لا تنتهي الرحلة قبل أن تتاح له الفرصة للتخلص من التشنجات التي أصابته لطول الجلوس في موضعه. وكما في وسع المرء أن يتصور فإنه كان على الدوام ممن

يواظبون على السير، وقد أفعمه بالسعادة أن يشعر بقدميه وهما تنطلقان في نسيم الصّباح. وأحسّ بلو وهما ينطلقان في شوارع بروكلين هايتس الضيقة بما يشجعه إذ رأى بلاك يواصل زيادة المسافة التي تفصله عن البيت، ولكنّ حالته المزاجية تنقلب فجأة إلى التشاؤم إذ يشرع بلاك في صعود الدّرج المفضي إلى عمّر المشاة عبر جسر بروكلين، ويخطر ببال بلو أنّ بلاك يعتمز القفز من فوق الجسر، ويحدّث نفسه بأنّ مثل هذه الأمور تحدث إذ يمضي رجل إلى قمة الجسر، ويلقي نظرة أخيرة على الدّنيا من خلال الرّيح والسّحب، ثمّ يقفز إلى الماء، وتتحطّم عظامه لدى الارتطام ويتهشم جسمه. ويقمع بلو الصّورة في ذهنه، ويحدّث نفسه بأنّ عليه التزام اليقظة، ويقرّر أنّه إذا ما بدأ أيّ شيء في الحدوث فإنّه سيتخلّى عن دوره كمراقب محايد ويتدخّل في الأمر، فهو لا يريد أن يرى بلاك وقد لقي حتفه - ليس بعدُ على الأقلّ.

كانت عدّة سنوات قد انقضت منذ عبر جسر بروكلين سيراً على الأقدام. وكانت المرّة الأخيرة مع أبيه عندما كان صبيّاً، والآن ها هي ذكرى ذلك اليوم تعاوده، ويمقدوره أن يرى نفسه ممسكاً بيد أبيه يسير إلى جواره، وفيما هو يسمع حركة المرور تنطلق على امتداد الجسر الحديدي أسفلهما، يمكنه أن يتذكّر قوله لأبيه إنّ الضّجة تشبه طنين سرب هائل من النحل. ها هو ذا تمثال الحرّية إلى يساره، وإلى يمينه منهاتن، وتبدو المباني عالية للغاية للغاية في شمس الصّباح، إلى حدّ أنّها تلوح مختلفة. لقد كان أبوه رجلاً عظيماً حقّاً في إمامه بالحقائق، وقد أبلغ بلو بقصص كلّ المباني الصرحية وناطحات السّحاب، بقدر هائل من التفاصيل يشمل المهندسين المعماريين والتواريخ والملابسات

السياسيّة، وكيف أنّ جسر بروكلين كان ذات يوم أعلى بناء في أمريكا. وقد ولد العجوز في العام الذي تمّ فيه بناء الجسر، وكان هناك على الدوام ذلك الارتباط في ذهن بلو، وكأثماً كان الجسر على نحو من الأنحاء نصباً تذكاريّاً لأبيه. وقد أحبّ القصّة التي رويت له في ذلك اليوم، فيما كان هو وبلو الأب ينطلقان عائدين إلى الدار، على الكتل الخشبيّة التي يسير عليها الآن، وللسبب عينه لم ينسها قطّ. فلم ينس كيف أنّ جون روبلينج، مصمّم الجسر، قد تهشمت ساقه بين دعائم الجسر وزورق سريع بعد أيام من انتهاء خططه، ومات بتأثير الفرغرينة في أقلّ من ثلاثة أسابيع. وقد قال والد بلو إنّ لم يكن ليلقى حتفه، ولكنّ العلاج الوحيد الذي قبله كان العلاج المائيّ العلمي، ولم يكن هذا العلاج مجديّاً. وقد أذهل بلو أنّ الرجل الذي أنفق حياته في بناء الجسور فوق امتدادات شاسعة من الماء، حتّى لا يتلّ الناس، كان يعتقد أنّ الدواء الحقيقيّ يتمثّل في أن يغمس المرء جسمه في الماء. وبعد وفاة جون روبلينج خلفه ابنه واشنطن في منصب كبير المهندسين، وتلك كانت قصّة غريبة أخرى. كان واشنطن روبلينج في الحادية والثلاثين فحسب من العمر وقتذاك، ولم تكن له خبرة في أعمال البناء، باستثناء الجسور الخشبيّة التي صمّمها خلال الحرب الأهليّة، ولكنّه برهن أنّه يفوق أباه في عبقرية. غير أنّه لم يمضِ وقت طويل على بدء بناء جسر بروكلين حتّى احتجز لعدّة ساعات خلال حريق شبّ في إحدى الحجرات المانعة للماء أثناء التشييد تحت الماء، وخرج منها بحالة من حالات الالتواء، هي عبارة عن مرض تتجمّع في إطاره فقاعات النيتروجين في مجرى الدّم. وإذ شارف على الهلاك بسبب هذه الحالة فقد ظلّ بعد ذلك مريضاً عاجزاً

عن مغادرة الغرفة العلوية في الدار التي أقامها هو وزوجته في بروكلين هايتس. وهناك جلس واشنطن روبلينج كل يوم على امتداد سنوات طويلة، عاكفاً على مراقبة التقدم في إنشاء الجسر بالاستعانة بتلسكوب، مرسلًا زوجته إلى أسفل كل صباح حاملة تعليماته، ورأساً صوراً ملونه دقيقة إلى العمال الأجانب الذين لا يتحدثون الإنجليزية، حتى يفهموا ما يتعين عليهم القيام به، بعد ذلك، والأمر المذهل هو أن الجسر بأكمله كان مرسوماً في ذهنه حرفياً، فقد حفظ كل قطعة منه عن ظهر قلب، وصولاً إلى أدق قطع الصلب والحجر. وعلى الرغم من أن واشنطن روبلينج لم يضع قدمه على الجسر قط فإنه كان ماثلاً بكامله في ذهنه، وكأنه نما مع نهاية كل هذه السنين ملتصقاً بجسمه.

الآن يعكف بلو على التفكير في هذا وهو يشق طريقه عبر النهر، مراقباً بلاك المنطلق أمامه، ومتذكراً أباه وطفولته التي أمضاها في جريفتسند. فقد كان العجوز شرطياً، وقد عمل في وقت لاحق تحريكاً في المنطقة السابعة والسبعين، ويفكر بلو في أن الحياة كان يمكن أن تكون هائثة لولا قضية روسو والطلقة التي استقرت في مخ أبيه في ١٩٢٧ م ويقول لنفسه إنه ذعر فجأة للوقت الذي انقضى وراح يتساءل عما إذا كان هناك فردوس، وإذا كان الأمر كذلك عما إذا كان سيقدّر له أن يرى أباه بعد أن يموت. وهو يتذكر قصة من إحدى المجلات التي لا حصر لها وقد قرأها هذا الأسبوع، وهي مجلة شهرية جديدة اسمها «سترينجر دان فيكشن»، ويبدو أنها تنبع على نحو ما من كل الأفكار الأخرى التي خطرت بباله. وهو يتذكر أنه في مكان

ما من جبال الألب الفرنسية ضلّ رجل طريقه، خلال قيامه بالتزلج قبل خمس وعشرين سنة، وابتلعه تيهور، ولم يكتشف جثمانه قط. وكبر ابنه الذي كان صبيّاً في ذلك الوقت، وأصبح لاعب تزلج. وذات يوم من العام الماضي، مضى للتزلج، غير بعيد عن الموضع الذي ضلّ فيه أبوه، على الرغم من أنه لم يكن يعرف هذا. ومن خلال الثقلب الدقيق والمتابع للثلج عبر عشرات السنوات منذ وفاة أبيه، بدت المنطقة الآن مختلفة تماماً عما كانت عليه. ووحيداً هناك في الجبال، على بعد أميال من أيّ كائن بشري، ألقى الابن نفسه أمام جثة في الثلج، سليمة تماماً وكأنها حُفظت في حالة حركة أصابها التوقف. وغنيّ عن البيان أنّ الشاب قد توقّف لفحصها، وإذا انحنى وراح يتطلّع إلى وجه الجثة، تلقى الانطباع الواضح والرّهيب بأنّه يتطلّع إلى نفسه. وكما يوضح المقال فإنّ الرّعدة قد أصابته، وأخذ يتفقد الجثة عن كئيب، وهي على ما كانت عليه في الثلج، كشخص على الجانب الآخر من نافذة سميكة، وأدرك أنها جثة أبيه. وكان الميت قد توفي وهو في مُقتبل عمره، بل وفي سنّ تقلّ عن سنّ ابنه الآن، وكان هناك شيء رهيب يحوم حول الجثة، بشكل عام. وساور بلو الشّعور بأنّه شيء غريب ورهيب أن يكون المرء أكبر سنّاً من أبيه، وراح يكافح لردّ الدمع وهو يقرأ المقال. والآن، وهو يقترب من نهاية الجسر، عادت إليه هذه المشاعر نفسها، وتمنّى من الله لو أنّ أباه كان يمكن أن يكون هناك يعبر الجسر ويروي له القصص. وإذا يدرك فجأة إلى أين يمضي به ذهنه فإنّه يتساءل عن السرّ في أنّه يتحوّل إلى العاطفيّة الشديدة على هذا النحو، وأنّ كلّ هذه الخواطر تواصل الدوران في ذهنه، بينما لم تخطر له قطّ على امتداد سنوات طويلة،

ويفكر في أن هذا كله جزء منه، ويحس بالخرج إزاء نفسه لأنه على هذه الشاكلة. ذلك هو ما يحدث عندما لا يكون هناك من تحدّثه.

يصل إلى النهاية، ويرى أنه كان مخطئاً فيما يتعلّق ببلاك. فلن تكون هناك حوادث انتحار اليوم، ولن يقفز أحد من الجسر، ولن تحدث قفزات إلى المجهول. فهذا هو ذا رجّله يمضي مرحاً وبعيداً عن الاكتراث، كما يمكن لأيّ شخص أن يكون هابطاً الدّرج، ومنطلقاً على امتداد الشّارع الذي يتقوّس حول قاعة المدينة، ثمّ ينطلق شمالاً على امتداد شارع سنتر مروراً بدار المحمكة وغيرها من المباني البلديّة، ولا يقلل من سرعة انطلاقه، مواصلاً سيره في الحيّ الصّيني وما وراءه. وتستمرّ هذه الجولات عدّة ساعات، ولا يشعر بلو عند أيّ موضع بأنّ بلاك يمضي تحقيقاً لأيّ هدف، وإنّما هو يبدو بالأحرى كمن يستمتع بالهواء الطلق، سائراً لمجرّد متعة السّير على قدميه، ويعترف بلو لنفسه للمرّة الأولى والرّحلة مستمرة، بأنّه قد بدأ يشعر بميل إلى بلاك.

وعند أحد المواضع يدخل بلاك مكتبة، فيحذو بلو حذوه. وهناك يتصفّح بلاك الكتب لمدّة نصف ساعة أو نحو ذلك، مراكباً كومة صغيرة من الكتب في غمار ذلك، ويتصفّح بلو الكتب بدوره إذ لا يجد ما يفعله خيراً من ذلك، محاولاً في الوقت نفسه أن يُبقي وجهه محتجباً عن بلاك. وتعطيه النظرات المختلصة التي تتاح له عندما لا يبدو بلاك ناظراً ناحيته، الشّعور بأنّه قد رأى بلاك من قبل، ولكنّه لا يستطيع تذكّر أين كان ذلك. ويقول لنفسه إنّ هناك شيئاً فيما يتعلّق بالعين، ولكنّ ذلك هو كلّ ما يستطيع الوصول إليه، إذ لا يرغب في أن



يلفت الأنظار إليه، كما أنه ليس متيقناً حقاً من أن الأمر على نحو ما يظنّ.

وبعد لحظة يصادف بلو نسخة من كتاب «والدن» لمؤلفه هنري ديثيد ثورو، وإذا يتصفّحه فإنه يدهش لاكتشاف أن اسم الناشر هو بلاك. «نشر لنادي الكلاسكيات لدى مؤسسة والتر جي. بلاك، حقوق النشر محفوظة ١٩٤٢». ويذهل بلو للحظة إزاء هذه المصادفة، ويظنّ أنه ربّما كانت فيها رسالة موجّهة إليه، لمحة من المعنى يمكن أن تحدث فرقاً، ولكنه إذ يفيق من هذه الصدمة يبدأ بالتفكير في أن الأمر ليس كذلك، ويقول محدثاً نفسه إنه اسم منتشر للغاية، وفضلاً عن ذلك فإنه يعرف على وجه التأكيد أن الاسم الأوّل لبلاك ليس والتر. ويضيف: هل يمكن مع ذلك أن يكون من أقربائه، أو ربّما كان أباه، ويقرّر بلو، وهو ما يزال يدير هذه النقطة الأخيرة في ذهنه، أن يشتري الكتاب. فإذا لم يكن بمقدوره قراءة ما يكتبه بلاك فإنّ بوسعه على الأقل أن يقرأ ما يقرأه. ويقول لنفسه إنّ احتمال ذلك بعيد، ولكنّ من يدري ما إذا كان ذلك لن يؤدّي إلى إعطائه لمحة عمّا يعترم الرّجل القيام به.

حتى الآن، كلّ شيء يمضي على مايرام. يدفع بلاك قيمة كتبه، ويدفع بلو قيمة كتبه، وتستمرّ المسيرة. ويواصل بلو البحث عن نموذج للسّلوك، عن مفتاح للتّحقيق يصادفه في طريقه، ويفضي به إلى الكشف عن سرّ بلاك. ولكنّ بلو أكثر صراحة من أن يخدع نفسه، وهو يعرف أنه ما من تناغم أو منطق يمكن قراءته في أيّ شيء حدث حتى الآن. وللحظة لا يثبّط ذلك من همته. وفي حقيقة الأمر فإنّه

يدرك، فيما هو يبحث متعمقاً في أغوار نفسه، أن الأمر قد زاد من قوته إلى حد بعيد، فهناك شيء جميل في وجود المرء في الظلام، حسبما يكتشف بلو ذلك، شيء مثير في عدم معرفة ما سوف يحدث عقب ذلك. ويحدث نفسه قائلاً إن ذلك يبيحك متنبهاً، وليس هناك ضير في هذا. أليس كذلك؟ تظل متيقظاً إلى أبعد الحدود، وواقفاً على أطراف أصابعك، ومستعداً للقيام بأي شيء.

بعد لحظات قليلة من ورود هذه الخاطرة على بال بلو، يعرض له تطوّر جديد في النهاية، وتنطف القضية انعطافها الأول. ويجتاز بلاك ناصية أحد الشوارع في قلب المدينة، ويسير منتصف المسافة المقابلة لكنتلة من المباني، ويتردد قليلاً وكأنه يبحث عن عنوان بعينه، ويتراجع عدّة خطوات ويواصل التحرك، وبعد ثوانٍ قليلة يدخل مطعماً، ويحذو بلو حذوه من غير أن يكثر كثيراً، فهذا هو وقت تناول الطعام على أي حال، ولا بدّ للناس من أن يأكلوا، ولكنه لا يغيب عنه أن تردّد بلاك يشير، فيما يبدو، إلى أنه لم يسبق قط أن دخل هذا المكان، الأمر الذي قد يعني بدوره أن بلاك مرتبط بموعد. ويبدو المطعم مكاناً معتماً في الداخل، مزدحماً بلا إفراط، مع وجود مجموعة من الناس ملتفة حول المشرب الموجود في المقدمة، والكثير من الثرثرة، وأصوات ارتطام أدوات المائدة والأطباق في الخلفية. ويبدو من النوع الرفيع الطراز، فيما يلاحظ بلو، وقد كسيت جدرانها بالزخارف الخشبية، وغُطيت موائده بأغطية بيضاء اللون، ويقرّر أن يجعل ما سيدفعه عقب تناول الطعام في أدنى الحدود التي يستطيعها. وتبدو الموائد متوافرة، وينظر بلو إلى تمكّنه من احتلال مائدة يستطيع

منها أن يرقب بلاك على أنه مؤشر يدعو للتفاؤل، والمائدة ليست قريبة على نحو بارز، ولكنها في الوقت نفسه ليست بعيدة بحيث يعجز عن مراقبة ما يفعله بلاك، ويسدي إليه بلاك جميلاً إذ يطلب نسختين من قائمة الطعام، وبعد ثلاث أو أربع دقائق يتهلل مبتسماً، عندما تمضي امرأة عبر القاعة مقربة من مائدته، وتقبله على وجنتيه قبل أن تجلس ويحدث بلو نفسه بأن المرأة ليست بالسّيئة، وهي أكثر نحافة من أن تلائم ذوقه، ولكنها ليست سيئة على الإطلاق. ثمَّ يخطر بباله أن الجانب المثير للاهتمام يبدأ الآن.

ومن سوء الحظّ أن المرأة تدير ظهرها ناحية بلو، ولذا فإنه لا يستطيع مراقبة ملاحظها مع انطلاقهما في تناول وجبتهما. وفيما هو يجلس هناك متناولاً شريحة اللحم المعدّة بطريقة سالزبوري يذهب إلى أن تخمينه الأوّل ربّما كان في موضعه، وأنّ القضية هي في نهاية المطاف قضية زواج. ويتصوّر بلو بالفعل نوعيات الأشياء التي سيكتبها في تقريره التالي، ويدخل السرور على نفسه أن يتأمّل العبارات التي سيستخدمها في وصف ما يراه الآن. وهو يعرف أنه من خلال وجود شخص آخر في القضية فإنّ هناك قرارات معيّنة ينبغي اتّخاذها. فعلى سبيل المثال هل يتعيّن عليه الالتزام بمتابعة مراقبة بلاك أم تحويل انتباهه إلى المرأة؟ ربّما كان من شأن هذا أن يعجّل بمسيرة الأمور قليلاً، ولكنه قد يعني في الوقت نفسه أن بلاك ستتاح له الفرصة للإفلات من مراقبته، ربّما إلى الأبد. وبتعبير آخر، هل اللقاء مع المرأة ستار من الدخان يُستخدم لإخفاء الأمور أم أنه شيء حقيقي؟ أهو جزء من القضية أم لا؟ أهو أقرب إلى الحقيقة الجوهرية

أم العارضة؟ ويفكر بلو في هذه الأسئلة لبعض الوقت، ويخلص إلى أن الوقت ما يزال مبكراً لتقديم إجابات. ويقول لنفسه: نعم قد يكون الردّ هذا الوجه أو ذاك.

في حوالي منتصف الوقت الذي سيستغرقه تناول الوجبة يبدو أن الأشياء تشقّ طريقها عبر منعطف يقود إلى الأسوأ، إذ يرصد بلو ارتسام حزن عميق على محياّ بلاك، وقبل أن يتحسّب لذلك تبدو المرأة وكأنّها تبكي، أو هذا هو على الأقلّ ما يستطيع فهمه من التغيّر المفاجئ في وضع جسمها: فقد انحنت كتفاها، ومال رأسها إلى الأمام، وربّما حجبت وجهها بكفيّها، وبدت ارتجافة خفيفة على امتداد ظهرها، جادل بلو بأنّ تلك قد تكون نوبة ضحك، ولكنّ في هذه الحالة لماذا يبدو بلاك بائساً للغاية؟ إنّه يبدو كما لو أنّ الأرض قد انشقت من تحته، وبعد لحظة تشيخ المرأة بوجهها عن بلاك، وتتاح لبلورؤية ملمح جانبي لوجهها. إنها الدموع ولاشكّ، هكذا يحدث نفسه فيما هو يراها تحفّف عينيها باستخدام منديل المائدة، ويلمح أثراً لمادة تجميل الجفون على خدّها. وتنهض فجأة، وتمضي بعيداً في اتجاه غرفة الزينة الخاصّة بالسيدات. ومن جديد تتاح لبلورؤية بلاك دونما حاجز بينهما، وعندما يرى ذلك الحزن الذي يكسو وجهه ونظرة القنوط تلك في عينيه، فإنّه يوشك على البدء بالشعور بالأسف له. ينظر بلاك نظرة عجلى باتجاه بلو، ولكن يبدو جلياً أنّه لا يرى شيئاً، وبعد لحظة يدفن وجهه في يديه. ويحاول بلو تخمين ما يجري، ولكنّ من المستحيل معرفته، ويحدّث نفسه بأنّه يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى بينهما، فالأمر يوحى بأنّ شيئاً قد وصل إلى نهايته، ومع ذلك، ورغم هذا كلّّه، فإنّه يمكن أن يكون شجاراً عابراً.

تعود المرأة إلى المائدة ويبدو أنها أحسن قليلاً، ويبقيان كلاهما هناك دقائق قليلة من غير أن يتفوها بحرف، ومن غير أن تمتد أيديهما إلى الطعام. ويتنهد بلاك مرة أو مرتين، متطلعاً إلى البعيد، وأخيراً يطلب ورقة الحساب، ويقوم بلو بالشيء نفسه، ثم يتبعهما وهما في طريقهما للخروج من المطعم، ويلاحظ أن بلاك يضع يده على مرفقها، ولكن ربما كان ذلك مجرد حركة لإرادية، كما قال لنفسه، وقد لا يعني شيئاً. ويسيران في الشارع صامتين، وعند الناصية يستوقف بلاك سيارة، ويفتح الباب للمرأة، وقبل أن تستقلها يلمس برفق بالبعن وجنتها، فتمنحه بالمقابل ابتسامة صغيرة تستجمع لها شجاعته، ولكنهما مع ذلك لا يتفوهان بكلمة، ثم تجلس في المقعد الخلفي، ويغلق بلاك الباب وتمضي سيارة الأجرة مبتعدة.

يتجول بلاك دقائق معدودات متوقفاً قليلاً أمام واجهة وكالة سفريات، ليمعن النظر في ملصق عن الجبال البيضاء، ثم يستقل سيارة أجرة. ويوقف بلو من جديد، ويفلح في العثور على سيارة أجرة أخرى، بعد ثوانٍ فحسب، ويبلغ السائق بأن يتبع سيارة بلاك، ثم يستقر في المقعد الخلفي، فيما السيارتان الصفراوان تشقان طريقهما على مهل عبر حركة مرور قلب المدينة، وعبر جسر بروكلين، وأخيراً إلى شارع أورينج، وتصدم أجرة السيارة بلو، ويركل نفسه في ذهنه لعدم اللحاق بالمرأة بدلاً مما فعل؛ إذ كان عليه أن يعلم أن بلاك في طريقه إلى البيت.

وتتغير حالته المزاجية إلى الإشراف عندما يدخل المبنى فيجد رسالة في صندوق بريده، ويحدث نفسه بأن ذلك لا يمكن إلا أن يعني شيئاً

واحدًا، ويأتي تخمينه يقيناً في محله، ففيما هو يمضي إلى أعلى يفتح المغلف، وها هو ذا الشيك الأول، أمر صرف مالي بريدي بالقيمة المتفق عليها مع وايت بالضبط. غير أنه مما يثير الحيرة قليلاً أن أمر الدفع هو لحامله. لم لا يستخدم وايت شيكاً شخصياً؟ ويؤدي هذا ببلو إلى التلاعب بالفكرة القائلة بأن وايت هو في نهاية المطاف عميل منشق، حريص على إخفاء آثاره، وبالتالي يتأكد من أنه لن يكون هناك سجلٌ لمدفوعاته. وينزع بلو قبعته ومعطفه، ويتمدد على الفراش، ويدرك أنه يشعر بخيبة الأمل قليلاً لعدم تلقيه تعليقاً على التقرير. وفي ضوء ما بذله من جهد لجعله في أفضل صياغة فإن كلمة تشجيع كان من شأنها أن تكون موضع ترحيب من جانبه. والحقيقة المتمثلة في إرسال المال تعني أن وايت ليس مستاء. ومع ذلك فإن الصمت ليس رداً يأتي علس سبيل المكافأة، أياً كان معناه. ويقول بلو لنفسه إنه سيتعين عليه الاعتياد على أمرٍ هو هذا المسار الذي يمضي فيه.

وتنقضي الأيام، ومن جديد تستقرّ الأمور على أبسط المسارات المألوفة. يكتب بلاك ويقراً ويتسوق في الحيّ ويتدرد على مكتب البريد ويقوم بنزهة عابرة. ولا تعاود المرأة الظهور، ولا يقوم بلاك بجولات أخرى في مناهن. ويبدأ بلو بالتفكير في أنه في أيّ يوم سيتلقى رسالة تبّله بطيِّ ملفّ القضية، ويجادل بأن المرأة مضت إلى غير رجعة، وأن ذلك يمكن أن يكون نهاية الأمر، ولكن ما من شيء من هذا النوع يحدث. ولا يجتذب وصف بلو المسهب للمشهد في المطعم أية استجابة خاصة من وايت، وأسبوعاً وراء الآخر تواصل الشيكات

الوصول في موعدها. ويقول لنفسه: كفانا حباً، فالمرأة لم تعر شيئاً قط، وإنما كانت أمراً طارئاً.

إن أفضل وصف لحالة بلو الذهنية في هذه المرحلة المبكرة، هو أنها حالة قوامها الحيرة والصراع. فهناك لحظات يشعر فيها بالاتساق التام مع بلاك، وبالتوحد على نحو طبيعي للغاية معه بحيث لا يحتاج إلا إلى إلقاء نظرة على نفسه ليتوقع ما سيقوم به بلاك أو يعرف متى سيقى في الغرفة، ومتى سيخرج. وتمضي أيام بأسرها لا يكثر خلالها بالنظر إلى النافذة أو تتبّع بلاك إلى الشارع، بل إنه يسمح لنفسه بين الحين والآخر بالقيام بجولات بمفرده، وهو على تمام العلم بأنه خلال الوقت الذي يقضيه في الجولة لن يكون بلاك قد تحرك من موضعه. وستظل معرفته بهذا شيئاً أقرب إلى اللغز بالنسبة إليه، ولكن الحقيقة أن الصواب يظل حليفه دائماً، وعندما يغلبه الشعور فإنه يتجاوز كل شك وتردد. ومن ناحية أخرى فإن اللحظات ليست كلها على هذه الشاكلة، فهناك أوقات يشعر فيها بأنه بعيد كل البعد عن بلاك، ومعزول عنه بطريقة صارخة للغاية ومطلقة تماماً بحيث يبدأ بفقدان الشعور بهويته. فتغمره الوحدة، وتطبق عليه، ومعها يأتي فزع أسوأ من أي شيء قدّر له أن يعرفه. ويجيرُه أنه ينتقل بسرعة بالغة من حالة إلى أخرى، ولوقت طويل ينتقل جيئة وذهاباً بين الحالات المتطرفة، من غير أن يعرف أيها صادق وأيها زائف.

وبعد فترة سيئة على نحو خاصّ تمتد أياماً، يبدأ الحنين إلى رفقة ما، فيجلس ويكتب رسالة مطوّلة إلى براون، محدّداً الخطوط العريضة للقضية وطالباً النصّح منه. وقد تقاعد براون في فلوريدا حيث يمضي

معظم وقته في الصَّيد، ويعرف بلو أن وقتاً طويلاً سيمرّ قبل أن يتلقّى رداً. ومع ذلك ففي اليوم الذي بعث فيه بالرسالة عبر البريد يبدأ بالتطلع إلى تلقي ردّ بتعجّل سرعان ما ينمو إلى حدّ الاستحواذ. وفي كلّ صباح، وقبل حوالي الساعة من موعد توزيع البريد، يغرس نفسه قرب النافذة، ويرقب وصول ساعي البريد عبر المنعطف، وظهوره للعيان، معلقاً كلّ الأمل على ما سيقوله براون له. وليس مؤكداً ذلك الذي يتوقّعه من هذه الرسالة، بل إنّ بلولا يطرح السؤال، ولكن من المؤكّد أنّه شيء هائل، كلمات مضيئة وفدّة، ستعيده إلى دنيا الأحياء.

مع انقضاء الأيام والأسابيع دوغما رسالة من براون، ينمو شعور بلو بخيبة الأمل، متحوّلاً إلى يأس موجه ولاعقلاني. ولكنّ ذلك ليس شيئاً إذا ما قورن بما سيُشعر به عندما تصل الرسالة، في نهاية المطاف، ذلك أنّ براون لا يكلف نفسه عناء تناول ما كتبه بلو، فالرسالة تبدأ بالقول: إنّهُ لأمر طيّب أن أتلقّى رسالة منك، وأمر جيد أن أعلم بأنك تعمل بهذا القدر من الاجتهاد. ويبدو أنّها قضية مثيرة للاهتمام. ومع ذلك فإنني لا أستطيع القول بأنني أفتقد أيّاً من هذه القضايا. الحياة هنا مرضية بالنسبة إليّ، إذ أنهض مبكراً، وأقوم بصيد السمك، وأقضي بعض الوقت مع زوجتي، وأقرأ قليلاً، وأنعس في الشمس، وليس لديّ ما أشكو منه. والشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو السبب في أنني لم أنتقل إلى هنا منذ سنوات.

وتمضي الرسالة على هذا النحو على امتداد عدّة صفحات، من غير أن تتطرّق لمرة واحدة إلى عذابات بلو ومخاوفه. ويشعر بلو بأنّ الرّجل



الذي كان يوماً بمشابهة أبيه قد تخلّى عنه، وعندما يفرغ من قراءة الرسالة يشعر بالخواء، وبأنه لم يعد هناك شيء بداخله، ويحدّث نفسه قائلاً: إنني الآن وحدي، ولم يعد هناك من أتجه إليه. وتعقب هذا ساعات من القنوط والرتاء للذات، مع تفكير بلومرة أو مرتين في أنه ربما سيكون أحسن حالاً في موته. ولكنه يشقّ طريقه بالفعل خارجاً من الكآبة، ذلك أن بلو شخصية صلبة ككل، وأقلّ استسلاماً للخواطر السوداء من معظم الناس، وإذا كانت هناك لحظات يشعر فيها بأن العالم مكان فاسد، فمن نحن لنوجّه اللوم على ذلك؟ بل إنه مع حلول موعد العشاء يكون قد بدأ بالنظر إلى الجانب المشرق، وربما عدّ ذلك أعظم مواهبه، ولا يتجلى ذلك في أن اليأس لا يساوره، ولكن في أنه لا يشعر باليأس طويلاً، ويقول لنفسه إن ذلك قد يكون شيئاً طيباً في نهاية المطاف. قد يكون من الأفضل أن يقف المرء وحيداً، والألّ يعتمد على أيّ شخص آخر. ويفكر بلو في هذا بعض الوقت ويخلص إلى أن هناك شيئاً يقال عنه. إنه لم يعد متدرّباً. وليس هناك معلّم يعلوه مرتبة الآن. ويقول لنفسه: إنني معلّم نفسي، إنني معلّم نفسي، ولست مسؤولاً أمام أحد إلا نفسي.

وإذ يلهمه مناجاه في التعامل مع الأمور فإنه يكتشف أنه قد وجد أخيراً الشجاعة للاتصال بمن ستكون السيدة بلو مستقبلاً، ولكنه عندما يرفع سماعه الهاتف ويطلب رقمها، لا يأتيه ردّ وإنها لحيية أمل، ولكنه يظلّ معتصماً بالصمود، ويقول سأحاول مرة أخرى وسيكون ذلك قريباً.

وتواصل الأيام كرها. ومن جديد يتوافق بلو مع بلاك، ربما على

نحو أكثر تناغماً من ذي قبل . ويكتشف في غمار قيامه بذلك اللغزَ الكامنَ في موقفه، ذلك أنه إذ يزداد شعوره بالاقتراب من بلاك يقل شعوره بأن من الضروري أن يفكر فيه . وبتعبير آخر فإنه إذ يغدو أشد تورطاً يصبح أكثر حرّية . وليس التورط هو ما يصل به إلى الجمود، وإنما الانفصال، فعندما يبدو أن بلاك يشرّد بعيداً عنه فحسب يتعيّن عليه الخروج بحثاً عنه، وذلك يستغرق وقتاً وجهداً، دع جانباً المجالدة . غير أنه في تلك اللحظات التي يشعر خلالها بأنه أقرب ما يكون إلى بلاك يمكنه البدء بالعيش في إطار ما يشبه حياة مستقلة . وفي البداية فإنه لا يتّسم بالجرأة في ما يسمح لنفسه بالقيام به، ولكنه مع ذلك يعتبر ذلك نوعاً من الانتصار يوشك أن يكون عملاً من أعمال البسالة والجرأة، وعلى سبيل المثال فإن هناك الخروج والسّير بحذاء كتلة المباني التي يقيم فيها . ورغم صغر هذه الإشارة فإنها تملأ نفسه بالسعادة . وفيها هو يمضي جيئةً وذهاباً في شارع أورينج، في الطّقس الربيعي الجميل، يسعده أن يكون حيّاً، وذلك على نحو لم يستشعره منذ سنوات . فعند أحد الطرفين هناك مشهد النهر والمرفاً وخطّ سماء منهاتن، والجسور . ويجد بلو هذا كلّه جميلاً، بل إنه يسمح لنفسه في بعض الأيام بالجلوس عدّة دقائق على أحد المقاعد والتطلّع إلى الزوارق . وفي الأتجاهاات الأخرى هناك الكنيسة، وفي بعض الأحيان يمضي بلو إلى الفناء الصغير المعشّب ليجلس بعض الوقت، متأملاً تمثال هنري وارد بيتشر البرونزي، وفيه يمسك اثنان من العبيد بساقي بيتشر وكأتهما يتوسّلان إليه أن يساعدهما، وأن يجعلهما آخر الأمر حرّين، وفي الجدار المشيّد من الأجر وراء التمثال،

هناك نحت بارز يجسد أبراهام لينكولن . ولا يستطيع بلو منع شعوره بأن هذه الأعمال الفنية تلهمه الكثير من المعاني، وفي كل مرة يأتي فيها إلى فناء الكنيسة يمتلئ رأسه بالأفكار النبيلة عن كرامة الإنسان .

وشيثاً فشيئاً يصبح أكثر جرأة في ابتعاده عن بلاك . إن العام الحالي هو عام ١٩٤٧ م ، أي العام الذي يبدأ فيه جاكى روبنسون مسيرته مع فريق الدودجرس، ويتتبع بلو تقدمه عن كثب متذكراً فناء الكنيسة، ومدركاً أن في الأمر ما يتجاوز مجرد البيسبول . وذات أصيل مشرق ليوم الثلاثاء من شهر أيار (مايو) يقرر القيام بانطلاقه إلى إيبیتسل فيلد، وفيما هو يترك بلاك وراءه في غرفته بشارع أورينج، منكباً على مكتبه كالعادة، مع قلمه وأوراقه يشعر بأنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق، وتدخل الطمأنينة في نفسه الحقيقة القائلة بأن كل شيء سيكون على حاله تماماً عندما يعود . ويستقل قطار الأنفاق، ويشارك الحشود في زحامها، ويشعر بنفسه مندفعاً إلى إحساس بالّلحظة . وفيما هو يجلس على مقعد في ملعب البيسبول يذهله الوضوح الحادّ للألوان من حوله، العشب الأخضر، التراب البني، الكرة البيضاء، السماء الزرقاء فوقه . كل شيء متميز عن كل شيء آخر، ومنفصل تماماً، ومحدّد، وتؤثر في نفسه بقوة البساطة الهندسيّة للشكل البادي أمامه . ويراقب اللّعب فيجد أن من الصّعب تحويل عينيه عن روبنسون، وإذ يجتذبه بصورة مستمرة سواد محيا الرجل فإنه يفكر في أن الأمر يقتضي شجاعة للقيام بما يفعله، أن يكون وحيداً على هذا النحو في مواجهة كل هؤلاء الغرباء الذين يتمنى نصفهم الموت له . وفيما اللّعب يمضي قدماً يجد بلو نفسه يهتف لكل ما يقوم به

روبسون، وعندما يقتنص الرجل الأسود قاعدة في الجولة الثالثة ينبعث واقفاً، وفيما بعد في الجولة السابعة عندما يحقق روبسون ضربة مزدوجة بارعة يلطم بلو بالفعل ظهر الرجل الجالس إلى جواره من فرط النشوة. وعندما يخرج فريق الدودجرس من المازق في الجولة التاسعة، ويجرّ بلو قدميه مع باقي الجمهور، ويشقّ طريقه عائداً إلى البيت، يخاطر بباله أن يبلّك لم يعبر ذهنه مرّة واحدة.

ولكن مباريات اليبسبول ليست إلا البداية، ففي ليالٍ معيّنة، عندما يتضح لبلو أن بلاك لن يخرج إلى أيّ مكان، ينسلّ إلى حانة لا تبعد كثيراً، ليتناول قححاً أو قدحين من الجعة، مستمتعاً بالحوار الذي يتبادلّه مع مسؤول المشرب الذي يدعى «ريد» والذي يحمل شهباً رهيباً بجريين، مسؤول المشرب الذي تصدر قضية جراي منذ وقت طويل. وغالباً ما تكون هناك عاهرة تدعى «فيوليت» تبدو متوردة الخدين، ومرّة أو مرّتين يفلح في دفعها إلى الترنح سكرًا بما يكفي لكي تدعوه إلى بيتها الواقع عند ناصية الشارع، وهو يعرف أنها تحمل له قدرًا من الودّ؛ لأنها لا تجعله يدفع مقابلًا لهذا اللقاء، ولكنّه يعرف كذلك أن لا علاقة لهذا بالحبّ، وهي تدعوه بألفاظ التحبّب، ولحمها لدن ومتماسك، ولكنها عندما تشرب أكثر من طاقتها تشرع في الانخراط في البكاء، وعندئذٍ يتعيّن على بلو أن يعمل على تهدئتها، ويتساءل في قرارة نفسه عمّا إذا كان الأمر جديراً بكلّ هذا العناء. غير أن شعوره بالذنب حيال من ستكون السيّد بلو مستقبلاً يبدو محدوداً، فهو يبرّر هذه اللقاءات مع فيوليت بمقارنة نفسه بجندي يخوض الحرب في بلاد أخرى. ويقول لنفسه إن كلّ رجل بحاجة إلى

قليل من الترفيه، وخاصة عندما يكون معرّضاً لأن يحين أجله غداً،  
وفضلاً عن ذلك فإنه لم يُقدّم من حجر.

غير أن بلو يتجاوز في كثير من الأحيان الحانة، ويمضي إلى دار  
السّينما القريبة، فمع إقبال الصّيف الآن وتزايد الحرارة على نحو غير  
مريح في غرفته فإنه يروّج عنه أن يكون قادراً على الجلوس في دار  
السّينما الباردة ويشاهد فيلماً. وهو مولع بالسّينما، لا للقصص التي  
تسردها، والنساء الجميلات اللّاتي يمكنه رؤيتهن فيها وحسب، وإنّما  
للظلام الّذي يسود قاعة العرض ذاتها، والطريقة التي تشبه الصّور  
المعروضة على الشّاشة الخواطر المنطلقة في ذهنه، عندما يغمض  
عينيه، وهو لا يكثرث بشكل أو بآخر بنوعيات الأفلام الّتي يراها،  
سواء كانت على سبيل المثال من النوع الكوميدي أو الدرامي، وسواء  
صُوّر الفيلم بالأبيض والأسود أو بالألوان، ولكن يشعر بضعف  
خاصّ حيال أفلام التحريّ التي له رتباط طبيعي بها، وتسحره على  
الدوام هذه القصص أكثر من غيرها. وخلال هذه الفترة يشاهد عدداً  
من الأفلام من هذا النوع، ويستمتع بها جميعها: السيّدة في البحيرة،  
الملاك السّاقط، المرور في الظلام، الجسد والروح، رحلة على الجواد  
الأحمر، اليأس، وغيرها، ولكن هناك بالنّسبة إلى بلو فيلم يخبّر هذه  
الأفلام جميعها، وهو يحبّه كثيراً حتّى إنّه يراه في اللّيلة التّالية.

عنوان هذا الفيلم هو «بعيداً عن الماضي» ويقوم ببطولته روبرت  
ميتشوم في دور تحرّج خاصّ سابق يحاول أن يشقّ لنفسه طريق حياة  
جديدة في بلدة صغيرة تحت اسم مستعار، وله صديقة هي فتاة ريفيّة  
رقيقة تدعى آن، ويدير محطّة وقود بمساعدة فتى أصمّ، أبه، يُدعى

جيم، يُخلص له أشدّ الإخلاص. ولكنّ الماضي يلاحقه، وليس هناك ما يمكنه القيام به في مواجهة ذلك، فمنذ عدّة سنوات تُمت الاستعانة بخدماته للبحث عن جين جرير، وهي خلية رجل عصابات يؤدّي كيرك دوجلاس دوره، ولكنّه ما إن يعثر عليها حتى يقع أحدهما في هوى الآخر، ويهربان معاً ليعيشا بعيداً عن الأنظار. ويفضي أمر إلى آخر فُتسرق أموال وترتكب جريمة قتل وبالفعل يعود ميتشوم إلى رشده، ويهجر جرير، إذ يدرك في النهاية مدى عمق فسادها. والآن يبتزّه دوجلاس وجرير ويطالبانه بارتكاب جريمة ليست في ذاتها إلاّ شركاً ينصبانه له، ذلك أنّه ما إن يدرك ما يجري حتى يرى أنّها مخطّطان لإيقاعه في اتهام يوجّه إليه بارتكاب جريمة قتل أخرى، وتتكشف قصة معقّدة، ويحاول ميتشوم تخليص نفسه من الشّرك المُعدّ له. وعند أحد منعطفات القصة يعود إلى البلدة الصّغيرة التي يقطنها، ويبلغ آن براءته، ومن جديد يقنعها بحبه. ولكنّ الوقت يكون قد فات حقاً، وميتشوم يعرف ذلك. وفي النهاية يفلح في إقناع دوجلاس بتسليم جرير لتحاسب على جريمة القتل التي ارتكبتها، ولكن في تلك اللّحظة تدخل جرير الغرفة، وتسلّ مسدساً للآخر، ويبدو أنّ ميتشوم الذي ينساق لنزعه القدريّة حتى النهاية يسايرها في ذلك، ويقرّران الهرب إلى الرّيف معاً، ولكن بينما تمضي جرير لحزم حقيبتها، يلتقط ميتشوم سماعة الهاتف، ويستدعي رجال الشرطة ويستقلّان السيّارة، وينطلقان بها، ولكنّها سرعان ما يصلان إلى حاجز طرق تقيمه الشرطة، وإذ تدرك جرير أنّها قد خُدعت، فإنّها تسلّ مسدسها، وتطلق النّار على ميتشوم، ثمّ يفتح رجال الشرطة النّار على السيّارة ويقتلون جرير كذلك. وبعد ذلك هناك مشهد

واحد. فصباح اليوم التالي في بلدة بريدجسورت، يجلس جيمي على مقعد خارج محطة الوقود، وتقبل آن من بعيد وتجلس إلى جواره. وتقول: جيمي، حدّثني بشيء واحد، لأنّه يتعيّن عليّ أن أعرف هذا الشيء: هل كان يهرب معها أم لا؟ ويفكّر الفتى للحظة، محاولاً الاختيار بين الحقيقة وبين الرأفة بحالها. هل الأكثر أهميّة أن يحافظ على سمعة صديقه أم على مشاعر الفتاة؟ وكلّ هذا يحدث في أقلّ من لحظة. يحدّق في عيني الفتاة، ويومئ برأسه كأنه يقول نعم، لقد كان يحبّ جرير في نهاية المطاف. وتربت آن على ذراع جيمي وتشكره، ثمّ تمضي إلى صديقها السابق، وهو رجل شرطة محليّ مستقيم كالرمح، كان يزدري ميتشوم، ويؤدّي تحية الصداقة، ثمّ ينصرف ضارباً في الطّريق، إنّه الوحيد الذي يعرف الحقيقة، ولن يوح بها أبداً.

خلال الأيام القليلة التالية، يدير بلو هذه القصة في ذهنه مرّات عدّة، ويصل إلى أنّه أمر جيّد أن ينتهي الفيلم بالفتي الأصمّ الأخرس، إذ يُدفن السرّ، ويظلّ ميتشوم لامنتمياً، حتّى في موته. لقد كان طموحه بسيطاً للغاية: أن يصبح مواطناً عادياً في بلدة أمريكية عادية، وأن يتزوَّج جارتة الشّابة. وأن يعيش حياة هادئة. ويحدّث بلو نفسه بأنّه من الغريب أن الاسم الذي يختاره ميتشوم لنفسه هو جيف بيلي، فهذا الاسم قريب على نحو ملحوظ من شخصيّة أخرى في فيلم شاهده في العام الماضي مع من ستكون السيّدة بلو مستقبلاً - جورج بيلي الذي لعب دوره جيمس ستيوارت في فيلم «حياة رائعة». وقد دارت قصة ذلك الفيلم أيضاً حول الحياة في بلدة

أمريكية صغيرة، ولكن من وجهة النظر المناقضة: الإحباط الذي يشعر به رجل يمضي حياته بأسرها محاولاً الهرب، ولكنه في النهاية يدرك أن حياته حياة جيدة، وأنه طوال الوقت يقوم بالشيء المناسب. ولاشك أن بيلي الذي لعب ميتشوم دوره سيتوق إلى أن يكون بيلي الذي لعب دوره ستوارت. ولكن في حالته فإن الاسم ليس صحيحاً، وإنما هو من نتاج التفكير بالتمني، ذلك أن اسمه هو ماركهام، أو على نحو ما ينطقه بلو لنفسه مارك هم - وهو ما يعني حرفياً: تعقبوه! - وذلك هو جوهر الأمر، فالماضي يتعقبه، وما إن يقع ذلك حتى يغدو من المستحيل القيام بشيء لتدارك الأمر. ويفكر بلو في أن شيئاً يقع، ثم يواصل الوقوع إلى الأبد، ولا سبيل إلى تغييره أبداً، لا يمكن أن يكون خلافاً لذلك أبداً، وتبدأ هذه الفكرة بمطاردة بلو، إذ ينظر إليها على أنها نوع من التحذير، رسالة تنبئ من أعماقه، وأياً كانت محاولته لإبعادها فإن ظلام هذه الفكرة لا يفارقه.

ومن هنا فإن بلو يلتفت ذات ليلة إلى نسخة من كتاب «والدن»، ويقول لنفسه إن الوقت قد حان، وإنه إذا لم يبذل جهداً الآن فإنه يعلم أنه لن يقوم بذلك أبداً. ولكن الكتاب ليس بالأمر الهين، ففيها يبدأ بلو القراءة يساوره شعور بأنه يدخل عالماً غريباً. يخوض مستنقعات وأراضي وعرة، دافعاً نفسه لتسلق ركام من الحجارة والصخور الخطرة، ويساوره الشعور بأنه رهن الاعتقال ومُجبر على الانطلاق في مسيرة والفكرة الوحيدة التي تهيمن عليه هي المبادرة بالفرار. وتثير كلمات ثورو ضجره، ويجد أن من الصعب عليه التركيز، وتنقضي فصول بكاملها، وعندما يصل إلى نهايتها يدرك أنه



لم يتبقّ في ذهنه شيء منها. لم يرغب أحد في الانطلاق بعيداً والحياة بمفرده في الغابات؟ ما معنى كلّ هذا الغرس للبقول وعدم شرب القهوة أو أكل اللحوم؟ لماذا كلّ هذه الأوصاف المسهبة للطّيور؟ لقد ظنّ بلو أنّه سيصل إلى قصّة، أو على الأقلّ إلى شيء يشبه القصّة، لكن هذا لا يتجاوز كونه كلاماً أحمق، محاضرة لا تنتهي عن لاشيء على الإطلاق.

غير أنّه سيكون من البعد عن الإنصاف توجيه اللوم له، فهو لم يقرأ من قبل قطّ الكثير من أيّ شيء باستثناء الصّحف والمجلاّت، وبين الحين والآخر رواية مغامرات، وذلك في سنوات صباه. بل لقد علم أنّ القراء الذين عرّفوا بتجربتهم وحذقهم يصادفون متاعب في قراءة «والدن» وقد كتب رجل في شموخ قامة إمرسون في مذكّراته أنّ قراءة مؤلّفات ثورو تجعله عصبيّاً وبائساً. ومّا يحسب لبلو أنّه لا يستسلم، فهو يبدأ في القراءة في اليوم التالي، وتكون جولته الثانية هذه أقلّ وعورة من الأولى. فهو في الفصل الثّالث يصادف جملة تخاطبه بشيء في نهاية المطاف - إنّ الكتب ينبغي أن تقرأ بتدبّر وتحفّظ على نحو ما كتبت - وفجأة يدرك أنّ الحيلة هي في أن يمضي على مهل، وبتمهّل يفوق، ما تعامل به مع الكلمات في السّابق. ويساعده هذا إلى حدّ ما، وتبدأ فقرات معيّنة بالوضوح أمامه: مسألة الملابس في البداية، المعركة بين النّمال الحمراء والنّمال السّوداء، الجدال ضدّ العمل. ولكن بلو مايزال يجد الأمر مؤلماً، وعلى الرّغم من أنّه يقرّ كارهاً بأنّه ربّما لم يكن ثورو من الغباء بحيث يظنّه، إلّا أنّه يبدأ بالشّعور بالضيق من بلاك لإلقائه إيّاه في غمرة هذا العذاب. وما لا

يعرفه هو أنه لو قَدَّر له أن يجد الصَّبر لقراءة هذا الكتاب بالروح التي تستدعيها قراءته فإنَّ حياته بأسرها ستبدأ بالتغير، وسيفهم شيئاً فشيئاً تمام الفهم موقفه. أيَّ موقفه من بلاك، من وايت، من القضية، من كلِّ ما يعنيه. ولكنَّ الفرص الضائعة هي جزء من الحياة، تماماً كالفرص التي يجري اهتبالها، والقصة لا يمكن أن تدور حول ما كان يمكن أن يكون. ويلقي بلو بالكتاب جانباً في تقزز، ويرتدي معطفه (فالخريف يضرب أطنابه الآن) ويخرج لتنسّم الهواء. ولا يُقدَّر له أن يدرك أنَّ تلك هي بداية النَّهاية، إذ يوشك شيء أن يحدث، وما إن يحدث حتَّى لا يعود شيء على حاله ثانية.

يمضي إلى منهاتن، ويوغل في التَّجوال على نحو يفوق ما يفعله بلاك أكثر من أيِّ وقت مضى، مفرجاً بالحركة عن شعوره بالإجباط، على أمل أن يُدخل السَّكينة على نفسه بإنهاك جسمه. ويسير شمالاً وحده، غارقاً في خواطره، من غير أن يكثرث بإلقاء نظرة على ما حوله. وفي الشَّارع السَّادس والعشرين شرقاً، ينفك رباط حذائه، وعندئذ على وجه التَّحديد، وفيما هو ينحني ليعقده من جديد، جاثماً على ركبته، تبدو الأرض وكأنَّها انشقت أمامه، ذلك أنه يشاهد في تلك اللَّحظة من ستكون السيِّدة بلو مستقبلاً، مُقبلة عبر الطَّريق وقد عقدت ذراعيها حول الذَّراع اليمني لرجل لم يسبق لبلو أن رآه قطَّ من قبل، وهي تبتسم ابتسامة مشرقة، غارقة في الاستماع إلى ما يقوله لها الرَّجل. ولعدَّة لحظات يشعر بلو بالاضطراب إلى حدِّ أنه لا يعرف ما إذا كان عليه أن يحني رأسه إلى الأسفل بصورة أكبر، أو أن يقف ويحيي المرأة التي يدرك الآن - بمعرفة فجائية لا رجعة عنها وكأنَّها باب

يُصْفَق - أنها لن تصبح زوجته أبداً. ولا يفلح في القيام بأي من الأمرين، إذ يخفض رأسه قليلاً أولاً، ثم يدرك بعد ثانية واحدة أنه يرغب في أن تتعرّفه. وعندما يرى أنها لن تتعرّفه وهو في وضعه هذا، نظراً لاستغراقها في الإصغاء إلى حديث رفيقها، فإنه ينهض على نحو مفاجئ عن الرّصيف بينما هي على بعد لا يتجاوز ستة أقدام منه. ويبدو كما لو أنّ ساعة قد انقضت عليها فجأة، إذ ندت عنها شهقة خافتة، وينطق بلو باسمها بصوت يبدو غريباً بالنسبة إليه فتجمّد في موضعها. ويسجّل وجهها صدمة رؤيتها لبلو، وعندئذ يتحوّل التعبير المرتمس على وجهها سريعاً إلى الغضب.

تقول له: أنت! أنت!

وقبل أن تتاح له الفرصة ليقول كلمة واحدة، تنزع نفسها من ذراع رفيقها، وتبدأ بلطم صدر بلو بقبضتها، صارخة به في جنون ومتهمة إياه بجريمة بشعة إثر الأخرى. وكلّ ما يسع بلو القيام به هو أن يردّد اسمها مراراً وتكراراً وكأنه يحاول في يأس أن يميّز بين المرأة التي يحبها والحيوان المتوحّش الذي يهاجمه الآن. ويشعر بأنه بلا دفاع تماماً أمامها، وفيما يتواصل الهجوم يبدأ بالترحيب بكلّ ضربة جديدة باعتبارها عاباً عادلاً على سلوكه. وسرعان ما يضع الرّجل الآخر حدّاً للأمر، وعلى الرّغم من أن بلو يشعر بما يغريه بالهجوم عليه إلا أنه يبدو أكثر ذهولاً من أن يتحرّك بالسرّعة الكافية، وقبل أن يعرف ما يجري يمضي الرّجل بعيداً بمن كانت سابقاً مرشحة لأن تكون السيّدّة بلو، ويختفيان عند المنعطف، وينتهي الأمر عند ذلك.

يقلب هذا المشهد القصير، وغير المتوقّع، والمدمر في آثاره، بلو

رأساً على عقب. وفي الوقت الذي يستعيد فيه أعصابه، ويعود إلى البيت، يدرك أنه قد ألقى حياته بعيداً. ويقول لنفسه، إذ يرغب في لومها، ولكنه يعرف أن ذلك ليس بمقدوره، إنها ليست غلطتها. وبحسب معلوماتها فإنها ربما تحسبه ميتاً، وكيف يمكنه أن ينكر عليها رغبتها في أن تعيش؟ ويحسّ بلو بالدموع تتكوّن في عينيه، ولكنه يشعر بالغضب على نفسه، لأنه بهذا الحمق، أكثر مما يشعر بالحزن. فقد خسر ما كان يمكن أن يكون لديه من فرص للسعادة، وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون من قبيل الخطأ القول بأن هذه هي حقاً بداية النهاية.

يعود بلو إلى غرفته ويرقد في فراشه ويحاول أن يزن الاحتمالات. ويدير وجهه إلى الحائط فيواجه صورة جولد، طبيب التّشريح من فيلادلفيا. ويفكّر في الخواء الحزين الخاصّ بالقضية التي لم تحلّ، الطّفل الرّاقد في قبره دونما اسم، وفيما هو يتمعّن في قناع وجه الصّبي الصّغير، يبدأ في إدارة فكرة في ذهنه. ربّما كانت هناك سبل للاقترب من بلاك، سبل يلوح له أنها لا تُبعده. لا بدّ أن هناك سبلاً من هذا النوع، خطوات يمكن القيام بها، خطط يمكن إطلاقها، ربّما اثنتان أو ثلاث في وقت واحد، ويحدّث نفسه بأنّ عليه ألاّ يهتمّ بالباقي، فقد حان الوقت لقلب الصّفحة.

يجلّ موعد إرسال تقريره التّالي بعد غد، ولذا فهو يعكف عليه الآن لإرساله بالبريد في موعده. وقد اتّخذت تقاريره خلال الأشهر الماضية طابعاً مقتضباً على نحو متزايد، فهي لا تتجاوز فقرة أو فقرتين، ولا تقدّم إلاّ جوهر الأمر، ولا شيء آخر، وهو في هذه المرّة

لا يخالف ما درج عليه . غير أنه يُدرج في أسفل الصّفحة تعليقاً غامضاً كنوع من الاختبار، على أمل أن ينتزع شيئاً يزيد على الصّمت من وايت: يبدو أن بلاك مريض، وأخشى أن يكون في حالة احتضار. ثمّ يختم التقرير قائلاً لنفسه إنّ تلك ليست إلاّ البداية فحسب .

بعد ذلك بيومين يسرع بلو مبكراً إلى مكتب بريد بروكلين، وهو مبنى أقرب إلى أن يكون قلعة هائلة على مرمى حجر من جسر منهاتن . وقد وُجّهت جميع تقارير بلو إلى صندوق البريد رقم ألف وواحد، وهو يمضي إليه الآن وكأنّما مصادفةً، سائراً الهوينى متجاوزاً إيّاه، ومُطّلاً دونما عائق ليرى ما إذا كان التّقرير قد وصل . ها هو ذا، أو على الأقلّ هناك خطاب - مغلف وحيد أبيض يميل بزواية قدرها خمس وأربعون درجة في الصندوق الضيّق - وليس لدى بلو ما يدعوه إلى الشكّ في أنّه خطاب آخر غير خطابه، ثمّ يبدأ مسيرة دائريّة بطيئة حول المنطقة، عاقداً العزم على أن يبقى إلى أن يظهر وايت أو شخص يعمل لحسابه، وقد ثبتت عيناه على الجدار الهائل الذي يضمّ الصناديق المرقّمة، وكلّ صندوق يحمل مجموعة أرقام مختلفة، ويضمّ سرّاً مختلفاً . ويقبل الناس ويذهبون، يفتحون الصّناديق ويغلقونها، ويواصل بلو التجوال في دائرته، متوقّفاً بين الحين والآخر في بقعة عشوائية، ثمّ منطلقاً من جديد . ويبدو كلّ شيء بنياً بالنسبة إليه، وكأنّما الطّقس الخريفى في الخارج قد اخترق القاعة، ويعبق المكان على نحو بهيج برائحة السّيجار . وبعد عدّة ساعات يبدأ بلو بالشّعور بالجوع، ولكنه لا يستسلم لنداء المعدة، محدّثاً نفسه بأنّ الأمر قوامه

إمّا الآن وإمّا لا إلى الأبد، ومن ثمّ فإنّه يواصل الصمود. ويراقب كلّ من يقترب من مجمع صناديق البريد، مركزاً على كلّ شخص يقترب ممّا يجاور الصندوق رقم ألف وواحد، ومدركاً الحقيقة القائلة بأنّه إذا لم يأتِ وايت فإنّ من سيأتي قد يكون أيّ شخص يكلف بتلقّي التقارير، قد يكون امرأة عجوزاً أو طفلاً صغيراً، ومن ثمّ فإنّ عليه ألاّ يأخذ أيّ شيء باعتباره أمراً مسلماً به. ولكن ما من شيء من هذه الاحتمالات يصل إلى أمر يذكرك، ذلك أنّ الصندوق يظلّ على حاله طوال الوقت، وعلى الرّغم من أنّ بلو يبتكر على نحو عاجل وبصورة ناجمة قصّة لكلّ مرشّح يقترب من الصندوق، محاولاً أن يتخيّل كيف أنّ ذلك الشّخص يمكن أن يكون على صلة بوايت أو ببلاك، وما هو الدّور الذي قد يلعبه أو تلعبه في القضية، وما إلى ذلك، ويُرغم على أن يُلقّي بها قصّة وراء الأخرى إلى رحاب النسيان الذي أقبلت منه.

وبعيد الظهيرة، وفي لحظة بدء ازدحام مكتب البريد - إذ ينطلق حشد كبير من النّاس في فترة الرّاحة وتناول طعام الغداء لإرسال الرسائل أو شراء طوابع البريد أو إنجاز عمل من نوع أو آخر - يجتاز الباب رجل يضع قناعاً على وجهه. ولا يلاحظه بلو في البداية مع دخول الكثيرين من الباب في الوقت نفسه، ولكن فيما الرّجل ينفصل عن الحشد ويبدأ بالسّير نحو صناديق البريد المرقّمة، يلمح بلو القناع أخيراً، وهو قناع من النّوع الذي يضعه الأطفال على وجوههم في يوم هالوين، مصنوع من المطاط يصوّر وحشاً مخيفاً تبدو جراح بليغة في جبهته، وتتوهج عيناه حمرة، وتلوح أنياب مكان أسنانه. وأمّا باقي الرّجل فعاديّ تماماً (معطف رمادي من التويد، وملفعة حمراء تلتفّ

حول عنقه). ويحسّ بلو في في هذه اللحظة الأولى أن الرجل الذي يضع القناع هو وايت. وفيما يواصل الرجل مسيره نحو منطقة صندوق البريد رقم ألف وواحد يتصاعد هذا الإحساس إلى مرتبة الاقتناع، ويشعر بلو في الوقت نفسه بأن الرجل ليس هناك حقاً، وبأنه على الرغم من أنه يعلم أنه يراه، فإنه أكثر من محتمل أنه الوحيد الذي يستطيع أن يراه. غير أن بلو مخطئ في هذا الموضع، ذلك أنه بينما يواصل المقنّع التحرك على الأرضية المرمرية الرحبة، يرى بلو عدداً من الناس يضحكون، ويشيرون إليه، ولكنّه لا يستطيع القول ما إذا كان هذا أفضل أم أسوأ. ويصل المقنّع إلى صندوق البريد رقم ألف وواحد ويدير قرص مجموعة الأرقام إلى الوراء ثم إلى الأمام ثم إلى الوراثة ثانية، ويفتح الصندوق. وما إن يدرك بلو أن هذا هو بالتأكيد الرجل الذي ينشده حتى يشرع بالقيام بحركة باتجاهه، دون أن يكون على يقين حقاً مما يعتزم القيام به، ولكنّه في قرارة ذهنه يعتزم الإمساك به ونزع القناع عن وجهه. ولكنّ الرجل أكثر حذراً من أن يحدث له ذلك، فما إن يلتقط المغلف ويدسه في جيبه ويغلق الصندوق حتى يُلقِي نظرة سريعة في أرجاء القاعة ويرى بلو مقرباً منه، ويبادر بالابتعاد هرولة، منطلقاً نحو الباب بأسرع ما يمكنه. وينطلق بلو عدواً وراه على أمل أن يمسكه من الخلف ويحبط حركته، ولكنّه يختلط للحظة بالجمهور عند الباب، وعندما يفلح في اجتيازه، يكون المقنّع في غمرة توائب نشط في هبوط للدرج. ويواصل بلو مطاردته، بل يشعر بأنّه يكسب أرضاً في هذه المطاردة، ولكنّ المقنّع يصل عندئذ إلى الناصية حيث يتصادف أنّ

حافلة تنطلق من محطة، وهكذا يستقلها في اللحظة المناسبة، ويترك بلو في موقف حرج، لاهث الأنفاس، واقفاً في موضعه وكأنه أبله.

بعد يومين يتلقى بلو شيكته في البريد فيجد أخيراً كلمة من وايت فيها: لا ألعيب غريبة بعد الآن. وعلى الرغم من أنها كلمة موجزة فإن بلو يسعد لتلقيها، يسعد لشقه جدار صمت بلو أخيراً. غير أنه ليس من الواضح ما إذا كانت الرسالة تشير إلى التقرير الأخير أو إلى الحادث الذي وقع في مكتب البريد. وبعد التفكير في الأمر قليلاً يقرر ألا يفارق هناك. فالتحرك هو مفتاح القضية بشكل أو بآخر، وعليه أن يواصل حيث استطاع إيقاف المسيرة المنتظمة للأمور، قليلاً هنا وقليلاً هناك، قاطعاً في اللغز إلى أن يبدأ الهيكل بالتداعي، وإلى أن يأتي يوم يسقط فيه هذا الأمر الهش على الأرض.

يعود بلو عبر الأسابيع القليلة التالية إلى صندوق البريد مرات كثيرة على أمل أن يُلقى نظرة أخرى على وايت، ولكن ذلك لا يسفر عن شيء، فإما أن التقرير ينقل بالفعل من الصندوق لدى وصوله إليه وإما أن وايت لا يظهر له أثر. ولا تدع الحقيقة القائلة بأن هذه المنطقة من مكتب البريد مفتوحة على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً مجالاً كبيراً للاختيار أمام بلو، فوايت يحذر منه الآن، ولن يرتكب الغلطة نفسها مرتين، ولسوف ينتظر إلى أن ينصرف بلو ثم يمضي إلى الصندوق، وما لم يكن بلو على استعداد لإمضاء حياته بأسرها في مكتب البريد، فإنه ليس هناك من سبيل يمكنه من خلاله أن يتوقع الإطباق على وايت من جديد.

تبدو الصورة أكثر إيغالاً في التعقيد مما قُدِّر لبلو أن يتوقع، ولئلا



عام تقريباً الآن نظر إلى نفسه باعتباره حراً بصورة جوهرية. وقد أدى واجبه بشكل أو بآخر، متطلعاً إلى الأمام مباشرة وفاحصاً بلاك، ومنتظراً الوصول إلى مدخل مناسب، ومحاولاً متابعة هذا المدخل، ولكن خلال هذا كله لم يفكر مرة واحدة في ما عساه يجري وراءه. وأما الآن وبعد حادثة المقنع والعقبات الإضافية التي ظهرت فإن بلو لم يعد يعرف جلية الأمر. ويبدو من المحتمل تماماً بالنسبة إليه أنه بدوره تجري مراقبته ورصده من قبل شخص آخر بالطريقة التي يراقب بها بلاك. ولئن كان الأمر كذلك فإنه لم يكن حراً قط، ومن البداية ذاتها كان الرجل الواقع في الوسط، يُعرقَل من الأيام ويُطوَّق من الخلف. والغريب أن هذه الفكرة تذكره ببعض الجمل في كتاب «والدن». ويبحث في الكتاب عن الصياغة الدقيقة لهذه الجمل، واثقاً إلى حد كبير من أنه قد نقلها عن الكتاب. ويجدها. إننا لسنا حيث نحن، وإنما في وضع زائف. وخلال اعوجاج في طبائعنا نفترض قضية ونكرس أنفسنا لها، ومن هنا فإننا في قضيتين في وقت واحد، ومن الصعب على نحو مضاعف الخروج. ويبدو هذا مفهوماً لبلو. وعلى الرغم من أنه يبدأ بالشعور بالتخوف قليلاً فإنه يظن أنه ربما لم يفت أوان قيامه بشيء في مواجهة ذلك.

وتتلور المشكلة الحقيقية في تحديد طبيعة المشكلة ذاتها. وبداية من هو الذي يشكّل خطراً أعظم عليه: آيت أم بلاك؟ لقد صدق آيت في أداء ما تعهد به بخصوص جانبه من الصّفقة: الشيكات تصل في موعدها من كل أسبوع، وبلو يعرف أن الانقلاب عليه سيكون بمثابة أن يعضّ اليد التي تطعمه، ومع ذلك فإن آيت هو الذي حرّك

القضية، ملقياً ببلو إلى غرفة خاوية، إن صحَّ التعبير، ثمَّ مطفئاً النور، وموصداً الباب. ومنذ ذلك الحين يتلمس بلو أمامه في الظلام، باحثاً عن مفتاح النور، سجيناً للقضية ذاتها. كل ذلك حسن وعلى مايرام، ولكن لم يأتي وابت شيئاً كهذا؟ عندما يواجه بلو هذا السؤال فإنه لا يعود بمقدوره التفكير، ويكفَّ ذهنه عن العمل، فهو لا يستطيع المضي إلى أبعد من هذا.

عليك ببلاك، إذن. فهو حتى الآن القضية بأسرها، والسبب الجلي لكل متاعبه. ولكن إذا كان وابت حقاً يتصيد بلو لا ببلاك، فربما لم تكن لبلاك علاقة بالأمر، بل ربما لم يكن أكثر من مراقب بريء، وفي تلك الحالة فإن بلاك يحتلّ الوضع الذي افترض بلو طوال الوقت أنه الوضع الخاص به هو نفسه، بينما يأخذ بلو دور ببلاك. وثمة ما يقال دفاعاً عن هذا. ومن ناحية أخرى فإنه من الممكن أيضاً أن يكون ببلاك متعاوناً مع وابت وأن يكون قد تأمرنا لتوريط بلو.

وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يفعلانه به؟ ليس شيئاً رهيباً في نهاية المطاف، على الأقل ليس بأي معنى مطلق. لقد أوقعا في شرك عدم القيام بشيء، أن يكون من الجمود بحيث تتدنّى حياته إلى لائحة على الإطلاق تقريباً، وهو يحسّ وكأنه رجل حُكِمَ عليه بأن يجلس في غرفة ويقرأ كتاباً طوال ما بقي من حياته. وذلك أمر غريب - أن يكون نصف حيّ في أفضل الأحوال، والأرى العالم إلا من خلال الكلمات، والأرى يعيش إلا عبر حياة الآخرين. ولكن إذ كان الكتاب مثيراً للاهتمام فقد لا يكون الأمر بالغ السوء، فبمقدوره أن يندمج في القصة، إذا صحَّ التعبير، وشيئاً فشيئاً يبدأ في نسيان نفسه.

ولكن هذا الكتاب لا يقدم له شيئاً، فليست هناك قصة، ولا حبكة ولا حدث، ولا شيء إلا رجل يجلس وحيداً في غرفة ويؤلف كتاباً. ويدرك بلو أن هذا هو كل ما هنالك، ولا يعود راغباً في أن يكون له شأن به. ولكن كيف السبيل إلى الخروج؟ كيف السبيل إلى الخروج من الغرفة التي هي الكتاب الذي سيظل في غمرة عملية التأليف مادام هو في الغرفة؟

وأما فيما يتعلق ببلاك، من يُسمى مؤلف الكتاب، فإن بلو لا يستطيع بعد الآن أن يثق بما يراه. فهل من الممكن حقاً أن يوجد مثل هذا الرجل الذي لا يفعل شيئاً وإنما يجلس فحسب في غرفته ويكتب؟ لقد تتبَّعه بلو في كل مكان، وترصده في أقصى الأركان، وراقبه بدقة بالغة حتى إن عينيه تبدو أن كما لو كانتا تخذلانه، وحتى عندما يغادر بلاك غرفته بالفعل فإنه لا يمضي إلى أي مكان، ولا يقوم بما يُعتد به من أي شيء: تسوق مواد البقالة، وحلاقة الشعر بين الحين والآخر، وجولة لمشاهدة الأفلام، وما إلى ذلك. ولكنه يضرب غالباً في الشوارع متأملاً مناظر طبيعية تشكّل تركيباً غريباً، مجموعات من المعلومات العشوائية، بل إن ذلك لا يحدث إلا بصورة متقطعة. لبعض الوقت تكون المباني مناط اهتمامه، فيمدّ عنقه ليلقي نظرة على الأسطح متفقداً مداخل الدّور، وممرّاً يديه على مهل على الواجهات الحجرية، ثمّ لمُدّة أسبوع أو أسبوعين ينحصر اهتمامه في التماثيل التي تتوسط الميادين، أو في القوارب المنطلقة في النهر، أو في إشارات المرور. ولا شيء يتجاوز هذا، ومن غير أن يتفوّه إلاّ لماماً بكلمة يخاطب بها أحدهم. ولا لقاء كذلك مع الآخرين، باستثناء ذلك

الغداء الوحيد مع المرأة الباكية، وقد انقضى عليه الآن وقت طويل .  
 وبلو يعرف كل ما يمكن معرفته فيما يتعلق ببلاك: ما هو نوع الحساء  
 الذي يبتاعه، وما هي الصحف التي يقرأها، وما هي الملابس التي  
 يرتديها، وقد سجّل كلاً من هذه الأشياء بأمانة في كراسته . ولقد  
 تعلّم آلاف الحقائق، ولكن الشيء الوحيد الذي علّمته إياه هو أنه لا  
 يعرف شيئاً، ذلك أنه تبقى الحقيقة القائلة بأنه ما من شيء من هذا  
 بالإمكان . وأنه من غير الممكن أن يوجد رجل مثل بلاك .

ويبدأ بلو، بناء على هذا، بالتشكك في أن بلاك لا يعدو أن يكون  
 خدعة، شخص آخر ممن استعان وايت بخدماتهم، يدفع له أجره  
 كل أسبوع ليجلس في الغرفة ولا يقوم بشيء . وقد لا تكون كل تلك  
 الكتابة إلا زيفاً، كل صفحة إثر الأخرى منها، قائمة تتألف، على  
 سبيل المثال، من كل اسم ورد في دليل الهاتف، أو كل كلمة وردت  
 في القاموس بالتسلسل الأبجدي أو نسخة مخطوطة من «والدن»، وقد  
 لا تكون كلمات، وإنما خطوط لا معنى لها، علامات عشوائية يُحدِثها  
 القلم، كومة متنامية من العبث والفوضى . إن هذا من شأنه أن يجعل  
 من وايت المؤلف الحقيقي إذن، بينما لا يعدو بلاك أن يكون بديلاً  
 له، شخصاً زائفاً، ممثلاً لا جوهر له، ثم هناك الأوقات التي يتبع فيها  
 بلو هذه الفكرة ويعتقد أن التفسير المنطقي الوحيد هو أن بلاك ليس  
 رجلاً واحداً وإنما هو عدّة رجال . اثنان أو ثلاثة أو أربعة من  
 الأشخاص المتشابهين الذين يلعبون دور بلاك أمام بلو، فيؤدّي كل  
 منهم الدور طوال الوقت المخصّص له، ثم يعود إلى مباحج المدفأة  
 والدار . ولكن تلك فكرة أكثر وحشية من أن يتأملها بلو طويلاً .

وتنقضي شهور، ويقول لنفسه بصوت عالٍ في نهاية الأمر: لم أعد أستطيع التنفس، هذه هي النهاية. إنني أموت.

يتصف صيف ١٩٤٨ م. وإذا استجمع بلو شجاعته للتحرك آخر الأمر فإنه يمدّ يده إلى حقيبة أدوات التنكر، ويشرع في إضفاء اللّمسات التي تكفل له اكتساب هويّة جديدة، وبعد تنمية عدد من الإمكانيات المتاحة، يستقرّ رأيه على هيئة رجل عجوز اعتاد التسوّل عند نواحي حيّه خلال طفولة بلو، شخصيّة محلّية تحمل اسم جيمي روز، ويدسّ نفسه في زيّ يوحى بالتسوّل، ملابس صوفيّة مهلهلة، حذاء ضمّت أجزاءه بخيط لمنع النّعلين من الاصطفاق والتدليّ، حقيبة سجاديّة يحمل فيها أغراضه، وفي النهاية، وبعد كلّ شيء، لحية بيضاء مسترسلة وشعر طويل. وتخلع عليه هذه التفاصيل الأخيرة مظهر أحد رجالات العهد القديم، فبلو في هيئة جيمي روز ليس شخصيّة وضيفة محطّمة بقدر ما هو أحمق تأتي على لسانه الحكمة، قدّيس للفقر المدقع يحيا على هامش المجتمع، ربّما كان أحمق تافه الشّان، ولكنّه لا ضير منه، وهو يشعّ بلامبالاة عذبة بالعالم من حوله، والسبب هو أنّ كلّ شيء كان قد حدث له بالفعل فلا شيء يستطيع بعدُ إزعاجه.

يتمركز بلو في بقعة مناسبة عبر الطّريق، ويستلّ من جيبه شطيّة من زجاج مكّبر، ويشرع في قراءة صحيفة الأمس المتسخة التي أخرجها من برميل قمامة قريب، ويظهر بلاك بعد ساعتين، هابطاً درج منزله، ثمّ منعطفاً باتجاه بلو. ولا يكثر بلاك بالتسوّل - إمّا

لأنه غارق في أفكاره وأما متجاهلاً إياه عن عمد - وهكذا فإنه فيما كان يشرع في الاقتراب يخاطبه بلو بصوت رقيق:  
هل تستطيع التمهّل لحظة، يا سيّد؟!!

يتوقّف بلاك ويطلّ على المخلوق الأشعث الذي تحدّث لتوّه، ويسترخي تدريجياً مفترّاً عن ابتسامه إذ يدرك أنه ليس معرضاً لخطر، ثمّ يمدّ يده إلى جيبه، ويخرج قطعة نقدية معدنية، ويضعها في راحة بلو.

يقول: إليك هذه!

يقول بلو: ليباركك الله.

يردّ بلاك متأثراً بهذه العاطفة: شكراً لك.

يقول بلو: لا تخف أبداً، ليباركك الله.

وبكلمة بَعَثِ الطمأنينة تلك، يمَسّ بلاك طرف قبعته محيياً بلو، ويواصل سيره.

في أصيل اليوم التالي، ينتظر بلو، وقد ارتدى ملابس المتسوّل مجدداً، بلاك في البقعة ذاتها. وإذ يصمّم على إبقاء الحوار لمدة أطول قليلاً، بعد أن اكتسب ثقة بلاك، فإنه يجد أن المشكلة تخرج من يديه إذ يظهر بلاك نفسه لهفة إلى البقاء معه وقتاً أطول. الآن ها هو النهار يجرّ أذياله، ولم يضرب الغسق أطنابه، ولكنّ الأصيل قد رحل، وتمتدّ ساعة ما قبل الغسق ذات التغيّرات الوثيدة والأجرّ المتوهّج والظلال. وبعد أن يُحيي بلاك الشّحاذ تحيةً ودودة، ويعطيه قطعة نقد معدنية أخرى، يتردّد للحظة، كأنما يناقش مع نفسه ما إذا كان سيقدم على الخطوة التالية، ثمّ يقول:

هل قال لك أحد قط إنك تشبه والت ويتمان؟  
يردّ بلو، متذكراً ضرورة قيامه بدوره: والت من؟  
الت ويتمان. إنه شاعر مشهور.

يقول بلو: لا، ليس بمقدوري القول بأنني أعرفه.  
يقول بلاك: ليس من المحتمل أنك تعرفه، فهو لم يعد على قيد  
الحياة، لكن الشبه بينكما واضح.

يقول بلو: طيب، تعرف ما يقولونه، لكل إنسان قرينه في مكان  
ما، ولست أرى ما يمنع أن يكون قريني ميتاً.

يواصل بلاك حديثه: الشيء الغريب أن والت ويتمان كان يعمل  
في هذا الشارع، وقد طبع كتابه الأول ها هنا مباشرة، غير بعيد عن  
البقعة التي نقف فيها.

يقول بلو وهو يهز رأسه متأملاً: أتقول حقاً؟ ذلك يجعلك تتوقف  
وتتأمل. أليس كذلك؟ هناك بعض القصص الغريبة فيما يتعلق  
بويتمان. يقولها بلاك مشيراً إلى بلو بالجلوس على رواق مدخل المبنى  
الواقع خلفهما، وهو ما يفعله بلو، ثم يجذو بلاك حذوه، وفجأة ينفرد  
أحدهما بالآخر في ضياء الصيف، وهما يثرثران كصديقين قديمين عن  
هذا الأمر وذاك.

يقول بلاك وقد استقرّ على نحو مريح في إطار ما توحى به اللحظة  
من استرخاء: نعم، عدد من القصص الشديدة الغرابة، هناك على  
سبيل المثال القصة التي تدور حول مخّ ويتمان. وقد آمن ويتمان  
طوال حياته بعلم فراسة الدماغ، أي قراءة التتواءات في الجمجمة.  
وقد كان شائعاً للغاية في ذلك الوقت.

يردّ بلو: لا يمكنني القول بأنني سمعت به .

يقول بلاك: طيّب، لا أهميّة لذلك، فالشيء الأساسي هو أن ويتّان كان مهتماً بالأخاخ والجماجم، وقد ظنّ أنه يمكنها أن تحدّثك بكلّ شيء عن شخصيّة الإنسان. وعلى أيّ حال فعندما رقد ويتّان محتضراً هناك في نيوجيرسي، قبل خمسين عاماً أو ستّين، وافق على أن يدعهم يجرون تشريحاً له بعد موته.

آه، كيف أمكن أن يوافق على ذلك بعد أن مات؟

آه، اعتراض وجيه. لم أقل الأمر بشكل صحيح. لقد كان مايزال على قيد الحياة عندما وافق على ذلك، فقد أرادهم أن يعرفوا أنه ليس معترضاً على تشريحهم له فيما بعد. ذلك هو ما تستطيع أن تقول إنّه كان أمنيّة ما قبل الموت.

كلمات أخيرة شهيرة.

ذلك صحيح، وكما ترى فإنّ الكثيرين كانوا يعتقدون أنه عبقرّي، وأرادوا أن يُلقوا نظرة على مخّه ليروا ما إذا كان هناك شيء خاصّ يميّزه. وهكذا فإنّه في اليوم الذي أعقب موته قام أحد الأطباء بنزع مخّه - قطعه من رأسه - وأرسله إلى الجمعيّة الأنثروبومترية ليتمّ قياسه ووزنه.

ويقاطعه بلو: مثل قنبيط عملاق.

بالضبط. مثل قنبيط عملاق للغاية. ولكن هذا هو الموضوع الذي تصبح فيه القصّة مثيرة للاهتمام، فالخّ يصل إلى المعمل، وفيما هم يوشكون على بدء العمل فيه يسقطه أحد المساعدين على الأرض.

هل تهشّم؟



بالطبع، تهتم، فالملخ ليس بالغ الصلابة، كما تعلم، وتناثر في مختلف أرجاء المكان، وبهذا انتهى الأمر، فقد تمّ كنس مخّ أعظم شعراء أمريكا، وألقيَ به مع النفايات.

ويتذكّر بلو أن يردّ على نحو يتفق مع الشخصية التي يتقمّمها، فيطلق عدداً من الضحكات المزوجة بالصفير، في تقليد بارع لما يصدر عن عجوز غريب الأطوار، ويضحك بلاك بدوره، وبحلول ذلك الوقت يكون المناخ قد غداً ودياً بينهما، إلى حدّ أنه ما من أحد بوسعه أن يعرف أنّها ليسا صديقين من النوع الذي تمتدّ الصداقة بينهما عُمرًا بأسره.

يقول بلاك: ورغم ذلك فإنه من المحزن أن يفكّر المرء في والت المسكين وقد تمدّد في قبره بلا مخّ.

يقول بلو: تماماً مثل تلك الفزاعة.

يقول بلاك: بالتأكيد مثل الفزاعة في أرض «أوز».

وبعد ضحكة أخرى من القلب، يقول بلاك: ثمّ هناك قصّة المرّة التي جاء فيها ثورو لزيارة ويتمان. وتلك قصّة جيّدة بدورها. هل كان شاعراً آخر؟

ليس تماماً، ولكنّه كاتب كبير على ما يبدو، وهو الكاتب الذي عاش وحيداً في الغابات.

يقول بلو الذي لا يرغب في أن يمضي بجهله إلى أبعد ممّا ينبغي: آه، نعم، حدّثني أحدهم عنه. كان مغرماً جداً بالطبيعة. هل هذا هو الرّجل الذي تقصده؟

يردّ بلاك: بالضبط. هنري ديفيد ثورو. أقبل من ماساشوستس لبعض الوقت، وقام بزيارة لويتمان في بروكلين. ولكنه في اليوم السابق لذلك جاء إلى هنا، إلى شارع أورينج. هل من سبب محدّد لذلك؟

كنيسة بلايموث. فقد أراد الاستماع إلى عظة هنري وارد بيتشر. قال بلو، مفكراً في الساعات الهائلة التي أمضاها في الفناء المعشب: منطقة جميلة، أحبُّ أن أذهب إلى هناك.

يقول بلاك: لقد ذهب الكثير من العظماء إلى هناك، ومنهم أبراهام لنكولن وتشارلز ديكنز، وساروا عبر هذا الشارع ومضوا إلى الكنيسة. أشباح.

نعم، إنهم أشباح في كلِّ مكان من حولنا. والقصة؟

إنها بسيطة حقاً. فقد وصل ثورو وصديق له هو برونسون ألكوت إلى دار ويتمان في ميرتل أفنيو، فأرسلتها أمّ والت إلى غرفة نوم في عليّة كان والت يشارك فيها أخاه إدي المعاق ذهنياً. وكان كلُّ شيء على مايرام، وقد صافح بعضهم بعضاً، وتبادلوا التحيات، وما إلى ذلك، ولكنهم عندما جلسوا لمناقشة وجهات نظرهم في الحياة، لاحظ ثورو وألكوت مبولة مليئة بما يوضع في غرف النوم هناك وسط الأرضية. وكان والت شخصاً من النوع غير المتحفّظ، ولم يلتقِ بالأمر إلى ذلك، ولكنّ الرّجلين المنتميين إلى نيوإنجلاند وجدوا أنه من الصّعب أن يواصلوا الحديث، وأمامهما دلو مليء بالفضلات. وهكذا

هبطوا إلى غرفة الاستقبال، وواصلوا الحوار هناك. إنني أدرك أن تلك جزئية صغيرة، ولكن مع ذلك فعندما يلتقي كاتبان كبيران فإن التاريخ يُحاك نسيجه، ومن المهمّ طرح كلّ الحقائق بصراحة. وكما ترى فإن مَبولة الحجرة تذكّرني على نحوٍ من الأنحاء بالمخّ الملقى على الأرض، وعندما تتوقّف للتفكير في الأمر فإنك تجد تماثلاً في الشكل، أقصد نتوءات وتلافيف الدماغ. هناك صلة محدّدة. المخّ والأمعاء، جوف الإنسان. إننا نتحدّث دوماً عن محاولة الوصول إلى أعماق كاتب، لكي نفهم أعماله على نحو أفضل، ولكن عندما تصل إلى جوهر الأمر فإنه لا يوجد الكثير ممّا يمكن العثور عليه هناك، على الأقلّ ليس هناك الكثير ممّا يختلف عمّا يوجد في أيّ شخص آخر.

يقول بلو الذي يبدأ بفقدان طرف خيط حجة بلاك: يبدو أنك تعرف الكثير عن هذه الأمور.

يقول بلاك: إنها هوايتي، فانا أحبّ أن أعرف كيف يجيأ الكتاب، ولا سيّما الكتاب الأمريكيون، فذلك يساعدني في فهم الأمور.

فهمت. يقولها بلو الذي لا يفهم من الأمر شيئاً على الإطلاق، فمع كلّ كلمة ينطقها يجد نفسه متفهّمًا لقدر يزداد ضآلة.

يقول بلاك: إليك هاوثورن. صديق طيّب لثورو، وربما كان الكاتب الحقيقيّ الأوّل الذي أتيج لأمریکا. فبعد أن تخرّج من الكلية عاد إلى دار أمّه في «سالم»، وأغلق عليه غرفته، ولم يخرج طوال اثني عشر عاماً.

وماذا كان يفعل هناك؟

كان يكتب القصص .

هل هذا كل شيء؟ كان يكتب فقط؟

الكتابة عمل انعزالي يستولي على حياتك . وبمعنى من المعاني فإنه ليس للكاتب حياة خاصة به . وحتى حينها يكون هناك فإنه ليس هناك حقاً .

شبح آخر .

تماماً .

يبدو ذلك أمراً غامضاً .

إنه كذلك بالفعل . ولكن هاو ثورن كتب الكثير من القصص ، ونحن مانزال نقرأها الآن ، بعد ما يزيد على مائة عام . وفي إحداها يقرّر رجل يُدعى ويكفيلد أن يدبّر مقلباً لزوجته ، فيبلغها بأن عليه أن يمضي في رحلة عمل لعدّة أيام ، ولكنه بدلاً من مغادرة المدينة يمضي غير بعيد عن المنعطف ، ويستأجر غرفة ، ويتنظر ليرى ما يحدث . وهو لا يستطيع أن يقول على وجه الدقة لماذا يفعل ذلك ، ولكنه يقوم به على أي حال . وتمضي ثلاثة أيام أو أربعة ، ولكنه لا يشعر بعد بأنه على استعداد للعودة إلى البيت ، وهكذا يستمرّ في الغرفة المؤجّرة ، وتحوّل الأيام إلى أسبوع ، والأسابيع إلى شهور . وذات يوم يسير ويكفيلد في شارع القديم ، ويرى منزله غارقاً في الحداد . إنها جنازته ، وقد أصبحت زوجته أرملة وحيدة . وتمرّ سنوات ، وبين حين وآخر يصادف زوجته في المدينة ، وذات مرّة وسط حشد كبير ، يحثكّ بها بالفعل ، ولكنها لا تتعرّفه ، ويمرّ المزيد من السّنوات ، أكثر من عشرين عاماً ، وشيئاً فشيئاً يوغل ويكفيلد في

العمر. وذات ليلة مطيرة من ليالي الخريف، وفيما هو يتجول في الشوارع الخاوية، يتصادف أن يمرّ بيته القديم، ويطلّ عبر النافذة. هناك نار دافئة تتقد في المدفأة، ويحدّث نفسه قائلاً: كم سيكون جميلاً لو أنه جلس هناك الآن تَوّاً في أحد تلك الكراسي الوثيرة بالقرب من المصطلى، بدلاً من الوقوف هنا تحت المطر. وهكذا، وبلا مزيد من التفكير في الأمر، يصعد الدّرج، ويطرق باب الدّار.

وعندئذ؟

ذلك كلّ ما هنالك. تلك هي نهاية القصة. وآخر ما نراه هو فتح الباب ودخول ويكفيلد وعلى شفّيته ابتسامة مآكرة. ولا نعرف أبداً ما يقول لزوجته؟

لا. تلك هي النهاية. ولا كلمة أخرى. ولكنّه ينتقل إلى الدّار من جديد، ونحن نعلم ذلك، ويظلّ زوجاً محبباً حتى الموت.

بحلول ذلك الوقت تكون السّماء قد أعتمت فوق الرؤوس، ويُقبّل اللّيل مسرعاً. وتظلّ بارقة أخيرة من اللّون الأحمر الوردى في الغرب، ولكنّ النّهار موغل في الانتهاء. وينهض بلاك، ملتقطاً الإشارة بذلك من السّماء ويمدّ يده إلى بلو محبباً.

يقول: أسعدني الحديث معك، ولم أدر أنّنا جلسنا كلّ هذا الوقت.

يقول بلو: كانت السّعادة من نصيبي. ويساوره شعور بالارتياح لانتهاء الحوار لأنّه يعرف أنّ الوقت لن يطول قبل أن تبدأ لحيته المستعارة بالانزلاق في ضوء حرّ الصّيف وتوتره العصبي اللذين يؤدّيان إلى انسيال عرقه على الصمغ الذي يثبتها في موضعها.

يقول بلاك، وهو يهز يد بلو مصافحاً: اسمي بلاك.

يقول بلو: اسمي جيمي، جيمي روز.

يقول بلاك: سأذكّر هذا الحوار الذي امتدّ بيننا طويلاً، يا

جيمي!

يقول بلو: سأذكّره بدوري، فقد أعطيتني الكثير مما يجب التفكير

فيه.

يقول بلاك: ليباركك الله يا جيمي روز!

يقول بلو: وليباركك الله يا سيّدي!

وعندئذٍ، وبمصافحة أخيرة ينصرفان في اتجاهين متناقضين، وقد

غرق كلّ منهما في أفكاره.

في وقت لاحق من تلك الليلة، وعندما يعود بلو إلى غرفته، يصل

إلى أنه من الأفضل له أن يدفن شخصيّة جيمي روز الآن، ويتخلّص

منه للأبد. فقد حقّق المتشرّد العجوز الغرض منه، ولكن وراء هذا

المنعطف لن يكون من الحكمة الاستمرار.

يشعر بلو بالسّرور لأنه قام بهذا الاتّصال الأوّلي ببلاك، ولكن

المواجهة لم تؤدّ تماماً إلى الأثر المطلوب، وهو يشعر إجمالاً بأنها قد

هزّته. فعلى الرّغم من أن الحديث لم تكن له علاقة بالقضيّة، فإنّ بلو

لا يستطيع مقاومة الشّعور بأنّ بلاك كان يشير إليها طوال الوقت

متحدّثاً بالألغاز إذا جاز التعبير، وكأنّه يحاول إبلاغ بلو بشيء من غير

أن يجرّؤ على قوله جهاراً. نعم، لقد كان بلاك أكثر من ودود، وكان

أسلوبه في الحديث رقيقاً في مجمله، ولكن رغم ذلك فإنّ بلو لا يمكنه

التخلّص من الفكرة القائلة بأنّ الرّجل كان يسعى وراءه منذ البداية،

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ بلاك أحد المتأمّرين يقيناً، وإلاّ فلاي سبب آخر واصل الحديث مع بلو على نحو ما فعل؟ بالتأكيد ليس من جرّاء الشّعور بالوحدة. وبافتراض أنّ بلاك شخصيّة حقيقيّة فإنّ الوحدة لا يمكن أن تكون قضية مثارة. وكلّ شيء في حياته حتّى هذه اللّحظة كان جزءاً من خطة وضعت مع سبق الإصرار ليظّل وحيداً، وسيكون من العبث فهم استعداده للحديث باعتباره جهداً يبذل للهرب من مخالب العزلة، ليس في هذا الوقت، ليس بعد ما يزيد على عام من تجنّب أيّ اتصال بالبشر. وإذا كان بلاك قد عقد العزم أخيراً على كسر روتينه التّسكّي، فلماذا يبدأ بالحديث مع عجوز ضائع عند ناصية أحد الشّوارع؟ لا. لقد كان بلاك يعرف أنّه يجادث بلو، وإذا كان يعرف فهو يعلم، إذن، من هو بلو. ويحدّث بلو نفسه: لاشكّ في ذلك.

عندما يحلّ وقت كتابة تقريره التّالي يضطر بلو لمواجهة هذه الورطة. فلم يحدث قطّ أن قال وايت أيّ شيء عن إجراء اتّصال مع بلاك. لقد كان على بلو أن يراقبه، لا أكثر، ولا أقلّ، وهو يتساءل الآن عمّا إذا لم يكن في حقيقة الأمر قد انتهك قواعد المهمة المسندة إليه. وإذا أدرج المحاوره في التّقرير فإنّ وايت قد يعترض عليها، ومن ناحية أخرى فإنّه إذا لم يأت على ذكرها فيه، وإذا كان بلاك يعمل حقّاً مع وايت، فإنّ وايت سيعرف على الفور أنّ بلو يكذب عليه. ويتأمّل بلو هذا الوضع طويلاً، ولكنّه رغم هذا كلّه لا يقترب من الوصول إلى حلّ. إنّهُ عالق بشكل أو بآخر، وهو يعرف ذلك. وفي النهاية يقرّر ترك الأمر، ولكن لا لشيء إلاّ لأنّه مايزال يعلّق أملاً

محدوداً على أن يكون قد أخطأ التَّخمين، وأن لا يكون وايت وبلاك ضالعين في الأمر معاً. ولكن هذه الانطلاقة الأخيرة الصُّغيرة إلى رحاب التَّفاؤل لا تصل إلى شيء، فبعد ثلاثة أيام من إرسال التَّقارير المصحَّح يصل شيكه الأسبوعي عبر البريد، وداخل المغلف ملاحظة جاء فيها: لماذا تكذب؟ وعندئذ يتوافر لبلو دليل يعلو على أي ظل من الشك. ومنذ تلك اللحظة وبلو يتعايش مع معرفته بأنه يغرق.

في اللَّيلة التالية، يتبع بلاك إلى منهاتن في قطار الأنفاق، وقد ارتدى ملابسه المعتادة، ودون أن يشعر بأن عليه أن يُخفي شيئاً. وبترجل بلاك من القطار في تايمز سكوير، ويتجول لبعض الوقت، تحت الأضواء الباهرة، وسط ضجيج حشود النَّاس الذين يمضون في هذا الطَّرِيق أو ذاك. ويراقبه بلو وكأنَّ حياته تتوقَّف على ذلك، ولا يبعد عنه قطَّ إلا بثلاث خطوات أو أربع. وفي السَّاعة التاسعة يدخل بلاك بهو فندق الجونكوين، ويجذو بلو حذوه، هناك حشد من النَّاس يعجَّ بهم البهو، والموائد نادرة، ولذا فإنَّه عندما يجلس بلاك في ركن منعزل خلا من شاغليه في تلك اللَّحظة عينها، يبدو من الطبيعيّ تماماً بالنسبة لبلو أن يقرب ويسأل في تهذيب عمَّا إذا كان بمقدوره الانضمام إليه. ولا يُبدي بلاك اعتراضاً ويومئُ بلا اكتراث بهزَّة من كتفيه لبلو أن يجلس على المقعد أمامه. ولعدَّة لحظات لا يقول أحدهما للآخر شيئاً، في انتظار قدوم من يسجِّل ما يأمران به من طلبات، وفي غضون ذلك يرقبان النسوة اللاتي يمضين قربيهما في أزيائهنَّ الصَّيفيَّة، ويشتمَّان العطور المختلفة التي تظلُّ رائحتها عالقة في الهواء بعدهنَّ. ولا يشعر بلو بما يدفعه إلى تعجُّل الأمور، فيكتفي بإزجاء وقته، ويدع الأمر



يجري في أعبته . وعندما يأتي النادل أخيراً للسؤال عما يطلبانه يطلب  
بلاك مشروب «بلاك أند وايت» ولا يملك بلو إلا أن ينظر إلى هذا  
باعتباره رسالة سرّية مفادها أنّ الجزء الطريف يوشك أن يبدأ،  
مندهشاً في غضون ذلك إزاء صفاقة بلاك وصلّفه والاستحواذ  
السوقي الذي يهمن عليه . وتحقيقاً للتساوق يطلب بلو المشروب  
نفسه، وفيما هو يقوم بذلك يحدّق في عينيّ بلاك، ولكنّ هذا الأخير لا  
يشيح بعيداً، وإنما ينظر إلى بلو نظرة لا تعبر إلا عن الخواء المطلق،  
بعينين ميتتين يبدو أنّها تقولان أنّ لا شيء وراءهما، وأنّه أيّاً كان مدى  
قوّة تحديق بلو فإنّه لن يجد فيها شيئاً.

غير أنّ هذا الرهان يذيب الجليد، وهما يبدآن في مناقشة مزايا  
الأنواع المختلفة من الويسكي . وعلى نحو محتمل تماماً يُفضي شيء إلى  
الأخر. وفيما هما يجلسان هنالك يتجادبان أطراف الحديث حول ألوان  
الإزعاج التي يتسبّب فيها فصل الصيف في نيويورك، وديكور  
الفندق، وهنود الجونكوين الذين كانوا يقيمون في المدينة قبل وقت  
طويل عندما كانت بأسرها غابات وحقولاً، يتحوّل بلو على مهل إلى  
الشخصيّة التي يريد أن يتقمّصها الليلة، مستقراً على شخصيّة متبجّج  
شاب يدعى «سنو»، بائع وثائق التأمين على الحياة، من كينو  
شابويسكونسن . ويحدّث بلو نفسه بأنّ عليه أن يتباله، لأنّه يعلم أنّه  
ليس ممّا يُجدي أن يكشف عن هويته، على الرّغم من أنّه يعرف أنّ  
بلاك يعلم . ويقول يتعيّن أن تكون لعبة بحث واختفاء، لعبة بحث  
واختفاء حتّى النهاية .

ينهيان مشروبهما الأوّل، ويطلبان مشروباً جديداً، يتبعه ثالث،

وفيا الحديث يمضي على مهل من وثائق التأمين إلى طول أعمار الرجال في مختلف المهن، يسقط بلاك ملاحظة تحوّل الحوار في اتجاه آخر.

يقول: أحسب أنني لن أتصدّر جدول أعمالك.

يقول بلو دون أن يدري ما يتوقّعه: آه؟ ما هو العمل الذي تقوم به؟

إنني تحرّج خاص. يقولها بلاك بوضوح ووبرود متمالكاً أعصابه، وللحظة قصيرة يشعر بلو بما يغريه بأن يُلقني بمشروبه في وجهه بلاك، وقد تفجّر غيظاً وغضباً إزاء وقاحة الرجل.

يهتف بلو، متمالكاً أعصابه، وموفقاً في ادعاء الدهشة التي يمكن أن تسيطر على ريفي ساذج: تحرّج خاص! تصوّر ذلك! بلحمه ودمه! ففكر فقط فيما ستقوله الزوجة عندما تبلغها بذلك! أنا في نيويورك أشرب مع تحرّج خاص. لن تصدّق ذلك أبداً.

يقول بلاك على نحو مفاجئ: ما أحاول قوله هو أنني لا أتصوّر أن العمر سيمتدّ بي طويلاً، على الأقلّ ليس وفقاً لإحصائياتك.

يقول بلو صاحبياً في القول: ربّما ليس كذلك، ولكن ففكر في الانفعال الذي يحيط بالأمر. هناك في الحياة ما يزيد على العيش لمُدّة طويلة. ونصف رجال أمريكا على استعداد للتضحية بعشر سنوات من راتبهم التقاعدي ليتاح لهم الحياة على غرار ما تفعل، تُحلّ غوامض القضايا، وتعيش من وحي ذكائك، وتُغوي النساء، وتطيح بالأشرار - ياإلهي - هناك الكثير ممّا يقال في هذا الشأن.

يقول بلاك: هذا كلّهم، فعمل التحريّ الحقيقي يمكن أن يكون كئيباً للغاية.

يواصل بلو حديثه: طيب، لكّل عمل روتينه، ولكن في حالتك على الأقل فإنك تعرف أن كلّ العمل الشاق يمكن أن يفضي إلى شيء غير عادي.

في بعض الأحيان نعم، وفي بعض الأحيان لا. ولكن في معظم الوقت لا. خذ القضية التي أعمل عليها الآن، لقد عملت فيها لمدة تتجاوز العام بالفعل، وما من شيء يمكن أن يكون أكثر إثارة للضجر. ويستبدّ بي الضجر للغاية في بعض الأحيان إلى حدّ أنني أفقد عقلي.

كيف ذلك؟

طيب، تخنّ ذلك بنفسك. عملي أن أراقب أحدهم، ليس شخصاً بارزاً على وجه الخصوص كما يمكنني القول، وأرسل تقريراً عنه كلّ أسبوع. هذا كلّ ما هنالك. راقب هذا الرجل واكتب عن ذلك. لا مطلب آخر إضافة إلى ذلك.

ما هو الفظيع في ذلك؟

إنه لا يقوم بأيّ شيء، تلك هي المشكلة. إنه يجلس في غرفته طوال النهار، ويكتب، وذلك يكفي لدفع المرء للجنون.

ربّما كان يستدرجك، يقودك إلى أن تنام ملّ جفنيك قبل أن يثب إلى العمل.

ذلك هو ما حسبته، ولكنني الآن على يقين من أنّ شيئاً لن يحدث، أبداً. إنني أشعر بذلك كما أحسّ ببنضي.

يقول بلو متعاطفاً: ذلك، أمر سيئ للغاية، ربّما كان يجب عليك التخلّي عن القضية.

إنني أفكر في ذلك، كما أفكر أيضاً في أنني ربما ينبغي أن أترك المهنة بأسرها، وأعمل بشيء آخر، تخصص مهني آخر، ربما بيع وثائق التأمين، أو أمضي للالتحاق بالعمل في سيرك.

يقول بلو، وهو يهز رأسه: لم أدرك قط أن المسألة يمكن أن تصل إلى هذا الحد من السوء. ولكن خبرني لماذا لا تراقب رجلك الآن؟ ألا ينبغي أن تواصل رصده؟

يردّ بلاك: ذلك هو جوهر الأمر، فلم يعد عليّ أن أكثرث بالأمر. فقد راقبته وقتاً طويلاً، بحيث أنني أعرفه خيراً مما أعرف نفسي، وكلّ ما يتعين عليّ القيام به هو التفكير فيه لأعرف ما يعكف عليه، وأين هو، إنني أعرف كلّ شيء. ووصل الأمر إلى حدّ أنني أستطيع مراقبته مغمضاً عينيّ.

أتعرف أين هو الآن؟  
في البيت، على حاله كالمعتاد، جالساً في غرفته، وعاكفاً على الكتابة.

وعمّ يكتب؟

لست واثقاً. ولكن لديّ فكرة جيّدة إلى حدّ بعيد، أعتقد أنه يكتب عن نفسه، قصّة حياته، هذه هي الإجابة الوحيدة المحتملة، وما من شيء آخر يمكن أن يكون مناسباً.

ولم كلّ هذا الغموض إذن؟

لا أدري. يقولها بلاك، وللمرّة الأولى يخونه صوته، فيشي ببعض الانفعال الذي يلوّن كلماته.

يقول بلو، ناسياً كل شيء عن سنو الآن، ومتطلّعاً إلى عينيّ بلاك مباشرة: كل شيء يتبلور إذن في سؤال واحد. أليس كذلك؟ هل يعرف أنك تراقبه أم لا؟

يشيح بلاك بوجهه بعيداً، عاجزاً عن النظر إلى بلو أكثر من هذا، ويقول بصوت مرتجف فجأة: إنّه يعرف بالطبع. ذلك هو جوهر الأمر. أليس كذلك؟ لا بدّ أنّه يعرف، وإلا فلا معنى لشيء. لم؟

يقول بلاك، وهو ما يزال ينظر إلى البعيد: لأنه يحتاج إليّ، يحتاج إلى عيني وهي ترمقه، يحتاج إليّ ليبرهن أنّه على قيد الحياة.

يرى بلو دمعة تتحدّر على خدّ بلاك، ولكنه قبل أن يتمكن من قول أيّ شيء، قبل أن يستطيع البدء بالضغط تحقياً لمآربه، ينهض بلاك مسرعاً، ويلتمس المذرة، قائلاً إنّه يتعين عليه القيام بمخاطبة هاتفية، وينتظر بلو جالساً في مقعده لمدة عشر دقائق فخمسة عشرة، ولكنه يعرف أنّه يضيع وقته، فبلاك لن يعود، والحوار انتهى، ومهما طال جلوسه هناك فما من شيء آخر سيقع الليلة.

يدفع بلو ثمن المشروبات، ثمّ يتجه عائداً إلى بروكلين، وفيما هو ينعطف في شارع أورينج يُلقِي نظرة على نافذة بلاك، ويرى أنّ الظلام يعمّ كل شيء. ويقول بلو: لا يهمّ، لسوف يعود قبل أن يمرّ وقت طويل، فنحن لم نصل إلى النهاية بعد، والحفل ما يزال في بدايته فحسب، انتظر إلى أن تتدفّق الشمبانيا، ولسوف نرى عندئذٍ ما يحدث.

ما إن يدخل بلو غرفته حتى يذرعها جيئة وذهاباً، محاولاً التخطيط لخطوته التالية. ويبدو له أن بلاك قد ارتكب غلطة، في نهاية المطاف، ولكنه ليس على تمام اليقين من ذلك. ذلك أنه على الرغم من الدليل القائم فإن بلو لا يستطيع التملص من الشعور بأن ذلك تم القيام به عمداً، وأن بلاك بدأ الآن بمناداته، ماضياً به إلى الأمام، إذا صح التعبير، ودافعاً إياه نحو النهاية التي يخطط لها.

ومع ذلك فإنه قد اجتاز شيئاً، وللمرة الأولى منذ بدء القضية لم يعد واقفاً حيث كان. وعلى النحو المعتاد فإن بلو سيحتفل بهذا الانتصار الصغير الذي أحرزه، ولكن يتضح أنه ليس في حالة مزاجية تسمح له بتهنئة نفسه الليلة. وأكثر من أي شيء آخر يساوره الشعور بالحزن وباستنزاف الحماس، ومحسّ بخيبة الأمل في العالم. فعلى نحو ما هي الحقائق تحذله في نهاية المطاف، ويجد من الصعب ألا يحمل ذلك على محمل شخصي، إذ يعلم حق العلم أنه أيّاً كان الشكل الذي يقدم به القضية لنفسه فإنه جزء منها أيضاً، ثم يمضي إلى النافذة ويتطلع عبر الشارع ويرى أن الأنوار مضاءة الآن في غرفة بلاك.

يرقد في فراشه ويحدث نفسه: وداعاً، ياسيد وايت! إنك لم تكن موجوداً حقاً. أليس كذلك؟ لم يحدث أن كان هناك قط شخص اسمه وايت. ثم يا لبلاك المسكين! يا للبائس! والبائسون لا يبهجون أحداً. ثم عندما يثقل جفناه ويبدأ النعاس بالسيطرة عليه يفكر في أنه من الغريب أن يكون لكل شيء لونه الخاص، فلكل شيء نراه، لكل شيء نلمسه، لكل شيء في العالم لونه الخاص. ويكافح لإبعاد النعاس وقتاً أطول، ويبدأ باعداد قائمة، ويقول لنفسه خذ اللون

الأزرق، على سبيل المثال ، هناك عصافير زرقاء، وطيور زرياب زرقاء، وطيور بلشون زرقاء، وهناك نباتات القنطريون العنبرية، ونباتات العنقريّة، والمحيط الهادي، هناك شياطين زرقاء، وشرائط زرقاء، ودماء زرقاء، هناك صوت يغني أغنيات البلوز المرتبطة بالشجن والزرقه، وهناك زيّ رجال الشرطة الرسمي الخاصّ بأبي، هناك قوانين زرقاء وأفلام زرقاء. هناك عيناى واسمي . ويتوقّف وقد أعوزته فجأة الأشياء الزرقاء، ثمّ ينتقل إلى الأبيض. ويقول: هناك نوارس، وخرشنة، ولقالتى، وطيور كوكاته. هناك جدران هذه الغرفة وملاءات سريري. هناك سوسنات الوادي، وزهور القرنفل، وبتلات زهور اللؤلؤية، هناك راية السلام، ورموز الحداد الصينيّة، هناك لبن المرضع، والمخي، هناك أسناني، والنمال البيضاء، هناك البيت الأبيض، والغصن الأبيض، وهناك الأكاذيب البيضاء، والحرارة البيضاء، ومن غير تردّد ينتقل إلى اللون الأسود، بادئاً بالكتب السوداء والسوق السوداء واليد السوداء، ويقول هناك ليل يخيم على نيويورك، وهناك شيكاجو بلاك سوكس، هناك العليق الأسود والغربان وانقطاعات الكهرباء والعلامات السوداء والثلاثاء الأسود والموت الأسود. هناك الابتزاز. هناك شعري، هناك الحبر الذي ينساب من القلم، هناك العالم الذي يراه الرجل الضرير، وإذا بداخله السأم من هذه اللعبة فإنّه يبدأ بالشروء قائلاً لنفسه إنه لانهاية للأمر، ويدلف إلى رحاب النوم، ويحلم بأشياء حدثت منذ وقت طويل، ثمّ يستيقظ فجأة في قلب الليل ويذرع الغرفة من جديد، مفكراً في ما سيفعله عقب ذلك.

يقبل الصباح، ويبدأ بلو بإشغال نفسه بتنكر آخر. وفي هذه المرة يتنكر في هيئة بائع الفراشي من طراز فوللر، وهي حيلة استخدمها من قبل، وخلال الساعتين التاليتين ينهمك صابراً في اصطناع هيئة رجل أصلع له شارب وتمتدّ التّجاعيد التي حفرها الزمن حول عينيه وفمه، جالساً أمام مرآته الصغيرة وكأنه أحد ممثلي المسرح الهزلي المخضرمين. وبعد الحادية عشرة بقليل يجمع حقيبته المليئة بالفراشي، ويمضي عبر الشّارع إلى المبنى الذي يقطنه بلاك. ولم تكن معالجة قفل الباب الأمامي إلا هَوَلاً به بالنسبة إلى بلو، ولا تستغرق إلا ثواني. وفيما هو ينسلّ إلى الدهليز لا يستطيع منع نفسه من الشّعور بالاستشارة التي طالما عرفها من قبل، ويذكّر نفسه وهو يبدأ بصعود الدّرج إلى الطابق الذي يسكنه بلاك: لم يكن القفل من النّوع الصّعب. لا تستهدف الزيارة إلاّ إلقاء نظرة على الداخل وتفقد الغرفة للتعرف مستقبلاً. ورغم ذلك فإن هناك انفعالاً في هذه اللّحظة لا يستطيع بلو كبح جماحه، ذلك أنه يعرف أنّ الأمر يتجاوز مجرد رؤية الغرفة، إنّه يتمثّل في فكرة كونه هناك بنفسه ووقوفه داخل تلك الجدران الأربعة، واستنشاق الهواء الذي يتنفسه بلاك، ويحدّث نفسه بأنّه من الآن فصاعداً سيؤثر كلّ شيء يحدث في كلّ شيء آخر. لسوف يفتح الباب، وبعد ذلك سيكون بلاك في أعماقه إلى الأبد.

يطرق الباب، فيفتح، وفجأة لا تعود هناك مسافة، فالشيء وفكرة الشيء هما أمر واحد. إذن، فبلاك هو المائل هناك واقفاً بالباب وقد أمسك بيده اليمنى قلم حبر لم يُعدّ إليه غطاؤه، وكأنّما قوطع في عمله، ومع ذلك ففي عينيه نظرة توحى لبلو بأنّه كان بانتظاره، مستسلماً للحقيقة القاسية، ولكن من غير أن يبدو عليه الاكتراث.



ينطلق بلو في ثرثرته عن الفراشي، مشيراً إلى الحقيبة، ملتمساً الأعدار، وطالباً السّماح له بالدخول، كلّ ذلك في نفس واحد، وبذلك الصوت العالي الذي يميّز البائعين والذي قلّده آلاف المرات. ويسمح له بلاك في هدوء بالدخول، قائلاً إنّهُ قد يكون مهتماً بشراء فرشاة أسنان، وفيما بلو يجتاز العتبة يمضي في الثرثرة عن فراشي الشّعر والملابس، وأي شيء يمكن أن يحافظ على استمراريّة الحديث، لأنّه بهذه الطريقة يمكن أن يترك باقي نفسه حرّاً لرصد الغرفة وملاحظة ما يمكن ملاحظته والتّفكير وتحويل انتباه بلاك في غضون هذا كلّهُ عن غرضه الحقيقيّ.

تبدو الغرفة، إلى حدّ كبير، على نحو ما تخيلها، وإن كانت أكثر تقشّفاً. فعلى سبيل المثال لا شيء على الجدران، الأمر الذي يدهشه قليلاً، لأنّه قد ظنّ على الدوام أنّه ستكون هناك صورة أو صورتان، لمجرّد تجنّب الملل، ربّما منظر طبيعي، أو لوحة تصوّر امرأة قد يكون أحبّها بلاك يوماً. وقد كان بلو يشعر بفضول يدفعه إلى معرفة طبيعة اللوحة، اعتقاداً منه بأنّها قد تكون مفتاحاً للأسرار له أهمّيّته في التّحقيق، ولكنّه إذ يرى الآن أنّه ليست هناك، أيّة لوحة فإنّه يدرك أنّ ذلك هو ما كان ينبغي أن يتوقّعه طوال الوقت. وبخلاف ذلك فإنّه ليس هناك إلّا القليل ممّا يناقض مفاهيمه السّابقة. إنّهُ محتلى الرّاهب الذي يرتسم في ذهنه على الدوام، ففي أحد الأركان فراش تمّ ترتيبه بدقّة وانتظام، وفي ركن آخر مطبخ صغير، والنظافة تعمّ كلّ شيء، بلا أدنى شائبة، ثمّ في وسط الغرفة، في مواجهة النافذة هناك، المائدة الخشبيّة مع مقعد خشبيّ واحد صلب الظهر وأقلام حبر

ورصاص وآلة ناسخة، ومرآة بحاملها ومنضدة إلى جوار الفراش ومصباح، ورف كتب على الجدار الشمالي، ولكنه لا يحتوي على كثير من الكتب: «والدن» و«أوراق العشب» و«حكايات رويت مرتين» وكتب قليلة أخرى. الإهاتف، لا راديو، لا مجلات. وعلى المائدة أكوام من الورق كُدّست بشكل مرتّب عند حوافها، بعضها لم يكتب عليه شيء، والبعض على العكس من ذلك، بعضها نسخ باستخدام الآلة الناسخة، والبعض مكتوب بخط يد مستطيل الحروف. مئات الصّفحات وربّما الآلاف. ويحدّث بلو نفسه قائلاً: لكنك لا تستطيع أن تسمّي ذلك حياة، ليس بمقدورك حقاً أن تسمّيه أي شيء. تلك ليست أرض أحد، إنها الموضوع الذي تبلغه في نهاية العالم.

يتفقّدان فراشي الأسنان، ويختار بلاك في النهاية فرشاة حمراء، وانطلاقاً منها يشرعان في فحص فراشي الملابس المختلفة، مع قيام بلو بإيضاح كيفية استعمالها لتنظيف بدلته. ويقول بلو: بالنسبة إلى رجل مهتم مثلك أعتقد أنك ستجدها ممّا لا سبيل إلى الاستغناء عنه، ولكن بلاك يقول إنه تدبّر أموره حتى الآن من غيرها، إلا أنه من ناحية أخرى يودّ التفكير في شراء فرشاة للشعر، وهكذا يمضيان لبحث ما هو متاح منها في صندوق العيّنات، ويناقشان الأحجام، والأشكال المختلفة، والأنواع المختلفة من شعر الفرشاة، وما إلى ذلك. ويفرغ بلو بالفعل من مهمّته الحقيقيّة، ولكنه يمضي في تحركات البائع رغم ذلك، راغباً في القيام بما يناسب المقام رغم أنه لا أهمية له. ورغم ذلك، وبعد أن يدفع بلاك ثمن ما اشتراه ويأخذ بلو بحزم صندوقه

استعداداً للانصراف، فإنه لا يستطيع مقاومة الإشارة إلى المائدة، ويقول  
بلاك نعم، ذلك صحيح، إنه كاتب.

يواصل بلو حديثه: يبدو أنه كتاب ضخم.  
يقول بلاك: نعم، لقد عكفت على تأليفه سنوات طويلة.  
هل أوشكت على الفراغ منه؟

يقول بلاك ممعناً التفكير في الأمر: إنني بسبيلي إلى ذلك، ولكن في  
بعض الأحيان يصعب عليك أن تعرف موطن قدميك. أحسب أنني  
أوشكت على الفراغ منه، ثم أدرك أنني قد أهملت شيئاً مهماً، ولذا  
أضطر إلى العودة إلى البداية من جديد. ولكن نعم، إنني أحلم  
بالفعل بالفراغ منه ذات يوم، وربما قريباً.

يقول بلو: أمل أن تتاح لي الفرصة لقراءته.

يقول بلاك: كل شيء ممكن، ولكن يتعين عليّ أولاً الفراغ منه،  
فهناك أيام لا أدري فيها ما إذا كنت سأعيش ما يكفي للانتهاء من  
إنجازه.

يقول بلو في إيماءة تأمل فلسفي: طيب، إننا لا نعرف جليّة الأمر  
أبداً، فيوماً نحن على قيد الحياة، وفي اليوم التالي نغادرها، وذلك  
يحدث لنا جميعاً.

يقول بلاك: صحيح تماماً، إنه يحدث لنا جميعاً.

ها هما يقفان الآن إلى جوار الباب. ويودّ شيء في أعماق بلو المضي  
في الإدلاء بملاحظات من هذا النوع، وهو يدرك أن لعب دور الرجل  
الساذج أمر ممتع، ولكن هناك، في الوقت نفسه، ما يدفعه إلى العبث

ببلاك، وإلى أن يثبت أنه ما من شيء يفوته، ففي أعماقه يرغب في أن يعرف ببلاك أنه يماثله في الذكاء، وأنه يمكنه أن يضارعه في البراعة والحذق مع كل خطوة يخطونها على الطريق، ولكنه يُفلح في كبح جماح هذا الميل وأن يمسك عليه لسانه، مُعرباً بإيماءة عن شكره لما اشتراه ببلاك، ثم يغادر المكان. وتلك هي نهاية بائع الفراشي من طراز فوللر، وبعد أقل من ساعة يعاد إلى الحقيبة التي تضم ما بقي من جيمي روز. ويعرف بلو أن الحاجة لن تدعو إلى المزيد من عمليات التنكر، فالخطوة التالية حتمية، والأمر المهم الآن هو اختيار اللحظة المناسبة.

ولكن بعد ثلاث ليال، وعندما تتاح لبلو أخيراً فرصته فإنه يدرك أن الخوف يستبدّ به، فبلاك يخرج في الساعة التاسعة، ويمضي في الشارع، ويمتفي وراء المنعطف. وعلى الرغم من أن بلو يعرف أن تلك إشارة مباشرة، وأن ببلاك على الصعيد العملي يستجديه أن يتحرك، فإنه يشعر كذلك بأن الأمر قد يكون شركاً، والآن في اللحظة الأخيرة الممكنة وقبيل امتلائه بالثقة بالنفس، وإذ يوشك أن يترنح لفرط شعوره بقوته، فإنه يغوص إلى قرار جديد قوامه العذاب، النابع من الشك في نفسه. لم يتعين عليه أن يبدأ فجأة بالشعور بالثقة ببلاك؟ وأي سبب على وجه الأرض يدعوه إلى الاعتقاد بأنها يعملان في جانب واحد الآن؟ كيف حدث ذلك ولماذا يجد نفسه تحت أمر ببلاك بهذا القدر من الخنوع مجدداً؟ ثم يشرع في بحث احتمال آخر خَطَر على باله قادماً من قلب المجهول. ماذا لو رحل؟ ماذا لو انبعث واقفاً ومضى إلى الباب وخرج من المسألة

برمتها؟ يتأمل هذه الفكرة للحظة، ويعجم عودها في ذهنه، وشيئاً فشيئاً يبدأ بالارتجاف، وقد قهره الرعب والسعادة، كأنه عبد يواجه رؤيا حرّيته، ويتخيّل نفسه في مكان آخر بعيد عن هنا، يضرب في الغابات كيفما طاب له، حاملاً بلطة على كاهله. إنه وحيد، وحرّ، وسيّد نفسه من جديد، ولسوف يبني حياته بدءاً من القاع فصاعداً، منفيّاً، رائداً، متنسكاً في العالم الجديد، ولكنه يتوقّف عند هذا الحدّ، ذلك أنّه ما إن يبدأ بالسّير عبر هذه الغابات التي لا يحدها شيء حتى يساوره الشّعور بأنّ بلاك هنالك بدوره، مخفياً وراء إحدى الأشجار، يسير من غير أن تراه العيون وسط أجمة، بانتظار أن يرقد بلو ويغمض عينيه، لكي ينسلّ إليه، ويقطع عنقه. ويحدّث بلو نفسه بأنّ ذلك يستمرّ بلا انتهاء، وإذا لم يحسم الآن أمره مع بلاك فإنّ الأمر لن تكون له نهاية. هذا هو ما كان القدماء يدعونوه القدر، وعلى كلّ بطل أن يدعّن له، فلا خيار هنالك، وإذا كان هناك شيء يمكن القيام به، فإنّه الشيء الوحيد الذي لا يدع مجالاً للخيار ولكنّ بلو يمقت الإقرار بذلك، وهو يقاومه بضراوة وبأباه، ويحسّ بالضيق في أعماقه إلى حدّ الغثيان، ولكنّ ذلك لا يرجع إلّا إلى أنّه يعرف بالفعل، ومقاومته تعني قبوله، والرغبة في قول لا تعني أنّك قلت بالفعل نعم، وهكذا يدور بلو تدريجياً حول نفسه، ويستسلم أخيراً لضرورة الشيء الذي يتعيّن القيام به. ولكنّ ذلك لا يعني القول بأنّه لا يشعر بالخوف، فمنذ هذه اللّحظة هناك كلمة واحدة فقط تعبر عن بلو، هذه الكلمة هي الخوف.

إنّه يُهدّر وقتاً ثميناً، والآن يتعيّن عليه أن يندفع خارجاً إلى

الشَّارع، أملاً على نحو محموم ألا يكون الأوان قد فات. فبلاك لن يغيب طويلاً ومن عساه يدري ما إذا لم يكن جائئاً عند منعطف الطَّرِيق بانتظار اللَّحظة المناسبة للانقضاء؟ ويندفع بلو مرتقياً درج المبنى الذي يقطنه بلاك، ويتعثر مرتبكاً فيما هو يثقب قفل الباب الأمامي، مواصلاً النَّظر على عجل وراه، ثمَّ يصعد إلى الطَّابق الذي يسكنه بلاك، ويواجهه القفل الثاني بمتاعب تفوق مشكلات الأوَّل، على الرَّغم من أنه ينبغي نظرياً أن يكون أقلَّ تعقيداً، وبمشابه مهمَّة سيرة حتَّى لأكثر المتبدئين فجاجة، ويكشف هذا الارتباك لبلو عن فقدانه السيطرة، تاركاً للأمر أن يسيطر على أعصابه، ولكن حتَّى على الرَّغم من أنه يعلم ذلك فليس هناك ما يمكنه القيام به إلاَّ الاستمرار في تعليق الأمل على أنَّ يديه ستكفَّان عن الارتجاف. ولكنَّ الأمر يمضي من سَمَى إلى أسوأ، وفي اللَّحظة التي تطأ خلالها قدماه غرفة بلاك يساوره الشُّعور بأنَّ كلَّ شيء يلفُّه الظُّلام في أعماقه، وكأنَّما اللَّيل يتغلغل عبر مسامه، جائئاً عليه بثقل هائل، وفي الوقت نفسه يبدو رأسه وكأنه يكبر إذ يمتلئ بالهواء، وكأنَّما يوشك على أن ينتزع نفسه من جسمه وينساب بعيداً في الهواء. يخطو خطوة أخرى إلى الأمام، ثمَّ يفقد وعيه منهاراً إلى الأرضية وكأنَّما فارقت الحياة.

تتوقَّف ساعته مع السَّقوط، وإذ يفيق فإنَّه لا يدري طول الوقت الذي بقيه في هذه الإغماءة، ويستعيد وعيه في البداية على نحو متهافت، مع شعور بأنَّه كان هناك من قبل، ربَّما منذ وقت طويل. وفيما هو يرى الستائر تهتزَّ قرب النافذة المفتوحة، والظُّلال تتحرَّك بصورة غريبة على السَّقْف، يحسب أنه راقد في فراشه في البيت، أثناء

عهد الصبا، عاجزاً عن النوم خلال ليالي الصيف الحارة، ويتصور أنه إذا أصاح السَّمع فسيكون بمقدوره سماع صوتي أبيه وأمه، وهما يتجاذبان أطراف الحديث بهدوء، في الغرفة المجاورة. ولكن ذلك لا يدوم إلاّ لحظة واحدة، ويبدأ بالشعور بالألم في رأسه، ويسجل الغثيان المثير للقلق في معدته، وإذ يدرك في نهاية المطاف مكانه، ينتابه من جديد الذعر الذي سيطر عليه لحظة دخوله الغرفة، وينهض مهتزازاً ويتعثر مرة أو مرتين في غمار ذلك، ويحدّث نفسه بأنه ليس بمقدوره البقاء هنا، وأنه ينبغي أن يخرج. نعم. وفي الحال يتشبّث بمقبض الباب، ولكنه يتذكّر عندئذٍ فجأة السبب في قدومه في المقام الأول، ويخرج المشعل الكهربائي من جيبه، ويضيئه محرّكاً إياه على نحو متقافز في أرجاء الغرفة، إلى أن يسقط الضوء بالمصادفة على رزمة من الأوراق مكدّسة بنظام على حافة مكتب بلاك. ودون أن يفكر مرتين في الأمر يجمع الأوراق بيده الخالية، قائلاً لنفسه إنه لا أهمية للعواقب، وأن تلك ستكون البداية، ثم يشق طريقه إلى الباب.

يصبّ بلو لنفسه لدى عودته إلى غرفته عبر الطّريق، قدحاً من البراندي، ويجلس على فراشه، ويحدّث نفسه بأن عليه الالتزام بالهدوء، ويحتسي البراندي رشفة فأخرى، ثم يصبّ قدحاً آخر. وفيما إحساسه بالذعر ينحسر، يجلّله شعور بالعار، ويحدّث نفسه بأنه تعامل مع الأمر بطريقة خرقاء، وأن ذلك هو كبد الحقيقة. وللمرة الأولى في حياته لم يكن على مستوى اللحظة التي يجابهها، ويجيء ذلك بمثابة صدمة له، أن ينظر إلى نفسه باعتباره فاشلاً، وأن يدرك أنه في أعماقه جبان.

يلتقط الأوراق التي سرقها، آملاً في أن تنتزعه من هذه الأفكار، ولكن ذلك لا يؤدي إلا إلى مفاجمة المشكلة، ذلك أنه ما إن يبدأ بقراءة هذه الأوراق حتى يرى أنها لا تعدو أن تكون التقارير التي بعث بها إلى وايت. ها هي ذي البيانات الأسبوعية بياناً وراء بيان، سواداً على بياض، وقد تجردت من المعنى، ولم تحرّ قولاً، وبدت بعيدة عن حقيقة القضية بعد الصمت عنها. ويشنّ بلو، عندما يراها غارقاً في أعماق نفسه، ثم يأخذ بالضحك في مواجهة ما يجده هناك، ضحكاً خافتاً في البداية ولكنه يعلو أكثر فأكثر ويزداد قوة إلى أن يلهث وهو يلتقط أنفاسه، حتى ليوشك أن يختنق، وكأنه يحاول القضاء على نفسه نهائياً. ويمسك الأوراق بقوة، ويلقي بها عالياً إلى السقف، ويرقب الرزمة وهي تتفرّق وتتناثر وتتهاوى مرفرفة إلى الأرض، ورقة بائسة إثر الأخرى.

ليس من المؤكد ما إذا كان سيقدّر لبلو حقاً أن يفيق، ذات يوم، من أثر أحداث تلك الليلة، وحتى إذا حدث له ذلك، فلا بدّ من ملاحظة أن أياماً كثيرة تنقضي قبل أن يعود إلى ما يشبه ذاته السابقة، وفي غضون ذلك فإنه لا يخلق ذقنه، ولا يبدّل ملابسه، بل ولا يفكر في التحرك قيد أنملة من غرفته. وعندما يحين موعد كتابته تقريره فإنه لا يكثر بذلك، ويقول راکلاً بقدمه أحد التقارير القديمة الملقاة على الأرض: انتهى الأمر، الآن، ولتحلّ بي اللعنة إن كتبت أحدها من جديد.

وطوال معظم الوقت فإنه إمّا راقد في فراشه وإمّا ذارع الغرفة جيئة وذهاباً، متطلّعاً إلى الصور المختلفة التي ألصقها على الحائط منذ بدء



القضية، متمعناً في كلّ منها على التوالي، ومفكراً فيها بقدر ما يستطيع لينتقل منها إلى الصورة التي تليها. هناك جولد، الطيب المكلف بمهام التشريح من فيلادلفيا مع قناع الصبي الصغير. وهناك جبل يكسوه الثلج وفي الركن الأعلى إلى اليمين من الصورة صورة مصغرة للاعب التزلج الفرنسي وقد بدا وجهه في مربع صغير. وهناك جسر بروكلين، وإلى جانبه اثنان من عائلة روبلنج، الأب والابن. وهناك والد بلو وقد ارتدى زيّه الرسمي الخاصّ برجال الشرطة وراح يتلقّى أمراً من جيمي ووكر عمدة نيويورك. ومن جديد هناك والد بلو وهو يرتدي هذه المرّة الزي المدني، وقد وقف محيطاً بذراعه خصر أم بلو في أيام زواجهما الأولى، وقد راحا يتسلمان للكاميرا ابتسامة مشرقة. وهناك صورة لبراون يحيط فيها بلو بذراعه، وقد التقطت أمام مكتبها في اليوم الذي أصبح بلو خلاله شريكاً بالمكتب، وتحتها لقطة مليئة بالحركة لجاكي روبنسون وهو ينطلق إلى القاعدة الثانية، وإلى جوار تلك الصورة صورة لوالث ویتمان، وأخيراً إلى يسار الشاعر مباشرة لقطة من فيلم لروبروت ميتشوم منتزعة من إحدى المجلّات الموجهة إلى القراء من جمهوره، وقد أمسك بمسدّس في يده وراح ينظر وكأنّ الدنيا توشك على الانهيار. وليست هناك صورة لمن لم يقدر لها أن تكون السيّدة بلو، ولكن في كلّ مرّة يقوم بلو بجولة في معرضه الصغير فإنّه يتوقّف أمام بقعة خاوية على الجدار، ويتظاهر بأن صورتها قائمة هناك بدورها.

على امتداد عدّة أيام لا يكثر بلو بالنظر إلى خارج النافذة. فقد أغرق نفسه تماماً في أفكاره بحيث يبدو بلاك وكأنّه غير موجود. إنّ

الدراما تخصّ بلو وحده، وإذا كان بلاك بأحد المعاني هو سبب هذه الدراما، فإنّ الأمر يبدو وكأنّ بلاك قد لعب دوره وألقى حوارهِ وخرج من خشبة المسرح، ذلك أنّ بلو لا يستطيع، عند هذا المنعطف، قبول وجود بلاك، ومن هنا فإنّه ينكر هذا الوجود. وبعد أن انسلّ إلى غرفة بلاك ووقف هناك وحيداً بعد وجوده في حرم عزلة بلاك، إذا جاز هذا التّعبير، فإنّه لا يستطيع الاستجابة لظلام تلك اللّحظة إلّا بإحلال عزلته محلّها.

فدخوله في بلاك معادل لدخوله في نفسه، وما إن يتسقّر داخل نفسه حتّى لا يعود بمقدوره التّفكير في أن يكون في أيّ مكان آخر. ولكن هذا هو على وجه الدّقة مكان وجود بلاك، حتّى وإن كان بلو لا يعرف ذلك.

ومن هنا فإنّه ذات أصيل، وكأنّما بالمصادفة، يقترب بلو من النافذة أكثر ممّا فعل ذلك طوال عدّة أيام، ويتصادف أن يقف أمامها، ثمّ، وكأنّما من أجل الأيام الخوالي، يباعد بين أطراف الستائر ويتطلّع إلى الخارج، وأوّل ما يراه هو بلاك، لا داخل غرفته، وإنّما جالساً في رواق المبنى الذي يقطنه عبر الشّارع، وهو يرمق نافذة بلو. ويتساءل بلو: هل انتهى أمره إذن؟ هل يعني هذا أن الموضوع قد انتهى؟

يستخرج بلو منظاره المكبّر من مؤخّرة الغرفة ويعود إلى النافذة، ويركّز بؤرته على بلاك، ويدرس ملامح الرّجل عدّة لحظات، مركزاً أولاً على قسمة ثمّ على أخرى، على العينين والشفّتين وغيرها، فاصلاً جزئيات الوجه ثمّ مستجمعاً إياها. ويؤثّر في نفسه عمق حزن بلاك، والطريقة التي تتطلّع بها العينان إليه تبدو محرومة من الأمل. ورغماً

عنه، وإذ تمسك هذه الصورة بتلابيبه دونما وعي منه، فإنه يشعر بالإشفاق يتصاعد من أعماقه، اندفاعاً من الرحمة حيال ذلك الشخص المهجور عبر الشارع. غير أنه يتمنى ألا يكون الأمر كذلك، ويودُّ لو أتاحت له الشجاعة لتذخير مسدسه والتصويب على بلاك وإطلاق رصاصة تخرق الرأس. ويحدث بلو نفسه بأنه لن يعلم ما الذي أصابه أبداً، وسيصعد إلى السماء قبل أن تمس جثته الأرض، ولكنه ما إن يمثل هذا المشهد التمثيلي في ذهنه حتى يرتدّ محججاً عنه، ويحدث نفسه بأنه: لا، ليس هذا هو ما يرغب فيه على الإطلاق. وإذا لم يرغب في ذلك فماذا إذن؟ يقول لنفسه، وهو ما يزال يقاوم دفع المشاعر الرقيقة، إنه يرغب في أن يُترك وشأنه، وأن كل ما يريده هو السلام والهدوء، ويتضح له تدريجياً أنه يقف هناك لدقائق طويلة متسائلاً عما إذا لم تكن هناك طريقة يساعد بها بلاك، وعما إذا لم يكن بمقدوره أن يمدّ يد الصداقة إليه. ويفكر بلو في أن ذلك من شأنه أن يقلب المائدة والأمر كله رأساً على عقب، ولكن لم لا؟ لم لا يقوم بما ليس متوقعاً؟ أن يطرق الباب، ويمحو القصة بأسرها - ذلك ليس أقلّ عبثية من أي شيء آخر. ذلك أنه في حقيقة الأمر انتزعت كلّ رغبة في القتال من بلو، ولم يعد يطيق ذلك، ووفقاً لكلّ المظاهر فإن الأمر نفسه ينطبق على بلاك. ويقول بلو لنفسه: انظر إليه، فحسب، إنه أكثر مخلوقات الدنيا حزناً. وعندئذ وفي اللحظة التي يقول خلالها هذه الكلمات يدرك أنه يتحدث عن نفسه أيضاً.

ومن هنا فإنه بعد أن يغادر بلاك الرواق ملتفتاً حوله، وداخلاً المبني مجدداً، يواصل بلو التحديق في البقعة الخاوية. وقبل ساعة أو

ساعتين من الغسوق، يتتعد عن النافذة ويرى الفوضى التي سمح للغرفة بأن تتدهور إلى هاويتها، ويمضي الساعة التالية في إعادة الأمور إلى نصابها، فينطلق في غسل الأطباق، وترتيب الفراش، وتنحية الملابس المتسخة، وإزالة التقارير القديمة عن الأرض، ثم يمضي إلى الحمام فيستحم مطوّلاً، ويحلق ذقنه، ويرتدي ملابس نظيفة، متخيراً أفضل حلّة زرقاء لديه لهذه المناسبة، فكلّ شيء مختلف بالنسبة إليه الآن، مختلف على نحو مفاجئ، ولا رجعة فيه. لا مزيد من الخوف، لا مزيد من الرعدة، لا شيء إلاّ الثقة الهادئة، شعور بمخالفة الصواب، في ما يوشك على القيام به.

وبعد مقدم الليل بوقت قصير، يهدم ربطة عنقه لمرة أخيرة، أمام المرأة، ثم يغادر الغرفة، ماضياً إلى الخارج، عابراً الشارع، وداخلاً المبنى الذي يقطنه بلاك. وهو يعلم أنّ بلاك هناك، إذ إنّ مصباحاً صغيراً يتألق في غرفته. وفيما هو يصعد الدّرج يحاول تصوّر التعبير الذي سيرتسم على محيّا بلاك عندما يبلغه بما في ذهنه. ويطلق الباب مرتين بتهذيب بالغ، ثم يسمع صوت بلاك من الداخل: الباب مفتوح. تفضل!

من العسير القول ما كان بلو يتوقّعه، على وجه الدّقة، ولكن على آية حال لم يكن هذا، لم يكن الشيء الذي يواجهه في اللّحظة التي يدخل فيها الغرفة. بلاك هناك، يجلس في فراشه، وقد وضع القناع على وجهه، من جديد، القناع الذي رآه بلو على وجه الرّجل في مكتب البريد، وقد أمسك بيده اليمنى مسدّساً من عيار ثمانية وثلاثين يكفي لتمزيق رجل إرباً من هذه المسافة القريبة، ولا يقول شيئاً، ويحدّث بلو نفسه: وداعاً لدفن الخلافات، وداعاً لقلب الموائد!

يقول بلاك، مشيراً بالمسدس إلى الكرسي الخشبي أمام المكتب:  
اجلس على هذا المقعد، يا بلو!. ولا يجد بلو خياراً أمامه، وهكذا  
يجلس في مواجهة بلاك الآن، ولكن على مسافة أبعد من أن تسمح  
بانقضاضة مفاجئة عليه، وفي وضع أشد ارتباكاً من أن يفعل شيئاً في  
مواجهة المسدس.

يقول بلاك: كنت بانتظارك، ويسعدني أنك جئت في نهاية الأمر.  
يرد بلو: هذا ما خنته.

هل تشعر بالدهشة؟

ليست دهشة حقيقية، على الأقل ليست إزاءك، وإنما إزاء نفسي،  
ربما، ولكن لأنني غيبي فحسب، فكما ترى جئت إلى هنا الليلة بروح  
الصداقة.

يقول بلاك، بصوت ساخر قليلاً: ولكنك جئت على هذا النحو،  
بالطبع، فنحن صديقان، بالطبع، لقد كنا صديقين، منذ البداية. ألم  
نكن كذلك؟ أفضل الأصدقاء.

يقول بلو: إذا كانت تلك هي الطريقة التي تعامل بها أصدقاءك،  
فمن حسن الحظ، إذن، أنني لست من أعدائك.  
طريف جداً.

ذلك صحيح. إنني الرجل الطريف الأصلي. يمكنك التيقن من  
أنك ستضحك كثيراً بصحبتى.  
والقناع، ألن تسألني عنه.

لست أدري سبباً لذلك. إذا كنت تريد وضع ذلك القناع على  
وجهك، فهذا شأنك.

ولكنك مضطرّ للنظر إليه . أليس كذلك؟  
لم تطرح أسئلة تعرف بالفعل الرّد عليها؟  
إنه شديد الغرابة . أليس كذلك؟  
بالطبع ، إنه شديد الغرابة .  
ومخيف .  
نعم مخيف للغاية .

طيب . إنني أشعر بالودّ نحوك ، يا بلو ، كنت أعلم على الدوام  
أنك الشخص المناسب لي . رجل يتناسب وذوقي .  
لوانك توقفت عن التلويح بالمسدّس ، فقد أبدأ بمبادلتك هذا  
الشعور .

آسف . لا يمكنني القيام بذلك ، فقد فات أوانه .  
وهو ما يعني؟

لم أعد بحاجة لك ، يا بلو!

قد لا يكون من السهل على هذا النحو التخلّص مني ، لقد دفعني  
إلى هذا الأمر ، وأنت الآن مرتبط بي .

لا ، يا بلو ، أنت مخطئ . لقد انتهى كل شيء الآن .  
كفّ عن هذا الحديث ذي الوجهين!

انتهى . الأمر بأسره تمّ تمثيله ، لم يعدّ هناك ما يؤدّي .  
منذ متى؟

منذ الآن . منذ هذه اللحظة .

لقد فقدت رشذك .

لا، يا بلو، إذا كان هناك ما يقال فهو أنني متمالك لرشدي، وفي تمام وعيي. لقد استنفدني الأمر، ولم يبقَ شيء الآن، ولكنك تعلم ذلك يا بلو، تعلم ذلك أفضل من أي شخص آخر.

لماذا لا تضغط على الزناد؟

عندما أكون مستعداً لذلك سأقوم به.

ثم تخرج من هنا، تاركاً جثتي،. إنه احتمال بعيد.

آه، لا، يا بلو، إنك لا تدرك الموقف، لسوف نكون معاً، كما هو الحال دائماً.

ولكنك تنسى شيئاً. أليس كذلك؟

أنسى ماذا؟

يفترض أن تحكي لي القصة. أليس ذلك هو ما يفترض أن ينتهي به الموضوع؟ حدثني بالقصة ثم قل وداعاً!

إنك تعرفها بالفعل، يا بلو، ألا تفهم ذلك؟ إنك تعرف القصة عن ظهر قلب.

ولأي شيء تكثر في المقام الأول؟

لا تطرح أسئلة بلهاء!

وأنا - ماذا كان دوري؟ استراحة فكاھية؟

لا، يا بلو، كنت بحاجة إليك، منذ البداية، ولولا وجودك لما أنجزت شيئاً.

بحاجة إلي من أجل ماذا؟

من أجل تذكيري بما يفترض بي أن أقوم به، ففي كل مرة كنت

أرفع فيها ناظري كنت أجدك هناك، تراقبني، تترصدني، على مرمى  
النظر دائماً، تحدق فيّ بعينيك. كنت العالم بأسره بالنسبة إليّ، يا بلو،  
وقد حولتك إلى موتي، أنت الشيء الوحيد الذي لا يتغير، الشيء  
الوحيد الذي يُبرز ما في الأعماق إلى الخارج.

والآن لم يبقَ شيء. كتبت مذكرة إشعار بانتحارك، وهذه هي نهاية  
الأمر.

بالضبط.

أنت أحق. أنت أحق، لعين، بائس.

أعرف ذلك، ولكن ليس خيراً من أيّ شخص آخر. هل  
ستجلس هناك وتحديثي بأنك أكثر ذكاء مني؟ على الأقل كنت أعرف  
ما أقوم به. كانت لديّ مهمّة يتعين إنجازها، وقد أنجزتها. ولكنك  
تشعر بالضياح، يا بلو، لقد ضللت طريقك، منذ اليوم الأول.

يقول بلو، وقد وقف فجأة وراح يضرب على صدره غاضباً  
متحدّياً بلاك أن يقتله: لم لا تضغط على الزناد إذن أيها الوغد؟! لم لا  
تطلق عليّ النار الآن وتنتهي من الموضوع؟

ثمّ يتقدّم بلو خطوة نحو بلاك وعندما لا تخرج الطلقة يخطو خطوة  
أخرى، ثمّ ثالثة، صارخاً بالرجل المقنّع أن يطلق النار، ومن غير أن  
يكثرث بما إذا كان سيحيا أم سيموت. وبعد لحظة يقف أمامه  
مباشرة. ودونما تردّد يطيح بالمسدّس من يد بلاك بضربة عنيفة،  
ويأخذ بخناقه، ويدفعه إلى الجثو على قدميه، ويحاول بلاك المقاومة،  
ويجرب التصدي لبلو ولكنّ هذا الأخير أقوى منه كثيراً وقد استبدّ به



الغضب إلى حدّ الجنون، وكأنّما انقلب إلى شخص آخر. وإذ تنهال الضربات الأولى على وجهه بلاك وأسفل خاصرته ومعدته فإنّه لا يستطيع القيام بشيء. وبعد وقت قصير يتمدّد بلا حراك على الأرض، ولكن ذلك لا يمنع بلو من مواصلة هجومه، ضارباً بلاك الذي فقد وعيه بقدميه، وملتقطاً إياه، ولاطماً رأسه بالأرض، ومنهاراً على جسمه بلكمه إثر الأخرى. وعندما يبدأ غضبه المجنون بالانحسار، ويدرك ما جنته يدها لا يستطيع القول على وجه اليقين ما إذا كان بلاك حياً أو ميتاً. ويزيل القناع عن وجهه بلاك، ويضع أذنه على فمه، مصغياً لصوت تنفّسه، ويبدو أنّ هناك شيئاً، ولكنّه لا يستطيع القول ما إذا كان صادراً عن بلاك أو عنه، ويحدّث نفسه بأنّه إذا كان بلاك حياً الآن فإنّ ذلك لن يستمرّ طويلاً، وإذا كان ميتاً فليكن ما يكون.

ينبعث بلو واقفاً، وقد تمزّقت حلّته، ويبدأ بجمع أوراق مخطوط بلاك من فوق المكتب. ويستغرق ذلك عدّة دقائق، وعندما يستجمعها كلّها يطفئ المصباح، في الركن، من غير أن يكثر حتى بالقاء نظرة على بلاك.

يتجاوز الوقت منتصف الليل عندما يعود بلو إلى غرفته عبر الشّارع، ويضع المخطوط على المائدة، ويمضي إلى الحمام، ويغسل الدّم عن يديه، ثمّ يبدّل ملابسه، ويصبّ لنفسه قدحاً من الويسكي، ويجلس إلى المائدة أمام كتاب بلو. الوقت قصير. ولسوف يأتون قبل أن يدرك ذلك، وعندئذٍ ستفتح الجحيم أبوابها. ومع ذلك فإنّه لا يدع هذا يتدخّل في العمل المائل بين يديه.

يقرا القصّة بتعمّق، كلّ كلمة فيها من البداية إلى النهاية. ولدى فراغه منها يُقبِلُ الفجر، وتبدأ الغرفة بالتخلّص من ظلامها. يسمع تغريد عصفور، يسمع وقع أقدام تنطلق إلى الشارع، يسمع صوت سيّارة تنطلق عبر جسر بروكلين. يقول لنفسه: كان بلاك على حقّ، فقد عرفت الأمر عن ظهر قلب.

ولكنّ القصّة لم تنته. ماتزال هناك اللّحظة الأخيرة، وهي لن تحلّ إلاّ بعد أن يغادر بلو الغرفة. هذا هو حال الدّنيا: لا لحظة أقلّ، ولا أخرى أكثر. وعندما ينهض بلو من مقعده، ويعتمر قبعته، ويجتاز الباب، ستكون تلك هي النهاية.

ليس من المهمّ إلى أين يمضي، عقب ذلك؛ ذلك أنّ علينا أن نتذكّر أنّ كلّ ذلك قد حدث منذ أكثر من ثلاثين عاماً، في أيام طفولتنا الباكرة، ومن ثمّ فإنّ كلّ شيء ممكن، وأنا أفضل أن أحسب أنّه مضى بعيداً، استقلّ قطاراً، في ذلك الصباح، ومضى إلى الغرب، ليبدأ حياة جديدة، بل من الممكن أن لا تكون أمريكا نهاية الأمر بالنّسبة إليه، ففي أحلامي السريّة أحبّ أن أفكّر في بلو وهو يحجز بطاقة للسّفر بحراً، ويبحر بسفينة ما إلى الصّين، لتكن الصّين، إذن، وسندع الأمر عند ذلك الحدّ، فالآن ينهض بلو من مقعده، ويعتمر قبعته، ويخرج من الباب. ومنذ هذه اللّحظة فصاعداً لا نعرف شيئاً.

## الغرفة الموصدة



يبدولي، الآن، أن فانشو كان على الدوام هناك. إنه المنطلق الذي يبدأ منه كل شيء بالنسبة إليّ، وبدونه ما كنت لأعرف من أكون. وقد التقينا قبل أن نستطيع الحديث، وليدين يزحفان على العشب، في حفاصيهما. وعندما بلغنا السابعة، وخزنا أصابعنا بالإبر، وجعلنا من نفسينا أخوين في الدّم مدى الحياة. وعندما أفكر الآن في طفولتي فإنني أرى فانشو؛ فقد كان هو من يلازمي، ومن يشاركني أفكارى، ومن أراه عندما أتطلع حولي.

لكنّ ذلك كان منذ وقت طويل، وقد كبرنا، وانطلقنا إلى أماكن مختلفة، وابتعد أحدهنا عن الآخر، وأعتقد أنّه ليس في هذا كلّ أمر غريب، فحياتنا تمضي بنا في دروب لا سيطرة لنا عليها، وما من شيء على وجه التقريب ليبقى معنا، فالأمر يموت بموتنا، والموت شيء يقع لنا كلّ يوم.

في مثل تشرين الثاني (نوفمبر) هذا، منذ سبع سنوات، تلقيت رسالة من امرأة تدعى صوفي فانشو، وكان مستهلّها: «ليست لك بي سابق معرفة، وإني لأعتذر عن كتابة هذه الرّسالة لك من غير مقدّمات، لكنّ أموراً حدثت، وليس أمامي خيار آخر في ظلّ الظروف الراهنة». وقد تبين أنّها زوجة فانشو، وكانت تعرف أنّي كنت رفيق صبا زوجها، وتعرف كذلك أنّي أقيم في نيويورك إذ قرأت كثيراً من المقالات التي نشرتها في المجلّات.

وقد جاء التّفسير، على نحو فظّ، وبلا تمهيد، في الفقرة الثانية من

الرّسالة . فقد كتبت تقول إنّ فانشو اختفى ، وقد رأته لأخر مرّة منذ أكثر من ستّة أشهر، ومنذ ذلك الحين لم تلتقُ منه كلمة واحدة، ولا أدنى إشارة إلى المكان الذي يُحتمل وجوده فيه، ولم تعثر الشرطة على أثر له، وعاد التحريّ الخاصّ الذي استعانت به حاوي الوفاض . لم يكن هناك شيء مؤكّد، ولكنّ بدا أنّ الحقائق تتحدّث عن نفسها . فلربّما كان فانشو قد مات، وكان ممّا لا معنى له الاعتقاد بأنّه سيعود . وفي ضوء هذا فإنّ هناك شيئاً مهمّاً ينبغي مناقشته معي، وهي تتساءل عمّا إذا كنت سأوافق على مقابلتها .

أدت هذه الرّسالة إلى إصابتي بسلسلة من الصّدّامات المحدودة . فقد كان هناك الكثير من المعلومات التي ينبغي استيعابها جميعها في الحال . وكانت هناك قوى كثيرة تتجادبني في اتجاهات شتى . لقد عاود فانشو الظهور فجأة في حياتي، آتياً من رحاب المجهول، ولكن ما إن ذكر اسمه حتّى اختفى من جديد . كان متزوجاً، ويقطن نيو يورك، وما كنت أدري عنه شيئاً . وساورني على نحوٍ يشي بالأنانيّة شعور بالضيق من أنّه لم يكثرث بالاتّصال بي . اتّصال هاتفي، بطاقة بريديّة، نخب على شرف الأيّام القديمة - ما كان من المتعذّر تدبير أمر كهذا، ولكن الخطأ وقع على كاهلي بالقدر نفسه؛ فقد كنت أعلم أين تقطن أمّ فانشو، ولو أنّني أردت العثور عليه لكان من اليسير عليّ سؤاها . وحقيقة الأمر أنّني ضربت عنه صفحاً، وقد توقّفت حياته، بالنسبة إليّ في اللّحظة التي مضى فيها كلّ منّا في طريق، وهو الآن ينتمي إلى الماضي لا إلى الحاضر . كان شبحاً أحمله خلال تجوالي في أعماقي، شيئاً مختلفاً يعود إلى ما قبل التّاريخ، أمراً لم يعد حقيقياً .

وحاولت أن أتذكر آخر مرة رأيته فيها، ولكن ما من شيء بدا واضحاً، وشرّد ذهني لحظات عدّة، ثمّ تجمّد عند اليوم الذي مات فيه أبوه، وكنا وقتذاك في المدرسة الثانوية، وما كان يمكن أن نكون قد تجاوزنا السابعة عشرة من العمر.

أتصلت هاتفياً بصوفي فانشو، وأبلغتها بأنني سيسعدني أن أراها عندما يناسبها ذلك، وأنفقنا على اللقاء في اليوم التالي، وبدت ممتنة، على الرغم من أنني أوضحت لها أنني ليست لي معرفة بموضعه ولم أقابله ولا حدّثته.

كانت تقطن في مبنى مؤلّف من شقق صغيرة للإيجار في تشلسي، طوبى اللون، وغير مزوّد بمصعد، ويبدو درجه كثيراً، وقد تهاوى طلاء الجدران. وصعدت إلى الطابق الخامس حيث تقطن، مصحوباً بأصوات المذياع والمشاجرات وتدفّق مياه التنظيف في المراحيض، وهي الأصوات التي تترامى من الشقق خلال الصعود. وتوقّفت لالتقط أنفاسي، ثمّ طرقت الباب. لاحت عين من خلال الثقب الخاصّ بذلك في الباب، وتردّد صليل سحب الرتاج، ثمّ ألفت صوتي فانشو واقفة أمامي، وهي تحتضن وليداً بيدها اليسرى. وفيما راحت تبتسم لي وتدعوني للدخول، مضى الوليد يحاول أن يجذب شعرها البنيّ المسترسل، ولكنها ابتعدت عن قبضته، وأمسكته بيديها، وأدارت وجهه نحوي. وقالت: هذا هو «بن» نجل فانشو، وقد ولد منذ ثلاثة أشهر ونصف الشهر. فتظاهرت بالإعجاب بالطفل الذي كان يلوّح بيديه، وقد سال لعابه المبيض على ذقنه، ولكنني كنت أكثر اهتماماً بالأم، فقد كان فانشو محظوظاً؛ إذ كانت المرأة جميلة، تفيض

عينها السوداء وان باللّماحية، وتوشكان على الوصول إلى حدّ الضراوة في نفاذهما، وكانت نحيلة القوام، لا تتجاوز الطّول العادي، مع لمسة من التمهّل في أسلوبها، تجعلها مثيرة ويقظة لما حولها في وقت واحد، وكأنّها تنظر إلى العالم من قلب يقظة داخلية عميقة. وما من رجل يمكن أن يهجر هذه المرأة من تلقاء نفسه، خاصّة وهي حامل بطفله. كان ذلك أمراً مؤكّداً بالنسبة إليّ، وحتىّ قبل أن تطأ قدمي الشّقة عرفت أنّ فانشو قد لقي مصرعه حتماً.

كانت شقّة صغيرة من شقق شركة السّكك الحديدية، مؤلّفة من أربع غرف، محدودة الأثاث، وقد خصّصت إحدى الغرف للكتب ومائدة للعمل، واستخدمت أخرى كغرفة للجلوس، والأخريان للنّوم. وكان المكان حسن الترتيب، وإن شاب القدم والريثة جزئياته، ولكنّه مريح بصورة إجمالية. وإذا لم تكن الشّقة تبرهن على شيء فإنّها تثبت على الأقلّ أنّ فانشو لم يكرّس وقته لاكتساب المال، ولكنّي لست بالذي ينظر نظرة الازدراء إلى القدم والريثة، فقد كانت شقّتي أسوأ حالاً وأكثر إعتاماً من هذه الشّقة، وكنت أعلم ما يعنيه الكدّ كلّ شهر من أجل دفع الإيجار.

قدّمت لي صوفي فانشو مقعداً، وأعدّدت لي قدحا من القهوة، ثمّ جلست على الأريكة الزرقاء العتيقة، وقد استقرّ الوليد في حجرها، ومضت تحدّثني بقصّة اختفاء فانشو.

كانا قد التقيا في نيويورك منذ ثلاث سنوات، وخلال شهر أقاما معاً، وبعد ذلك بأقلّ من عام تزوّجا. قالت إنّ فانشو لم يكن بالرجل



الذي تسهل معاشته، ولكنها أحبته، ولم يكن هناك في سلوكه ما يوحي بأنه لا يحبها، وقد سعدا معاً، وكان يتطلع بلهفة إلى موعد ميلاد الطفل، ولم يكن بينهما ما يسيء إلى علاقتها. وذات يوم من شهر نيسان (أبريل) أبلغها بأنه ذاهب إلى نيو جيرسي في أصيل ذلك اليوم لزيارة أمه، ثم لم يعد. وعندما اتصلت صوفي بحماتها في وقت لاحق من تلك الليلة، علمت أن فانشو لم يقم بتلك الزيارة قط. ولا سبق أن حدث شيء من هذا القبيل. ولكن صوفي قرّرت الانتظار، فلم تكن ترغب في أن تكون واحدة من أولئك الزوجات اللاتي يركبهن الفرع عندما يتغيّب أزواجهن، وكانت تعلم أن فانشو بحاجة إلى هامش من الحرية يفوق هامش معظم الرجال، بل إنها قرّرت ألا تطرح أية أسئلة عندما يعود إلى الدار. ولكن أسبوعاً انقضى، وأعقبه آخر، وفي نهاية المطاف مضت إلى الشرطة، وكما توقّعت لم يكثر رجال الشرطة كثيراً، فلم يكن هناك الكثير مما يمكنهم القيام به ما لم يقم دليل على وجود جريمة. فالرجال، في نهاية الأمر، يهجرون زوجاتهم كل يوم، ومعظمهم لا يرغبون في أن يعثر عليهم أحد. وقد قام رجال الشرطة بإجراء تحقيقات روتينية، ثم اقترحوا عليها أن تستعين بخدمات تحرّ خاص. وبمساعدة حماتها التي عرضت دفع التكاليف، استعانت بخدمات رجل يدعى كوين. وقد عمل هذا الأخير بجدّ في القضية خمسة أسابيع أو ستّة، ولكنه التمس في النهاية العذر لعدم رغبته في الحصول على المزيد من مالهما، من غير نتيجة بالمقابل، وأبلغ صوفي بأن فانشو ما يزال بالبلاد في الغالب، ولكنه ليس بمقدوره أن يجدد ما إذا كان حياً أو ميتاً. ولم يكن كوين بالرجل

المحتال، ووجدته صوفي متعاطفاً، ورجلاً يرغب في تقديم المساعدة بصورة حقيقية. وعندما جاء إليها في ذلك اليوم الأخير أدركت أن من المستحيل المجادلة في الحكم الذي أصدره. فلم يكن هناك ما يمكن القيام به؛ وإذا كان فانشو قد قرّر أن يهجّرها فإنه ما كان لينسلّ دوغما كلمة؛ إذ لم يكن من طبعه الخوف من الحقيقة والتراجع عن المواجهات التي تسيء للنفس. ومن هنا فإن اختفائه ما كان يمكن إلا أن يعني شيئاً واحداً، هو أن ضرراً رهيباً قد حاق به.

ومع ذلك فقد واصلت تعليق الآمال على أن شيئاً سيحدث. فقد قرأت حالات فقدان للذاكرة، ولبعض الوقت سيطر هذا عليها باعتباره احتمالاً يائساً: أن يكون فانشو متعثراً في مكان ما من غير أن يعرف هويته، وقد سلبت منه حياته وإن كان ما يزال حياً، وأنه ربما كان على وشك الرجوع إلى نفسه في أية لحظة. وانقضى المزيد من الأسابيع، ثم بدأت نهاية حملها تدنو، ولم يبقَ على ميلاد الطفل إلا أقل من شهر - الأمر الذي كان معناه أنه يمكن أن يرى النور في أية لحظة - وشيئاً فشيئاً شرع الطفل الذي لم يولد في استقطاب أفكارها كافة، وكأنما ليس في أعماقها المزيد من المجال لفانشو. وكانت تلك هي الكلمات التي استخدمتها لوصف شعور - ليس في أعماقها المزيد من المجال - ثم استطردت قائلة إن ذلك ربما كان معناه أنها على الرغم من كل شيء غاضبة من فانشو، غاضبة من تخليها عنها، حتى وإن لم يكن ذلك عن قصد. وقد بدا لي هذا القول أميناً على نحو صارم، فلم يسبق لي أن سمعت قط من قبل أي شخص يتحدّث عن المشاعر الشخصية على ذلك النحو - بذلك الانطلاق ويمثل هذا

الإغفال للمعتقدات التقليدية - وإنني لأدرك، فيما أكتب هذا الآن،  
أنني في ذلك اليوم الأوّل قد انزلت إلى حفرة في الأرض، وأنني  
أتهاوى إلى مكان لم أطرقه قطّ من قبل.

واصلت صوفي حديثها قائلة إنها استيقظت ذات صباح بعد ليلة  
شاقّة، وأدركت أنّ فانشو لن يعود. كانت تلك حقيقة فجائية،  
ومطلقة، ولا توضع موضع التساؤل من جديد أبداً. وعندئذٍ  
انخرطت في البكاء، وواصلت إطلاق العنان لدمعها أسبوعاً في حداد  
على فانشو وكأنه مات بالفعل. غير أنّها عندما توقفت الدموع عن  
الانهار وجدت نفسها من غير شيء تندم عليه. فقد وصلت إلى أنّ  
فانشو قد وهب لها لعدد من السنين، وذلك كلّ ما هنالك، وأمّا الآن  
فهناك طفل يتعيّن التّفكير فيه، ولا أهميّة لشيء آخر حقاً. وكانت  
تعرف أنّ ذلك يبدو قولاً أجوف، ولكنّ الحقيقة هي أنّها استمرّت في  
العيش بهذا الإدراك للأمور، وقد واصل جعل الحياة شيئاً ممكناً  
بالنسبة إليها.

طرحتُ عليها سلاسل من الأسئلة، وردّت على كلّ سؤال منها  
بهدوء وتدبّر، وكأنّما تبذل جهداً حتّى لا تلوّن ردودها بمشاعرها. كيف  
عاشا، على سبيل المثال، وما هو العمل الذي كان فانشو يقوم به،  
وما الذي حدث له في السّنوات التي أعقبت آخر لقاء لنا. شرع  
الطفل في إحداث ضجيج على الأريكة، ففتحت صوفي، من غير أن  
تتوقّف عن حديثها، قميصها الخارجي الفضفاض، وجعلت ترضعه  
من أحد ثدييها أولاً ثمّ من الآخر.

لم يكن بوسعها الحديث بيقين عن أيّ شيء سبق لقاءها الأوّل

لفانشو، حسبها قالت. فقد كانت تعرف أنه هجر الكلية بعد دراسة استمرت عامين، وأفلح في الحصول على تأجيل للخدمة العسكرية من الجيش، وانتهى به الحال إلى العمل لبعض الوقت على متن إحدى السفن، وهي تحسب أنها كانت ناقلة نפט، أو سفينة لنقل البضائع. وبعد ذلك أقام في فرنسا عدّة سنوات، في باريس أولاً، ثمّ كمشرف على مزرعة في الجنوب. ولكن ذلك كان غامضاً تماماً بالنسبة إليها، لأنّ فانشو لم يتحدّث عن الماضي كثيراً قطّ. وفي وقت لقائهما لم يكن قد انقضى على عودته إلى أمريكا إلاّ ثمانية شهور أو عشرة، وقد اصطدم أحدهما بالآخر بالمعنى الحرفي للصدام إذ وقفا كلاهما قرب باب إحدى مكتبات منهاتن ذات أصيل ممطر من أحد أيام السبت، وهما يحدّقان عبر الواجهة ويتظران أن تكفّ الأمطار عن الانهار. وكانت تلك هي البداية، ومنذ ذلك اليوم، وحتى يوم اختفاء فانشو، فقد ظلّ معاً طوال الوقت تقريباً.

قالت إنّ فانشو لم يلحق بعمل منتظم قطّ، ولم يحصل على ما يمكن أن يسمّى وظيفة حقيقية، فلم يكن المال يعني الكثير بالنسبة إليه، وقد حاول أن يقصّر تفكيره فيه على أدنى قدر ممكن. وكان في السّنوات التي سبقت لقاءه لصوفي قد قام بجميع أنواع الأعمال، المهمة التي قام بها في البحريّة التجاريّة، العمل في مخزن، التدريس، كتابة أعمال إبداعية يضع الآخرون أسماءهم عليها، العمل كنادل، طلاء الشقق، نقل الأثاث لصالح شركة تعمل في هذا المجال، ولكنّ كلّ عمل كان مؤقتاً، فما إن يكسب في كلّ مرّة ما يكفي لتغطيته نفقاته لعدّة أشهر حتى يترك العمل. وعندما أقام مع صوفي لم يلحق بأيّ عمل في البداية، وكانت هي تعمل بتدريس الموسيقى في مدرسة

خاصة، وبمقدورها الإنفاق عليهما معاً من راتبها. وبالطبع، كان عليهما التزام الحذر، ولكن مائدتهما لم تفتقر للطعام، ولم يكن لديهما ما يشكوان منه.

لم أقاطع حديثها، وقد بدا لي جلياً أنّ هذا الإيضاح ليس إلاّ بداية فحسب، تفاصيل يتعيّن التخلّص منها قبل الالتفات إلى العمل الذي يفرض نفسه. وأياً كان ما فعله فانشو لزوجته فإنّه ليست له صلة تذكر بقائمة الأعمال الهامشيّة تلك، وقد عرفت ذلك على الفور، قبل أن يقال أيّ شيء ففي نهاية المطاف لم نكن نتحدّث عن أيّ شخص، وإنّما عن فانشو، ولم يكن الماضي بعيداً للغاية بحيث لا أستطيع تذكّر من يكون.

ابتسمت صوفي عندما أدركت أنّي قد سبقتها، وأنّني أعرف ما هو آتٍ، وأعتقد أنّها قد توقّعت أن أعرف. وقد أكّد لي هذا فحسب ذلك التوقّع، وأزال أيّ شكوك قد تكون ساورتها حول مطالبتهما لي بالقدوم. وقد عرفت من غير أن يقال لي، ومنحني ذلك الحقّ في أن أكون هناك، وأن أصغي إلى ما عندها.

قلت:

- واصل كتابته، وأصبح كاتباً. أليس كذلك؟

أومأت صوفي برأسها مشيرة بالإيجاب. فقد كان الأمر كذلك تماماً، أو جانباً منه على الأقلّ. وأمّا ما أثار حيرتي فهو أنّني لم أسمع عنه شيئاً قطّ، ولو أنّ فانشو كان كاتباً لصادفت اسمه يقيناً في موضع ما، فقد كان عملي أن أعرف هذه الأمور، وبدا من غير المحتمل أنّ فانشو، من بين كلّ الناس، قد غاب عني، ورحلت أتساءل عمّا إذا

كان قد عجز عن العثور على ناشر لأعماله . وكان ذلك هو السؤال الوحيد الذي بدا منطقياً .

قالت صوفي: لا ، كان الأمر أكثر تعقيداً من ذلك ، فهو لم يحاول قط أن ينشر أعماله . وفي البداية ، عندما كان في مقتبل العمر ، كان أكثر تهيئاً من أن يبعث بأي شيء إلى ناشر ، إذ ساوره شعور بأن عمله ليس على القدر الكافي من الجودة . ولكنه حتى في وقت لاحق ، وعندما زادت ثقته بنفسه ، اكتشف أنه يفضل البقاء بعيداً عن الأنظار ، وقال لها إن البدء بالبحث عن ناشر من شأنه أن يشئت انتباهه ، وأنه في جوهر الأمر يُؤثر قضاء وقته عاكفاً على العمل ذاته . وقد أثارها هذه اللامبالاة ، ولكنها عندما كانت تضغط عليه في هذا الشأن كان يردّ بهزة كتف قائلًا: ليس هناك ما يدعو إلى التعجّل ، فسوف يصل إلى ذلك إن عاجلاً أو آجلاً .

وقد فكّرت مرّة أو مرّتين في أن تنتزع زمام المبادرة ، وأن ترسل مخطوطاً إلى أحد الناشرين سراً ، ولكنها لم تمضِ قُدماً في هذا الشأن قط ، فقد كانت هناك قواعد في الزواج ما كان يمكن أن تنتهكها . وأياً كان الخطأ في الموقف الذي يتبناه فإنه لم يكن أمامها مجال إلاّ لمسايرته . قالت إنه كان هناك كمّ كبير من الأعمال وقد أثار جنونها التفكير في أنّ هذا الكمّ موجود في العلية من غير أن يُتصرّف به . ولكنّ فانشو كان يستحقّ الولاء منها وقد بذلت قصارى جهدها في الامتناع عن التّعقيب على الموقف .

أقبل عليها فانشو ذات يوم ، قبل اختفائه بثلاثة أشهر أو أربعة بإيماءة هي أقرب إلى الحلّ الوسط . فقد وعدها بأنه سيتحرّك في هذا

الاتجاه في غضون عام، ولكني يبرهن لها على جدّيته فقد أبلغها بأنّه إذا حدث لأيّ سبب أنّه لم يفِ بما وعد به فإنّ لها أن تحمل كلّ مخطوطاته إليّ وتضعها بين يدي. وقال إنني الوصيّ على أعماله، وأنّ الأمر متروك لي فيما يتعلّق بتقرير مصير هذه الأعمال. فإذا ما اعتقدت أنّها جديرة بالنشر فإنّه سيدعن لحكمي. وقال إنّهُ فضلاً عن ذلك فإنّه إذا ما حدث له أيّ مكروه في غضون ذلك فإنّ عليها أن تقوم بإعطائي المخطوطات في الحال، والسّماح لي بالقيام بكلّ التّرتيبات، على أساس أنّي سأتلقي خمسة وعشرين في المائة من أيّة أموال تدرّها الأعمال. وأمّا إذا اعتقدت أنّ كتاباته غير جديرة بالنشر فإنّه ينبغي أن أعيدها إلى صوفي، وعليها أن تتلفها حتّى آخر صفحة منها.

وقالت صوفي إنّ ما قاله في هذا الشأن قد أثار انزعاجها، وقد أوشكت على الضّحك إزاء جدّية فانشو حيال الأمر. فالمشهد بكامله لم يكن ممّا يتفق مع سلوكه، وراحت تتساءل عمّا إذا لم تكن له علاقة بالحقيقة القائلة بأنّها قد أصبحت حاملاً لتوّها. فربّما كانت فكرة الأبوة قد دفعته إلى شعور جديد بالمسؤوليّة، وربّما كان قد عقد العزم بشدّة على البرهنة على حسن نواياه فبالغ في التّأكيد على الموضوع. وأيّاً كان السّبب فقد وجدت نفسها سعيدة لتغييره رأيه، بل لقد بدأت تتراءى لها مع تقدّم حملها أحلام لم تتّجّ بها عن نجاح فانشو، وعلّقت الآمال على أن تتمكّن من ترك عملها وتربية الطّفل من غير ضغوط ماليّة. وقد خرج كلّ شيء بالطّبع، عن مساره، وسرعان ما نُسيّت أعمال فانشو وضاعت في غمرة الاضطراب الذي أعقب اختفائه. وفي وقت لاحق، وعندما بدأت الأمور تهدأ، قاومت تنفيذ تعليماته خوفاً من أن

يلقي ذلك بظلال من النحس على آية فرصة قد تتاح لها لرؤيته من جديد، ولكنها استسلمت بالفعل، مدركة أنه لا بد من احترام كلمة فانشو. وقد كان هذا هو السبب في أنها كتبت إلي، وذلك هو السبب في جلوسي معها الآن.

ومن جانبي لم أدر كيف أتصرف جبال هذا الأمر، فقد كان الموقف مفاجأة لي، ولمدة دقيقة أو دقيقتين لم يكن مني إلا أن جلست ساكناً هنالك، مصارعاً الشيء الهائل الذي دُفع نحوي دفعاً. وبقدر ما يسعني القول لم يكن هناك ما يدفع فانشو لاختياري لأداء هذه المهمة، ذلك أنني لم أراه منذ عشر سنوات أو أكثر، بل لقد أوشك أن يكون مفاجأة لي أن أعلم أنه مازال يتذكرني. كيف يتوقع مني أن أتحمّل مثل هذه المسؤولية - أن أقف موقف القاضي الذي يحكم على إنسان وأن أقول ما إذا كانت حياته جديرة بأن تُعاش أو لا؟ حاولت صوفي أن توضح الموقف، وقالت إن فانشو لم يكن على اتصال بي، ولكنه غالباً ما كان يحدّثها عني، وفي كل مرة يرد فيها ذكر اسمي كان يصفني بأنني أفضل صديق في العالم بالنسبة إليه، الصديق الحق الذي ظفر به، كما أنه أفلح في مواصلة متابعة أعمالي، وكان على الدوام يشتري المجلات التي تنشر فيها مقالاتي، وفي بعض الأحيان كان يقرأ لها هذه المقالات بصوت عالٍ، وقالت صوفي إنه قد أعجب بما كتبت، وكان فخوراً بي، وشعر بأن في وسعي إنجاز شيء عظيم.

أخرجني كل هذا الشناء، فقد كان هناك الكثير من التوتر في صوت صوفي، وساورني بشكل من الأشكال شعور بأن فانشو يتحدث بلسانها، مُبْلِغاً إياي بهذه الأمور عبر شفيتها. وأعترف بأن ذلك قد



أرضى كبريائي، ولاشك أن ذلك كان شعوراً طبيعياً في تلك الظروف، فقد كنت أمراً بوقت عصيب آنذاك، والحقيقة هي أنني لم أكن أشاطرها هذا الرأي المفعم بالتقدير لما أكتبه. حقاً أنني كتبت الكثير من المقالات، ولكنني لم أر في ذلك ما يدعو إلى الاحتفاء، كما أنني لم أكن فخوراً به على نحو خاص. وفي اعتقادي الشخصي أنه لم يكن يفوق كثيراً العمل المتذلل. كنت قد بدأت بأمال كبار، معتقداً أنني سأصبح روائياً، وأني سأتمكن من كتابة شيء يمس قلوب الناس، ويؤثر في حياتهم، وشيئاً فشيئاً أدركت أن ذلك لن يحدث، فليس في أعماقي مثل هذا الكتاب، وفي وقت من الأوقات حدثت نفسي بأن عليّ التخلي عن أحلامي، فقد كان أمراً أكثر بساطة أن أمضي في كتابة المقالات، على أي حال، وبالعمل الجاد وبالتقدم بإطراء من مقال إلى آخر يمكنني كسب عيشي. وأياً كان الأمر فقد أسعدني أن أرى اسمي مطبوعاً على الدوام تقريباً، وأدركت أن الأمور كان يمكن أن تمضي أسوأ مما هي عليه، فلم أبلغ الثلاثين بعد وقد أحرزت شيئاً من الشهرة. وكنت قد بدأت بكتابة عروض للدواوين والروايات، والآن يمكنني الكتابة عن أي شيء تقريباً وإنجاز مهمة جديدة بالتقدير في غمرة ذلك. أفلام، مسرحيات، عروض فنية، حفلات موسيقية، كتب، بل ومباريات بيسبول - ما عليهم إلا أن يطلبوا فحسب، وسرعان ما أنجز ما يطلبونه. وقد نظر إليّ العالم باعتباري شخصاً المعياً، ناقداً يشق الطريق إلى أعلى، ولكنني في أعماقي شعرت بأنني عجوز، ومستنفد بالفعل. وما أنجزته حتى الآن لم يرق إلا إلى جزء من لاشيء على الإطلاق. لقد كان تراباً

كثيراً، ومن شأن أدنى ريح تهب أن تنثره بدداً.

من هنا فإن ثناء فانشو قد أثار في نفسي خليطاً من المشاعر. فقد كنت أعرف من ناحية أنه مخطئ. ومن ناحية أخرى (وهنا يسود الغموض والاختلاط) أردت أن أصدق أنه على حق. وحدثت نفسي قائلاً: هل من الممكن أن أكون قد قسوت في الحكم على نفسي بأكثر مما ينبغي؟ وما إن بدأت بالتفكير في ذلك حتى ضعت في عالم الأفكار. ولكن منذ الذي يتردد في الوجود على فرصة لتحرير نفسه - أي رجل ذلك الذي تبلغ قوته حدّ فض إمكانات الأمل؟ وأطل من أعماقي بصيص خاطرة قوامها أنني سيمكنتي ذات يوم أن أبعث في عيني ذاتي وأحسست بدفق مفاجئ من الشعور بصداقة فانشو عبر السنين، عبر كل صمت السنين الذي فرّق بيننا.

على ذلك النحو حدث الأمر، انهرت أمام إطراء رجل لم يكن له وجود، وفي لحظة الضعف تلك قلت نعم، قلت إنني سيسعدني أن أقرأ الأعمال وأن أقوم بما أستطيعه لتقديم المساعدة. ابتسمت صوفي حيال ذلك - لم أستطع أن أحدّد قطّ ما إذا كان ذلك من فرط السعادة أو خيبة الأمل - ثم انبعثت واقفة من الأريكة، وحملت الطفل إلى الغرفة المجاورة. توقفت أمام خزانة طويلة من شجر البلوط، وفتحت الباب، وتركته يتأرجح على مفاصله. قالت: هاك! كانت هناك صناديق ومغلفات ومطويات وكراسات تمتلئ بها الرفوف، أشياء أكثر مما ظننت أنه بالإمكان أن يوجد. وأتذكر أنني ضحكت محرّجاً ومحاولاً الخروج بنكتة هزيلة، ثم عكفنا بروح العمل على مناقشة خير

السُّبُل المتاحه أمامي لنقل المخطوطات من الشُّقَّة، واستقر رأينا بالفعل على حقيبتين كبيرتين. واستغرق ذلك الجانب الأعظم من ساعة، ولكننا في النهاية أفلحنا في ضغط كل شيء فيهما. قلت إنه من الجلي أن الأمر سيستغرق مني بعض الوقت لإلقاء نظرة على كل المواد، فقالت لي صوفي إن عليّ ألا أدع القلق يساورني، ثم اعتذرت عن الإثقال عليّ بمثل هذه المهمة، فقلت إنني أتفهم الأمر، وأنه ما من سبيل كان متاحاً أمامها لرفض تنفيذ طلب فانشو. لقد كان كل شيء مفاجئاً للغاية، وفي الوقت نفسه رهيباً ومضحكاً على وجه التقريب. وضعت صوفي الجميلة الطفل على الأرض برقة واحتضتني معربة عن شكرها، ثم قبلت وجنتي. وللحظة حسبت أنها ستنخرط في البكاء، لكن اللحظة انحسرت، ولم تنهمر الدموع، ثم حملت الحقيبتين على مهل، هابطاً الدرج، ومضيت إلى الشارع. كانتا معاً في ثقل رجل.

الحقيقة أكثر بساطة مما أودّ أن تكون عليه. ومن الحقائق أنني أحببته، وأنه كان أقرب أصدقائي، وأني عرفته خيراً من أي شخص آخر، وما من شيء أستطيع قوله يمكن أن يقلصها. ولكن تلك هي البداية فحسب، وفي غمرة محاولتي الشاقة لتذكر الأمور على نحو ما كانت عليه حقاً أدرك الآن أنني قد نأيت عن فانشو، وأن جانباً مني قد قاومه على الدوام. ولست أحسب أنني قد شعرت بالارتياح تماماً بوجوده، وخاصة ونحن في مرحلة النمو. وإذا كان الحسد يُعدّ تعبيراً أقوى من أن يستخدم فيما أحاول قوله فإنني أدعوه تشككاً، شعوراً مُضمرًا بأن فانشو كان أفضل مني بشكل من الأشكال. وكلّ ذلك كان مجهولاً بالنسبة إليّ في حينه، ولم يكن هناك أي شيء محدّد قطعاً يمكنني أن أشير إليه. غير أن الشعور بقي مراوحاً بأن هناك تمييزاً بالسليقة في أعماقه يفوق ما لدى الآخرين، وأن ناراً لا ينطفئ لها أوار تبقيه على قيد الحياة، وأنه كان ذاته حقاً، على نحو يفوق ما استطعت أن أمل فيه أبداً.

في وقت مبكر، كان تأثيره تأثيراً بارزاً تماماً بالفعل، وقد امتدّ ذلك إلى الأشياء الصغيرة كافة. فإذا ثبت فانشو إبزيم حزامه على جانب من سرواله، فإنني كنت أثبت حزامي في الوضع نفسه. وإذا أقبل فانشو على الملعب متعللاً حذاء رياضياً أسود فإنني كنت أطلب حذاء مماثلاً في المرّة التالية التي تصحبني فيها أمي إلى محل الأحذية. وإذا جلب فانشو إلى المدرسة نسخة من «روبسون كروزو» فإنني كنت أبدأ بقراءة روبسون كروزو في المساء عينه بالدار. ولم أكن وحدي في

تصرفي على هذه الشاكلة، ولكنني ربما كنت الأكثر إخلاصاً، ومن يذعن بأكبر قدر من القبول للسلطة التي يهيمن بها علينا. ولم يكن فانشو نفسه مدركاً لتلك السلطة، ولا شك أن ذلك هو السبب في أنه واصل التمتع بها. ولم يكن مكثرناً بالاهتمام الذي يحظى به، فكان يمضي في هدوء مهتماً بشأنه، ولا يستخدم تأثيره للتلاعب بالآخرين. ولم يكن ممن يندرجون في المزاج الذي تعكف عليه بقيتنا، ولا ممن يتخابثون أو يقعون في مشكلات مع المدرسين، ولكن أحداً لم يأخذ عليه ذلك. لقد وقف بمعزل عنا، ومع ذلك فقد كان هو الذي يجمعنا معاً، الذي نلجأ إليه ليحكم فيما شجر بيننا من منازعات، الذي نستطيع الاعتماد على إنصافه وعلى تجاوزه لمشاجراتنا الصغيرة. كان فيه شيء بالغ الجاذبية بحيث تودّ على الدوام أن يكون بجانبك وكأنما كان بمقدورك أن تحيا في مجاله وأن يمسك ما هو عليه. إنه هنالك من أجلك، ومع ذلك فإنه في الوقت نفسه لا سبيل للوصول إليه. وكان يساورك الشعور بأن هناك جوهرًا داخلياً في أعماقه يستعصي على الاختراق، مركزاً غامضاً للاحتجاب. وكان تقليده يعني على نحو من الأنحاء مشاركة في ذلك الغموض، ولكنه يعني كذلك إدراك أنه ليس بمقدورك أن تعرفه أبداً على نحو حقيقي.

إنني أتحدّث عن طفولتنا الباكرة ذاتها - عن وقت يعود إلى خمس سنوات أو ست أو سبع من عمرينا. الآن أصبح الكثير من هذا مدفوناً، إنني أعرف أنه حتى الذكريات يمكن أن تكون زائفة. ومع ذلك فلا أحسب أنني سأكون مخطئاً في القول بأنني قد احتفظت بهالة تلك الأيام في أعماقي، وبقدر ما يسعني الشعور بما أحسسته وقتذاك

فإنني أشكّ في أنّ تلك المشاعر يمكن أن تكذب. وأياً كان ما أصبح عليه فانشو بالفعل فإن شعوري هو أنّ الأمر بدأ بالنسبة إليه في ذلك الوقت. لقد شكّل نفسه بسرعة بالغة، وكان وجوداً محدّداً بشكل واضح في الوقت الذي بدأنا فيه الحياة المدرسيّة. كان فانشو واضحاً وجلياً، بينما بقيتينا مخلوقات مجردة من الشكل، وبين يديّ تقلّب لا يتوقّف، تتخبّط في عماء من لحظة إلى أخرى. لست أعني أنه قد نما بسرعة - فهو لم يبدُ قطّ أكبر ممّا هو عليه - ولكنه كان ذاته قبل أن يكبر. ولسبب أو لآخر لم يتعرّض للاضطرابات التي تعرّض بقيتينا لها، وكانت الدراما الخاصّة به ذات نظام مختلف - أكثر جوانية، وأشدّ وحشيّة بلا شكّ - ولكن من غير التغيّرات الفجائية التي بدأنا تتخلّل حياة الآخرين جميعاً.

وهناك حادثة تتوهج بالحياة على نحو خاص بالنسبة إليّ، وهي تتعلّق بحفلة عيد ميلاد دُعيّت إليها وفانشو، في أيام الصف الثّاني الدرّاسي، الأمر الذي يعني أنّها تنتمي إلى بداية الفترة التي يمكنني الحديث عنها بأيّ قدر من الدّقة. كان ذلك في أوّل يوم سبت من أيام الربيع، وقد انطلقنا سيراً على الأقدام إلى الحفلة مع صديق لنا يدعى دنيس والدن. وقد عاش دنيس حياة أكثر مشقّة من حياتنا؛ أمّ مدمنة على الخمر، وأب غارق في العمل، وإخوة وأخوات لا حصر لهم. وقد زرت بيته مرّتين أو ثلاثاً - مكان كبير ومظلم وأقرب إلى الأطلال - ويمكنني تذكّر أنّ أمّه قد أفرعتني، وذكّرتني بساحرة في حكاية خرافية. كانت تُمضي يوماً بأسره وراء باب غرفتها الموصدة، مرتدية ثوب حمّامها على الدّوام، ووجهها الكابوسي امتداد من

التجاعيد، وتطلّ برأسها إلى خارج الغرفة بين الحين والآخر، ثم تصرخ في أطفالها بشيء ما. وفي يوم الحفلة كنت قد زوّدتُ ومعني فانشو هديتين على نحو مناسب، مغلّفتين بورق ملون وبشريطين معقودين لتقديهما للصبيّ المحتفى به. غير أنّ دنيس لم يكن معه شيء، وقد شعر بالمرارة حيال ذلك. وبمقدوري تذكّر محاولة تعزيته عن ذلك بعبارة جوفاء أو أخرى: لا أهميّة لذلك، ما من أحد يهتمّ، ولن يلحظ أحد ذلك في غمرة كلّ الفوضى. ولكن دنيس كان مهتماً، وهذا هو ما أدركه فانشو في التوّ. ودون أيّ إيضاح التفت إلى دنيس، وسلّمه هديته. قال: إليك هذه، خذها، سأقول لهم إنني تركت هديتي في الدّار. وكان ردّ فعلي الأوّل هو الاعتقاد بأنّ دنيس سيرفض هذه الإيماءة الوديّة، وأنّه سيشعر بأنّ إشفاق فانشو إهانة له. ولكنني كنت مخطئاً، فقد تردّد لحظة محاولاً استيعاب هذا التغيّر المفاجئ في رياح الحظ، ثمّ أوما برأسه موافقاً وكأنّه يقرّ بحكمة ما فعله فانشو. لم يكن عملاً من أعمال الخير بقدر ما كان عملاً من أعمال العدالة، ولهذا السّبب كان بمقدور دنيس قبوله من غير إذلال لنفسه. وقد انقلب الشيء إلى ضده، وكان ذلك لمسة سحرية، مزيجاً من العفوية والافتناع المطلق، وإنني لأشكّ في أنّ أحداً غير فانشو كان يمكن أن ينجز هذه اللّمسة.

مضيت بعد الحفلة مع فانشو إلى بيته، وكانت أمّه هناك جالسة في المطبخ، وسألتنا عن الحفلة، وما إذا كان الصبيّ المحتفى به قد أعجبتّه الهدية التي ابتاعها له. وقبل أن تتاح لفانشو فرصة التفوّه بأيّ شيء انطلقتُ سارداً قصّة ما فعله، ولم تكن لديّ نيّة لتوريطه في المتاعب، ولكن كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أحتفظ بالقصّة

لنفسي، فقد فتحت إيماءة فانشو عالماً جديداً بأسره أمامي: الطريقة التي يمكن بها أن ينسرب شخص في مشاعر شخص آخر، وأن يستوعبها تماماً، بحيث لا تعود لمشاعره هو نفسه أهمية. كان ذلك أول عمل أخلاقي حقّ أشهده، ولم يبدُ أي شيء آخر جديراً بالحديث عنه. غير أنّ أمّ فانشو لم تكن على القدر نفسه من الحماس. قالت: نعم، كان ذلك شيئاً رقيقاً وكرامياً، ولكنه خاطئ كذلك، فالهدية قد كلفتها مالاً، وبإعطاء الهدية لشخص غير المحتفى به فإنّ فانشو قد سرق ذلك المال منها بمعنى من المعاني، وفوق ذلك فقد تصرف على نحو غير مهذب بالذهاب إلى الحفلة من غير هدية، الأمر الذي من شأنه أن ينعكس عليها بشكل سيئ لأنها المسؤولة عن تصرفاته. واستمع فانشو بعناية إلى أمه، ولم يلفظ كلمة واحدة. وبعد أن فرغت أمه من حديثها لم ينسب بينت شفة، وسألته أمه عمّا إذا كان قد فهم ما قالت، فقال: نعم، إنه فهم. ولربّما كان الأمر سينتهي عند هذا الحد، ولكن فانشو مضى عندئذٍ، وبعد صمت قصير، قائلاً إنه ما يزال يعتقد أنه على صواب، وأنه لا يعنيه شعورها حيال الأمر، وسوف يفعل الشيء نفسه في المرّة المقبلة. وأعقبت هذا الحوار ضجة كبرى، فقد غضبت السيدة فانشو إزاء عناده، ولكن فانشو تمسك بموقفه رافضاً الانحناء في مواجهة فيض تقريرها، وبالفعل أمرته بملازمة غرفته، وقيل لي إنّ عليّ مغادرة الدار. وقد صعقتني عدم الإنصاف من جانب أمه، ولكنني عندما حاولت الحديث دفاعاً عنه، لوح فانشو مودّعاً، وبدلاً من مواصلة الاحتجاج تحمّل عقابه بصمت واختفى في غرفته.



كانت الحادثة بأسرها ذات طابع يقتصر على فانشو وحده: التصرف الخيري العفوي، الاعتقاد الذي لا رجعة عنه بأن ما فعله هو الصواب، والاستسلام الصامت، السليبي تقريباً، للعواقب. وأياً كان تميّز سلوكه فإنك تشعر على الدوام بأنه منفصل عن ذلك السلوك. وقد كانت هذه الخصلة، أكثر من أي شيء آخر، هي التي أخافتني منه وأبعدتني عنه. كنت أقرب كثيراً من فانشو، وأعجب به إلى حدّ كبير، وأرغب على نحو يائس في الارتقاء إلى مستواه، ثم فجأة تجميء لحظة أدرك فيها أنه غريب عني، وأن الطريقة التي يجيهاها داخل نفسه لا يمكن أن تتطابق أبداً مع الطريقة التي احتاج إلى العيش بها. لقد أردت أكثر مما ينبغي من الأشياء، وساورتني رغبات أكثر مما ينبغي، وقد عشت في قبضة الواقع المباشر على نحو أكثر امتلاء بحيث لم أستطع قطّ الوصول إلى تلك اللامبالاة. كان يعينني أن أنجز على نحو طيب، وأن أترك أثراً بارزاً في نفوس الناس من خلال الإشارات الفارغة لطموحي: علامات طيبة، رسائل الجامعة، جوائز فيما يتنافس بصدده في ذلك الأسبوع. وقد ظلّ فانشو مبتعداً عن ذلك كلّه دونما اكتراث، وكان يقف هادئاً في ركنه، من غير أن يبدي اهتماماً. وإذا أدى عملاً على نحو ممتاز فقد كان ذلك رغماً عنه ودونما كبير جهد ولا عناء ولا اكتراث بما قام به. وهذا الوضع يمكن أن يثير الضيق، وقد استغرقت وقتاً طويلاً في تعلّم أن ما هو جيّد بالنسبة إلى فانشو ليس بالضرورة جيّداً بالنسبة إليّ.

غير أنني لا أريد المبالغة، فلئن كانت لي وفانشو خلافاتنا بالفعل فإنّ أبرز ما أتذكره عن طفولتنا هو عنفوان صداقتنا. كنا جارين،

وفناء منزل كلِّ منَّا يمتدُّ إلى الآخر ليشكِّلا مرجة لا حواجز فيها وامتداداً من الطين والتراب، كما لو كنَّا ننتمي إلى دار واحدة. وكانت أمانا صديقتين حميمتين وأبوانا لاعبين للتنس لا يفترقان في لعبهما، ولم يكن لأيِّ منَّا أخ، وبالتالي كانت تلك ظروف مثاليَّة، إذ لم يكن يقف بيننا شيء. ولم يكن قد فصل بيننا في الميلاد إلاَّ أسبوع واحد أو أقل، وقد أمضينا طفولتنا في الفناء معاً، مستكشفين العشب زحفاً على أربع، منتزعين الزهور، وواقفين ومنطلقين بخطانا الأولى في اليوم نفسه (هناك صور توثق هذا). وفي وقت لاحق تعلَّمتنا البيسبول وكرة القدم في الفناء معاً، وبيننا قلاعنا، ولعبنا ألعابنا، واخترنا عوالمنا في الفناء، وعقب ذلك كانت هناك جولاتنا في أرجاء البلدة، والأصائل التي انطلقنا فيها على دراجتينا، والحوارات التي لا تنتهي. وأحسب أنه سيكون من المستحيل أن أعرف أيَّ شخص معرفة وثيقة على نحو ما عرفت فانشو وقتذاك. وتذكَّر أمي أننا كنَّا مرتبطين للغاية، إلى حدِّ أننا عندما كنَّا في السادسة من العمر سألناها عما إذا كان بمقدور الرجال أن يتزوَّج أحدهم من الآخر، فقد أردنا أن نعيش معاً عندما نكبر، ومَنْ غير المتزوَّجين يمكنهم فعل ذلك؟ كان فانشو يريد أن يكون ملاحاً فضائياً، وأما أنا فأردت أن أكون من قدامى المحاربين. وكنَّا نفكِّر في دار رحة، في الرِّيف، مكانٍ تغدو فيه السَّماء مظلمة للغاية ليلاً، بحيث تمكن رؤية كلِّ النجوم، وتوجد أعداد وفيرة من الحيوانات التي يتعيَّن رعايتها.

عندما أعود بذاكرتي إلى الورا أجد من الطَّبِيعي أن يصبح فانشو كاتباً، فقد بدا أن قسوة انسحابه إلى أعماقه توشك أن تقتضي ذلك.

وحتى في المدرسة الإعدادية كان يؤلف قصصاً موجزة، وإنني لأشك في أنه قد جاء عليه وقت بعد سن العاشرة لم ينظر فيه إلى نفسه باعتباره كاتباً. وفي البداية، بالطبع، لم يبدُ أن ذلك يعني الكثير. كان هو وستفنسون مثلين أعليين بالنسبة إليه، وقد أسفر ذلك عن الهراء الصبياني المعتاد. «ذات ليلة، في عام الربِّ واحد وخمسين وسبعمائة وألف، كنت أنطلق في عاصفة ثلجية قاتلة نحو دار أسلافي عندما صادفت شخصاً يشبه الشَّيخ في الجليد» ذلك النوع من الكتابة، المليء بالعبارات المطَّاطة والتحوُّلات المبالغ فيها في العقدة. وأذكر في الصَّفِّ السَّادس أن فانشو كتب رواية تحرُّ قصيرة تقع في حوالي خمسين صفحة، سمح له المدرِّس بقراءتها على مسامعنا في حلقات تستغرق كلَّ منها عشر دقائق يومياً في نهاية اليوم الدَّرَاسي. وكنا جميعاً فخورين بفانشو ومندهشين حيال الأسلوب الدَّرَامي الذي يقرأ به ممثلاً كلَّ دور من الأدوار الخاصَّة بالشخصيَّات. وتغيب القصة عن ذاكرتي الآن، ولكنني أتذكر أنها كانت معقَّدة بلا انتهاء، وتتوقَّف نهايتها على شيء من قبيل الهويَّات المختلطة لزوجين من التوائم.

غير أن فانشو لم يكن طفلاً عاكفاً على الكتب، فقد كان أكثر تفوقاً في الألعاب من أن يصنَّف في هذه الفئة، وأكثر تجذراً في وسطنا من أن ينسحب إلى أعماق ذاته، وطوال كلِّ تلك السَّنوات الباكرة كان يترك لدى المرء انطباعاً بأنه لا يوجد شيء لا يُحسِّن القيام به، وما من شيء لا يمكنه القيام به خيراً من أيِّ شخص آخر. كان أفضل لاعب بيسبول، وأحسن طالب، وخير من يرعى كلَّ الفتية. وكان أيِّ شيء من هذه الأمور بمفرده كافياً لجعله يحتلَّ مكانة خاصَّة، ولكنها معاً

جعلته يبدو بطولياً، فتي مسّته يد ساحرة. غير أنه رغم تفوّقه الفذّ ظلّ واحداً منا، لم يكن فتي عبقرياً أو عصفوراً يغرد خارج السرب، فلم تكن له موهبة عجائبيّة من شأنها إبعاده عمّن هم في عمره. كان طفلاً عادياً، ولكنه أكثر من هذا، إن أمكن ذلك، أكثر تناغماً مع نفسه، طفلاً عادياً على نحو أكثر مثاليّة بشكل يتجاوز بقيتنا.

وفي أعماقه لم يكن فانشو الذي عرفته شخصاً جسوراً. ومع ذلك فقد حلّت أوقات صدمني فيها باستعداده للوثوب إلى مواقف خطيرة. ووراء كلّ هذا التماسك السطحي بدا أن هناك ظلاماً هائلاً، دافعاً لاختبار ذاته، ولخوض غمار المخاطر، وللمضيّ عند حافات الأشياء. وخلال طفولته كان لديه ولع باللّعب حول مناطق البناء، وصعود السّلام والسقالات والحفاظ على التوازن فوق أخشاب تمتدّ على هوة من الماكينات وأكياس الرّمال والأوحال. وكنت أتوفّر قلقاً، بعيداً، فيما فانشو يقوم بهذه المخاطر، وأتوسّل إليه على نحو صامت أن يتوقّف، ولكنني لم أقل شيئاً قطّ، وكنت أرغب في المغادرة لكنني أخشى القيام بذلك خوفاً من سقوطه. ومع مضيّ الوقت أصبحت هذه الدوافع أكثر تعقيداً، فقد كان يحدثني عن «تذوق الحياة». قال إنّ عليّ أن أجعل الحياة شاقّة بالنسبة إليّ، وأن أبحث عن المجهول. كان هذا هو ما أراده، وقد تزايد ذلك كثيراً مع نموه. وذات مرّة، عندما كنّا في حوالي الخامسة عشرة من العمر، أقنعتني بقضاء نهاية الأسبوع معه في نيويورك، نجوب الشوارع، وننام على مقعد في محطة بن العتيقة، ونحادث المشرّدين، ونرى كم نستطيع الصّمود من غير أن نتناول الطّعام. وأذكر أنني سكرت في السّابعة من صباح يوم أحد

في سنترال بارك، وتقيّات على العشب في أكثر من موضع. وقد كان هذا بالنسبة إلى فانشو شيئاً جوهرياً، خطوة أخرى نحو إثبات ذاته، ولكنه لم يكن بالنسبة إليّ إلا سقوطاً كثيباً بائساً إلى شيء لم أكنه. ومع ذلك فقد واصلت مسيرته، شاهداً مسلوب اللب، أشارك في السعي من غير أن أكون جزءاً منه، سانشو في سنّ المراهقة، أمطي حماري، وأرقب صديقي وهو يقاتل نفسه.

بعد شهر أو شهرين من عطلة نهاية الأسبوع التي أمضيناها في التسكّع صحبني فانشو إلى مبغى في نيويورك (وقد ربّ صديق له هذه الزيارة) وهناك خضنا أول تجربة جنسيّة لنا. أتذكّر شقّة صغيرة مبنية بالحجر الرمليّ الأسمر، في الأبروست سايد، قرب النهر، وكانت تضمّ مطبخاً صغيراً، وغرفة نوم معتمة، وتدلّى بينهما ستارة من نوع رديء. كانت هناك في الشقّة امرأتان زنجيتان، إحداهما عجوز بدينة، وأما الأخرى فشابة جميلة. ولما لم يكن أيّ منا يرغب في المرأة الأكثر تقدماً في العمر، فقد اضطررنا إلى تحديد أيّنا سيتقدّم أولاً، وما لم تخني ذاكرتي فإننا مضينا بالفعل إلى البهو، وألقينا بقطعة نقد في الهواء، كوسيلة للتحديد، وبالطبع فاز فانشو بالدور الأول، وبعد دقيقتين وجدت نفسي جالساً في المطبخ الصّغير مع المرأة البدينة. راحت تدعوني بكلمة تحبّب، مذكرة إياي بين الفينة والأخرى بأنها مازالت طوع أمري، إذا غيرت رأيي، وكنت أشدّ عصبية من أن أقوم بأيّ شيء غير هزّ رأسي نفيّاً، ولم أفعل شيئاً غير الجلوس هناك مصغياً للهات فانشو على الجانب الآخر من الستارة. لم يكن في وسعي إلاّ التّفكير في شيء واحد: أن عضوي يوشك أن

يمضي إلى الموضع الذي يقبع فيه عضو فانشو الآن. ثم حلّ دوري، وحتى الآن لست أدري ماذا كان اسم الفتاة. كانت أول امرأة عارية رأيتها متجسدة أمامي، وكانت تأخذ عُريها مأخذ الأمر العادي الذي ينبغي أن يُتقبل بودّ، بحيث أنّ الأمور كان يمكن أن تمضي على نحو طيّب، بالنسبة إليّ، لو أنّ حذاء فانشو لم يشوش ذهني، وقد بدا ظاهراً في المسافة ما بين الستارة والأرضية، وقد التمع في ضوء المطبخ، وكأنا انتزع من جسمه. كانت الفتاة رقيقة، وبذلت قصارى جهدها لمساعدتي، ولكنّ الأمر كان صراعاً طويلاً، وحتى في النهاية لم أشعر بلذّة حقيقية. وفيما بعد، عندما سرت مع فانشو تحت رداء الغسق السابغ، لم يكن لديّ الكثير ممّا أقوله عن نفسي، غير أنّ فانشو بدا مغتبطاً، كما لو كانت هذه التجربة قد أكّدت نظريته عن تذوق الحياة. وعندئذٍ أدركت أنّ فانشو أكثر جوعاً للحياة ممّا يمكن أن أكون عليه.

عشنا حياة آمنة هناك في الضواحي. لم تكن نيويورك تبعد إلّا عشرين ميلاً فحسب، ولكنها كان يمكن أن تكون بعيدة، كالصين، بالنسبة إلى عالمنا الصغير المؤلف من المروج والدّور الخشبية. وفي وقت بلوغ فانشو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة أصبح نوعاً من المنفى الداخلي، مسائراً تحركات السلوك الواجب الالتزام به، ولكنه معزول عمّا يحيط به، وعامر النفس بالازدراء للحياة التي أرغم على عيشها. ولم يجعل من نفسه شخصاً عصياً أو متمرداً على نحو ظاهر. وبعد أن حظي بقدر كبير من الاهتمام في طفولته، ووقف على الدوام في قلب الأشياء، اختفى على وجه التقريب في الوقت الذي وصلنا خلاله إلى

مرحلة الدراسة الثانويّة، وكره بؤرة الضوء مفضلاً عليها هامشيّة تمسك بها في عناد. وكنت أعرف أنّه يعكف على الكتابة بجديّة في ذلك الوقت (على الرّغم من أنّه كفّ في السادسة عشرة من عمره عن إطلاع أحد على عمله) ولكنني أنظر إلى ذلك باعتباره أقرب إلى العرّض منه إلى السّبب. في العام الأوّل من الدّراسة الجامعيّة، على سبيل المثال، كان فانشو هو الوحيد في صفّنا الذي شقّ طريقه إلى منتخب الجامعة في البيسبول، وقد لعب بامتياز بالغ لعدّة أسابيع، ثمّ ترك الفريق بلا سبب ظاهر. وأذكر أنّي سمعته يصف الحادثة لي، في اليوم الذي أعقب وقوعها، فقد مضى إلى مكتب المدرّب، بعد التدريب، وأطلّ مرتدياً الزيّ الموحد. وكان المدرّب قد أخذ حمّاه لتوّه، وعندما دخل فانشو الغرفة كان المدرّب يقف إلى جانب مكتبه عارياً كما ولدته أمّه، وفي فمه سيجارة وقد اعتمر قبعة البيسبول الخاصّة به. وتلذذ فانشو بالوصف مرّكزاً على ما في المشهد من عبث ومجملًا إيّاه بتفاصيل عن جسم المدرّب القصير والبدن وضوء الغرفة وبريكة الماء على الأرضيّة الإسمنتيّة الرماديّة، ولكن ذلك كان كلّ ما في الأمر، مجرد وصف، سلسلة من الكلمات منفصلة عن أيّ شيء قد يتعلّق بفانشو نفسه. وقد شعرت بخيبة الأمل لأنّه ترك الفريق، ولكن فانشو لم يفسّر لي حقّاً ما فعله، باستثناء القول بأنّه قد وجد البيسبول مضجراً.

وشأن الكثير من الموهوبين، أتت لحظة على فانشو لم يعد فيها راضياً عمّا يواتيه بسهولة. فربّما كان من الطّبيعي بعد أن تملك ناصية كلّ ما طلب منه في وقت مبكّر أن يبحث عن التحدّيات في موضع

آخر. وفي ضوء حدود حياته كطالب مدرسة ثانوية في بلدة صغيرة فإن الحقيقة القائلة بأنه وجد ذلك الموضوع الآخر في أعماق نفسه ليست مدهشة ولا غير مألوفة، ولكنني أعتقد أن في الأمر ما يتجاوز ذلك. فقد حدثت أمور لعائلة فانشو في حوالي ذلك الوقت، ولا شك أنها تركت أثراً كبيراً، وسيكون من الخطأ ألا نأتي على ذكرها. وكونها قد تركت مثل هذا الأثر الفاصل هو أمر قائم بذاته، ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأن لكل شيء أهميته. ففي نهاية المطاف لا تعدو كل حياة أن تكون مجمل حقائق يرتبط بعضها ببعض ويتوقف عليه، مسلسلاً من تقاطعات واكبتها الصدفة، ومن رميات بغير رام، ومن أحداث عشوائية لا تفصح إلا عن افتقارها للهدف.

عندما كان فانشو في السادسة عشرة من عمره اكتشف الأطباء أن أباه مصاب بالسرطان. وعلى امتداد عام ونصف العام شاهده وهو يُختصر، وخلال ذلك الوقت تفككت العائلة ببطء. وربما كانت أم فانشو هي التي تعرضت لعناء أكثر من غيرها. فقد حافظت على المظاهر من غير خضوع للانفعالات، وأشرفت على الاستشارات الطبية والترتيبات المالية، وحاولت الحفاظ على الحياة الأسرية، وراوحت في صورة نوبات بين النزعة التفاؤلية البالغة فيما يتعلق بفرص الشفاء وبين نوع من اليأس الذي يفضي إلى الشلل. وقد قال فانشو إنها لم تتمكن قط من قبول الحقيقة الحتمية التي واصلت الانتصاب أمامها. وكانت تعرف ما يحدث، ولكنها لم تحظ بالقدرة على الإقرار بأنها تعرف. وبمضي الوقت بدأت تحيا وكأنها تمسك أنفاسها، وغدا سلوكها متفاقم الغرابة: نوبات من تنظيف الدار بتوتر



تدوم الليل بكامله، خوفٌ من وجودها بمفردها في الدّار (ويرتبط ذلك بتغيّيات مفاجئة وبلا تفسير عن الدّار) ومدى بكامله من الأوجاع المتخيّلة (أنواع من الحساسية، ارتفاع ضغط الدّم، نوبات الدّوار، وقرب النّهاية شرعت في الاهتمام بنظريّات شتّى في غرابة الأطوار، وبالتّنجيم، وبالظواهر النّفسيّة وبالمفاهيم الروحانيّة الغامضة، إلى أن أصبح من المستحيل الحديث معها من دون الوصول إلى الصّمت فيما هي تحاضر عن تدهور الجسم البشريّ.

غدت العلاقات بين فانشو وأمه متوتّرة، فقد تشبّثت به بحثاً عن المساندة، وتصرّفت وكأنّ ألم العائلة من نصيبها وحدها. وتعيّن على فانشو أن يكون العضو المتهاسك في العائلة، فلم يكن عليه الاهتمام بنفسه فقط، وإمّا كان عليه تحمّل المسؤوليّة عن أخته التي لم يتجاوز عمرها الثّانية عشرة وقتذاك. ولكن ذلك جلب معه مجموعة أخرى من المشكلات، ذلك أن إيلين كانت صبيّة تعاني من المتاعب وتفترق إلى الاتّزان، وفي الفراغ النّابع من غياب الوالدين الذي نتج عن المرض، بدأت بالتّطلع إلى فانشو لإمدادها بكلّ شيء، فأصبح أباهما وأمه ومستودع حكمتها وشعورها بالارتياح. وقد أدرك فانشو الطّابع المرضيّ لاعتمادها عليه، ولكن لم يكن أمامه الكثير ممّا يمكنه القيام به في هذا الشأن، من غير أن يلحق بها الضّرر على نحو لا سبيل إلى إصلاحه. وأذكر كيف كانت أمّي تتحدّث عن جين المسكينة (أي السيّدة فانشو) وكيف كان الأمر بأسره فظيماً بالنّسبة إلى «الطفلة». ولكنني كنت أعرف أنّ فانشو هو بشكل من الأشكال الذي عانى أشدّ العناء، وكلّ ما في الأمر أنّه لم تُتَح له الفرصة قطّ لإظهار ذلك.

وأما فيما يتعلق بوالد فانشو فهناك القليل مما أستطيع قوله بأيّ درجة من التيقن. وقد كان بالنسبة إليّ صغراً، رجلاً صموتاً، رقيق الحاشية، ولم أعرفه بصورة جيّدة قطّ. وبينما كان أبي يميل إلى البقاء في الدار كثيراً، ولاسيّما في نهاية الأسبوع، فإنّ والد فانشو كان نادراً ما يراه أحد. وكان محامياً على درجة من البروز، وكانت لديه في وقت من الأوقات مطامح سياسيّة، ولكن هذه المطامح انتهت بسلسلة من خيبة الآمال. وغالباً ما كان يعمل حتى وقت متأخر من الليل، ويتوقّف بسيّارته في المرآب في الثامنة أو التاسعة صباحاً، وغالباً ما أمضى يوم السّبت وجزءاً من يوم الأحد في مكتبه. وإنّني لأشكّ في أن يكون قد عرف تماماً ما يتعيّن عليه القيام به تجاه ابنه، ذلك أنّه بدا رجلاً لا يكتنّ كثيراً من المشاعر نحو أبنائه، وشخصاً لم يعد يذكر شيئاً عن طفولته. لقد كان السيّد فانشو منتمياً إلى عالم الكبار تماماً، منغمساً أشدّ الانغماس في موضوعات جادّة خاصّة بالكبار، بحيث أنّني أتصوّر أنّه كان من المتعذّر عليه ألاّ ينظر إلينا باعتبارنا مخلوقات من عالم آخر.

لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره عندما لفظ آخر أنفاسه. وعلى امتداد الأشهر الستّة الأخيرة من عمره، وبعد أن تخلّى الأطباء عن الأمل في إنقاذه، رقد في غرفة النّوم الإضافيّة في دار آل فانشو، مطلاً على الفناء عبر النّافذة، عاكفاً على قراءة كتاب وصل إليه عَرَضاً، ومتناولاً المسكّنات، ومغالباً النّعاس. وفي ذلك الوقت أمضى فانشو معظم وقت فراغه معه. وعلى الرّغم من أنّني لا أستطيع إلّا تخمين ما حدث، فإنّني أحسب أنّ الأمور قد تغيّرت بينهما. وعلى الأقلّ فإنّني

أعرف كيف عمل بجدٍ في هذا الشأن، وتغيّب عن المدرسة في كثير من الأحيان ليكون معه، محاولاً جعل نفسه شخصاً لا سبيل إلى الاستغناء عنه، إذ كان يرعاه باهتمام لا يكلّ. وقد كان ذلك شيئاً شديد الكآبة بالنسبة إليه، وربما أقوى من قدرته على الاحتمال. وعلى الرّغم من أنّه قد بدا كمن تلقى الأمر بروح طيبة، واستجمع أطراف شجاعة لا تتأقّ إلاّ لصغار السنّ، فإنّي أتساءل في بعض الأحيان عمّا إذا كان قد قدّر له أن يجتاز هذه المحنة على الإطلاق.

هناك شيء واحد آخر أريد أن أذكره هنا. ففي نهاية هذه الفترة - في النهاية ذاتها، عندما لم يكن أحد يتوقّع أن يظّل والد فانشو على قيد الحياة أكثر من أيّام معدودات - مضيت مع فانشو في نزهة بالسيارة بعد المدرسة. وكان ذلك في شباط (فبراير). وبعد بضع دقائق من انطلاقنا، بدأ ثلج خفيف بالتساقط، وانطلقنا بلا هدف محدّد عبر عدد من البلدات المجاورة، من غير أن نكثر كثيراً بالموضع الذي نصل إليه. وبعد فترة أوقفنا السيارة، وشرعنا في التجول سيراً على الأقدام، وقرأنا كتابات نقشت على الأحجار، ورحنا نخمّن ما يمكن أن تكون عليه حياة أولئك الذين نقشوها، وعمّنا الصّمت، وأوغلنا في المسير، وتبادلنا الحديث، وعدنا إلى الصّمت من جديد. وكان الثلج قد أخذ يتساقط ثقيلاً في ذلك الوقت، وراحت الأرض تكتسي بالبياض. وفي موضع ما وسط المقبرة كان هناك قبر حفر حديثاً. وتوقّفت مع فانشو عند حافته، وأطللنا إلى أعماقه. وبمقدوري أن أتذكّر كم كان هادئاً، وكم بدا العالم بعيداً عنّا. وعلى امتداد وقت طويل لم يتحدّث أيّ منّا، ثمّ قال فانشو إنّه يريد أن يرى كيف يبدو

القبر عند أسفله . ومددت له يدي ، وأمسكته بإحكام وهو يهبط إلى قاع القبر . وعندما لمست قدماه الأرض نظرت إليّ وعلى شفتيه لمحة من ابتسامة ، ثم رقد على ظهره ، وكأنه يتظاهر بأنه ميت . وما زال المشهد ينبض بالحياة بالنسبة إليّ : التطلع إلى فانشو وهو ينظر إلى السماء ، وعيناه تظرفان ، فيما الثلج يهيم على وجهه .

من خلال اندياح غامض للأفكار أعادني ذلك إلى وقت كنا فيه صغاراً للغاية ، ربّما إلى الرّابعة أو الخامسة من العمر . كان والدا فانشو قد ابتاعا جهازاً جديداً من الأجهزة المنزليّة ، ربّما كان جهاز تلفزيون ، وعلى امتداد عدّة شهور احتفظ فانشو بالصندوق الورقي في غرفته . وكان سخياً على الدّوام في السّماح بمشاركتي له في لعبه ، ولكن هذا الصندوق كان ممّا لا تبلغه يداي ، ولم يسمح لي قطّ بدخوله ، وأبلغني بأنّه مكانه السّرّي وأنّه عندما يجلس بداخله ويغلقه حوله فإنّه بمقدوره الدّهاب إلى حيث يريد ، ويمكنه الوجود في الموضع الذي يريده ، ولكن لو أنّ شخصاً آخر دخل صندوقه فإنّ سحره يمكن أن يضيع إلى الأبد . وقد صدّقت هذه القصة ، ولم أضغط عليه لأخذ دوري بدخول الصندوق ، على الرّغم من أنّ ذلك أوشك أن يكسر خاطري . وكان يلعب في غرفته واضعاً في هدوء دمي في هيئة جنود أو يرسم صوراً ، ثمّ يعلن فجأة وبلا مقدّمات أنّه سيمضي إلى صندوقه ، وأحاول المضيّ بما كنت أفعله قُدّماً ، ولكن ذلك لم يكن يجدي فتيلاً قطّ ، فلم يكن هناك ما يشير اهتمامي قدر ما يحدث لفانشو داخل الصندوق ، وكنت أمضي تلك الدّقائِق محاولاً على نحو يائس أن أتصوّر المغامرات التي يقوم بها ، ولكنّي لم أتعلّم قطّ هذه المغامرات ،

إذ كان مما يخالف القواعد بالنسبة إلى فانشو أن يتحدث عنها وهو يخرج من الصندوق.

الآن كان هناك شيء مماثل يجري في ذلك القبر المفتوح تحت الثلج المتساقط. كان فانشو وحده هناك، عاكفاً على أفكاره، يجيب تلك اللحظات وحيداً وعلى الرغم من أنني كنت موجوداً إلا أنني معزول عنه، وكأني لم أكن هناك حقاً على الإطلاق. ومن جديد كان الأمر متعلقاً بالصدفة الخالصة: فالقبر مفتوح هناك، وقد شعر فانشو بأنه يناديه. لقد قال أحدهم ذات مرة إن القصص تحدث لأولئك الذين يستطيعون روايتها فقط. وربما بالطريقة نفسها فإن التجارب لا تقدم نفسها إلا لأولئك الذين يمكنهم تملك ناصيتها فقط. ولكن تلك نقطة صعبة، ولا يمكنني التأكد منها. لقد وقفت هنالك بانتظار نهوض فانشو، محاولاً تصوّر ما يفكر فيه، وللحظة قصيرة محاولاً رؤية ما يراه، ثم رفعت وجهي نحو السماء الشتائية الضاربة إلى القتام، وكان كل شيء عماء من الثلج يندفع هابطاً فوقني.

عندما شرعنا في السير عائدين إلى السيارة، كانت الشمس قد غربت، وشققنا طريقنا متعثّرين عبر المقبرة، من غير أن يحدث أحدنا الآخر بشيء. وكانت بضع بوصات من الثلج قد تراكمت على الأرض، وواصل الثلج التساقط بثقل متفاقم وكأنه لن يتوقف أبداً. وبلغنا السيارة، وركبناها، وعندئذٍ، وخلافاً لكل توقعاتنا، لم نستطيع الانطلاق بها، فقد غاص الإطاران الخلفيان في حفرة ضحلة، ولم يُجد ما قمنا به فتيلاً. ورحنا ندفعها، ونحاول تحريكها، ومع ذلك واصل الإطاران الدوران بضجة رهيبية لا طائل من ورائها. وانقضت ثلاثون

دقيقة، وعندئذٍ استسلمنا، وقرّرنا متردّدين التّخليّ عن السّيارة.  
وركبنا سيّارات عابرة إلى دارينا في قلب العاصفة، وانقضت ساعتان  
قبل أن نفلح أخيراً في العودة، وعندئذٍ فحسب علمنا أنّ والد فانشو  
قد مات في الأصيل.

انقضت عدّة أيام قبل أن أستجمع الشجاعة الكافية لفتح الحقيبتين. وقد فرغت من المقال الذي عكفت على إنجازه، وتردّدت على دور السينما، وقبلت الدّعوات التي أعتذر عادة عن عدم تلبيتها، غير أنّ هذه الأساليب لم تخدعني، فقد كان هناك الكثير ممّا يتوقّف على ردّي، وكانت إمكانيّة التعرّض لخيبة الأمل شيئاً لا أرغب في مواجهته. ولم يكن هناك فارق في ذهني بين إصدار الأمر بإتلاف أعمال فانشو وقتله بيديّ. فقد خوّلت سلطة التشويه، سلطة سرقة جثة من قبرها وتمزيقها إرباً. وكان وضعاً لا يطاق وأردت ألا أجد نفسي فيه. ومادمت قد تركت الحقيبتين على حالهما فإنّ ضميري لا يثقله شيء. ومن ناحية أخرى فقد قدّمت وعداً وكنت أعلم أنّه ليس في وسعي التّأجيل إلى الأبد. وعند هذا المنعطف على وجه الدّقة (أي التّأهب والاستعداد لإنجاز الأمر) سيطر عليّ تخوّف جديد. فقد اكتشفت أنّي إذا كنت لا أرغب في أن تكون أعمال فانشو سيئة فإنّني كذلك لا أريدها أن تكون جيّدة. وهذا شعور يتعدّر عليّ إيضاحه، ولا شكّ في أنّ للمنافسات العتيقة علاقة به، رغبة في ألاّ يزيجني إلى الهامش تألّق فانشو، ولكن كان هناك شعور بأنّني أتعرّض لفتح. لقد قدّمت وعداً، وما إن أفتح الحقيبتين حتّى أغدو متحدّثاً باسم فانشو، وسأواصل الحديث باسمه شئت ذلك أم أبيت. وقد أخافني الاحتمالان كلاهما، فإصدار حكم الإعدام أمر سيّء بما فيه الكفاية، ولكنّ العمل لحساب ميت لم يبدُ أمراً أفضل. وعلى امتداد عدّة أيام راوحت بين هذين الخوفين عاجزاً عن تحديد أيّهما أسوأ من الآخر.

وفي النهاية، بالطبع، فتحت الحقيقتين. ولكن الأمر بحلول ذلك الوقت كان متعلقاً بصوفي أكثر من اتصاله بفانشو، فقد أردت رؤيتها مجدداً، وكلما سارعت بالعمل عجلت بالحصول على مبرر للاتصال بها هاتفياً.

لست أعتزم الخوض في أية تفصيلات هنا، فالجميع الآن يعلم طبيعة أعمال فانشو، إذ قرئت، ونوقشت، وهناك كثير من المقالات والدراسات عنها، وقد أصبحت ملكاً للجمهور. وإذا كان هناك ما يقال فإنه لا يعدو أن الأمر قد استغرق مني ساعة أو ساعتين لأدرك أن مشاعري لا علاقة لها بما هو مناظ الاهتمام، فقد فاق الاهتمام بالكلمات والانغماس فيما هو مكتوب والإيمان بقوة الكتب كل شيء آخر، وإلى جواره تغدو حياة المرء شيئاً شديداً الضالة. ولست أقول هذا في معرض تهينة نفسي أو لوضع أعالي تحت ضوء أفضل. فلقد كنت الأول، ولكنني بخلاف ذلك لا أرى شيئاً يميّزني عن أي شخص آخر. ولو أن أعمال فانشو كانت أقل مما هي عليه لكان دوري مختلفاً، وربما أكثر أهمية وأعظم تأثيراً بالنسبة إلى خاتمة القصة. ولكن حسبما سار الأمر فإنني لم أكن أكثر من أداة خفية. فلقد حدث شيء، وحتى لو أنكرته، حتى لو تظاهرت بأنني لم أفتح الحقيقتين، فإنه سيمضي في الحدوث مكتسحاً كل ما يقف في طريقه، ومنذاحاً بقوة دفع نابغة من أعماقه.

اقتضى مني الأمر أسبوعاً لاستيعاب المادة وتنظيمها، وللفضل بين الأعمال المكتملة والمسودات، ولتصنيف المخطوطات فيما يشبه الترتيب الزمني لإنجازها. وكانت أقدم القطع قصيدة تعود إلى ١٩٦٣ (عندما



كان فانشو في السادسة عشرة من عمره). وأما القطعة الأخيرة فتعود إلى ١٩٧٦ (قبل اختفائه بشهر واحد). وإجمالاً كانت هناك مائة قصيدة أو يزيد، وثلاث روايات (اثنان منها قصيرتان وواحدة طويلة) وخمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد، وكذلك ثلاث عشرة كراسة ضمت عدداً من القطع التي لم يتم المضي بها قُدماً، والصّور القلمية، والمذكرات الموجزة، والملاحظات على كتب كان فانشو يقرأها، وأفكار لمشروعات مستقبلية. ولم تكن هناك رسائل ولا مذكرات ولا لمحات من حياة فانشو الخاصة. ولكن ذلك كان ممّا توقّعت، فالمرء لا يقضي حياته مختبئاً من العالم من غير أن يتمكن من إخفاء آثاره. ومع ذلك فقد حسبت أنني سوف أجد في أحد المواضيع وسط كلّ هذه الأوراق إتياناً على ذكرى، حتى وإن كان لا يعدو رسالة تضمّ تعليقات أو مادة في كراسة تعينني وكيله الأدبي. ولكن لم يكن هناك شيء فقد تركني فانشو اعتماداً تاماً على نفسي.

اتصلت هاتفياً بصوفي، ورتبت تناول طعام العشاء معها في الليلة التالية، وأعتقد أنها تمكّنت من تخمين ردّ فعلي حيال أعمال فانشو لأنني اقترحت الذهاب إلى مطعم فرنسي حديث الطراز (يتجاوز بكثير ما يمكنني التردّد عليه). ولكنني لم أقل إلاّ أدنى قدر ممكن بخلاف هذه الإيماءة الاحتفالية، فقد أردت لكلّ شيء أن يمضي بمعدّله العاديّ، بلا تحرّكات فجائية، ومن غير إشارات سابقة لأوانها. وكنت على تمام الثقة بالفعل فيما يتعلّق بأعمال فانشو، ولكنني خشيت مغبّة التعجّل فيما يتعلّق بصوفي، فقد كان الكثير يتوقّف على طريقة تصرّفي، والكثير يتعرّض للضرر بالتخبّط عند البداية. وسواء أعلمت صوفي

ذلك أم لم تعلمه فقد كان هناك ما يربطنا الآن، ولو بالقدر الذي  
يَمَكَّننا من الترويج معاً لأعمال فانشو، ولكنني أردت أكثر من ذلك،  
وأردت أن تريده صوفي أيضاً. ورحت أقاوم لهفتي وأحث نفسي على  
التزام الحذر والتطلع إلى المستقبل.

كانت ترتدي ثوباً حريريّاً أسود وتتجمل بزواج من الأقران الفضيّة  
الصغيرة، وقد رَدّت شعرها إلى الوراء ليبين جيدها الأتلع. وعندما  
دلفت إلى المطعم، ولمحتني جالساً عند البار منحتني ابتسامة دافئة،  
متواظفة، وكأنها تحدّثني بأنها تعلم كم هي جميلة، ولكنها تعقب في  
الوقت نفسه على غرابية المناسبة مستمتعة بها على نحو من الأنحاء،  
مدركة بجلاء العواقب غير المألوفة المترتبة على هذه اللحظة. وقلت لها  
إنّ جمالها يأخذ بالألباب، وردّت بوحى اللّحظة على وجه التقريب  
قائلة إنّ تلك هي اللّيلة الأولى التي تخرج فيها منذ ولد بن، وأنها  
أرادت أن «تبدو مختلفة». وبعد ذلك التزمتُ بالجانب العملي محاولاً  
الارتداد إلى أعماقي، وعندما أرشدنا النادل إلى مائدتنا، وقدم لنا  
مقعدينا (غطاء أبيض للمائدة، أدوات مائدة مطلية طلاء سميكاً  
بالفضة، وزهرة خزامي في المزهريّة الرشيقة بيننا) استجبت لابتسامتها  
الثانية بالحديث عن فانشو.

لم تبدُ عليها الدهشة من جرّاء أيّ شيء قلته، فقد كان أمراً مألوفاً  
بالنسبة إليها، حقيقة تعايشت معها بالفعل، ولم يؤدّ ما قلته إلّا إلى  
تأكيد ما كانت تعرفه طوال الوقت، ومن الغريب أنه لم يُثر اهتمامها.  
وكان في موقفها حذر أثار حيرتي، ولعدّة لحظات شعرت بالضّياح، ثمّ  
بدأت أدرك على مهل أن مشاعرها لا تختلف كثيراً عن مشاعري. لقد

اختفى فانشو من حياتها، وأدركت أنه قد يكون لديها سبب وجيه للضيّق بالعبء الذي ألقاه على كاهلها، فهي من خلال نشر أعماله وتكريس نفسها لرجل لم يعد له وجود سترغم على العيش في الماضي، والمستقبل الذي تريد بناءه لنفسها سيفسده الدور الذي يتعين عليها القيام به، دور الأرملة الرزينة، ملهمة الكاتب الراحل، البطلة الجميلة في قصة مأساوية. وما من أحد يريد أن يكون جزءاً من روائي، وتقلّ رغبته إذا كان هذا العمل واقعياً. لم يكن عُمر صوفي أكثر من ستة وعشرين عاماً، وكانت أصغر من أن تعيش من خلال شخص آخر، وأشدّ ذكاء من ألاّ ترغب في حياة من صنعها بصورة كاملة. ولم تكن الحقيقة القائلة بأنها أحبّت فانشو هي الشيء الجوهري، فقد مات فانشو، وقد حان الوقت لكي تتركه وراءها.

لم يُطرح أيّ شيء من هذه المعاني بمثل هذا التفصيل، ولكن الإحساس كان هنالك، وسيكون من العبث تجاهله. وفي ضوء تحفظاتي كان من الغريب أن أغدو حامل المشعل، ولكنني أدركت أنني ما لم أبادر بحمله والانطلاق قُدماً فإن المهمة لن يُقدّر لها أبداً أن تؤدّى.

قلت:

- ليست بك حاجة إلى الانغماس في الأمر حقاً، وسيتعين علينا، بالطبع، أن نستشير أحداً، ولكن ذلك لا ينبغي أن يستغرق الكثير من وقتك. وإذا كنت على استعداد لترك الأمر لي فإنني لا أحسب أنه سيكون سيئاً للغاية على الإطلاق.

قالت:

- بالطبع، سأترك الأمور لك؛ فلست أعرف البديهيّات عن أيّ شيء من هذا القبيل، ولو أنّي حاولت إنجاز الأمر بنفسني لضللت طريقي خلال خمس دقائق.

قلت:

- الشّيء المهمّ هو العلم بأننا نقف في صفّ واحد، ففي نهاية المطاف يعتبر خلاصة الموقف، فيما أحسب، هو ما إذا كان بمقدورك الوثوق بي أو لا.

قالت:

- إنني أثق بك.

قلت:

- لم أقدم لك ما يدعو لذلك. ليس بعد، على أيّة حال.

- أعلم ذلك، ولكنني أثق بك في كلّ الأحوال.

- هكذا؟

- نعم، هكذا.

ابتسمت لي مجدّداً، وطوّال ما بقي من وقت العشاء لم نقل شيئاً آخر عن أعمال فانشو. كنت أعتزم مناقشة الأمر بالتفصيل - ما هي خير بداية، مَنْ هم النّاشرون الذين قد يُبدون اهتمامهم، بمن نتّصل، وما إلى ذلك - لكنّ هذا لم تعدّ تبدو له أهميّة، فقد كانت صوفي مغتبطة بعدم التّفكير فيه، والآن وقد طمأننتها إلى أنّها ليست مضطّرة لذلك، فقد عاد إليها مرحها تدريجياً، فبعد أشهر طويلة عسيرة، أتاحت لها أخيراً الفرصة لنسيان جانب من الأمر لبعض الوقت، وكان في وسعي أن أدرك مدى تصميمها على أن تنسى نفسها في غمرة

المسرّات البسيطة التي منحتها إياها هذه اللَّحظة: المطعم، الطّعام، ضحك من يحيطون بنا، الحقيقة القائلة بأنّها هنا وليس في أيّ مكان آخر. لقد أرادت الانغماس في هذا كلّه. وممّ أكون أنا حتّى لا أسايرها؟

كنت في حالة مزاجيّة طيّبة في تلك اللَّيلة. فقد ألهمني صوفي، ولم يَطلّ الوقت بي قبل أن أتألّق بالحويّوة، فمضيت ألقى بالنّكات، وأسرد القصص، وأقوم بحيل صغيرة بأدوات المائدة. وكانت المرأة بارعة الجمال بحيث تعذّر عليّ إبعاد عينيّ عنها. لقد أردت أن أراها وهي تضحك، أن أشاهد كيف يستجيب محيّاها لما أقوله، أن أرقب عينيها، وأن أدرس إشاراتها. والله يعلم أيّ عبثيات قلتها، ولكنني بذلت قصارى جهدي لإبعاد ذاتي، ولدفن دوافعي الحقيقيّة تحت فيض من الجاذبيّة. وقد كان ذلك هو الجزء الشّاقّ، وقد عرفت أنّ صوفي وحيدة، وأنها تريد السّكينة المنبعثة من جسم دافئ إلى جوارها، ولكنني لم أكن أسعى إلى إرضاء نزوة عابرة، ولو أنّني تحرّكت بسرعة أكبر ممّا ينبغي فربّما لم يكن الأمر ليتجاوز ذلك. ففي هذه المرحلة المبكرة كان فانشو مايزال هنالك معنا، الصّلة الصّامتة، والقوّة الخفيّة التي جمعتنا معاً، ولسوف ينقضي بعض الوقت قبل أن يختفي، وإلى أن يحدث ذلك فقد ألفت نفسي على استعداد للانتظار.

بعد العشاء، سرنا معاً حوالي ثلث السّاعة في ظلام أواخر تشرين الثاني (نوفمبر)، ثمّ اختتمنا الأمسية بتناول المشروبات في حانة بقلب المدينة. دخّنت سيجارة بعد الأخرى، ولكن ذلك كان المؤشّر الوحيد على ما يدور في أعماقي متدافِعاً. وتحَدّثت صوفي بعض الوقت عن

عائلتها التي تقطن مينسوتا، شقيقاتها الثلاث الأصغر سنًا، وصولها إلى نيويورك قبل ثماني سنوات، موسيقاها، تدرسيها، اعتزامها العودة إلى التدريس في الخريف المقبل. ولكننا غرقنا بشدة في مزاجنا المازح في ذلك الوقت بحيث أن كل ملاحظة غدت مبرراً لمزيد من الضحك. وكان يمكن أن يستمر هذا، ولكن كان لا بد من أخذ جلسة الطفل في الاعتبار، وهكذا اقتضينا سهرتنا عند منتصف الليل تقريباً، وصحبتهما إلى باب شقتها، وبذلت جهدي الكبير الأخير في تلك الأمسية.

قالت صوفي:

- شكراً، يا دكتور، كانت العملية الجراحية ناجحة.

قلت:

- مرضاي يشفون دائماً، والفضل يعود إلى غاز الضحك، وما عليّ إلا فتح الصمام وشيئاً فشيئاً يتحسنون.  
- لا بدّ أن هذا الغاز مما يؤدي إلى الإدمان.

- هذا هو جوهر الموضوع، فالمرضى يواصلون العودة لتلقي المزيد، وفي بعض الأحيان تجري لهم عمليتان أو ثلاث في الأسبوع. كيف تعتقدون أنني أدفع تكاليف شقتي في پارك أفنيو والمصيف في فرنسا؟  
- هكذا، هناك دافع خفي.

- بالتأكيد، الطمع هو دافعي.

- لا بدّ أن نشاطك العلاجي في ازدهار.

- كان كذلك، لكنني الآن متقاعد بشكل أو بآخر، وهذه الأيام انخفض معدّل عملي إلى مريضة واحدة - ولست على يقين مما إذا كانت ستعود ثانية.

قالت صوفي وعلى شفيتها أشدَّ الابتسامات التي رأيتها في حياتي  
خفراً وإشراقاً::

- ستعود، يمكنك التأكد من هذا تماماً.

قلت:

- يسعدني سماع ذلك، سأجعل سكرتيري يتصل بها لتحديد الموعد  
التالي.

- كلما كان أسرع كان ذلك أفضل، ففي هذه العلاجات الطويلة  
المدى لا يمكنك إهدار لحظة واحدة.

- نصيحة ممتازة، سأذكّر طلب كمية جديدة من غاز الضحك.

- عليك بالقيام بذلك، يا دكتور، فأنا أعتقد حقاً أنني بحاجة

إليه.

ابتسم أحدنا للآخر مجدداً، ثم ضممتها في عناق حار، وقبلتها  
قبلة لم تدم طويلاً، وهبطت الدرج بأقصى ما استطعت من سرعة.

مضيت إلى الدار مباشرة، وأدركت أنّ النوم من رابع  
المستحيلات، ثم أمضيت ساعتين في مشاهدة برامج التلفزيون،  
ولاسيّما عرض فيلم عن ماركو بولو. وأخيراً أويت إلى فراشي في  
حوالي الساعة الرابعة وسط إعادة عرض فيلم «منطقة الغسق».

كانت خطوتي الأولى هي الاتصال بستيوارت جرين المحرّر بإحدى  
دور النشر الكبرى. ولم أكن على معرفة وثيقة به، ولكننا نشأنا في بلدة  
واحدة، ودرس أخوه الأصغر، روجر، معي ومع فانشو في مدرسة  
واحدة. وغلب على ظني أنّ ستيوارت سيتذكر من هو فانشو، وبدا  
ذلك بمثابة مدخل طيّب للبداية. وكنت قد صادفت ستيوارت في عدد

من التجمّعات على امتداد عدّة سنوات، ربّما ثلاث مرّات أو أربعاً، وكان ودوداً على الدوام، ويتحدّث عن الأيام الخوالي (على نحو ما كان يدعوها) ويعدّد دائماً بأن يبلغ تحيَّاتي إلى روجر في لقائهما المقبل. ولم أكن أدري ما الذي يمكن توقّعه من ستيوارت، ولكنّه بدا سعيداً من خلال نبرة صوته عندما اتّصلت به هاتفياً، وتواعدنا على اللّقاء في مكتبه في أحد الأصائل من ذلك الأسبوع.

استغرق تذكّر فانشو بضع دقائق من ستيوارت، وقال إنّ الاسم مألوف لديه، ولكنّه لم يدر مصدر هذه الألفة، وقمت بتنشيط ذاكرته قليلاً، وذكرت روجر وأصدقاءه، وعندئذٍ تذكّره ستيوارت، فجأة، وقال:

- نعم، نعم، بالطبع، الصّبي الفذّ، لقد اعتاد روجر تأكيد أنّه سيصبح رئيساً، عندما يكبر.  
- ذاك هو.  
قلتها، وأبلغته بالقصّة.

كان ستيوارت شخصاً يصعب إرضاءه، من نوع خرّيجي جامعة هارفارد، يرتدي سترات من التويد، ويضع ربطة عنق فراشيّة الشكل، وعلى الرّغم من أنّه في أعماقه لم يتجاوز كثيراً أن يكون من نوع موظفي الشّركات، إلّا أنّه في عالم النّشر كان يعتبر من المثقّفين، وقد قطع في مسيرته العمليّة شوطاً طيّباً حتّى الآن، فغدا محرراً بارزاً وهو في أوائل الثلاثينات من عمره، واعتبر من العاملين الشّبّان المجتهدين والمتمتعين بالشّعور بالمسؤوليّة، ولم يكن هناك شكّ في أنّ مستقبله باهراً ينتظره. وأقول هذا كلّه لأبرهن على أنّه لم يكن بالذي



يتحمّل أن تحدث معه تلقائياً القصّة التي أروها. فلم يكن فيه الكثير من الرّوح الرومانسيّة، ولا مجال عنده إلّا للحذر والطّابع العمليّ، ولكننيّ كان بمقدوريّ الشّعور بأنّه مهتم بما أطرحه، بل إنّه بدأ منفِعلاً خلال مواصليّ الحديث.

لم يكن هناك ما يخسره، بالطبع، فإذا لم تعجبه أعمال فانشو فإنّ بمقدوره رفضها دونما كبير عناء؛ فقد كانت عمليّات الرّفص هي جوهر عمله، وما كان ليتردّد في القيام بها. ومن ناحية أخرى فإنّه إذا كان فانشو كاتباً جديراً بالصفّات التي أطلقتها عليه، فإنّ نشر أعماله من شأنه أن يؤدّي إلى زيادة شهرة ستيوارت، ولسوف يشارك في المجد النّابع من اكتشاف كاتب عبقرى أمريكيّ مجهول، وسيتمكّن من العيش على هذه الضربة الموفّقة سنوات طويلة.

سَلّمته مخطوط رواية فانشو الكبرى، وقلت إنّه سيتعيّن في نهاية الأمر أن تكون المعادلة: إمّا كلّ شيء وإمّا لا شيء، القصائد، المسرحيّات، والرّوائتان الأخريان، ولكن هذا هو عمل فانشو الأكبر، ومن المنطقيّ أن يصدر أوّلاً، وكنت بذلك أشير، بالطبع إلى رواية «أرض المستحيل». وقال ستيوارت إنّ هذا العنوان قد أعجبه، ولكنّه عندما طلب مني وصف الرّواية، قلت إنّني أوثر عدم القيام بذلك، وأظنّ أنّه من الأفضل أن يكتشفها بنفسه. وفي معرض الاستجابة لذلك رفع أحد حاجبيه (حيلة ربّما تعلّمها خلال العام الدّراسي الذي أمضاه في أكسفورد) وكأنّه يشير ضمناً إلى أنّني لا ينبغي أن أعابته. وبقدر ما يمكنني القول فإنّني لم أكن بصدد المعابثة، وكلّ ما هنالك أنّني لم أرّد فرض الأمور عليه فرضاً، فالكتاب هو الذي يمكنه القيام

بذلك، ولم أجد ما يدعوني إلى حرمانه من الضرب في مجهوله بلا خريطة، وبغير بوصلة، وفي غياب من يمسك بيده ويقود خطاه.

استغرق الأمر ثلاثة أسابيع قبل أن يتصل بي. ولم يكن النبأ الذي حمّله إليّ طيباً ولا سيئاً، ولكنه يدعو للأمل، فقد قال إن هناك من التأييد في صفوف المحرّرين ما يكفي لإصدار الكتاب، ولكنهم قبل الوصول إلى قرار نهائيّ أرادوا أن يلقوا نظرة على المواد الأخرى. وقد كنت أتوقّع ذلك - في ضوء قدر من الحكمة والاحتفاظ بالأوراق غير بعيدة عن اليد - فأبلغت ستيوارت بأنني سأحضر إلى مكتبه لأجلب له معي المخطوطات في أصيل اليوم التالي.

قال ستيوارت مشيراً إلى نسخة رواية «أرض المستحيل» الموضوعه على مكتبه:

- إنه كتاب غريب، فهو كما تعلم ليس من نوع الروايات التي تميل إليها، بل لا ينتمي إلى أيّ نوع على الإطلاق. ومايزال من غير الواضح ما إذا كنّا سنمضي قُدماً بنشره، ولكننا إذا قمنا بذلك فإنه سيكون على شيء من المخاطرة.

قلت:

- أعرف ذلك، ولكن هذا هو ما يجعله مشيراً للاهتمام.

- الأمر المثير للإشفاق حقاً هو أنّ فانشو ليس موجوداً، أتمنى لو كان بمقدوري العمل معه، وأحسب أنّ هناك أشياء في الكتاب ينبغي تغييرها، فقرات يتعين حذفها، وذلك من شأنه جعل الكتاب أقوى.

- ذلك هو ما يعتزّ به المحرّر، فمن الصعب عليك أن ترى مخطوطاً من غير أن ترغب في الانقضاض عليه بقلم أحمر. والحقيقة هي أنني

أعتقد أنّ الأجزاء التي تعرّض عليها الآن ستبدو لك معقولة بالفعل في وقت لاحق، وسيساعدك أنّك لم تتمكّن من المساس بها.  
قال ستيفارت الذي لم يكن على استعداد للتّسليم بهذه النّقطة:  
- سيحدّد الزّمن ذلك.

وأضاف:

- ولكن ليس هناك مجال، ليس هناك مجال للتّشكيك في قدرة الرّجل على الإبداع. لقد قرأت الكتاب قبل ما يزيد عن أسبوعين، وقد لازمني منذ ذلك الحين، وليس بمقدوري انتزاعه من ذهني، فهو يواصل الإلحاح على ذاكرتي، ودائماً في أغرب اللّحظات، عندما أخرج من الحمام عقب الاستحمام، وخلال السّير في الشّارع، وحينما ألوذ بفراشي ليلاً، وعندما لا أفكّر بصورة واعية في شيء بعينه. وكما تعلم فإنّ ذلك لا يحدث معظم الوقت، ولكن كتاب فانشو يفرض نفسه. هناك شيء قويّ فيه، وأغرب ما في الأمر أنّي لا أعرف ما هو هذا الشيء.

قلت:

- ربّما كان هذا هو الاختبار الحقيقيّ، وقد حدث الشيء نفسه لي، فالكتاب يعلّق في موضع من المخّ، وليس في وسعك التخلّص منه.  
- وماذا عن المواد الأخرى؟

قلت:

- ينطبق عليها القول نفسه، فليس بمقدورك التوقّف عن التّفكير فيها.

هزّ ستيفارت رأسه، وللمرّة الأولى أدركت أنّه كان قد تأثر

بالكتاب، على نحو صادق، ولم يَدُم ذلك إلا لحظة، ولكن في تلك اللحظة تبَدَّ الصلف والتعالي، وأوشكت أن أجد بنفسي رغبة في أن أحبه.

قال:

- أحسب أننا قد وقعنا على شيء يُعتدّ به. وإذا صحَّ ما تقول فإني أعتقد حقاً أننا أمام شيء يُعتدّ به.

وقد كنّا كذلك، بل وكما أوضحت الأحداث كنّا بإزاء ما يفوق بكثير ما تصوّره ستوريات. وقد قبلت رواية «أرض المستحيل» في وقت لاحق من ذلك الشهر، مع فتح المجال لنشر باقي الكتب كذلك. وكانت نسبة الربيع التي حصلت عليها من المبلغ المدفوع مقدّماً من دار النشر كافية لتفرّغي لبعض الوقت، وقد استخدمتها في توفير المجال للعمل على إعداد طبعة للقصائد، كما طرقت عدداً من السبل لتبين ما إذا كان هناك اهتمام بتقديم المسرحيات على خشبة المسرح، وقد عاد هذا الجهد بثمرته كذلك، وتمّ الإعداد لتقديم ثلاث من المسرحيات ذوات الفصل الواحد في مسرح صغير بقلب المدينة، على أن يبدأ العرض بعد حوالي الشهر ونصف الشهر من صدور رواية «أرض المستحيل». وفي غضون ذلك أقنعت رئيس تحرير مجلة من أكبر المجلات التي أكتب لها بين الحين والآخر بأن تتيح لي المجال لكتابة مقال عن فانشو. وقد جاء عملاً ضافياً وفريداً من نوعه. وفي ذلك الوقت شعرت بأنه من أفضل ما كتبت، وقد أدرج المقال بحيث ينشر قبل شهرين من صدور «أرض المستحيل»، وبدا فجأة كما لو أنّ كلّ شيء يقع في وقت واحد.

اعترف بأنني نسيت نفسي في غمار هذا كله، وأفضى الأمر إلى ما يليه، وقبل أن أدري بما يجري كانت سلسلة من الأعمال قد انطلقت، وأحسب أنّ ذلك كان نوعاً من الهذيان، وساورني شعور بأنني أشبه مهندساً يضغط على الأزرار ويجذب عصي تحريك الروافع، منتقلاً على عجل من غرف الصّامات إلى علب الدوائر، معدّلاً جزءاً هنا، ومُدخِلاً تحسيناً هناك، ومُضغياً لطنين ودويّ ودمدمة أداة غريبة الشكل، غافلاً عن كلّ شيء، إلّا عن جلبة ما ابتكرته. وكنت شبيهاً بعالم مجنون اخترع الآلة العجائبيّة الكبرى، وكلّما اندفع منها المزيد من الدخان زادت الضجة التي تصدر عنها، وتعاظمت سعادتي.

ربّما كان ذلك أمراً حتمياً، وربّما احتجت إلى شيء من الجنون لتحقيق مرحلة البدء. وفي ضوء عناء تحقيق التأقلم بيني وبين هذا المشروع، فرّبتما كان من الضروري بالنسبة إليّ أن أجعل نجاح فانشو معادلاً لنجاحي. لقد وقعت مصادفة على قضية، على شيء جعل وجودي مبرّراً، وجعلني أشعر بأهميتي، وكلّما اختفيت في غمرة طموحاتي المكرّسة لأعمال فانشو ازدادت حدة توحّدي مع ذاتي وتوافقي معها. وليس هذا بالعدر الذي ألتمسه لنفسي، وإنّما هو وصف لما حدث فحسب. ويحدّثني شيء بأنني كنت أسعى وراء المشكلات، ولكنني لم أكن أدري في ذلك الوقت بشيء من هذا، والأمر الأكثر أهميّة هو أنني حتّى لو علمت بذلك فإنني أشكّ في أنّ ذلك كان سيجعل الأمر مختلفاً عمّا صار إليه.

وراء هذا كلّه قبعَت الرّغبة في البقاء على اتّصال بصوفي؛ ذلك أنّه بمرور الوقت أصبح من الطّبيعي تماماً بالنسبة إليّ أن أتصل بها هاتفياً

ثلاث مرّات أو أربعاً كلّ أسبوع، وأنّ أتناول طعام الغداء معها، وأمرّ بها للقيام بجولة مع بن في الأصيل في أرجاء الحيّ. وقمت بتعريفها بستيوارت جرين، ودعوتهما للقاء المخرج المسرحيّ، ووجدت لها محامياً يعالج أمور العقود والشؤون القانونيّة الأخرى. وقد تلقّت صوفي هذا كلّه دونما صعوبة أو تردّد، وتعاملت مع هذه اللقاءات وكأنّها مناسبات اجتماعيّة أكثر ممّا هي أحاديث عمل، وأوضحت لمن التقيناهم أنّي المسؤول عن الأمر برمته، وشعرتُ بأنّها قد عقدت العزم على ألاّ تحسّ بأنّها مدينة لفانشو، وأنّه أيّاً كان ما سيحدث أو لا يحدث فإنّها ستواصل الحفاظ على المسافة التي تفصلها عنه. وبالطّبع أسعدها الحصول على المال، ولكنّها لم تربطه قطّ بصورة حقيقيّة بأعمال فانشو فقد كان هبة لم تخطر على البال أو بطاقة يانصيب رابحة هبطت عليها من السّماء، وذلك هو كلّ ما هناك. وقد أدركت العبثيّة الأساسيّة في الموقف، ولأنّها لم تكن امرأة طمّاعة، ولم يكن لديها دافع يدعوها لتحويل الموقف إلى كسب خاصّ بها، فإنّها لم تفقد بصيرتها.

بذلت جهداً في التّودد إليها، ولاشكّ أنّ دوافعي كانت جليّة، ولكن ربّما كان ذلك رصيذاً إيجابياً، فقد كانت تعرف أنّي وقعت في هواها، وربّما شكّلت الحقيقة القائلة بأنّي لم أتعجلّها ولم أجبرها على أن تعلن مشاعرها نحوي، ثقلاً أكبر في إقناعها بجديتي من أيّ شيء آخر. ومع ذلك فلم يكن بمقدوري الانتظار إلى لأبد. فللحذر دوره ولكنّ الكثير منه يمكن أن يكون قاتلاً. وقد جاءت لحظة كان بمقدوري فيها الشّعور بأننا لم نعد نتصارع، وإنّما الأمور بيننا قد استقرّت. وعندما أفكّر في هذه اللّحظة الآن فإنّني أميل إلى استخدام

لغة الحبّ التقليديّة. أريد أن أتحدّث بلغة مجازيّة قوامها السّخونة، والاحترق، والحواجز التي تنصهر في مواجهة العواصف التي لا تقاوم، وإني أدرك كيف أن هذه التّعبيرات قد تبدو مبالغاً فيها، ولكنني أعتقد أنها دقيقة في نهاية المطاف، فقد تغير كلّ شيء بالنسبة إليّ، والكلمات التي لم يسبق لي أن فهمتها قطّ بدأت فجأة تكتسب معنى. وقد جاء هذا بمثابة اكتشاف لي، وعندما أتيح لي أخيراً الوقت لاستيعابه، رحت أتساءل كيف عشت كلّ هذا العمر من غير أن أتعلّم هذا الشيء البسيط. ولست أتحدّث عن الرّغبة بقدر ما أتحدّث عن المعرفة، عن اكتشاف أن شخصين يمكنهما، من خلال الرّغبة، أن يخلقا شيئاً أعظم قوّة مما يمكن لأيّ منهما أن يخلقه منفرداً. وأحسب أنّ هذه المعرفة قد غيرتني، وجعلتني بالفعل أشعر بإنسانيّتي على نحو أكبر. ومن خلال الانتماء إلى صوفي بدأت أشعر وكأنّي كنت أنتمي إلى الجميع كذلك. وتبيّن لي أنّ مكاني الحقيقي في الدّنيا هو موضع يتجاوز نفسي، وإذا كان هذا الموضع في أعماقي فإنّه كذلك يستعصي عليّ التّحديد. لقد كان هذا هو الفاصل الصّغير بين الذات واللّذات، وللمرّة الأولى في حياتي رأيت هذا اللّامكان باعتباره قلب الدّنيا تماماً.

وتصادف أنّ حلّ عيد ميلادي الثّلاثين، وكنت قد عرفت صوفي منذ ثلاثة أشهر بحلول ذلك اليوم، وأصرّت على الاحتفال بعيد ميلادي في تلك اللّيلة. وقد تردّدت في البداية، إذ لم أكرث بأعياد الميلاد من قبل قطّ، ولكنّ إحساس صوفي بالمناسبة أقتنعي في نهاية المطاف. وقد ابتاعت لي نسخة مصوّرة غالية الثّمّن من رواية «موي ديك» وصحبتني لتناول طعام العشاء في مطعم راقٍ، ثمّ انطلقت بي

لشهود أداء بوريس جودونوف في مسرح المتروبوليتان. وتركت لنفسي  
 في تلك المرة العنان في الانسياق مع الحدث، من غير أن أحاول وضع  
 سعادي موضع التساؤل، ومن غير أن أحاول استباق نفسي ومناورة  
 مشاعري. وربما كنت قد بدأت في تلمس جراءة جديدة لدى صوفي،  
 ربما كانت تبالغني بأنها قد حسمت الأمر بالنسبة لنفسها، وأن أوان  
 التراجع قد فات بالنسبة لكلينا. وأياً ما كان الأمر فقد كانت تلك  
 هي الليلة التي تغير فيها كل شيء، والتي لم يعد فيها شك فيما نحن  
 بصدده. عدنا إلى شقتها في حوالي الحادية عشرة والنصف، ودفعت  
 صوفي لجلسة الطفل التي راحت تدفع النوم دفعاً أجرتها، ثم سرنا  
 على أطراف أصابعنا إلى غرفة بن، ووقفنا هناك بعض الوقت نرقبه  
 وهو غارق في النوم في سريره الصغير. وأذكر بوضوح أن أياً منا لم  
 يقل شيئاً، وأن الصوت الوحيد الذي استطعت سماعه هو صوت  
 تنفس بن. وانحنينا على الأعمدة المحيطة بسريره، ورحنا نمنع النظر  
 في الجسم الصغير الذي رقد صاحبه على بطنه وقد طوى ساقيه تحته،  
 ودسّ إصبعين أو ثلاثة أصابع في فمه. بدا أن ذلك قد استمرَّ  
 طويلاً، ولكنني أشك أن يكون قد تجاوز دقيقة أو اثنتين، ثم، ودونما  
 سابق إنذار، استقام جسدانا، والتفت أحدهما نحو الآخر، وشرعنا في  
 تبادل القبل. وبعد ذلك يصعب عليّ الحديث عمّا وقع، فمثل هذه  
 الأمور محدودة العلاقة بالكلمات، بل إنها في الحقيقة محدودة العلاقة  
 بها للغاية، بحيث أنه لا طائل تقريباً من وراء التعبير عنها. ولئن  
 قلت شيئاً في هذا الصدد فإنني مكتفٍ بالقول إننا تهاوينا أحدهما على  
 الآخر، تهاوينا بسرعة بالغة وبعمق موغل، بحيث أنه ما من شيء  
 كان يمكن أن يلحق بنا. ومن جديد أنزلتني إلى التعبير بالمجاز، ولكن



هذا ربّما كان يتجاوز قلب الأمور وجوهرها، فكّوني أستطيع الحديث  
عما جرى أو أعجز عن ذلك لا يغير من حقيقة ما حدث شيئاً.  
والحقيقة أنّه لم يقدر لمثل هذه القبلة أن توجد من قبل قطّ، وإنّي  
لأشكّ في أنّه يمكن أن توجد مثل هذه القبلة في حياتي بأسرها.

أمضيت تلك الليلة في فراش صوفي، ومنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح من المستحيل هجرانه. كنت أعود إلى شقتي خلال النهار للعمل، ولكنني أعود كل مساء إلى صوفي، وغدوت جزءاً من أهل الدار - أتسوق مواد طعام العشاء، وأبدل حفاضات بن، وأحمل القمامة إلى الخارج - وأعيش مع إنسانة أخرى على نحو أكثر حميمية مما حدث طوال عمري. انقضت الشهور، واكتشفت لدهشتي التي لم تنحسر أنني أتمتع بموهبة هذا النوع من الحياة. لقد ولدت لكي أحيى مع صوفي، وشيئاً فشيئاً أصبح بمقدوري الشعور بأنني أصبح أقوى، وبوسعي الإحساس بها وهي تجعلني أفضل مما كنت. كانت غريبة تلك الكيفية التي جمعنا بها فانشو معاً، فلو أنه اختفى لما حدث شيء من هذا، إنني مدين له، ولكنني لم تتح لي الفرصة لردّ هذا الدين له باستثناء ما أقوم به من أجل أعماله.

نشر مقالي، وبدا أنه أحدث التأثير المطلوب؛ فقد اتصل بي ستيرورات جرين ليقول إنه «دفعه كبيرة إلى الأمام» الأمر الذي خنّنت أنه يعني أنه أكثر اطمئناناً الآن إلى قراره بقبول نشر الكتاب. ففي ضوء كل الاهتمام الذي أثاره المقال، لم يعد فانشو يبدو بعيداً إلى حدّ كبير عن ذهن الناس، ثم صدرت رواية «أرض المستحيل» وكانت العروض كلّها بلا استثناء جيّدة، بل وبعضها متميّز. كان هذا هو كلّ ما يمكن أن يأمل المرء فيه. وكانت هذه هي القصة الخيالية التي تراود أحلام كلّ الكتاب. وأقرّ بأنني قد صدمت قليلاً، فمثل هذه

الأمر لا يفترض أن تحدث في عالم الواقع . وبعد أسابيع قليلة من الإصدار تجاوزت المبيعات ما كان متوقّعا بالنسبة إلى الطبعة الأولى بكاملها، ودفع إلى المطبعة بطبعة ثانية، كما نشرت إعلانات في الجرائد والمجلات، ثم بيع الكتاب لشركة متخصصة في إصدار الطبعات ذات الأغلفة الورقية لإصداره في العام المقبل . ولست أقصد الإيحاء بأن الكتاب كان من أفضل الكتب مبيعاً بالمعايير التجارية، أو أنّ صوفي كانت بسبيلها إلى أن تصبح من ذوي الملايين، ولكن في ضوء جدية أعمال فانشو وصعوبتها، وفي ضوء ميل الجمهور إلى الابتعاد عن مثل هذه الأعمال فقد كُتِل الكتاب بنجاح يتجاوز ما تصوّرنا أنه بالإمكان .

هذا هو الموضوع الذي يجب، بمعنى من المعاني، أن تنتهي عنده القصة . العبقري الشاب مات، ولكن أعماله تواصل خلودها، وسوف يُتذكّر اسمه على امتداد سنوات كثيرة تالية، وقد أنقذ صديق طفولته الأرملة الجميلة الشابة، وسوف يجب أحدهما الآخر إلى الأبد . وسوف يبدو ذلك إنهاء للأمر، ولا يبقى إلّا أن يُسدّل الستار الأخير، ولكن يتضح أنّ ذلك ليس إلّا البداية، فما كتبه حتى الآن لا يعدو أن يكون مقدّمة، موجزاً سريعاً لكلّ ما جاء قبل القصة التي يتعيّن عليّ أن أرويها، فإذا لم يكن هناك إلّا هذا لما كان هناك شيء على الإطلاق - فما كان يمكن أن يجبرني شيء على البدء . الظلام وحده يحظى بالقدرة على جعل الإنسان يفتح قلبه للدنيا، والظلام هو ما يحيطني عندما أفكر في ما حدث، ولو كانت الحاجة تمسّ إلى الشجاعة من أجل الكتابة عنه . وإنني لأعلم كذلك أنّ الكتابة عنه هي الفرصة الوحيدة المتاحة لي للإفلات، ولكنني أشكّ في أن ذلك سيحدث،

حتى ولو أفلحت في قول الحقيقة. والقصص التي لا نهاية لها لا يمكنها القيام بشيء إلا الاستمرار إلى الأبد، والوقوع في أسر إحداها يعني أنك ينبغي أن تموت قبل انتهاء أداء دورك، وأملي الوحيد هو أن تكون هناك نهاية لما أوشتك على قوله، وإني في موضع ما سأجد انقطاعاً في الظلام، وهذا الأمل هو ما أنظر إليه باعتباره شجاعة، ولكن مسألة وجود سبب يدعو للأمل هي مسألة مختلفة تماماً.

كان ذلك بعد حوالي ثلاثة أسابيع من بدء عرض المسرحيات. فقد أمضيت الليلة في شقة صوفي، كالمعتاد، وفي الصباح مضيت مبتعداً عن قلب المدينة إلى شقتي للقيام ببعض الأعمال. وأذكر أنه كان يفترض أن أنتهي من كتابة مقال عن أربعة دواوين أو خمسة، إحدى تلك المراجعات المؤلفة من خليط من المواد. وقد وجدت بعض الصعوبة في التركيز، فقد واصل ذهني الشرود بعيداً عن الكتب الموضوعية على مكتبي، وكنت أنهض من مقعدي كل خمس دقائق أو نحو ذلك وأذرع الغرفة، فقد روى لي ستورات جرين أول أمس قصة غريبة، وكان من المتعذر عليّ التوقف عن التفكير فيها. قال ستورات إنّ الناس قد بدأوا يقولون إنه لا وجود لشخص يدعى فانشو. وقالوا إنه من بنات أفكارى، وأنني ابتكرته للقيام بخدعة، وأنني كتبت هذه الكتب بالفعل. وكان ردّ فعلي الأول هو الضحك، وإلقاء بعض النكات عن أنّ شكسبير بدوره لم يكتب أية مسرحيات، ولكنني الآن وبعد أن فكرت في الأمر ملياً، لم أدري هل أشعر بالإهانة أم بإرضاء كبيرائي إزاء هذا الحديث. ألم يثق الناس في إبلاغي إياهم بالحقيقة؟ لماذا أكلف نفسي عناء إبداع كلّ هذا الكم المتكامل من الأعمال ثم بعد ذلك أرفض ربط اسمي به؟ ومع ذلك هل اعتقد

الناس بأنني قادر على تأليف كتاب في جودة «أرض المستحيل»؟ أدركت أنه ما إن تنشر كل مخطوطات فانشو حتى يكون بمقدوري تماماً أن أكتب كتاباً أو كتابين تحت اسمه، أن أقوم بإنجاز العمل بنفسي، ومع ذلك أستطيع تمريره على أنه عمله. ولم أكن أعترم بالطبع القيام بهذا، ولكن مجرد الفكرة فتحت آفاق مفاهيم غامضة ومثيرة للاهتمام أمامي: ما الذي يعنيه أن يقوم كاتب بوضع اسمه على كتاب؟ لماذا يختار بعض الكتاب الاختباء وراء أسماء مستعارة؟ هل للكاتب حياة حقيقية على أي حال؟ بدا لي أن الكتابة تحت اسم شخص آخر قد تكون مما استمتع به - أن أخترع هوية سرية لنفسني - ورحت أتساءل عن السر في أنني وجدت هذه الفكرة جذابة. واصلت الفكرة المضيبي إلى الأخرى، وفي وقت استفادي هذا الموضوع اكتشفت أنني قد أهدرت معظم فترة الصباح.

بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف - ساعة توزيع البريد - وقمت برحلي الطقوسية، هبوطاً باستخدام المصعد، لأرى ما إذا كان هناك أي شيء في صندوق بريدي. وكانت تلك على الدوام لحظة على جانب من الأهمية خلال النهار بالنسبة إليّ، ووجدت أنه من الصعب عليّ الدنوّ منه في هدوء، فقد كان هناك على الدوام احتمال ورود أبناء طيبة - شيك غير متوقع، عرض للعمل، رسالة ستغير حياتي على نحو من الأنحاء - وفي ذلك الوقت كانت عادة التوقع قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ مني، بحيث أنني لم يكن بمقدوري النظر إلى صندوق بريدي من غير الاندفاع إليه. وكان هذا هو مكاني الخفي، البقعة الوحيدة التي تخصني تماماً، ومع ذلك كانت تربطني

بباقي العالم. وفي ظلامها السحريّ كمنت القدرة على جعل الأشياء تحدث.

لم تكن هناك إلا رسالة واحدة لي في ذلك اليوم، وقد جاءت من طيّ مغلف أبيض عاديّ يحمل خاتم بريد نيويورك، ولا يحمل عنوان المرسل. ولم يبد البنط الذي كتب به العنوان مألوفاً بالنسبة إليّ (كان اسمي وعنواني مكتوبين بحروف كبيرة باستخدام آلة ناسخة) ولم أستطع مجرد البدء بتخمين من بعث بهذه الرسالة إليّ. وفضضت المغلف في المصعد، وعندئذٍ وفيما كنت أقف هناك، والمصعد ينطلق إلى الطابق التاسع، انقلبت الدنيا رأساً على عقب بالنسبة إليّ.

استهلّت الرسالة على هذا النحو: «لا تغضب مني لكتابتي هذه الرسالة لك؛ فقد أردت أن أبعث لك، متجشماً المخاطرة بتعريضك لأزمة قلبية، كلمة أخيرة، وأن أشكرك على قمت به، فقد عرفت أنك الشخص الذي ينبغي أن أتوجه إليه بطلبي، ولكن الأمور تبين أنها أفضل مما يرجوه المرء، فقد تجاوزت حدود الممكن، وإني مدين لك. لسوف يلقي صوفي والطفل الرعاية، ولهذا فإنّ بمقدوري الحياة بضمير لا يثقله عبء.

لن أوضح لك موقعي هنا، وعلى الرغم من هذه الرسالة فإنني أريدك أن تواصل النظر إليّ باعتباري ميتاً، فلا شيء أكثر أهمية من ذلك، ويتعين ألاّ تبلغ أحداً بأنك تلقيت رسالة مني، فلن يعثر عليّ أحد، والحديث عن هذه الرسالة لن يؤدي إلاّ إلى مشكلات لا طائل من وراء إثارتها. وأريدك في المقام الأول ألاّ تذكر شيئاً لصوفي، اجعلها تطلب الطلاق، ثمّ تزوّجها بأسرع ما يمكنك، وإني لأثق

بأنك ستقوم بذلك، وأبارك خطوتك هذه. إنَّ الطَّفل بحاجة إلى أب، وأنت الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه في القيام بهذه المهمة.

أريدك أن تدرك أنني لم أجنّ، فقد اتخذت قرارات معينة كانت ضرورية، وعلى الرغم من أن أناساً قد عانوا من جرّاء ذلك فإنّ الرّحيل كان أفضل وأرقّ شيء قمت به على الإطلاق.

وعندما يحلّ العام السابع على اختفائي سيكون ذلك هو يوم موتي، فقد أصدرت حكماً على نفسي، ولن يتمّ استئناف هذا الحكم. أناشدك ألاّ تبحث عني؛ فليست لديّ رغبة في أن يعثر أحد عليّ، ويبدو لي أنّ من حقّي أن أعيش ما بقي من عمري على نحو ما يناسبني. والتّهديدات تعدّ شيئاً مفرّزاً بالنسبة إليّ، ولكن ليس أمامي خيار في توجيه هذا التّحذير إليك: إذا نجحت بفضل معجزة من المعجزات في اقتفاء أثري والوصول إليّ فإنني قاتلك.

أسعدني أن أعمالي قد أثارت كلّ هذا الاهتمام، ولم يخطر ببالي أنّ شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يحدث، لكنّ كلّ هذا يبدو بعيداً للغاية عني الآن، فتأليف الكتب ينتمي إلى حياة أخرى مفارقة بالنسبة إليّ، والتّفكير فيه الآن لا يثير حماسي، ولن أحاول أبداً المطالبة بأية أموال، وأنا أعطيك وصوفي إياها عن طيب خاطر. فقد كانت الكتابة بالنسبة إليّ مرضاً دهنياً ولزمني وقتاً طويلاً، ولكنني شفيت الآن منه.

كن على يقين من أنني لن أتصل بك ثانية، وها قد تحرّرت مني الآن، وإني لأتمنّى لك حياة مديدة وسعيدة. ما أجمل وصول كلّ شيء إلى ما صار عليه الحال الآن. إنك صديقي، وأملّي الوحيد أنك

ستكون على الدوام ما أنت عليه . وأما عن حالي فهذا حديث آخر،  
ولعلك تتمنى لي حظاً طيباً» .

لم يكن هناك توقيع في أسفل الرسالة . وطوال الساعة أو الساعتين اللتين أعقبنا ذلك حاولت إقناع نفسي بأن تلك ليست إلا مزحة، فلو أن فانشو كان كاتبها فلماذا أغفل توقيعها باسمه؟ رحت أتشبث بهذا على أنه دليل على وجود حيلة، باحثاً في يأس عن عذر يتيح لي إنكار ما حدث . ولكن هذه النزعة للتفاؤل لم تدم طويلاً، وشيئاً فشيئاً أرغمت نفسي على مواجهة الواقع . فقد كان في الوسع أن يوجد عدد لانهايتي من الأسباب الداعية لإغفال الاسم في الرسالة، وكلما أمعنت التفكير في الأمر بدا لي بقدر أكبر من الوضوح أن ذلك هو على وجه الدقة السرّ في أن الرسالة ينبغي أن تعتبر أصيلة وبعيدة عن الزيف أو الاحتيال، فمن شأن من يريد القيام بحيلة أن يحرص على إدراج الاسم، ولكن الشخص الحقيقي لن يفكر مرتين في القيام بذلك . ومن ينطلق للقيام بحيلة هو وحده الذي ستتاح له الثقة بالنفس التي تدفعه لارتكاب مثل هذا الخطأ الصارخ، ثم هناك الجمل الأخيرة في الرسالة «ستكون على الدوام ما أنت عليه، أما عن حالي فهذا حديث آخر» . هل كان معنى ذلك أن فانشو أصبح شخصاً آخر؟ لاشك في أنه كان يتحلل اسماً آخر - ولكن على أي نحو كان يعيش - وأين؟ ربما كان خاتم مكتب بريد نيويورك بمثابة مؤشر أولي، ولكنه في الوقت نفسه كان يمكن أن يكون جزئية من معلومات زائفة لإبعادي عن اقتفاء أثره . وقد كان فانشو شديد الحذر . وقد قرأت الرسالة مراراً وتكراراً، محاولاً تفكيك جزئياتها، وباحثاً عن مدخل إليها، عن



طريقة لقراءة ما بين السطور، ولكن ذلك لم يُفَضَّ إلى شيء. فقد كانت الرسالة غامضة، كتلة من الظلام تتحدّى المحاولات للولوج إلى أعماقها. وفي نهاية المطاف استسلمت ووضعت الرسالة في جارور مكتبي، وأقررت بأنني حرت في أمري، وأنه ما من شيء سيكون بالنسبة إليّ ما اعتدته من قبل.

أعتقد أن أكثر ما يضايقني كان غباثي، وعندما أعود بناظري إلى الأمر الآن أدرك أن كلّ الحقائق قد طرحت أمامي منذ البداية، عند لقائي الأول مع صوفي. فعلى امتداد سنوات لا ينشر فانشوشياً من أعماله، ثم يبلغ زوجته بما يتعين عليها القيام به إذا حدث شيء (أن تتصل بي، ويدفع عمله للنشر) ثم يختفي. كان الأمر كله بالسبح والوضوح، فقد أراد الرجل الرّحيل، وقد رحل. لقد نهض ذات يوم وهجر زوجته الحامل، ولأنها وثقت به، ولأنها لم تتصوّر أن بمقدوره القيام بشيء من هذا القبيل فإنه لم يكن أمامها خيار إلا الاعتقاد بأنه لقي حتفه. لقد ضللت صوفي نفسها، ولكن في ضوء طبيعة الموقف كان من الصعب تصوّر إمكانية تصرفها على نحو آخر. وأمّا أنا فلم يكن لديّ مثل هذا العذر، فلم يحدث منذ البداية ذاتها أن قمت بالنفاز إلى قلب الأشياء، وقفزت إلى قلب الموقف مع صوفي، وابتهجت بقراءتها الخاطئة للحقائق، ثم توقفت عن التفكير كلبية، وقد أُعِدِمَ أناسٌ جزاءً وفاقاً لجرائم أقلّ جسامه من تلك الجريمة.

مرّت الأيام، وأوحت لي كلّ غرائزي بالوشوق بصوفي، وأن أطلعها على الرسالة، ولكنني لم أستطع حمل نفسي على القيام بذلك، فقد كنت شديد الخوف وبعيداً عن التيقن من الكيفية التي سيكون

عليها ردّ فعلها. وفي حالاتي المزاجية الأكثر تماسكاً كنت أجادل نفسي بالقول إن التزام الصمت هو السبيل الوحيد لحماية صوفي. فأني خير مجلبه لها العلم بأن فانشو قد هجرها؟ لسوف تلوم نفسها على ما حدث، ولم أرغب في أن يجلّ مكروه بساحتها. غير أنه تحت هذا الصمت النبيل كمن صمت الفزع والخوف. كان فانشو على قيد الحياة، وإذا تركت صوفي تعلم بذلك فما الذي ستفعله هذه المعرفة بنا؟ كانت الفكرة القائلة بأن صوفي قد ترغب في أن يعود فانشو إليها أقوى من أن أحتملها، ولم تكن لدي الشجاعة للمخاطرة باكتشاف جلية هذا الأمر. وربما كان هذا أعظم فشل مُنيت به، ولو أنني آمنت بحب صوفي لي بقوة لرغبت في المخاطرة بأي شيء. ولكن في ذلك الوقت لم يبد أن هناك خياراً آخر، وهكذا قمت بما طلبه فانشو مني، لا من أجله، وإنما من أجلي. كتبت السرّ وتعلّمت أن ألزم الصمت.

مرّت أيام قليلة أخرى، ثم تقدّمت لخطبة صوفي، وكنا قد تحدّثنا عن الزواج من قبل، ولكنني في هذه المرّة أخرجت الأمر من دائرة الحديث وأوضحت لها أنني جادّ في إنجازه. وكنت أدرك أنني أتصرف على نحو لا يتفقّ مع ما درجت عليه (إذ خلا سلوكي من المرح والمرونة) ولكنني لم أستطع تجنب ذلك، فقد كان من المستحيل التعايش مع غموض الموقف، وشعرت بأنني يتعيّن عليّ أن أحسم الأمور في التوّ. وقد لاحظت صوفي هذا التغيّر فيّ، بالطبع، ولكنها إذ لم تكن تدري بسببه فقد فسّرتّه على أنه ناجم من فرط العاطفة، وعلى أنه سلوك ذكّر عصبيّ شديد العناد، يلهث في غمار مطاردته لما

يريده على نحو يفوق أي شيء آخر (وهو ما كان صحيحاً كذلك).  
قالت: نعم، إنها ستزوّجني. ترى هل اعتقدتُ حقاً أنها سترفضني؟  
قلت:

- إنني أرغب في تبنيّ بن كذلك، أريده أن يحمل اسمي، من  
المهم أن يكبر وهو يعتقد أنني أبوه.

ردت صوفي بأنها ما كانت لترغب في أن يكون الأمر على خلاف  
ذلك، وأن ذلك هو الشيء الوحيد يفرض حضوره بالنسبة إلينا  
ثلاثتنا.

واصلت حديثي قائلاً:

وأريد أن يتم ذلك سريعاً، بأسرع ما يمكن. في نيويورك لا  
يمكنك إتمام إجراءات الطلاق في غضون عام، وهذا وقت طويل  
للغاية. وليس بمقدوري تحمّل الانتظار كلّ هذا الوقت، ولكن هناك  
أماكن أخرى. الأabama، نيفادا، مكسيكو، والله وحده يعلم أين،  
يمكننا الانطلاق إلى هناك لقضاء عطلة، ولدى عودتك ستكونين حرة  
في الزواج مني.

قالت صوفي إنها تحبّ رنين قلبي هذا «حرة في الزواج مني». قالت  
إنه إذا كان ذلك يعني الذهاب إلى مكان ما لبعض الوقت فإنها  
ستذهب إلى أي مكان أريده.  
قلت:

- لقد غاب لأكثر من عام الآن، في نهاية المطاف، عام ونصف  
العام تقريباً. والأمر يقتضي انقضاء سبع سنوات قبل أن يُعتبر ميتٌ  
مكتسباً لهذه الصّفة رسمياً. والأشياء تحدث، والحياة تواصل  
مسيرتها، فكّري فقط في أننا قد عرف أحدنا الآخر طوال عام تقريباً.

ردت صوفي:

- إذا شئت الدقة، فقد دخلت من هذا الباب لأول مرة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦، وستكتمل المدة عاماً في غضون ثمانية أيام بالضبط.

إنك تتذكرين.

بالطبع، أتذكر. فقد كان أهم يوم في حياتي.

استقللنا طائرة إلى برمنجهام في ولاية ألاباما، في الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) وعدنا إلى نيويورك في الأسبوع الأول من كانون الأول (ديسمبر). وفي الحادي عشر من كانون الأول (ديسمبر) تزوجنا في قاعة المدينة، وبعد ذلك مضينا إلى حفل عشاء سالت فيه الخمر مع حوالي عشرين صديقاً، وأمضينا تلك الليلة في البلازا، وطلبنا إفطاراً حمله إلى غرفتنا مسؤولو خدمة الغرف في الصباح، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم انطلقنا بالطائرة إلى مينسوتا مع بن. وفي الثامن عشر من كانون الأول (ديسمبر) أقام لنا والدا صوفي حفل زفاف في دارهما، وفي ليلة الأربعاء والعشرين احتفلنا بعيد الميلاد على الطريقة النرويجية، وبعد ذلك بيومين غادرتُ وصوفي الجليد إلى برمودا لقضاء أسبوع ونصف الأسبوع هناك، ثم عدنا إلى مينسوتا لينضم إلينا بن. وقد اعتزمنا البدء بالبحث عن شقة جديدة فور عودتنا إلى نيويورك. وفي منطقة تقع غربي بنسلفانيا. وبعد حوالي ساعة من الطيران تبوّأ بن من خلال حفازاته علي حجري، وعندما أريته البقعة القائمة الكبيرة على سروالي، ضحك، وصفق، ثم نظر إلى عيني مباشرة، ودعاني أباه للمرة الأولى.

أتمسك بالحاضر. فقد مرّت عدّة شهور، وشيئاً فشيئاً بدأ يتّضح لي أنّ في وسعي مواصلة الحياة. وكانت تلك حياة في حفرة مناوشة، ولكن صوفي وبن كانا في قرار الحفرة معي، وكان هذا حقاً ما أردته، ومادمتُ أتذكّر ألاّ أنظر عالياً خارج الحفرة فما كان بمقدور الخطر أن يمّسنا.

انتقلنا إلى شقّة في ريفر سايد درايف في شباط (فبراير)، واستغرق منّا الاستقرار حتّى منتصف الربيع ولم تُتخ لي إلاّ فرصة محدودة للتركيز على موضوع فانشو. وإذا كانت الرّسالة لم تختف من خواطري كلبية فإنّها لم تعد تشكّل الخطر نفسه. وكنت أحسّ بالأمن مع صوفي، وشعرت بأنه ما من شيء يمكن أن يفرّق بيننا، وليس ذلك بمقدور فانشو كذلك، أو هذا هو ما بدا لي. حينذاك لدى تفكيري في الأمر. وإنّي لأدرك الآن مدى سوء خداعي لِنفسي، ولكنني لم أكتشف هذا إلاّ بعد ذلك بوقت طويل. فالفكرة هي بحكم تعريفها أمر يدركه المرء ويعيه. والحقيقة هي أنّني لم أتوقّف مرّة واحدة عن التفكير في فانشو، ولم أكن أدري في ذلك الوقت أنّه كان قابلاً في أعماقي طوال تلك الشهور. وإذا لم تكن تعي وجود فكرة لديك فهل من المشروع القول بأنك تفكّر؟ ربّما كان يطاردني شيء ما، وربّما وصل إلى حدّ الاستحواذ عليّ، ولكن لم تكن هناك مؤشّرات تدلّ على ذلك ولا عناصر أوليّة تُبلّغي بما يحدث.

كانت الحياة اليومية حافلة بالنسبة إليّ وقتذاك، ولم ألحظ أنّي أنجز عملاً يقلّ عمّا كنت أنجزه في سنوات. لم تكن لديّ وظيفة أمضي

إليها صباحاً، ولما كانت صوفي وبن في الشقة معي فلم يكن من المتعذر كثيراً العثور على أعذار لتجنب الجلوس إلى مكتبي. وازداد تراخي جدول أعمالي، وبدلاً من البدء في التاسعة من صباح كل يوم تماماً لم أكن أشقّ طريقتي إلى غرفتي الصغيرة في بعض الأحيان إلا في الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف. وفوق ذلك، كان وجود صوفي في البيت عنصر إغواء دائم، فقد كان بن مايزال يفرق في النوم طويلاً مرة أو مرتين يومياً. وفي تلك الساعات الهادئة، وبينما هو يغطّ في النوم، كان من العسير عليّ عدم التفكير في جسمها، وكان الأمر ينتهي في غالب الأحوال بأن نتضاجع. وكانت صوفي جائعة لذلك مثلي تماماً ومع مضيّ الأسابيع اتخذت البيت على مهل طابعاً شهوانياً، وتحوّل إلى مجال من الاحتمالات الجنسية، فنهض العالم السفليّ صاعداً إلى السطح، واكتسبت كلّ غرفة ذاكرتها الخاصة، واستحضرت كلّ بقعة لحظة مختلفة، بحيث أنه حتى في هدأة الحياة العملية لم تكن قطعة بعينها من السجاد، مثلاً، أو عتبة باب بذاته شيئاً على وجه التحديد وإنما شعوراً، صدىّ لحياتنا الشهوانية، كنّا قد ولجنا لغز الرغبة، وكان احتياج أحدنا إلى الآخر لا تنفع غلته، وكلّما ازداد تحقّقاً بدا أنه يزداد غمواً.

كانت صوفي تتحدّث بين الحين والآخر عن الالتحاق بعمل، ولكنّ أياً منّا لم يشعر بأنّ ذلك أمر عاجل، فقد كانت أموالنا تكفينا بصورة طيبة، بل وأفلحنا في أدخار القليل. وكان كتاب فانشو التالي بعنوان «معجزات» في مرحلة الإعداد للصدور. وكان المقدّم المنصوص عليه في العقد المبرم مع الناشر أكبر من نظيره في حالة

«أرض المستحيل» ووفقاً للجدول الزمني الذي وضعته بالاشتراك مع ستيوارت، ستصدر القصائد بعد ستة أشهر من صدور «معجزات» ثم أولى روايات فانشو، وهي بعنوان «إظلام»، وفي النهاية تأتي المسرحيات. وقد بدأت عوائد حقوق نشر «أرض المستحيل» بالوصول في شهر آذار (مارس) ذلك، وتبخرت كل المشكلات المالية مع قدوم شيكات عن هذا العمل أو ذلك بشكل مفاجئ. وشأن كل شيء آخر بدا أنه يحدث، كان ذلك تجربة جديدة بالنسبة إليّ، فعلى امتداد السنوات الثماني أو التسع الماضية كانت حياتي كسباً للرزق بصعوبة، واندفاعاً مضطرباً من مقال رديء إلى آخر، وكنت أعتبر نفسي محظوظاً أستطيع التخطيط لما يزيد عن شهر أو شهرين. كان التحسب مغروساً في أعماقي، ويسري مسرى الدم مني، وجزءاً من خلاياي، ولم أكن أدري ما يعنيه التنفس من دون التساؤل عما إذا كان بمقدوري دفع فاتورة الغاز. وأما الآن، وللمرة الأولى منذ اعتمدت مالياً على نفسي، فقد أدركت أنني لم أعد مضطراً للتفكير في هذه الأمور. وذات صباح، فيما كنت أجلس إلى مكتبي عاكفاً في عناء على كتابة الجملة الأخيرة في مقال، باحثاً عن عبارة لا وجود لها في ذهني، تبين لي تدريجياً أنني قد أتيت لي فرصة ثانية. ففي وسعي التوقف عن ذلك والبدء من جديد، ولم أعد مضطراً لكتابة المقالات. كان بمقدوري الانتقال إلى أمور أخرى، والبدء بالقيام بالأعمال التي أردت دائماً إنجازها. كانت تلك فرصتي لإنقاذ نفسي، ووصلت إلى أنني سأكون أحمق إن لم أنتهزها.

انقضت أسابيع أخرى، وكنت أمضي إلى غرفتي كل يوم، ولكن

شيئاً لم يحدث، وساورني، نظرياً، شعور بالإلهام، وعندما لا أعكف على الكتابة كان رأسي يمتشد بالأفكار، ولكنني في كل مرة كنت أجلس فيها لأضع شيئاً على الورق كانت أفكارني تبدولي وكأنها قد اختفت. فقد كانت الكلمات تموت عندما أرفع قلمي، وبدأت عدداً من المشروعات، ولكن شيئاً لم يتماسك بصورة حقيقية، وتساقطت المشروعات واحداً بعد الآخر، ورحت أبحث عن الأعذار لأفسر بها السرّ في أنني لم أستطع المضي قُدماً. لم تكن تلك مشكلة، وقبل أن ينقضي وقت طويل خرجت بمجموعة بكاملها من الأعذار: التأقلم مع الحياة الزوجية، مسؤوليات الأبوة، غرفة عملي الجديدة (التي بدت ضيقة أكثر من اللازم) العادة القديمة المتمثلة في الكتابة وفقاً لموعد نهائي للتسليم، جسم صوفي، المال الذي جاء على غير انتظار - كل شيء. وطوال عدة أيام راودتني فكرة كتابة رواية بوليسية، ولكنني صادفت تعقيدات في العقدة ولم أستطع تجميع الجزئيات معاً. وتركت ذهني يشرد دونما هدف، على أمل إقناع نفسي بأن الكسل برهان على استجماع القوة ومؤشّر على شيء يوشك أن يحدث. وعلى امتداد ما يزيد على شهر كان كل ما فعلته هو استنساخ فقرات من كتب. وكانت إحداها مقتطفاً من سبينوزا ألصقته على الحائط: «وعندما يحلم بأنه لا يرغب في الكتابة فإنه لا يملك القدرة على الحلم بأنه يرغب في الكتابة، وعندما يحلم بأنه يرغب في الكتابة فإنه لا يملك القدرة على الحلم بأنه لا يرغب في الكتابة».

من الممكن أنني سأشق طريقي خارجاً من هذه الورطة. ولكنه ما يزال من غير الواضح لي ما إذا كانت حالة دائمة أو مرحلة عابرة.



وإحساسي الداخلي يوحى لي بأنني لبعض الوقت كنت ضائعاً، أتعثر في يأس داخل ذاتي، ولكنني لا أحسب أن ذلك يعني أن حالتي لا أمل فيها، فقد كانت أشياء تحدث لي، وكنت أجتاز تحولات كبيرة، وكان الوقت ما يزال مبكراً للحكم بالاتجاه الذي ستمضي فيه هذه التحولات ثم طرَحَ حلُّ نفسه فجأة، وإذا كانت تلك كلمة مواتية أكثر من اللازم فإنني سأدعوه بالحلِّ الوسط، وأياً ما كان فإنني لم أقاومه كثيراً، فقد جاء في وقت ضعيفٍ بالنسبة إليّ، وكان حكمي أبعد ما يكون عما ينبغي. وكان ذلك هو خطأي الجوهرى الثانى، وقد انبثق مباشرة عن الخطأ الأوّل.

كنت أتناول طعام الغداء ذات يوم مع ستيوارت قرب مكتبه في أوبر إيست سايد. وفي منتصف الوجبة طرح من جديد الشائعات الخاصّة بفانشو، وخطر ببالي للمرّة الأولى أن الشكوك قد بدأت تراوده بالفعل فقد كان الموضوع أكثر فتنة بالنسبة إليه من أن يدعه وشأنه. وكان أسلوبه خبيثاً وتأمرياً على نحو ساخر، ولكن تحت هذا المظهر شرعت في الشكّ في أنه يحاول استدراجي إلى فخّ الاعتراف. وقد جاريتّه لبعض الوقت، ثمّ عندما سئمت اللّعبة قلت إنّ الأسلوب السّهّل لحسم هذه المسألة هو التّكليف بإعداد سيرة حياة لفانشو. وقد طرحت هذه الملاحظة ببراءة تامّة (باعتبارها نقطة منطقيّة لا اقتراحاً أقدمه) ولكنها بدت لستيوارت فكرة رائعة فاندفع في الحديث قائلاً:

- بالطبع، بالطبع، تفسير أسطورة فانشو، واضح للغاية، بالطبع، القصّة الحقيقيّة في نهاية الأمر.

وفي لحظاتي تصوّر ستيوارت المسألة بكاملها، لسوف أقوم بتأليف

الكتاب، وسوف يظهر بعد صدور كل أعمال فانشو، وبمقدوري الحصول على ما أشاء من وقت، على عامين أو ثلاثة أو ما أشاء. وأضاف أنه يتعين أن يكون كتاباً فذاً، كتاباً معادلاً لفانشو نفسه، ولكنه يثق بي أعظم الثقة، وهو يعلم أن بمقدوري إنجاز هذه المهمة. وقد أخذني الاقتراح على غرة، وتعاملت معه باعتباره نكتة، ولكن ستيوارت كان جاداً، وما كان ليتم لي رفض الأمر. قال:

- فكّر في الموضوع، ثم حدّثني بشعورك.

وظللت على شكّي، ولكنني من قبيل التهذيب أبلغته بأنني سأفكر في الاقتراح. واتفقنا على أن أوافيه برّد نهائيّ في نهاية الشهر.

ناقشت الموضوع في تلك الليلة مع صوفي، وإذا لم أستطع الحديث معها بأمانة فإن الحوار لم يمدّ لي يد المساعدة.

قالت:

- الأمر راجع إليك. وأحسب أنك إذا كنت تريد القيام به فإن عليك المضيّ قدماً.

- ألا يضايقك ذلك؟

- كلا، على الأقل لا أعتقد ذلك. وقد خطر لي بالفعل أنه عاجلاً أو آجلاً سيصدر كتاب عنه، وإذا كان ذلك أمراً لا بدّ منه فمن الأفضل أن يكون من تأليفك أنت لا بقلم شخص آخر.

- سأضطرّ للكتابة عنك وعن فانشو، وقد يبدو ذلك غريباً.

- ستكون صفحات قليلة شيئاً كافياً، ومادمت أنت من سيكتبها فليس في هذا ما يدعوني للقلق حقاً.

قلت من غير أن أدري كيف أو اصل الحديث:

- ربّما، ولكنني أحسب أنّ المسألة الأكثر صعوبة هي ما إذا كنت أرغب بالتورّط في التّفكير في فانشو، فربّما كان الوقت قد حان ليختفي تدريجيّاً.

- إنّهُ قرارك، ولكنّ الحقيقة هي أنّ بمقدورك تأليف هذا الكتاب أفضل من أيّ شخص آخر، ولا يتعيّن أن يكون سيرة حياة مباشرة، بمقدورك كتابة شيء أكثر إثارة للاهتمام.

- مثل ماذا؟

- لا أعرف، شيء أكثر اتّساماً بالطابع الشّخصي، أكثر قوّة، قصّة صداقتكما، يمكن أن يكون عنك بقدر ما هو عنه.

- ربّما، إنّها فكرة على الأقلّ، والشّيء الذي يثير حيرتي هو كيف يمكنك أن تكوني بمثل هذا الهدوء جيال الموضوع.

- لأنك زوجي ولأنني أحبّك، هذا هو السّبب، وإذا قرّرت أنّه شيء تريد القيام به فإنني أسانده فأنا في نهاية المطاف لست عمياء، وأعرف أنّك تصادف مشكلات في عملك، وأحسّ في بعض الأحيان أنّي أتحمّل اللوم على ذلك. وربّما كان ذلك هو المشروع الذي تحتاج إليه للبدء من جديد.

كنت أعتد على صوفي في قرارة نفسي لتتخذ لي القرار، مفترضاً أنّها ستعترض، وأننا سنتحدّث عن الموضوع مرّة، وتكون في ذلك نهايته، ولكن عكس ذلك تماماً هو ما حدث، لقد دفعتّ بنفسي إلى مأزق، وفجأة خانتني شجاعتي فتركت يومين ينقضيان، ثمّ قمت بزيارة لستيوارت، وأبلغته بأنني سأقوم بتأليف الكتاب. وقد تكفّل

ذلك بأن يتيح لي غداء مجانياً، وبعد ذلك حملت الأمر على كاهلي وحدي .

لم يكن ذكر الحقيقة مطروحاً قط، ذلك أن فانشويتعين أن يكون ميتاً، وإلا فإنه لن يكون للكتاب معنى، ولن يتعين عليّ فقط أن أكتب أمر الرسالة، وإنما سأكون مرغماً كذلك على التظاهر بأنها لم تكتب قط، ولم تساورني أوهام عما أعتزم القيام به، فقد كان واضحاً منذ البداية ما سأفعله، وقد انغمست فيه والخديعة في قرارة نفسي . لقد كان الكتاب عملاً من نسج الخيال، وعلى الرغم من أنه يقوم على أساس الحقائق إلا أنه ما كان يمكن أن يسرد إلا الأكاذيب . وقد وقّعت عقد تأليفه، وفيما بعد ساورني شعور من وقع عقداً يقضي ببيع روحه .

رحت أضرب في أرض التفكير طوال عدّة أسابيع، باحثاً عن سبيل للبدء وواصلت القول لنفسي إن كل حياة هي شيء غير قابل للتفسير، فأياً كان عدد الحقائق التي تُقال، وأياً كان عدد التفاصيل التي تُطرح فإن الشيء الجوهرى يقاوم الإفصاح عنه . والقول إن فلاناً قد ولد هنا ومضى إلى هناك، وأنه قد قام بهذا وبذاك، وأنه تزوج هذه المرأة وأنجب هؤلاء الأبناء، وأنه قد عاش، ومات، وترك وراءه هذه الكتب أو هذه المعركة أو ذلك الجسر - ما من شيء من ذلك يحدّثنا بالكثير، فنحن جميعاً نريد أن نحكى لنا قصص، ونحن نصغي إليها على نحو ما كنّا نصغي ونحن صغار، وتتصوّر القصص الحقيقية في إهاب الكلمات، ومن أجل القيام بهذا فإننا نضع أنفسنا موضع الشخص الموجود في القصة، متظاهرين بأنّ في وسعنا أن نفهمه لأننا

نفهم أنفسنا، وتلك خديعة، فنحن قد نوجد من أجل أنفسنا، بل وفي بعض الأوقات ندرك من نكون، ولكننا في النهاية لا نستطيع التيقن، ومع استمرار حياتنا فإننا نصبح أكثر غموضاً بالنسبة إلى أنفسنا، ونغدو أكثر وعياً بعدم تماسكنا. وما من شخص يمكنه أن يعبر الحاجز إلى آخر، وذلك لسبب بسيط هو أنه ما من أحد يمكنه أن يصل إلى ذاته.

عدت بذهني إلى شيء كان قد وقع لي قبل ثماني سنوات في حزيران (يونيو) ١٩٧٠. فقد كنت بلا نقود، ومجرداً من الإمكانيات لمواجهة الصيف، فالتحقت بوظيفة مؤقتة كموظف في الإحصاء الرسمي للسكان في هارلم. وكان في المجموعة عشرون موظفاً هم أقرب إلى مجموعة من العاملين الميدانيين الذين لا يترددون في الهجوم ومتابعة الذين لم يردوا على الاستبيانات المرسلة إليهم بالبريد. وقد تدرّبنا عدّة أيام في عليّة مُتريّة بالطابق الثاني أمام مسرح أبولو، ثم بعد أن تملكنا ناصية التقييدات المتعلقة بالاستمارات، والقواعد الأساسية للسلوك المهذب لموظف الإحصاء، تفرّقنا في الحيّ وعلى أكتافنا الحقائق ذات الألوان الأحمر والأبيض والأزرق لنطرق الأبواب ونطرح الأسئلة ونعود بالحقائق. وقد تبين أنّ أول مكان توجّهت إليه كان المقرّ الرئيسيّ لعملية إعداد برامج ترفيهيّة. وفتح الباب قليلاً، وأطلّ رأس ووراءه كان بمقدوري أن أرى اثني عشر رجلاً في غرفة جرداء، وهم يكتبون على موائد ممّا يستخدم في التزهات) وقيل لي بأدب إنهم ليسوا مهتمّين. وقد بدا أنّ ذلك يحدّد الطابع العام لما سألقاه، ففي إحدى الشقق تحدّثت مع امرأة شبه ضريرة كان أبواها من العبيد. وبعد

ثلث ساعة من بدء الحوار معها اتضح لها أخيراً أنني لست من السود، وبدأت بالضحك بصورة متقطعة، وقالت إنها شكّت في ذلك طوال الوقت لأنّ صوتي كان غريباً، ولكنها لم تستطع تصديق ذلك في يسر، فقد كنت أول شخص أبيض يبطأ بيتها. وفي شقة أخرى صادفت عائلة مؤلفة من أحد عشر شخصاً ليس فيهم من يتجاوز عمره اثنين وعشرين عاماً، ولكن في غالبية الوقت لم يكن أحد هناك، وعندما يصلون فإنهم يرفضون الحديث معي أو إدخال شقتهم. وأقبل الصيف، وتفاقم حرّ الشوارع ورطوبتها، وغدت لا تطاق على نحو لا يمكن أن يحدث إلا في نيويورك وحدها. وكنت أستهل جولاتي في وقت مبكر، متخبّطاً في غباء من دار إلى أخرى، وقد تفاقم شعوري بأنني أشبه رجلاً هبط من القمر. وفي نهاية المطاف تحدّثت مع المشرف (وهو رجل أسود سريع الحديث، يضع عقدة عنق حريزيّة عريضة الطرفين، ويتجمّل بخاتم ذي ياقوتة زرقاء) وشرحت له مشكلتي، وعندئذ تعلّمت ما هو مطلوب مني حقاً. لقد كان هذا الرجل يتلقّى مبلغاً معيناً مقابل كلّ استمارة يحضرها عضو من أعضاء فريق عمله، وكلّما كانت نتائجنا أفضل زادت النقود التي تشقّ طريقها إلى جييبه. قال: «إنني لا أُملي عليك ما يتعيّن أن تقوم به، ولكن يبدو لي أنّك إذا قمت بمحاولة مخلصة فإنّك لا ينبغي أن تغلب عليك المشاعر السيئة».

تساءلت:

- هل استسلم إذن؟

قال وقد شابّت نغمة التأمل الفلسفي حديثه:

- ومن ناحية أخرى فإنّ الحكومة تريد استثمارات مُستكَملة، وكلّما زادت الاستثمارات التي يحصلون عليها غدت مشاعرهم أفضل. إنني أعرف الآن أنّك فتى ذكيّ، وأعرف أنّ اثنين عندما يضافان إلى اثنين لا يكون حاصل جمعها خمسة. وكون باب بعينه لا يفتح عندما تطرقه لا يعني أنّه ليس هناك أحد بالداخل. عليك أن تستخدم خيالك، يا صديقي، فنحن في نهاية المطاف لا نرغب في أن تشعر الحكومة بالتعاسة. هل تلك هي رغبتنا؟

غدا العمل أكثر سهولة إلى حدّ كبير بعد ذلك، ولكنّه لم يُعدّ العمل نفسه. فقد تحوّل عملي الميدانيّ إلى عمل كتابي، وبدلاً من قيامي بدور المحقّق غدت مُبتكراً. وكلّ يوم أو يومين أمضي إلى المكتب وأتلّقى رزمة جديدة من الاستثمارات، وأسلمّ الاستثمارات التي فرغتُ من استكمالها، ولكنني بخلاف ذلك لم أكن مضطراً لمغادرة شقتي. ولست أدري كم من الناس اخترعت وجودهم، ولكن لا بدّ أنّ عددهم كان يقدر بالمئات، بل بالآلاف. كنت أجلس في غرفتي والهواء الذي تحرّكه المروحة يهبّ على وجهي، وقد لفتت منشفة باردة حول عنقي، وعكفت على استكمال الاستبيانات بأسرع ما تستطيع يدي الكتابة. كنت أميل إلى العائلات الكبيرة العدد التي تضمّ ستة أطفال أو ثمانية أو عشرة، وازدهاني أن اخترع شبكات غريبة ومعقدة من العلاقات، وأن أطرح كلّ الإمكانيات المحتملة، الأباء، الأطفال، أبناء العمومة، الأعمام، العمّات، الأجداد، الأقارب بالمصاهرة، الأبناء بالتبنيّ، الإخوة غير الأشقاء، الأخوات غير الشقيقات، الأصدقاء. وكانت هناك في المقام الأوّل متعة اختراع

الأسماء. وفي بعض الأوقات كان عليّ أن أقمع الدافع الذي يجذوني إلى اختيار الغريب من الأسماء، والطريف بشدة، والمتضمن تورية، والمحتوي على إسقاط جنسي، ولكنني كنت في معظم الأوقات أكتفي بالبقاء في حدود الواقعية، وعندما كان خيالي يجذلي كانت هناك ابتكارات آليّة يمكن اللجوء إليها: الألوان (براون، وايت، بلاك، جرين، جراي، بلو) الرؤساء (واشنطن، أدامز، جيفرسون، فيلمور، پيرس) الشخصيات الخياليّة (فين، ستارك، ديمزديل، باد) وأحببت الأسماء المرتبطة بالسّماء (أورفيل رايت، إميليّا إيرهارت) وبالمرح الصّامت (كيتون، لاندون، لويد) وبالمقاطع الطويلة (كيلبرو، مانتل، ماين) وبالموسيقى (شوبرت، إيفز، أرمسترونج) وبين الحين والآخر أستعين بأسماء الأقارب البعيدين، أو أصدقاء الدّراسة القدامى، بل استخدمت ذات مرّة جناساً تصحيفياً لاسمي.

كان القيامُ به شيئاً صبيانيّاً، ولكنني لم يكن لديّ ما أشكوه منه، كما لم يكن من الصّعب تبرير هذا، ولم يكن المشرف بيدي اعتراضاً، ولم يكن الناس الذين يقيمون بالفعل في العناوين المذكورة في الاستثمارات يعترضون (لم يكونوا يرغبون في مضايقتهم، ولاسيّما من قبل فتى أبيض يتلصّص على شؤونهم الشخصيّة) والحكومة لا تعترض، لأنّ ما لا تعرفه لا يضرها، وبالتأكيد لن يلحق الضرر بها بأكثر مما تضرّ نفسها، بل إنني مضيت للدّفاع عن تفضيلي للعائلات الكبيرة على أسس سياسيّة: فكلّما عظم عدد السّكان الفقراء زاد التزام الحكومة بإنفاق الأموال عليهم. وكان ذلك هو مشروع رعاية الأرواح البائسة مع لمسة أمريكيّة، وكان ضميري صافياً.



ذلك كان على أحد المستويات . وفي قرارة الأمر كمنت الحقيقة البسيطة القائلة بأنني كنت أستمتع بما أقوم به . فقد أسعدني أن أبتكر الأسماء من عدم، وأن أخترع حياة لم يقدر لها الوجود قط، ولن توجد أبداً . لم يكن ذلك مشابهاً على وجه الدقة لرسم الشخصيات في قصة، ولكنه كان شيئاً أعظم، شيئاً أكثر إثارة للاضطراب . والجميع يعلم أن القصص خيالية، وأياً كان أثرها علينا فإننا نعلم أنها ليست حقيقية، حتى حين تحدثنا بحقائق أكثر أهمية من الحقائق التي يستطيع المرء العثور عليها في موضع آخر . وفي مقابل كاتب القصة كنت أ طرح إبداعاتي مباشرة على العالم الواقعي، ومن ثم بدا لي أنه من الممكن أن تؤثر هذه الإبداعات بطريقة واقعية، وأنها يمكن أن تكون جزءاً من الواقعي ذاته . وما من كاتب يمكن أن ينشد أكثر من ذلك .

عاد هذا كله إلى ذهني عندما جلست لأكتب عن فانشو . لقد منحت الحياة ذات يوم لآلاف الأرواح . وأما الآن، وبعد ثمانين سنوات، فقد كنت على وشك الإمساك برجل حي، ودفنه في قبره . كنت صاحب النصيب الأكبر من الحداد والكاهن المتولي أمور القداس، في هذه الجنائز الزائفة، وكان عملي هو نطق الكلمات المناسبة، وقول الشيء الذي يرغب الجميع في سماعه، وكان العمالان متعارضين ومتطابقين وكأنهما صورتان انعكستا على صقال المرأة . ولكن ذلك لم يَدْخُل العزاء على نفسي . فقد كان الخداع الأول مزحة، ولا يعدو أن يكون مغامرة شابة، بينما كان الخداع الثاني شيئاً جاداً، ومظلماً، ومخيفاً . لقد كنت في نهاية المطاف أحفر قبراً، وكانت هناك أوقات بدأت خلالها بالتساؤل عما إذا لم أكن أحفر قبوري .

جادلت بالقول إن حياة البشر لا معنى لها، فالإنسان يجيأ ثم يموت، وما يحدث بين الأمرين لا معنى له. وفكرت في قصة «لاشير»، جندي شارك في حملة من الحملات الفرنسية الأولى المتجهة إلى أمريكا. كان جان ريبو قد غادر في ١٥٦٢ م بورت رويال، مخلّفاً وراءه عدداً من الرّجال (قرب رأس هيلتون، في ساوث كارولينا) تحت قيادة ألبير دي بيرا، وهو رجل مجنون حكم بالحديد والنّار. وقد كتب فرانسيس باركمان يقول: «لقد شق بيديه ضارباً على الطّبل لم يعجبه أداؤه، ونفى جندياً يُدعى لاشير إلى جزيرة منعزلة على بعد ثلاثة فراسخ من القلعة وتركه يتضور جوعاً». وقد قتل ألبير في انتفاضة قام بها جنوده، وتمّ انقاذ لاشير شبه الميت من الجزيرة. وسوف يظنّ المرء أنّ لاشير قد غداً آمناً، وأنّه بعد أن نجا من العقاب الرهيب سيعفى من المزيد من الكوارث، ولكن ما من شيء على هذا القدر من البساطة، فليست هناك غرائب يتعيّن تجاوزها، وما من قواعد تُفرض على سوء الطّالع، وفي كلّ لحظة نبدأ من جديد ونكون عرضة لتلقّي ضربة قاصمة على نحو ما كنّا قبل لحظة. وقد تداعت الأمور في المستوطنة، ولم تكن لدى الرّجال موهبة التّعامل مع البريّة، وسيطرت المجاعة والحزن المرّضيّ للوطن، وباستخدام أدوات قليلة أنفقوا كلّ الطّاقات المتاحة لهم في بناء سفينة «من النّوع الذي يمكن لروبنسون كروزو إنجازها» للعودة بهم إلى فرنسا. وفي عرض المحيط الأطلسي حلّت كارثة أخرى: لم تكن هناك ريح، ونفد طعامهم وما لديهم من ماء فشرعوا يأكلون أحذيتهم وستراتهم الجليديّة، وفي غمار اليأس شرب بعضهم ماء المحيط، ومات الكثيرون منهم، ثمّ حلّ الانحدار الحتميّ لأكل اللّحم البشري. وكتب باركمان يقول:

«أجريت القرعة، وكان الدّور من نصيب لاشير، ذلك التعس نفسه الذي حكم عليه ألبير بالموت جوعاً على جزيرة منعزلة، فقتلوه، واقتسموا لحمه بحيويّة شرسة. وقد أبقاهم هذا الطّعام الرهيب على قيد الحياة إلى أن لاحت الأرض لعيونهم، وقد قيل إنهم في جنون الفرح لم يعد بمقدورهم تسيير السفينة، وإنما تركوها لتمضي مع المدّ، فانقضت سفينة بريطانيّة ذات ثلاثة صواريّ عليهم، ونقلهم رجالها إلى متنها، وبعد أن تركوا على الأرض أكثرهم ضعفاً، حملوا الباقين أسرى إلى الملكة اليزابيث».

إنني أضرب لاشير مثلاً فحسب، وفيما يتعلّق بالمصائر فإنّ من المؤكّد أنّ مصيره غريب، وربّما كان أقلّ ضراوة من معظم المصائر، فهو على الأقلّ قد مضى في خطّ مستقيم، وذلك في حدّ ذاته أمر نادر يوشك أن يكون نعمة وبركة. وبصفة عامّة فإنّ حياة البشر تمضي، فيما يبدو، في مسيرة منقطعة من شيء إلى آخر، وتضطّرب، وتضطدم، وتمضي نافذة فالشخص يمضي في اتجاه ثمّ ينحرف بحدّة وسط مساره، ويتجمّد في موضعه، ويمضي ضائعاً، ثمّ يبدأ السّير من جديد. وما من شيء يُعرف أبداً، ومن المحتّم أن نصل إلى مكان مختلف تماماً عن المكان الذي انطلقنا منه. وفي عامي الدراسيّ الأوّل في كولومبيا سرت إلى جوار تمثال نصفيّ للورنزو دابونتي، في كلّ يوم خلال توجّهي للصفّ الدراسيّ. وكنت أعرفه بصورة غامضة باعتباره كاتب نصوص أوبرات موزار، ولكنني ما لبثت أن علمت أنّه كان كذلك أوّل أستاذ إيطالي في جامعة كولومبيا، وبدا لي أنّ الأمرين بعيدان عن أن يتفق أحدهما مع الآخر، وهكذا قرّرت البحث في

الأمر، وقد استبدَّ بي الفضول والرغبة في معرفة كيف أمكن لرجل واحد أن ينتهي به الأمر إلى أن يعيش مثل هاتين الحياتين المختلفتين. وقد تبين لي أن دابونتي قد عاش خمس حيوات مختلفة أو ستاً، فقد دُعي باسم إمانويل كونجليانو لدى ميلاده في ١٧٤٩ م ابناً لتاجر جلود يهودي. وبعد موت أمه تزوج أبوه امرأة كاثوليكية، وخلص إلى أنه ينبغي تعميده مع أبنائه، وقد برز الفتى إمانويل باعتباره مشروع مثقف واعد، ولدى بلوغه الرابعة عشرة من عمره قام الأسقف سينادا (مونسنيور دابونتي) برعايته، ودفع كل نفقات تعليمه ليغدو كاهناً. وكما جرى العرف في ذلك الوقت فقد خلع على التابع لقب راعيه. وقد رُسم دابونتي كاهناً في ١٧٧٣ م وأصبح أستاذاً في معهد لاهوتي، يبدي اهتماماً خاصاً بالأدب اللاتيني والإيطالي والفرنسي. وبالإضافة إلى تحوله لأحد أتباع التيار التنويري فقد انغمس في عدد من قصص الحب المعقدة، وتعلق فؤاده بإحدى نبيلات البندقيّة وأنجب منها طفلاً تحت ستار من السريّة. وفي ١٧٧٦ م شمل برعايته ندوة عامّة في المعهد اللاهوتي في تريفيسو طرحت التساؤل حول ما إذا كانت الحضارة قد أفلحت في جعل الإنسان أكثر سعادة. ونظراً لهذه الصفة الموجهة للمبادئ الكنسيّة فقد أجبر على الهرب إلى البندقيّة أولاً، ثم إلى جوريزيا، وأخيراً إلى درسدن حيث بدأ حياته المهنيّة كمؤلف للكلمات الأوبرا. وفي ١٧٨٢ م مضى إلى فيينا حاملاً خطاب توصية إلى ساليري، وبالفعل تمّ إلحاقه بالعمل باعتباره «شاعر المسرح الإمبراطوري» وهو منصب شغله على امتداد عقد من الزمان تقريباً. وخلال هذه الفترة التقى بموزار وتعاون معه في إنجاز ثلاث أوبرات حفظت اسمه من الاندساح إلى النسيان. غير أنه في

١٧٩٠ م، عندما قام ليوبولد الثاني بتقليص الأنشطة في فيينا بسبب الحرب التركيّة، وجد دابونتي نفسه عاطلاً عن العمل فمضى إلى تريستا حيث وقع في غرام امرأة إنجليزية تدعى نانسي جرال أو كرال (لايزال الاسم موضع خلاف). ومن هناك مضيا كلاهما إلى باريس، ومنها إلى لندن حيث مكثا ثلاثة عشر عاماً، واقتصرت أعمال دابونتي الموسيقية على كتابة عدد محدود من الأوبرات لمؤلفين موسيقيين غير بارزين. وفي ١٨٠٥ م هاجر مع نانسي إلى أمريكا حيث عاش الأعوام الثلاثة والثلاثين الأخيرة من عمره، وعمل لبعض الوقت كصاحب حانوت في نيو جيرسي وبنسلفانيا، ومات عن تسعة وثمانين عاماً، ليكون بذلك واحداً من أوائل الإيطاليين الذين دُفِنوا في العالم الجديد. وشيئاً فشيئاً تغير كل شيء بالنسبة إليه. وقد تحول من العاشق المتأنق المداهن الذي كان في شبابه، والانتهازي الغارق في المؤتمرات السياسيّة في الكنيسة والبلاط معاً، فغداً مواطناً عادياً تماماً من مواطني نيويورك التي من المحقق أنها بدت له في ١٨٠٥ م وكأنها نهاية العالم. ومن كلّ ذلك انتقل إلى هذا: أستاذ جامعي جادّ في عمله، وزوج مخلص، وأب لأربعة أبناء. ويقال إنّه عندما مات أحد أبنائه استبدّ به الحزن حتّى إنّه رفض مغادرة الدار لمُدّة عام تقريباً. وفي نهاية المطاف فإنّ المعنى المقصود هنا هو أنّ كلّ حياة لا يمكن تقليصها إلّا إلى ذاتها، وهو ما يمثّل القول بأنّ حياة البشر لا معنى لها.

لست أقصد العزف على أيّ وتر من هذه الأوتار، ولكنّ الظروف التي تغرّ حياة البشر مسارها في ظلّها هي من التنوع بحيث يبدو من

المستحيل قول أي شيء عن إنسان إلا بعد أن يموت. فليس الموت الحكم الحق على السعادة فحسب (ذلك من أقوال سولون) وإنما هو المقياس الوحيد الذي يمكننا به أن نحكم على الحياة ذاتها. وقد عرفت يوماً متشرداً يتحدث وكأنه ممثل في مسرحية لشكسبير، وقد كان سكيراً بائساً في أواسط العمر يتخذ من الشارع فراشاً له، وتعلو الندوب وجهه، ويرتدي خرقاً، وكان يستجدي النقود مني على الدوام، ومع ذلك فقد كان صاحب معرض فني في ماديسون أفنيو. وكان هناك رجل آخر عرفته كان يُعتبر ذات يوم أبرز الروائيين الشبان في أمريكا، وعندما قابلته كان قد ورث لتوه عن أبيه خمسة عشر ألف دولار، وكان يقف في ركن بأحد شوارع نيويورك وهو يوزع الأوراق المالية من ذات المائة دولار على الغرباء. وكان ذلك كله جزءاً من خطة للقضاء على النظام الاقتصادي للولايات المتحدة، حسبما أوضح لي. ففكر فيما حدث، ففكر في الكيفية التي تتمزق فيها حياة الناس! على سبيل المثال، هناك جوفي وويلي، وهما اثنان من القضاة الذين أصدروا حكم الإعدام على تشارلز الأول، فقد جاء إلى كونكتيكيوت بعد عودة الملكية، وأمضيا حياتهما في كهف. أو هناك السيدة ونشستر، أرملة صانع البنادق التي كانت تخاف من أشباح أولئك الذين قُتلوا ببنادق زوجها واحتمال إطباقهم عليها لانتزاع روحها، ومن هنا فقد واصلت باستمرار إضافة غرف جديدة إلى دارها، صانعة بذلك متاهة رهيبة من الممرات والمخابئ، بحيث يمكنها النوم في غرفة مختلفة كل ليلة، وبذلك تراوغ الأشباح. والمفارقة هي أنها خلال الزلزال الذي ضرب سان فرانسيسكو في ١٩٠٦ م احتجزت في إحدى تلك الغرف، وأوشكت على الموت جوعاً، إذ لم

يستطع خدمها العثور عليها. وهناك كذلك م. م. باختين الناقد والفيلسوف ذو النزعة الأدبية، فخلال الغزو الألماني لروسيا في الحرب العالمية الثانية قام بتدخين النسخة الوحيدة من أحد مخطوطاته، وكانت دراسة بحجم كتاب للرواية الألمانية استغرق إنجازها سنوات منه، وقد انتزع الأوراق، واحدة إثر الأخرى من المخطوط واستخدم الورق في لف سجائره، ودخن كل يوم جانباً من الكتاب إلى أن أفناه. وتلك قصص حقيقية، وربما هي أيضاً قصص رمزية، ولكنها تعني ما تعنيه لا لشيء إلا لأنها حقيقية.

ويظهر فانشو في أعماله ولعاً خاصاً بالقصص المتمية إلى هذه النوعية، وهناك، بصفة خاصة في كراسات إعادة سرد لنوادر صغيرة، ولأنها شديدة التواتر، وبخاصة في النهاية، فإن المرء يبدأ بالتشكك في أن فانشو قد شعر على نحو من الأنحاء بأن بمقدورها أن تساعد على فهم نفسه. وتبدولي نادرة من النوادر الأخيرة (تعود إلى شباط (فبراير) ١٩٧٦ م قبل شهرين من اختفائه) على جانب كبير من الأهمية.

كتب فانشو يقول: «في كتاب قرأته ذات يوم من تأليف بيتر فرويتشن، يصف مستكشف القطب الشهير وقوعه في قبضة عاصفة ثلجية في شمالي جرنيلاند. وإذا وجد نفسه وحيداً وقد راحت مؤنه تتناقص فقد قرّر أن يبني كوخاً قُبياً من الجليد ويتنظر انتهاء العاصفة. وانقضت عدّة أيام، واستبدّ به الخوف من أن تهاجمه الذئاب، إذ سمعها تعوي على نحو يوحي بالسغب على سقف كوخه القُبّي، وكان يخرج بين الحين والآخر، وينشد بأعلى صوته ليخيفها

ويطردها بعيداً، ولكنّ الرّياح كانت تهبّ بوحشيّة، وأياً كانت قوّة إنشاده فإنّ الرّيح كانت الشّيء الوحيد الذي استمع إليه. غير أنّه إذا كانت تلك مشكلة خطيرة فقد كان الكوخ القُبّيّ نفسه مشكلة أخطر كثيراً، ذلك أنّ فرويتشن بدأ يلاحظ أنّ جدران ملجأ الصّغير تطبق عليه تدريجيّاً، فبسبب الظّروف المناخيّة الخاصّة خارج الكوخ كان نَفْسُهُ يتجمّد بالمعنى الحرفي للكلمة على الجدران، ومع كلّ نَفَسٍ كانت الجدران تغدو أكثر سَمَكاً، ويصبح الكوخ أصغر بالقدر نفسه، إلى أن أوشك ألاّ يكون هناك فراغ لجسمه. ومن المؤكّد أنّه أمر خفيف أن تتخيّل أنّك تدفع ذاتك من خلال تنفّسك إلى قبر من الجليد، وفي اعتقادي أنّ ذلك أكثر قوّة وتأثيراً من عمل إدجار آلان پو الموسوم «الحفرة والبندول». ففي هذه الحالة يُعدُّ الرّجل نفسه هو وسيط دماره، بل وأداة هذا الدّمار هي الشّيء الذي يحتاج إليه ليواصل البقاء على قيد الحياة، ذلك أنّه من المؤكّد أنّ الإنسان لا يستطيع الحياة إذا لم يتنّفَس، ولكنّه في الوقت نفسه لن يستطيع الحياة إذا تنفّس. ومن الغريب أنّي لا أذكر كيف أفلح فرويتشن في التّخلّص من هذه الورطة، ولكنّ غنيّ عن البيان أنّه أفلح في ذلك. وكان عنوان الكتاب، ما لم تخنيّ ذاكرتي، هو «مغامرة قطبيّة». وقد نفّدت نسخة منذ عدّة سنوات.



انطلقت مع صوفي وبن في حزيران (يونيو) من ذلك العام (١٩٧٨ م) إلى نيو جيرسي لزيارة والدة فانشو. ولم يعد أبواي من جيرانها (فقد انتقلا بعد التقاعد إلى فلوريدا) ولم أقم بزيارة المنطقة منذ سنوات. وقد ظلّت السيّدة فانشو على اتصال بنا، باعتبارها جدّة بن، ولكنّ العلاقات كانت إلى حدّ ما على درجة من الصّعوبة، فقد بدا أنّ هناك تياراً سُفلياً من العداة في موقفها من صوفي، وكأنّها كانت تلومها في قرارة نفسها على اختفاء فانشو. وكان هذا الاستياء يطفو على السطح بين الحين والآخر، في عبارة عرضيّة غير مقصودة. وكنت وصوفي ندعوها عبر فترات معقولة، ولكنّها لم تكن تقبل هذه الدّعوات إلّا نادراً، وعندما كانت تجيء فإنّها تجلس متململة، ومبتسمة، ومتحدّثة بتلك الطّريقة الّتي درجت عليها ويمّازجها الانفعال السّريع، متظاهرة بالإعجاب بالطفّل، ومبدية لصوفي مجاملات لا يقتضيها المقام، ومُشيّدة بحظّها المتألّق، ثمّ ترحل مبكرة، ناهضة دائماً وسط الحوار، ومدممة بأنّها قد نسيت موعداً في مكان آخر. ومع ذلك فقد كان من الصّعب أن تؤاخذ على ذلك، فما من شيء سار على نحو طيّب في حياتها، وقد كَفّت الآن بشكل أو بآخر عن تعليق الآمال على حدوث ذلك. فقد مات زوجها واجتازت ابنتها سلاسل ممتدّة من الانهيارات الذهنيّة، وهي تعيش الآن على المهدّئات في دار بعيدة للعلاج، واختفى ابنها. وكانت ماتزال تتمتع بجماها رغم بلوغها الخمسين من العمر (عندما كنت صبيّاً كنت أحدث نفسي بأنّها أكثر من رأيت من النّساء فتنة). وقد واصلت مسيرتها في الحياة

بعدد من العلاقات العاطفية المتشابكة (كانت قائمة الرجال في حياتها وفيرة دائماً) ويجولات محمومة من التسوق في نيويورك، وبعشق رياضة الجولف. وقد جاء النجاح الأدبي الذي أحرزته أعمال فانشو مفاجأة لها، ولكنها كانت الآن وقد تأقلمت مع هذا النجاح على استعداد تام لتحمل مسؤولية كونها أم كاتب عبقرى. وعندما اتصلت بها لأبلاغها بأمر سيرة حياة فانشو بدا أنها متلهفة للمساعدة في هذا الشأن، وقالت إن لديها رسائل وصوراً ووثائق، وستطلعني على أي شيء أرغب في رؤيته.

وصلنا إلى هناك عند الضحى، وبعد بداية شابهها الارتباك وأعقبها تناول قدح من القهوة في المطبخ، وحديث طويل عن الطقس، تم اصطحابنا إلى غرفة فانشو العتيقة بالطابق العلوي. وكانت السيدة فانشو قد استعدت لي بدقة بالغة، وقد وضعت المواد كافة في أكوام منمقة على ما كان مكتب فانشو. وقد أذهلني هذا التراكم، وإذ أرتج عليّ فإنني لم أجد إلا أن أشكرها على مساعدتها الكبيرة، ولكن ساورني في حقيقة الأمر شعور بالخوف، وأذهلني الكم الهائل لما كان هناك. وبعد دقائق قليلة هبطت السيدة فانشو إلى الطابق السفلي وخرجت إلى الفناء الخلفي مع صوفي وبن (وكان اليوم دافئاً ومشرقاً) وتركت هنالك وحدي. وأتذكر أنني تطلعت من النافذة ولمحت بن وهو يمضي متعثراً عبر العشب في حلته التي تعلقو حفاظاته، وهو يصرخ ويشير بيديه فيما كان طائر أبي الحناء يرف مبتعداً فوق الرؤوس. ونقرت على النافذة، وعندما التفتت صوفي وتطلعت إلى أعلى لوح لها فابتسمت، وبعثت إليّ بقبلة على جناحي النسيم، ثم مضت مبتعدة

لتفحص أحد أحواض الزهور مع السيِّدة فانشو.

جلست إلى المكتب. وكان الجلوس في تلك الغرفة شيئاً رهيباً، ولم أدرِ إلى أيّ مدى كان يمكنني الصّمود هناك. كان قفّاز فانشو الذي استخدمه في لعب البيسبول موضوعاً على الرّف وبداخله كرة بيسبول بالية، وعلى الرفوف فوقها وأسفلها قبعات الكتب التي قرأها في طفولته، وخلفي مباشرة كان هناك الفراش بالغطاء ذي المربّعات الزرقاء والبيضاء الذي أذكره منذ سنوات خلت. وكان ذلك هو الدليل الملموس، بقايا عالم طواه الموت. لقد دلفت إلى متحف ماضيّ الخاص، وأوشك ما ألفيته هناك أن يسحقني.

تراكمت في كومة واحدة شهادة ميلاد فانشو، وبطاقات تقاريره المدرسيّة وشاراته في أشبال الكشّافة وشهادة إتمام الدّراسة الثّانويّة. وفي كومة أخرى كانت هناك صور فوتوغرافيّة، ألبوم لصور فانشو الوليد، وألبوم له ولأخته، وألبوم للعائلة (فانشو في الثّانية من عمره بين ذراعي أبيه، وقد بدا مبتسماً، فانشو وإيلين وهما يحتضنان أمهما على أرجوحة الفناء الخلفي، فانشو وقد التفّ حوله أبناء عمومته) ثمّ هناك الصور التي لا تضمّها ألبومات - في مغلّفات ومظاريف وعلب صغيرة، عشرات من الصّور لي مع فانشو (ونحن نستحمّ، ونلعب، ونركب الدراجات، ونلهو في الفناء، وقد بدا أبي وهو يحملنا معاً على كاهله، الشّعر القصير، السراويل الجينز المتفتحة، السيّارات العتيقة التي تبدو ورائنا: سيّارة باكار، سيّارة دي سوتو، فورد ستيشن ذات حزام بطانيّ من الخشب) صور للصفّ الدراسي، صور لفريق

الألعاب، صور للمخيمات، صور للسباقات، ولللألعاب، صور لنا وقد جلسنا في زورق سباق، وقد رحنا نلعب لعبة شدّ الحبل، ثمّ قرابة أسفل الكومة صور أحدث عهداً، وقد بدا فيها فانشو في هيئة لم يسبق لي قطّ أن رأيته عليها. صور له وهو في فناء هارقارد، وهو يقف أمام نافورة حجرية، وأخيراً صورة تجمععه وصوفي - وقد بدا فيها فانشو أكثر تقدماً في العمر وأشدّ جهامة، وظهرت صوفي صغيرة السن على نحو ملحوظ، وبالغة الجمال، ولكنها مشوشة على نحو من الأنحاء وكأنها عاجزة عن التفكير. والتقطت نفساً عميقاً ثمّ شرعت في البكاء فجأة من غير أن أدرك حتى اللحظة الأخيرة أنّ كلّ هذه الدموع كانت متجمّعة في أعماقي. ورحت أنتحب، وقد اهتزّ كياني، ودفنت وجهي في كفيّ.

امتلاً صندوق إلى يمين الصّور بالرسائل، مائة رسالة على الأقلّ، ابتداء من سنّ الثامنة (خط طفل)، علامات القلم الرصاص المتسخة والأجزاء المحوّة) وتستمر وصولاً إلى أوائل السبعينات. وكانت هناك رسائل مبعوثة من الكلية، وأخرى من السفينة، وطائفة ثالثة من فرنسا، وقد وجّه معظمها إلى إيلين، والكثير منها كان ضافياً. وعرفت في التوّ أنّها رسائل ثمينة، وأنّها ولاشكّ أكثر قيمة من أيّ شيء آخر في الغرفة، ولكنّ نفسي لم تطاوعني على قراءتها هناك. وانتظرت عشر دقائق أو ربع ساعة، ثمّ هبطت الدّرج للانضمام إلى الآخرين.

لم ترغب السيّدة فانشو في أن تفارق الرّسائل الأصليّة الدّار، ولكنها لم يكن لديها اعتراض على نسخها، وعرضت عليّ القيام بذلك

بنفسها، ولكنني حدّثتها بأنّ عليها ألاّ تزعج نفسها فسوف أعود في يوم آخر وأقوم بإنجاز ذلك.

تناولنا طعام غداء ممّا يُصطحب في النزّهات، وذلك في فناء الدّار، وسيطر بن على السّاحة بالاندفاع إلى الزّهور والتّراجع عنها بين كلّ قضيمة من شطيرته وأخرى، ومع حلول السّاعة الثّانية كُنّا قد تأهّبنا للعودة إلى البيت. ومضت بنا السيّدة فانشو بسيّارتها إلى محطّة الحافلات وقبّلنا ثلاثنا مودّعة ومُبديّة عاطفة تفوق ما أظهرته في أيّ وقت آخر خلال الزيارة، وبعد خمس دقائق من انطلاق الحافلة أغفى بن في حجري وأمسكت صوفي بيدي.

قالت:

- لم يكن يوماً مُغرِقاً في السّعادة. أليس كذلك؟

قلت:

- إنّه يوم من أسوأ الأيام.

- تصوّر الاضطراب للحديث مع تلك المرأة طوال أربع ساعات.

ولم أجد ما نتحدّث فيه لحظة وصولنا إلى هناك.

- ربّما كانت لا تكنّ الكثير من مشاعر الودّ لنا.

- لا، لا أعتقد أنّ الأمر كذلك.

- لكن هذا أقلّ ما يقال.

- كان من الصعب أن تكون هناك وحدك. أليس كذلك؟

- صعب للغاية.

- هل تفكّر في إعادة النّظر بالأمر؟

- أخشى أن يكون الوضع كذلك.

- لست ألومك على ذلك، فالأمر بأسره يغدو شديد الوطأة كلما أوغلت فيه .

- سيتعين عليّ التفكير بدقّة في الأمر من جديد، في التوّ، فقد بدأ يساورني شعور بأنني ارتكبت خطأ كبيراً .

بعد ذلك بأربعة أيام اتّصلت بي السيّدّة فانشو هاتفياً لتقول إنّها ذاهبة إلى أوروبا لقضاء شهر هناك، وأنّها قد تكون فكرة جيّدة أن نعكف على عملنا الآن (تلك هي كلماتها). وكنت أعزم ترك الأمر ينزلق إلى هوة النسيان، ولكنني قبل أن أتمكّن من التفكير في عذر ملائم يتيح لي عدم الذهاب إلى هناك، سمعت نفسي وأنا أدلي بموافقتي على القيام بالرحلة يوم الاثنين المقبل. وتراجعت صوفي عن فكرة مصاحبتي إلى هناك، فلم أضغط عليها لتعديل عن موقفها. وساورنا معاً الشعور بأنّ في زيارة عائليّة واحدة كفاية .

قابلتني جين فانشو عند محطة الحافلات بمزيد من الابتسامات والتحيّات المفعمة بالعاطفة. ومنذ اللّحظة التي ركبت فيها سيّارتها ساورني شعور بأنّ الأمور ستكون مختلفة هذه المرّة. وكانت قد بذلت جهداً لتبدو في أفضل مظهر (ارتدت سروالاً أبيض وقميصاً خارجياً من الحرير الأحمر، بدا منه جيدها الذي لوحتّه الشّمس ولم تعرف التّجاعيد طريقها إليه) وكان من المتعذّر أن يخالجي الشعور بأنّها تغويني بالنظر إليها، وبالإقرار بالحقيقة القائلة بأنّها ماتزال جميلة، ولكنّ كان في الأمر ما يتجاوز ذلك: نعمة متملّقة على نحو غامض تشوب صوتها، وافتراض بأننا كنّا على نحو من الأنحاء صديقين قديمين، على قدم المساواة بشكل حميم بسبب الماضي، وأنّه ألم يكن من قبيل الحظّ

المواقي أن جئت بمفردتي ، لأننا الآن حرّان في الحديث معاً بصراحة . وقد وجدت هذا كله ممّا لا يُستساغ ، ولم أتلفظ بشيء يتجاوز ما اضطررت لقوله .

قالت ، وهي تلتفت نحوي لدى توقّفنا عند إشارة مرور حمراء :  
- إنها عائلة صغيرة ، لطيفة ، تلك التي تعيش في كنفك هناك .  
قلت :

- نعم ، عائلة صغيرة ، لطيفة .

- الصّغير يدعو للإعجاب ، بالطبع ، وهو من النّوع الذي يأخذ بمجامع القلب ، ولكنّه أكثر ميلاً إلى النّوع الجامح . ألا تشاطرنني الرأي ؟

- إنه لم يتجاوز الثّانية من عمره ، ومعظم الأطفال يميلون إلى الإنطلاق المرح في هذه المرحلة من العمر .

- بالطبع ، ولكنني أعتقد أنّه شغف صوفي حبّاً ، وهي تبدو مستغرقة في الضّحك طوال الوقت ، إذا لم يفتك ما أعني ، ولست أعارض الضّحك ، ولكنّ قليلاً من الانضباط سيكون شيئاً لا بأس به كذلك .

قلت :

- صوفي تتصرّف على هذا النحو مع الجميع ، فالمرأة التي تضحّج بالحويوة من شأنها أن تكون أمّاً متدفّقة الحيويّة ، وبقدر علمي فإنّه ليس لدى بن ما يشكو منه .

ساد صمت قصير ، ثمّ إننا فيها كنّا نشرع في الانطلاق ماضيّين في شارع تجاري متّسع ، أضافت جين فانشو :

- إنها فتاة محظوظة، صوفي تلك، محظوظة لسقوطها واقفة على قدميها، ومحظوظة لعثورها على رجل مثلك.

قلت:

- إنني أفكر عادة في أنني أنا المحظوظ.

- لا ينبغي أن تكون متواضعاً على هذا النحو.

- لست متواضعاً، وكل ما هنالك أنني أعرف عمّ أتحدّث. وحتى

الآن كان الحظّ كلّهُ إلى جانبي.

ابتسمت لهذا القول ابتسامة عجلى، وعلى نحو غامض وكأنّها تحكم عليّ بالحمق، ومع ذلك تسلم على نحو من الأنحاء بصحّة ما قلته، مدركة أنني لن أتيح لها منفذاً تهاجمني منه. ولدى وصولنا إلى دارها، بعد دقائق قليلة، بدا أنّها قد تخلّت عن أساليبها الأولى، فلم تعد تأتي على ذكر صوفي وبن، وغدت مثلاً للعناية المفرطة، ومضت تحدّثني بمدى سعادتها لتأليفي هذا الكتاب عن فانشو، متصرفّة في غضون ذلك وكأنّ لتشجيعها تأثيراً حقيقياً، نوعاً من الموافقة المطلقة لا تشمل الكتاب وحده فحسب، وإنّما تشمل كذلك هويّتي. ثمّ سلّمتني مفاتيح سيّارتها وأبلغتني بكيفيّة الوصول إلى أقرب حانوت لاستنساخ الوثائق، وقالت إنّ طعام الغداء سيكون بانتظاري لدى عودتي.

استغرق استنساخ الرّسائل أكثر من ساعتين، الأمر الذي جعل السّاعة تصل إلى الواحدة تقريباً لدى عودتي إلى الدّار. وكان طعام الغداء هنالك حقّاً، وكانت وجبة رائعة مؤلّفة من الهليون والسلمون البارد والجبن والنيذ الأبيض والمعجنات. وقد وضع هذا كلّهُ على



مائدة الطعام مصحوباً بالزهور وهو ما بدا بوضوح أنه أفضل الأطباق. ولا بد أن تأثير المفاجأة قد بدا جلياً على محيبي. قالت السيدة فانشو:

- أردت جعل الغداء ذا طابع احتفالي، فلست تدري كم أسعدني حضورك إلى هنا. كلّ الذكريات التي عادت من جديد، ويبدو الأمر كما لو أن الأمور السيئة لم تقع قطّ.

ساورني شكّ في أنها قد بدأت باحتساء الشراب خلال غيابي. ورغم أنها كانت ماتزال تسيطر على نفسها وتتسم حركاتها بالثبات والتماسك، إلا أنه كان هناك قدر معين من التناقل زحف إلى صورتها، وسمّة من الإسراف المتأرجح في التعبير عن العاطفة لم يكن لهما وجود من قبل. وفيما جلسنا إلى المائدة رحّت أحدثت نفسي بضرورة التزام الحذر منها. لقد صبّ النيذ بوفرة، وعندما رأيتها تبدي من الاهتمام بقدها ما يفوق اهتمامها بطبقها، مكتفية بتناول القليل من الطعام، بل ومتجاهلة إياه كلية، شرعت في توقع أسوأ الاحتمالات. وبعد بعض الحديث الفاتر عن أبوي وأختي الصغرى، تحوّل الحوار إلى حديث من طرف واحد.

قالت:

- أمر غريب، ذلك النحو الذي تمضي به أمور الحياة، وما بين لحظة وأخرى فإنك لا تدري ما سيحدث أبداً. ها أنت، الفتى الصغير الذي كان يقطن بجوارنا، إنك الشخص نفسه الذي اعتاد أن يعدو في أرجاء هذه الدار والطين يكسو نعليه، وقد كبرت الآن، وغدوت رجلاً. إنك والد حفيدي. أتدرك ذلك؟ ومتزوج من زوجة

ولدي . لو أن أحداً أبلغني قبل عشر سنوات أن هذا هو المستقبل لضحكت من قوله . ذلك هو ما نتعلمه من الحياة في نهاية المطاف : ما أغرب ذلك ! ليس بمقدورك التأقلم مع ما يجري ، بل إنك لا تستطيع حتى أن تتصوره .

لعلك تعلم أنك تبدو مثله . كان ذلك هو الحال دائماً ، أنت وهو ، كأخوين ، بل كتوأمين . أذكر عندما كنتما كلاكما صغيرين كيف كنت أخلط بينكما عن بعد ، بل ولم يكن بمقدوري أن أحدد أيكما لي .

أعرف مدى حبك الكبير له ، وكيف كنت تنظر نظرة سامية إليه ، ولكن دعني أقل لك شيئاً ، يا عزيزي . إنه لم يكن نصف ما كنت عليه . كان بارداً في أعماقه . كان ميتاً في داخله ، ولست أحسب أنه قد أحب أحداً قط - لا أحد على الإطلاق ، لم يحدث ذلك مرة واحدة في حياته . كنت في بعض الأحيان أرقبك وأمك عبر الفناء - النحو الذي كنت تعدو به وراءها ، وتلقي بذراعيك حول عنقها ، والطريقة التي تدعها تقبلك بها - وعندها مباشرة تقبلها بقوة أمامي . كان بمقدوري أن أرى كل شيء لم أحظ به مع ابني . وكما تعرف فإنه لم يكن يتيح لي لمسه ، وبعد الرابعة أو الخامسة من عمره كان ينكمش مبتعداً في كل مرة أقرب فيها منه . كيف في اعتقادك كان تأثير ذلك على مشاعر المرأة - أن يزدريها ابنها؟ كنت صغيرة في السن للغاية وقتذاك ، بل لم أكن قد بلغت العشرين عندما وُلد . تصور كيف سيكون أثر رفضك على ذلك النحو عليك !

لست أقول إنه كان شيئاً . وإنما كان مخلوقاً منفصلاً ، طفلاً بلا أبوين . فما من شيء قلته أثر فيه . والأمر نفسه بالنسبة لأبيه . فقد

رفض أن يتعلّم أيّ شيءٍ منّا. وحاول روبرت مراراً وتكراراً، ولكنّه لم يستطع النفاذ إلى الفتى قطّ. ولكنك لا تستطيع أن تعاقب شخصاً لافتقاره إلى العاطفة. هل بمقدورك ذلك؟ ليس بوسعك إجبار طفل على أن يحبك لا لشيءٍ إلّا لأنّه ابنك.

كانت هناك إيلين، بالطبع، يا لإيلين المسكينة المعذّبة! كان طيباً معها، كلانا يعرف ذلك، ولكنّه كان طيباً أكثر ممّا ينبغي على نحو من الأنحاء، وفي نهاية المطاف لم يكن ذلك في صالحها على الإطلاق. فقد قام بعملية غسيل لمخها، وجعلها شديدة الاعتماد عليه بحيث أنّها كانت تتردّد في الالتفات إلينا. كان هو من يفهمها، ومن ينصحها، ومن يستطيع حلّ مشكلاتها. ولم أكن وروبرت إلّا فزّاعتيّ حقل، وفيما يتعلّق بالطفلين فإنّها كانا ينظران إلينا وكأنّنا لا وجود لنا. وقد وثقت إيلين بأخيها أعظم الثقة، أسلمته في نهاية المطاف عنان روحها، لست أذهب إلى القول بأنّه كان على علم بما يقوم به، ولكنني لايزال يتعيّن عليّ التعايش مع النتائج. فقد بلغت الفتاة السابعة والعشرين من عمرها، ولكنها تتصرّف وكأنّها ماتزال في الرابعة عشرة، وذلك عندما تكون في أفضل حالاتها. إنّها شديدة الاضطراب، وشديدة الفزع في أعماقها، فيوماً تظن أنّي بسبيلي إلى القضاء عليها، وفي اليوم التالي تتصل بي هاتفياً ثلاثين مرّة. ثلاثون مرّة. ليس بمقدورك حتى أن تبدأ بتصوّر ما يبدو الأمر عليه.

وكما تعلم فإنّ إيلين هي السبب في أنّه لم ينشر قطّ أعماله. وهي السبب في أنّه ترك الدراسة في هارفارد بعد عامه الثاني هناك. كان ينظم الشعر حينذاك، ويرسل كلّ بضعة أسابيع إليها مجموعة من

المخطوطات. وأنت تعلم طبيعة تلك القصائد، فمن المستحيل فهمها على وجه التقريب، وهي، بالطبع، متوهجة بالعاطفة، وتحفل بكل تلك العواطف الفارغة والعظات، ولكنها من الغموض بحيث تعتقد أنها مكتوبة بشفرة خاصة. وكانت إيلين تمضي ساعات تأملها على نحو حائر، وتتصرف وكأن حياتها تتوقف عليها، وتعاملها وكأنها رسائل سرية، ونبوءات كتبت لها مباشرة. ولست أحسب أنه كان يدري ما يحدث. وكما تدرك فإن أخاها قد مضى، وهذه القصائد هي كل ما خلفه لها. يا للفتاة المسكينة! لم يكن عمرها آنذاك قد تجاوز الخامسة عشرة، وراحت تتداعى بالفعل. كانت تعكف على تلك الصفحات إلى أن تجعدت وأتسخت، وكانت تحملها معها حيثما مضت، وعندما ساءت حالتها حقاً كانت تمضي إلى أناس غرباء عنها تماماً، في الحافلة، وتدسها في أيديهم قائلة: «اقرأ هذه القصائد فسوف تنقذ حياتك!».

وبالطبع، تعرّضت لذلك الانهيار الأول، ومضت تتحوّل ذات يوم، على غير هدى، مبتعدة عني، في السوبر ماركت، وقبل أن أدري من جلية الأمر شيئاً، راحت تنتزع عن الرف زجاجات عصير التفاح الكبيرة تلك وتهوي بها محطمة إياها على الأرض. ومضت تفعل ذلك، مهتمة زجاجة بعد الأخرى، وكأنها شخص في غيبوبة، واقفة وسط كل ذلك الزجاج المكسور، والدّم يشخب من كاحليها، والعصير يتدقق في كل مكان. وكان مشهداً رهيباً، وقد استبدّ بها الهياج حتى اقتضى الأمر قيام ثلاثة رجال بكبح حجامها وحملها بعيداً.

لست أذهب إلى القول بأن أخاها كان مسؤولاً عن ذلك، ولكن تلك القصائد اللعينة لم تساعد في تهدئة الموقف بالتأكيد، وقد لام نفسه على ذلك، سواء عن حق أو عن خطأ، ومنذ ذلك الوقت لم يحاول قط أن ينشر أي شيء. وقد جاء لزيارة إيلين في المستشفى، وأعتقد أن الأمر كان أقوى من احتمالها حين رآها على ذلك النحو، وقد جنت تماماً، وراحت تصرخ به، وتتهمه بأنه يكرهها. وكما تعلم فقد كان ذلك انهياراً انفصامياً حقيقياً، ولم يكن بمقدوره التعامل معه، وفي ذلك الحين أقسم ألا ينشر شيئاً. وأحسب أن ذلك كان نوعاً من التكفير عما جنته يدها. وقد التزم بما أقسم عليه طوال ما بقي من حياته. أليس كذلك؟ لقد برّ بقسمه بطريقته العنيدة الوحشية تلك، حتى النهاية.

بعد ذلك بشهرين، تلقيت رسالة منه يبلغني فيها بأنه ترك الدراسة في الكلية. وتذكر أنه لم يطلب النصيحة مني، وإنما كان يبلغني بما فعله. أمي العزيزة، الأمر كذا وكيت، كل شيء يبدو نبيلاً ومؤثراً، لقد انقطعت عن الدراسة لأخفف عنك العبء المالي الخاص بإعالتني، وفي ضوء حالة إيلين والتكاليف الكبيرة للرعاية الطبية، وكذا وكيت.

لقد استشطت غضباً، فتي كهذا يضرب بفرصة تعليمه عرض الحائط بلا مبرر. كان ذلك عملاً تخريبياً، ولكن لم يكن بمقدوري القيام بشيء حيال ذلك؛ إذ كان قد ترك الدراسة بالفعل. كانت لوالد أحد أصدقائه صلة بعالم الشحن البحري - أظن أنه كان يمثل نقابة البحارة أو شيئاً من هذا القبيل - وقد أفلح في إعداد أوراقه عن طريق ذلك الرجل. وفي وقت وصول الرسالة إليّ كان في مكان ما

من ولاية تكساس، وكان ذلك كل ما في الأمر. ولم أراه مرة أخرى طوال خمس سنوات.

في كل شهر، أو نحو ذلك، كانت رسالة أو بطاقة بريد تصل إلى إيلين، ولكن لم يكن هناك قطّ عنوان للردّ عليه. باريس، جنوب فرنسا، والله وحده يدري أين، ولكنّه كان دائماً يحرص على ألا يكون هناك سبيل لقيامنا بالاتّصال به. وقد وجدت هذا السلوك جديراً بالازدراء. إنّه سلوك متّسم بالجبن وجدير بالازدراء. لا تسلني عن السرّ في احتفاظي بالرّسائل. ويؤسفني أنّي لم أقم بإحراقها، فذلك ما كان يجب أن أقوم به، إحراقها، كلّها، بأسرها.

استمرّت في الحديث على هذا المنوال أكثر من ساعة وقد راحت كلماتها توغل تدريجياً في المرارة، ووصلت عند منعطف من الحديث إلى لحظة الوضوح الذي يستديم ذاته، ثمّ في أعقاب قدح النبيذ التالي فقدت كلماتها تماسكها تدريجياً. كان صوتها كصوت شخص منوم تنوياً مغناطيسياً. وإذ مضت في الحديث فقد ساورني الشعور بأنّه ما من شيء يمكن أن يمّسني بعد الآن. كان هناك شعور بالحصانة، إحساس بأنّ الكلمات التي تصدر عن شفّتها تحميّني. ولم أكد أهتم بالاستماع إليها، فقد كنت أطفو في قلب ذلك الصّوت، وكان يحطيني ويجعلني بالحاحه أطفو ذاهباً مع دفق المقاطع، مع الصّعود والهبوط، مع الأمواج. ومع تدفق ضياء الأصيل عبر النوافذ إلى المائدة، وتألّقه على الأطباق والزبد الذائب، وزجاجات النبيذ الخضراء اللّون، غدا كلّ شيء في الغرفة وهاجاً وساكناً إلى حدّ كبير، حتّى إنّني بدأت أجد أنّه من غير الواقعي أن أجلس هنالك داخل إهابي. وقلت لنفسي إنّني

أذوب، فيما كنت أرقب الزبد وهو يلين في الطبق، بل لقد فكرت مرة أو مرتين في إنني ينبغي ألا أدع هذا يستمر، وأن عليّ ألا أسمح لهذه اللحظة بأن تنزلق مني. ولكنني في نهاية المطاف لم أجز شيئاً في هذا الصدد، إذ ساورني الشعور على نحو ما بأن ذلك ليس بمقدوري.

لست أنتحل لنفسي الأعذار عما حدث، فالسكر لا يعدو أن يكون عرضاً وليس سبباً مطلقاً؛ وإنني لأدرك أنه سيكون من الخطأ أن أحاول الدفاع عن نفسي. ومع ذلك فهناك على الأقل إمكانية تقديم إيضاح للأمر. وإنني الآن على تمام اليقين من أن الأمور التي أعقت ذلك كانت لها علاقة بالماضي بقدر ما كان لها ارتباط بالحاضر، وأجد الآن، وقد ابتعدت بعض الشيء عما وقع، أنه من الغريب أن نرى كيف أن عدداً من المشاعر البعيدة العهد قد أطبقت عليّ أخيراً في ذلك الأصيل. كان من الصعب عليّ خلال جلوسي هناك مصغياً إلى السيدة فانشو ألا أتذكر كيف كنت أراها خلال صباي، وما إن بدأ ذلك بالحدوث حتى ألفت نفسي أصطدم بالصور التي لم تلح لناظري منذ سنين. وكانت هناك صورة عادت إليّ بقوة هائلة: ذات أصيل من شهر آب (أغسطس)، وكنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، أطللت من نافذة غرفة نومي على الفناء المجاور، ورأيت السيدة فانشو تخرج من الدار مرتدية ثوب استحمام أحمر اللون مؤلف من قطعتين، وتنزع القطعة العلوية على نحو عرضي وترقد مديرة ظهرها لأشعة الشمس على مقعد مما يستخدم في المرجة. حدث هذا كله بمحض الصدفة. وكنت أجلس قرب نافذتي غارقاً في أحلام اليقظة، ثم تأتي على غير انتظار امرأة جميلة متهادية إلى مجال رؤيتي، وهي تكاد تكون

عارية، وغير مدركة لوجودي، وكأنا استحضرتها إلى هناك بفعل سحر قمت بممارسته بنفسي. وقد رافقتني هذه الصورة طويلاً، وغالباً ما عدت إليها خلال مراهقتي: شهوة فتى يافع، وسرعة خيالات أواخر الليل. والآن، وفيما هذه المرأة على نحو ما يبدو في غمرة عملية إغوائي، لم أدري ما عساني أفعل، فمن ناحية وجدت المشهد شديد الغرابة، ومن ناحية أخرى كان هناك شيء طبيعي، بل ومنطقي، يلقه. وأحسست بأنني لم أستخدم كل قوتي لمحاربتة، وبأنني كنت بسبيلي إلى السماح له بالحدوث.

ليس هناك شك في أنها جعلتني أشفق عليها. كانت رؤيتها لفانשו حافلة بالعذاب وغارقة في مؤثرات التعاسة الحقيقية، بحيث ضعفت تدريجياً في مواجهتها، ووقعت في الشرك الذي نصبته. غير أن الأمر الذي مازلت بعيداً عن فهمه هو إلى أي حد كانت مدركة ما تقوم به. هل خطت للأمر مسبقاً أم أنه حدث من تلقاء ذاته فحسب؟ هل كان حديثها غير المترابط وسيلة لإضعاف مقاومتي أم انطلاقة عفوية لمشاعرها الحقيقية؟ إنني أتشكك في أنها كانت تحدّثني بالحقيقة فيما يتعلّق بفانشو، وحقيقتها الخاصة على أية حال. ولكن ذلك ليس كافياً لإقناعي، ذلك أنه حتى الطفل يعلم أن الحقيقة يمكن استخدامها من أجل أغراض المراوغة. وهناك، وهو الأمر الأكثر أهمية، موضوع الدافع. فبعد قرابة ست سنوات من تلك الحقيقة مازلت بعيداً عن وضع يدي على إجابة. والقول بأنها وجدتني رجلاً لا يُقاوم سيكون من قبيل التزديد، ولست على استعداد لتضليل نفسي في هذا الشأن. لكن الأمر أعمق كثيراً وأشدّ فظاعة. وقد بدأت



مؤخراً بالتساؤل عما إذا لم تكن قد استشعرت فيّ على نحو من الأنحاء كراهية لفانשו تعادل في قوتها كراهيتها له . وربما أحسّت بهذه الصلة الصامته بيننا، وربما كانت من ذلك النوع من الصلات التي لا سبيل إلى البرهنة عليها إلا بعمل مرتكس ومبالغ في الإسراف. ومن شأن مضاجعتي أن تكون شبيهة بمضاجعة لفانشو - شبيهة بمضاجعة لابنها - وفي ظلام هذه الخطيئة سيتاح لها امتلاكه من جديد، ولكن لا شيء إلا لتقضي عليه . انتقام رهيب . وإذا صحّ ذلك فإنني لا أملك رفاهية وصف نفسي بأثني ضحيتها . وإذا لم يكن لي بدّ من صفة فقد كنت متواطئاً معها .

بدأ الأمر، بعد وقت قصير من شروعها في البكاء، عندما استنزفت قواها أخيراً، وتناثرت الكلمات منهمة في صورة دموع . فلقد نهضت وقد سيطر عليّ الخمار، وأفعمت نفسي انفعالاً، وسرتُ إلى حيث كانت جالسة، واحتضتها في بادرة لمواساتها، واجتاز هذا بنا العتبة، فقد كان مجرد الاتصال كافياً لإطلاق عنان استجابة جنسية، ذكرى ضريرة لأجسام أخرى، لعناقات أخرى، وبعد لحظة كُنّا نتبادل القبل، ثمّ بعد ذلك بدقائق قليلة رقدنا عارين في الفراش في الطابق العلوي .

على الرّغم من أنّي كنت قد سكرت إلا أنّني لم أكن قد أوغلت في الخمار بحيث أجهل ما كنت أقوم به . ولكن حتى الشعور بالذنب لم يكن كافياً لإيقافي . وقد قلت لنفسي إنّ هذه اللّحظة ستنتهي ، ولن يُحيق بأحد ضرر، فليست لها صلة بحياتي، ولا علاقة لها بصوفي . ولكنني عندئذٍ، وفيما كان الأمر يحدث، اكتشفت أنّ هنالك ما هو أكثر

من هذا، ذلك أنَّ الحقيقة هي أنني أحببت مضاجعة أم فانشو، ولكن على نحو لا علاقة له باللذة. كانت قوة ما تعصف بي، وللمرة الأولى في حياتي لم أجد رقة في أعماقي. كنت أضاجع بدافع من المقت، وقد حولت المضاجعة إلى عمل من أعمال العنف، ورحت أسحق هذه المرأة، موعلاً، وكأنا أردت أن أقضي عليها. كنت قد ولجت ظلامي، وهناك تعلمت الشيء الوحيد الذي كان أكثر فظاعة من أي شيء آخر: أنَّ الرغبة الجنسية يمكن أن تكون كذلك رغبة في القتل، وأنه تحل لحظة يمكن فيها أن يختار رجل الموت مؤثراً إياه على الحياة. لقد أردتني هذه المرة أن ألحق الأذى بها، وقد ألحقته بها، ووجدت نفسي منتشياً في غمار ضراوتي، ولكن حتى ذلك الحين كنت قد عرفت أنني في منتصف الطريق إلى مقصدي، وأنها لم تكن إلا ظلاً، وأني أستخدمها للهجوم على فانشو نفسه فيما كان بذاري يتدفق فيها للمرة الثانية - وقد كسانا العرق معاً، ورحنا نثن كمخلوقين في غمار كابوس - فهمت هذا أخيراً. لقد أردت أن أقتل فانشو. أردت أن يموت فانشو، وكنت بسبيلي إلى القيام بهذا، كنت بسبيلي إلى ترصده وقتله.

تركته غافية في الفراش وانسلت من الغرفة، واستدعيت سيارة أجرة باستخدام الهاتف في الطابق السفلي. وبعد نصف ساعة كنت استقل الحافلة عائداً إلى نيويورك. وفي محطة هيئة الميناء التي تشكل نهاية الخط، مضيت إلى مرحاض الرجال، وغسلت يدي ووجهي، ثم استقلت قطار الأنفاق مبتعداً عن قلب المدينة، ووصلت إلى الدار في حين كانت صوفي تعدّ المائدة لطعام العشاء.

بدأ أسوأ ما في الأمر في ذلك الوقت. فقد كان هناك عدد من الأمور التي يتعين حجبها عن صوفي، بحيث أكاد أستطيع إظهار نفسي لها، وغدوت عصبياً، وشارداً، وأغلقت عليّ باب غرفة عملي الصّغيرة، من غير أن أتوق إلى شيء غير العزلة. وعلى امتداد وقت طويل تحمّلتني صوفي، وتصرفت بالاستعانة بصبر ما كان لي الحق في توقّعه، ولكنها بدأت في نهاية المطاف تضيق بي ذرعاً، وفي منتصف الصّيف شرعنا في التّشاجر، وأخذ أحدهنا يهاجم الآخر، ويرتفع صوتنا عالياً في أمور لا معنى لها. وذات يوم دلفت إلى البيت فألفيتها تبكي في الفراش، وعندئذ علمت أنني على وشك تحطيم حياتي.

كانت المشكلة، بالنّسبة إلى صوفي، هي الكتاب، فلو أنّني كففت عن العمل فيه لعادت الأمور إلى ما كانت عليه. وقالت إنني قد تعجّلت الأمر، وأنّ هذا المشروع كان خطأ، وأنه لا ينبغي أن أكون عنيداً، وعليّ أن أقرّ بذلك. وقد كانت على حقّ، بالطبع، ولكنني واصلت الجدل أمامها فيما يتعلّق بالجانب الآخر؛ فقد التزمت بتأليف الكتاب، ووقّعت عقداً يقضي بإنجازه، وسيكون من الجبن أن أراجع الآن. وما لم أقله لها هو أنّه لم تعد لديّ نيّة في تأليف هذا الكتاب، فهو موجود الآن بالنّسبة إليّ بقدر ما يفضي بي إلى فانشو فقط، وأمّا فيما يتجاوز ذلك فلا وجود له. لقد أصبح من منظوري موضوعاً خاصاً، شيئاً لم يعد يتعلّق بالكتابة. فكلّ البحث المكرّس لسيرة الحياة، كلّ الحقائق التي سأكشف النقاب عنها فيما أوصل التنقيب في أغوار ماضيه، كلّ العمل الذي بدا أنّه ينتمي إلى

الكتاب - هذه كلها كانت الأشياء التي سأستغلها لاكتشاف مكانه .  
يا لصوفي المسكينة! لم تكن تدرك بالمرّة ما كنت أعدّ له، فما كنت  
أزعم أنني عاكف على القيام به كان بالفعل مختلفاً عما أقوم به . كنت  
أصمّ جزئيات حياة إنسان معاً، وأجمع المعلومات والملمّ الأسماء  
والأماكن والتواريخ وأضع سرداً زمنياً لمسيرة الأحداث . ومازال السرّ  
في إصراري على المضيّ قدماً على هذا النحو يثير حيرتي، فقد تمّ  
التدنيّ بكلّ شيء إلى دافع واحد هو العثور على فانشو، والحديث  
معه، ومواجهته مرّة أخيرة . ولكنني لم أستطع المضيّ بالأمر إلى أبعد  
من ذلك، ولم أتمكن من وضع يدي على تصوّر لما كنت آمل في تحقيقه  
من وراء مثل هذه المواجهة . لقد كتب فانشو يقول إنّه سيقتلني،  
ولكنّ هذا التهديد لم يثرْ خوفي؛ فقد كنت أعلم أنّه يتعيّن عليّ أن  
أعثر عليه، وأنّه ما من شيء سيمكن حسمه إلى أن أقوم بذلك، وقد  
كان ذلك هو المبدأ الأوّل المطروح، لغز اليقين، وإنني لأقرّ بذلك،  
ولكنني لم أكثرث بوضعه موضع التساؤل .

ولا أعتقد في نهاية المطاف أنني قد اعتزمت قتله حقاً، فالرؤية  
القاتلة التي ارتسمت أمامي عندما كنت مع السيّدة فانشو لم تدم  
طويلاً، على أيّ مستوى واع على الأقل . وقد حلّت أوقات كانت  
فيها مشاهد محدودة تلتصق في ذهني، مشاهد خنق فانشو، طعنه  
بخنجر، إطلاق النّار على قلبه، ولكنّ آخرين لقوا مصارع مماثلة في  
ذهني على مرّ السنين، ولم أكثرث لذلك كثيراً . ولم يكن الأمر الغريب  
هو أنني ربّما أردت قتل فانشو، وإنّما كان تصوّري في بعض الأحيان  
أنني «أدرت» قتله . وقد حدث ذلك مرّة أو مرّتين - في لحظات وضوح

الرؤية التامة - وقد أصبحت مقتنعاً بأن هذا هو المعنى الصحيح للرسالة التي كتبها لي. لقد كان فانشو ينتظرنى، إذ اختارني جلاداً له، وكان يعلم أن بمقدوره التيقن من أنني سأنجز هذه المهمة. ولكن ذلك على وجه الدقة كان السبب في أنني لن أقوم بها، فقوة فانشو يتعين القضاء عليها لا الخضوع لها. وكان جوهر الأمر أن أبرهن له على أنني لم أعد أكثرث. وقد كانت تلك هي المشكلة المحيرة في الأمر: التعامل معه على أنه ميت على الرغم من أنه حي. ولكن قبل البرهنة على هذا لفانشو تعين علي أن أثبتة لنفسي. وكانت الحقيقة القائلة بأنني بحاجة إلى البرهنة هي بذاتها برهان على أنني مازلت أهتم أكثر من اللازم. فلم يكن كافياً بالنسبة إلي أن أدع الأمور تجري في أعتها، وإنما كان علي أن أهزها هزاً، وأن أدفعها إلى الأمام، ولأنني كنت ماأزال أشك في نفسي فقد احتجت إلى ركوب المخاطرات، وإلى اختبار نفسي في مواجهة أكبر خطر ممكن، ومن شأن قتل فانشو أن يكون عبثياً، فجوهر الأمر هو العثور عليه حياً، ثم الابتعاد عنه والحياة ملء العروق.

كانت الرسائل التي بعث بها فانشو إلى إيلين مفيدة، فعلى العكس من الكراسيات التي مالت إلى الطابع التأملي وتجردت من التفاصيل فقد كانت الرسائل محدّدة بدرجة كبيرة. وقد أحسست بأن فانشو كان يبذل جهداً في الترفيه عن أخته، ورفع روحها المعنوية بالقصص المسلية، وبالتالي كانت الإشارات أكثر اتساماً بالطابع الشخصي من نظيرتها في أيّ موضع آخر. فعلى سبيل المثال، غالباً ما ذكرت أسماء، كأسماء زملاء الدراسة بالكلية، ورفاق العمل على متن السفينة،

ومعارف في فرنسا. وإذا لم تكن هناك عناوين للردّ عليها مكتوبة على مغلفات الرسائل فقد كانت هناك على الرّغم من ذلك أماكن كثيرة جرت مناقشتها: بيتاون، كوريوس، كريستي، تشارلستون، باتون روج، تامبا، أحياء مختلفة في باريس، وقرية في جنوبي فرنسا. وقد كانت هذه الأشياء كافية لدفعي إلى البدء، ولعدّة أسابيع جلست في غرفتي أعدّ القوائم، وأربط الناس بالأماكن، والأماكن بالأزمنة، والأزمنة بالناس، وأرسم الخرائط والتقاويم، وأنقّب عن العناوين، وأدبج الرسائل. لقد كنت أسعى وراء بدايات الخيوط، وأي شيء قد يحمل أدنى أمل لم أتردّد في متابعته. وكان افتراضي هو أنه في موضع ما ارتكب فانشو خطأ، وأن أحدهم يعرف مكان وجوده، وأن شخصاً ينتمي إلى الماضي قد رآه. ولم يكن هذا شيئاً مؤكّداً، ولكنّه بدا لي الطّريق الوحيد المحتمل الذي يمكن البدء بالسّير فيه.

تتسم رسائل مرحلة الكليّة بأنها مكتوبة على مهل وتفيض بالإخلاص - صور لكتب قرئت، مناقشات مع الأصدقاء، توصيفات للحياة في السّكن الدّاخلية بالجامعة - ولكن هذه الرسائل تعود إلى مرحلة ما قبل الانهيار الذي تعرّضت له إيلين، وتغلب عليها السمة الحميمة والمفعمّة بالثّقة التي غابت عن الرسائل التي ستلي ذلك. فعلى متن السّفينة، مثلاً، نادراً ما يقول فانشو أي شيء عن نفسه، ما لم يتصادف أن يتعلّق ذلك بطرقة اختار أن يحكيها. ونراه يحاول أن يندمج مع العناصر الجديدة المحيطة به، فيلعب الورق في قاعة المراقبة النّهاريّة مع البحّار المسؤول عن تزييت الماكينات، وهو من لويزيانا (ويفوز)، ويلعب البليارد في عدد من المشارب الوضيعة على الشّاطئ

(ويُفوز)، ثم يفسرُ فوزه بأنه جاء رمية من غير رامٍ حين يقول: «لقد تحمّست بحيث لم يقدر لي السقوط، وتجاوزت قدراتي، وأعتقد أنّ ذلك راجع لفيض من الادرينالين». وترد في الرسائل توصيفات للعمل في وقت إضافي بغرفة المحرّكات «قفزت الحرارة إلى مائة وأربعين درجة، إذا كان يمكنك تصديق ذلك، وامتلاً حذائي بعرق غزير حتى إنه أحدث صوتاً وأنني أخوض في بُريكات من الماء» وعن قيام طبيب سكيرٍ في بيتاون بولاية تكساس بنزع ضرس العقل من فمه «تناثر الدّم في أرجاء المكان، وبقي نثار من الضرس في الثقب الخالي في لثتي طوال أسبوع». وقد انتقل فانشو، باعتباره من حديثي العهد بالعمل في البحر وممن تنقصهم الخبرة، من عمل إلى عمل. وفي كلّ مرفأ كان هناك أعضاء في طاقم العاملين على متن السفينة يغادرونها ويعودون إلى بلادهم ويحلّ آخرون محلّهم. وإذا كان أحد هؤلاء القادمين الجدد يفضل القيام بعمل فانشو على القيام بالعمل المتاح فإنّ «الفتى» (وهو اللّقب الذي أطلق على فانشو) يُنقل إلى عمل آخر. ومن هنا فقد عمل فانشو بصورة متنوّعة كبّحّار عادي (يقوم بتنظيف سطح السفينة وطلائه) وكعامل في أداء الخدمات (مسح الأرضيات وترتيب الأسرة وتنظيف المراحيض) وكعامل في المطعم (تقديم الطّعام وغسل الأطباق). وقد كان هذا العمل الأخير هو الأكثر مشقّة، ولكنّه كان كذلك الأكثر إثارة للاهتمام لأنّ الحياة على متن السفينة تدور أساساً حول موضوع الطّعام، فقد كان الضّجر يثير الشهيّات المفتوحة، وكان الرّجال يعيشون بالمعنى الحرفي متقلّين من وجبة إلى أخرى، وتلفت النّظر الرهاقة المذهلة التي يتمتع بها بعضهم (رجال مترهلون، خشنون، يحكمون على الأطباق بتعالى الدوقات

الفرنسيين في القرن الثامن عشر وأنفتهم) ولكنّ فانشو تلقى نصيحة طيبة من بحار مخضرم في يوم التحاقه بالعمل إذ قال له: «لا تتبلع إهانة من أحد، وإذا أبدى أحدهم شكواه من الطعام فقل له إنّ عليه أن يلزم الصّمت، وإذا واصل الشكوى فما عليك إلا أن تتصرّف وكأنّه لا وجود له، وليكن آخر من تقدّم له الطعام. وإذا لم يُجد ذلك نفعاً فقل له إنّك ستضع ماء مثلجاً في حسائه في المرّة المقبلة، بل الأفضل من ذلك أن تقول له إنّك ستبول في حسائه، وعليك أن تدعهم يعرفون من هو صاحب الكلمة الأخيرة».

ونرى فانشو يحمل إلى القبطان طعام إفطاره ذات صباح، بعد ليلة من العواصف الضّارية أمام كيب هاتيراس، يضع فانشو الجريب فروت والبيض المخفوق المقلّي وشرائح الخبز على الصّحفة، ويلفّ هذه الأخيرة بورق التغليف المفضفض، ثمّ يلفّها فضلاً عن ذلك في عدّة مناشف، على أمل أن لا تهوى الأطباق إلى الماء عندما يصل إلى منصّة القبطان (كانت الرّيح تواصل الهبوب بسرعة سبعين ميلاً في السّاعة) ثمّ يرتقي فانشو الدّرج، ويخطو خطواته الأولى على المنصّة، وعندئذٍ، وعلى حين غرّة، وفيما تلمطه الرّيح دائرة حول نفسها على نحو وحشيّ، ويندفع الهواء المزجر تحت الصّحفة، ويجذب ذراعيه عالياً فوق رأسه وكأنّه يتدلّى من آلة بدائيّة للطيران، ويوشك أن يلقي بنفسه إلى الماء، وإذا يستجمع كلّ قوته ليجذب الصّحفة إلى أسفل، يصارعها معيداً أيّأها في نهاية المطاف إلى الوضع المسطح بإزاء صدره، من غير أن تنزلق محتويات الأطباق بمعجزة من المعجزات، ثمّ من خلال المضيّ مكافحاً خطوة وراء أخرى، قاطعاً امتداد المنصّة



وهو يبدو للعيان شبحاً ضئيلاً من جرّاء عصف الريح حوله، ويقول فانشو بعد عدد لا يستطيع أحد تقديره من الدقائق، ولدى وصوله إلى الجانب الآخر ودخوله إلى أعلى مقدّم السفينة، وعثوره على القبطان البدين وراء الدفة: «طعامك، يا سيدي القبطان!» ويلتفت القبطان ملقياً عليه أقصر نظرات التعرّف، ومجيباً بصوت يعكس الشُّرود: «شكراً، يا فتى ما عليك إلا أن تضعه على المائدة هناك».

غير أن صفة الطرافة لم تنصرف إلى كل شيء بالنسبة إلى فانشو، فهناك ذكر لمشاجرة (دون إيراد التفاصيل) يبدو أنها قد أزعجته، جنباً إلى جنب مع عدد من المشاهد البشعة التي شاهدها على الشاطئ، فعلى سبيل المثال هناك نموذج لتعذيب زنجي في مشرب في تامبا، حيث يتكالب حشد من السكارى على زنجي عجوز دخل المشرب حاملاً علماً أمريكياً كبيراً - أراد أن يبيعه - ويقوم أول سكير بنشر العلم، قائلاً إنه لا يضمّ عدداً كافياً من النجوم - «هذا العمل مزور» - وينفي العجوز هذا، وهو يكاد يتداعى طالباً الرحمة، ويبدأ السكارى الآخرون بالزجرة تأييداً للسكير الأول، وينتهي الأمر كلّهُ عندما يُدفع العجوز إلى خارج الباب فيتهاوى عند المدخل، ويومئ السكارى إعراباً عن موافقتهم، مبعدين الأمر بعدة تعليقات حول جعل العالم مكاناً يتّصف بالأمان، أجل الديمقراطية. وقد كتب فانشو يقول: «لقد ساورني شعور بالإذلال، وخجلت من نفسي لوجودي هناك».

ومع ذلك فقد كانت الرسائل مازحة (وقد استهلت إحداها على هذا النحو «ناديني ريديبرن») وفي النهاية يستشعر المرء أن فانشو قد

أفلح في أن يثبت لنفسه شيئاً، فالسّفينة ليست إلا مجرد تَعَلّة أو حجة، آخريّة مفروضة، سبيل لاختبار الذات في مواجهة المجهول. وكما هو الحال في مرحلة الاستهلال فإنّ الاستمرار على قيد الحياة هو الانتصار. وما يبدأ باعتباره ميزة محتملة، تعلّمه في هارفارد، خلفيته الراجعة لانتهاه للطبقة الوسطى، يحوّلّه بالفعل إلى شيء يقف لصالحه، وفي نهاية جولته يتمّ إقراره بحسابه العقل المفكّر للطاغم، فلا يُطلق عليه «الفتى»، بل، وفي أحيان كثيرة، يُطلق عليه «البروفسور»، وتتمّ الاستعانة به للتحكيم في المنازعات (من كان الرئيس الثالث والعشرين للولايات المتّحدة، ما هو عدد سكان فلوريدا، من الذي لعب جناحاً أيسر لفريق «الجاينتس» في ١٩٤٧ م). ويتمّ الرجوع إليه بانتظام باعتباره مصدراً لإلقاء الضوء على المعلومات الغامضة. ويطلب منه أعضاء الطّاغم المساعدة في الردّ على الاستمارات البيروقراطيّة (الجدول الزمنيّ لدفع الضرائب، استمارات التأمين، تقارير الحوادث) بل إنّ بعضهم طلبوا منه أن يكتب رسائل على لسانهم (في إحدى الحالات كتب سبع عشرة رسالة على لسان أوتيس سمارت موجّهة إلى صديقه سو- آن في ديدو بولاية لويزيانا الأمريكيّة) ولا تكمن النقطة الجوهرية في أن يصبح فانشو محور الاهتمام، وإنّما في أن ينجح في التأقلم، وفي العثور على مكان لنفسه، فالاختبار الحقيقيّ هو في نهاية المطاف أن تكون كالأخرين، وما إن يحدث ذلك حتى لا يعود مضطراً إلى وضع تفرّده موضع التّساؤل، إنّه متحرّر لا من الآخرين فحسب، وإنّما من ذاته كذلك، وأحسب أنّ الدليل المطلق على هذا هو أنّه عندما ترك السّفينة لم يودّع أحداً، وإنّما

وقّع واثق ترك العمل ذات ليلة في تشارلستون، وتسلّم مستحقّاته من القبطان، ثمّ اختفى، وبعد أسبوعين يصل إلى باريس.

انقطعت رسائله مدّة شهرين، ثمّ طوال الأشهر الثلاثة التالية لم يرسل إلاّ بطاقات بريديّة، كلمات مقتضبة، يدوّنها مسرعاً على ظهر لقطات سياحيّة عاديّة: الساكريه كير، برج إيفل، الكونسييرجري. وعندما تبدأ الرسائل بالوصول فإنّها ترد على نحو متقطع، ولا تتضمّن شيئاً له أهميّة تُذكر، ونحن نعلم أنّه بحلول ذلك الوقت كان فانشو قد استغرق في إنجاز أعماله (كثير من القصائد الأولى والمسوّدة الأولى لرواية «إظلام») ولكنّ الرسائل لا توحى بالمعنى الحقيقي لحياته، ويساور المرء شعور بأنّه يخوض غمار صراع، وأنّه غير واثق من نفسه فيما يتعلّق بإيلين، فهو لا يرغب في انقطاع الاتّصال بها، ومع ذلك يعجز عن تقرير مقدار ما يستطيع أن يحدثها به (والحقيقة هي أنّ إيلين لم تقرأ معظم هذه الرسائل، فقد أرسلت إلى الدّار الواقعة في نيو جيرسي، وبالطّبع فتحتها السيّدّة فانشو التي قامت بفحصها قبل إطلاع ابنتها عليها - وغالباً ما كانت تحجب عن إيلين، وأحسب أنّ فانشو قد اعتقد أنّ ذلك سيقع حتّى، أو على الأقلّ شكّ في ذلك، الأمر الذي يعقّد الموضوع بصورة إضافيّة - وبما أنّ هذه الرسائل لم تكتب لإيلين على الإطلاق بشكل من الأشكال، فإنّ إيلين في النهاية ليست إلاّ أداة بلاغيّة، الوسيط الذي من خلاله يتواصل فانشو مع أبيه، ومن هنا جاء غضب هذه الأخيرة، ذلك أنّه حتى عندما يخاطبها فإنّه يتظاهر بتجاهلها).

على امتداد حوالي العام تُركّز الرسائل، على وجه الحصر تقريباً،

على أشياء (المباني، الشوارع، عمليات وصف لباريس) مكررة، قائمة ضافية من الأشياء المرئية والمسموعة، ولكن فانشو نفسه ليس موجوداً إلا لماماً، ثم نبدأ تدريجياً برؤية بعض معارفه، ونلمس انجذاباً بطيئاً نحو الطرائف - ولكن رغم ذلك فإن القصص تبدو منقطعة الصلة بأي سياق، الأمر الذي يُضفي عليها سمة منداحة وغير متجسدة، فنحن نرى، على سبيل المثال، مؤلفاً موسيقياً عجوزاً يُدعى إيفان فوشنجرادسكي - بلغ الآن الثمانين من عمره تقريباً - وقد حلّ به الفقر وماتت زوجته، وأقام وحيداً في شقة بائسة تطلّ على شارع مدموازيل. ويقول عنه فانشو «إنني أرى هذا الرجل أكثر من أي شخص آخر» ثم لا ترد كلمة واحدة عن صداقتها، ولا نلمح حتى إضاعة عجلٍ لما يتبادلانه من حديث، وبدلاً من ذلك يرد وصف طويل لآلة البيانو القابعة في الشقة بحجمها الهائل ومفاتيحها الكثيرة (وقد صنعت خصيصاً لفوشنجرادسكي في براغ قبل خمسين عاماً، وتعدّ آلة من ثلاث في أوروبا يُعزف عليها ربّع النغم) ثم ترد، ودونما إشارات أخرى إلى أعمال المؤلف الموسيقي، قصة إعطاء فانشو ثلاجة للعجوز. فهو يقول في رسائله: «كنت في غمرة عملية الانتقال إلى الشقة الجديدة، وبما أن المكان كان يضم في أثنائه ثلاجة جديدة، فقد قرّرت إهداء الثلاجة القديمة لإيفان. وشأن الكثيرين في باريس فإنه لم تكن لديه ثلاجة قطّ، وكان يضع طعامه طوال كل هذه السنين في صندوق صغير في جدار مطبخه، وقد بدا مسروراً تماماً من هذا العرض، وأجريت الترتيبات اللازمة لنقلها إلى داره - حملتها صاعداً الدرج بمساعدة سائق الشاحنة التي نقلتها، وقد حيا إيفان وصول ثلاجته باعتباره حدثاً مهماً في حياته، مغمغماً وكأنه طفل صغير - ومع

ذلك فقد كان بمقدوري أن أرى أنه قلق، بل وعلى شيء من الانزعاج، إذ لم يكن على يقين مما يفعله بهذا الشيء الغريب «إنها كبيرة للغاية»، هكذا واصل القول فيما نحن نضعها في مكان مناسب، ثم عندما وصلناها بالتيار الكهربائي، وشرع المحرك في الدوران، قال «يا لها من ضجة!» وقد افترضت أنه سيعتاد عليها، مشيراً إلى كل مزايا هذا الجهاز الحديث، وكل السبل التي ستحسن بها حياته، وأحسست بأنني أشبه مبشراً: الكاهن الكبير الذي يعلم كل شيء، محرراً حياة رجل العصر الحجري بإطلاعه على الدين الحق. وانقضى أسبوع أو نحو ذلك، وكان إيفان يتصل بي يومياً تقريباً ليحدثني بمدى سعادته بالثلاجة، واضعاً كل الأطعمة الجديدة التي كان في وسعه أن يشتريها ويحفظها في داره. ثم حلت الكارثة، فقد قال لي ذات يوم وقد بدا عليه الضيق الشديد: «أحسب أنها كسرت»، ويبدو أن الفريزر الصغير الموجود في أعلى الثلاجة قد امتلأ بالثلج، ولما كان لا يعرف كيف يتخلص منه فقد استخدم مطرقة، وانهار بها لا على الثلج وحده وإنما على الأنابيب الملتفة تحته، وقال: «يا صديقي العزيز، إنني آسف للغاية»، فأبلغته بالأمر بنزعج، وبأنني سأجد عاملاً لإصلاحها. وساد صمت طويل على الطرف الآخر من الخط، وقال إيفان أخيراً: «طيب، أعتقد أن الأمر أفضل على هذا النحو، فالضجة التي تحدثها تجعل التركيز بالغ الصعوبة، لقد عشت طويلاً بذلك الصندوق الصغير في الحائط، وأحسب أنني مرتبط به للغاية، فلا تغضب يا صديقي العزيز، فأنا أعتقد أنه ليس هناك ما يمكن القيام به جِبال رجل عجوز مثلي، فأنت تصل إلى مرحلة معينة في الحياة، ثم يكون الوقت قد فات بالنسبة إلى التغيير».

وتواصل رسائل أخرى السَّير في هذا الاتجاه، مع ورود أسماء كثيرة والإشارة إلى أعمال متنوّعة، وأحسب أنّ المال الذي كسبه فانشو خلال عمله على متن السفينة قد بقي قرابة العام، وأنّه تدبّر أمره بعد ذلك على أفضل نحو يستطيعه، ويبدو أنّه قام لبعض الوقت بترجمة سلسلة من كتب الفنّ، وهناك دليل على أنّه عمل في وقت آخر مدرساً للغة الإنجليزيّة لعدد من طلاب المرحلة الثانويّة، ويبدو مرّة أخرى أنّه عمل في نوبة العمل الهادئة كعامل بدالة ذات صيف في مكتب صحيفة نيويورك تايمز في باريس (الأمر الذي يشير، إذا لم يكن هناك شيء آخر يؤكّد ذلك، إلى أنّه أصبح يتحدث الفرنسيّة بطلاقة) ثمّ هناك فترة مثيرة للفضول إلى حدّ كبير عمل فيها بين الحين والآخر لحساب منتج سينمائي، يراجع المعالجات الدراميّة، ويقوم بأعمال الترجمة وإعداد ملخصات السيناريو. وعلى الرّغم من وجود إشارات قليلة للغاية تتعلّق بسيرة الحياة في أيّ من أعمال فانشو فإنّني أعتقد أنّ عدّة أحداث في رواية «أرض المستحيل» يمكن ردها إلى هذه التجربة الأخيرة (دار المونتاج في الفصل السّابع، وحلم الفيضان في الفصل الثلاثين) ويقول فانشو (مشيراً إلى المنتج السينمائي في إحدى رسائله) «الأمر الغريب في هذا الرّجل هو أنّه بينما تقترب معاملاته الماليّة مع الأغنياء من حدود الأعمال الإجراميّة (تكتيكات الابتزاز، والكذب الصّريح) فإنّه مع من خانهم الحظّ يلزم رقّة الحاشية، فنادرًا ما يقاضي من يدينهم بالمال، وإنّما تتاح لهم فرصة العمل لتسديد ديونهم من خلال تقديم خدمات له، فسائق سيارته، على سبيل المثال، هو ماركيز مفلس ينطلق بسيارة بيضاء من طراز مرسيدس، وهناك بارون عجوز لا يصنع شيئاً إلاّ استنساخ الأوراق، وفي كلّ مرّة أزور شقّته

لتسليم عملي أجد بائساً جديداً في أحد الأركان أو نبيلاً معوزاً يختفي خلف الستائر، أو متمولاً متألّفاً سرعان ما يتبين أنه يعمل كفتى في توصيل الرسائل، وما من شيء يذهب هدراً، فعندما انتحر المخرج السابق الذي يقطن غرفة الخادم في الطابق السادس خلال الشهر الماضي، ورثت معطفه، ومازلت أرثديه منذ ذلك الحين، وهو معطف طويل، أسود يصل إلى كاحليّ تقريباً، ويجعلني أبدو كالجاسوس».

أما فيما يتعلق بحياة فانشو الخاصة فليس هناك إلا أشدّ التلميحات غموضاً، إذ يُشار إلى حفل عشاء، ويتم وصف مرسوم فنان مصوّر، ويتسلّل اسم «آن» مرّة أو مرّتين، لكن طبيعة هذه الصّلات تظلّ غامضة. غير أنّ هذا كان ما أحتاج إليه، ومن خلال القيام بالأعمال التمهيدية والانطلاق وطرح الأسئلة وصلت إلى أنني سيكون بمقدوري الوصول إلى بعض هؤلاء الأشخاص.

يبدو أنّ فانشو قد ظلّ في مكانه بشكل أو بآخر، باستثناء رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع إلى إيرلندا (دبلن، كورك، ليمريك، سليجو). وقد تمّ إكمال المسوّدة النهائية لرواية «إظلام» خلال عامه الثاني في باريس. وأما رواية «معجزات» فقد كتبت خلال العام الثالث جنباً إلى جنب مع أربعين أو خمسين قصيدة قصيرة. كلّ هذا سهل تحديده. لأنّه في حوالي ذلك الوقت نشأت لدى فانشو عادة كتابة مواعيد إنجاز أعماله. وما زال الغموض يلفّ اللّحظة المحدّدة التي غادر فيها باريس إلى الرّيف، ولكنني أعتقد أنّها تعود إلى وقت ما بين حزيران (يونيو) وأيلول (سبتمبر) ١٩٧١ م، وحوالي ذلك الوقت غدت الرسائل قليلة ومتباعدة، وحتى الكرّاسات لا تقدّم إلا قائمة

بالكتب التي كان يقرأها («تاريخ العالم» لرابليه و«الرحلات» لكابيزا دي فاكا) ولكن بمجرد استقراره في البيت الريفي فإنه يرسم صورة مفصلة إلى حد كبير عن كيفية وصوله إلى هناك، والتفاصيل في ذاتها لا أهمية لها، ولكن شيئاً مهماً يبرز: خلال إقامته في فرنسا لم يُخفِ فانشو حقيقة كونه كاتباً، فقد كان أصدقاؤه يعلمون بأمر أعماله، وإذا كان هناك سرٌّ على الإطلاق، فقد قصدت به عائلته، وقد كانت تلك زلة قدم من جانبه، فهي المرة الوحيدة في أي رسالة من رسائله التي يشي فيها بنفسه، فقد كتب يقول: «ليس بمقدور آل ديدمون، وهما زوجان عرفتهما في باريس أن يزورا بيتها بالرّيف في العام المقبل (سيذهبان إلى اليابان) ولما كان اللصوص قد اقتحموا المكان مرّة أو مرتين، فقد تردّداً في تركه خاوياً، وعرضاً عليّ وظيفة الإشراف عليه. وهكذا لم أحصل عليه دون إيجار فقط، وإنما أتيح لي كذلك استخدام سيّارة، وأعطيت راتباً صغيراً (يكفل لي تدبّر أموري إذا لزم الأمر)، وهذه ضربة حظّ موفّقة. وقد قالوا إنها يُؤثران أن يدفعوا لي راتباً مدّة عام لسكني البيت والكتابة على تأجيرها لغرباء». وربما كانت تلك جزئية محدودة، ولكنني عندما صادفتها في الرسالة وجدتها شيئاً مشجّعاً، فقد تخلّى فانشو للحظة عن حذره، وإذا كان هذا قد حدث مرّة فليس هناك ما يحول دون افتراض أنه يمكن أن يحدث مرّة أخرى.

وكأمثلة على الأعمال الكتابية فإنّ الرسائل التي بعث بها من الرّيف تجاوزت الرسائل الأخرى كافّة، ذلك أنه بحلول هذا الوقت كانت عين فانشو قد أصبحت حادة، على نحو لا يصدّق، ويمحس المرء بأنّ



الكلمات تواتيه طائفة وكأثما ضاقت المسافة بين الرؤية والكتابة، وأصبح الفعلان متطابقين تقريباً، وجزءاً من إيماءة واحدة. وتشغل الطبيعة فانشو فيواصل العودة إليها، ويتأملها بلا انتهاء، ويسجل تغيراتها بلا توقف، ولا يتراجع صبره حيال هذه الأمور عن مستوى التميز، وهناك فقرات من الكتاب عن الطبيعة في رسائله وكراساته على السواء تُعدّ من أكثر ما قرأت إشرافاً، وقد بنى المنزل الحجريّ الذي يقطنه (ولا تقلّ الجدران في سمكها عن قدمين) خلال الثورة، وعلى أحد جانبيها كرمة صغيرة، وعلى الجانب الأخضر مرج معشب ترعى فيه الماعز، وثمة غابة وراء ذلك (طيور العققع، غربان القيط، الخنازير البرية) وأمامه، عبر الطريق، تقع الصخور التي تُفضي إلى القرية (التي يبلغ عدد سكانها أربعين شخصاً) وعلى هذه الصخور نفسها، ومحتجة وسط عناق الأشجار والشجيرات تلوح أطلال كنيسة عادت ذات يوم إلى «فرسان المعبد». السوّال، الزعتر، البلوط الخفيض، التربة الحمراء، الصلصال الأشهب، المسترال - يعيش فانشو في قلب هذه الأشياء لأكثر من عام، وشيئاً فشيئاً يبدو أنها تفلح في تغييره، وفي غرسه بمزيد من العمق في ذاته، وإني لأتردد في الحديث عن تجربة دينية أو صوفية (فهذان التعبيران لا يعينان شيئاً بالنسبة إليّ) ولكن يبدو من خلال كلّ الأدلة أنّ فانشو كان وحيداً طوال الوقت، ويكاد لا يرى أحداً، وقد أدت صرامة هذه الحياة إلى انضباطه، وغدت العزلة ممراً يُفضي إلى ذاته، وأداة للاكتشاف. وعلى الرغم من أنه كان مايزال في مقتبل العمر وقتذاك فإنني أعتقد أنّ هذه الفترة شكّلت بداية نضجة باعتباره كاتباً، فمنذ هذه الفترة تتجاوز أعماله كونها شيئاً واعداً لتغدو شيئاً متحققاً، ومُنجزاً يُتَمي إليه على

نحو لا يحتمل اللبس. ويبدو فانشو وقد بلغ تمام ازدهاره، بدءاً بالفيفض المتتابع من القصائد التي نظمها في الرّيف (والتي يمكن اعتبارها بمثابة الأعمال التمهيدية) ثم انطلاقاً عبر المسرحيات ورواية «أرض المستحيل» (وقد كتبت كلها في نيويورك). ويبحث المرء عن آثار للجنون، عن مؤشرات للتفكير الذي سيقبله على نفسه بالفعل، ولكن الأعمال لا تكشف عن شيء من هذا النوع. ولاشك في أن فانشو ليس بالشخص العادي، ولكنه عاقل بحسب ما تفرضه كل المظاهر، وعندما يعود إلى أمريكا في خريف ١٩٧٢ م فإنه يبدو مالكا لزماد نفسه تماماً.

جاءت ردودي الأولى من أناس كان فانشو قد عرفهم في هارفارد، وبدأ أن كلمتي «سيرة حياة» تفتحان لي الأبواب، ولم ألتق عتاً في تحديد مواعيد لمقابلة معظمهم. وقد قابلت زميله في الإقامة بالمدينة الجامعية في السنة الأولى، ورأيت كثيراً من أصدقائه، والتقيت باثنتين أو ثلاث من فتيات رادكليف اللاتي كان يقابلهن، غير أن ذلك لم يُسفر عن كثير، فمن بين جميع من التقيتهم لم يقل إلا شخص واحد أي شيء جدير بالاهتمام، وكان هذا الشخص الواحد هو بول شيف الذي قام أبوه بإجراء الترتيبات الضرورية لحصول فانشو على عمل على متن الناقلة. وقد غدا شيف الآن طبيباً متخصصاً في علاج الأطفال في مقاطعة وستشستر، وقد تجاذبنا أطراف الحديث في عيادته ذات مساء حتى وقت متأخر، وكانت فيه جدية حبيته إلى نفسي (كان رجلاً صغيراً في حجمه، متوفزاً، وقد شرع شعره في التساقط، وتتميز عيناه بالنفاذ، ويتردد صوته لِدناً رقيقاً) وقد تحدّث بصراحة، ومن غير

أن استحثته في هذا الصدد. لقد كان فانشو شخصاً مهماً في حياته، وهو يذكر صداقتها جيداً. وقال: «كنت فتى مجتهداً، منكباً على العمل، مطيعاً، دونما نصيب كبير من الخيال، ولم تكن جامعة هارفارد قد أثرت كثيراً في نفس فانشو كما أثرت في بقيتنا، وأعتقد أن ذلك قد بهرني، وكان قد قرأ أكثر مما قرأه أي شخص آخر، قرأ المزيد من الشعراء، والمزيد من الفلاسفة، والمزيد من الروائيين، ولكن العمل الدراسي بدا وكأنه يصيبه بالضجر، ولم يكثر بالدراجات، وتغيب عن المحاضرات كثيراً، وبدا وكأنه يمضي في طريق خاص به. وفي العام الدراسي الأول كنا نقطن على جانبي قاعة واحدة، ولسبب لا أدريه اختارني لأكون صديقه، وبعد ذلك كنت كمن التصق به التصاقاً، وكانت لديه أفكار كثيرة عن كل شيء، وأعتقد أنني تعلمت منه أكثر مما تعلمت من أي صف دراسي درست فيه، وأحسب أن تلك كانت حالة سيئة من حالات عبادة البطل، ولكن فانشو ساعدني، ولم أنس ذلك. لقد كان هو من علمني أن أفكر لنفسي، وأن أقوم باختياراتي التابعة مني، ولولاه لما أصبحت طبيباً. وقد انتقلت إلى دراسة الطب لأنه أفنعي بالقيام بما أردته، ومازلت ممتناً له على ذلك.

في منتصف عامنا الدراسي الثاني أبلغني فانشو بأنه سيهجر الدراسة، ولم يدهشني ذلك حقاً، فلم تكن الجامعة هي المكان الصحيح لفانشو، وكنت أعلم أنه قلق ويتوق إلى الرحيل. وقد حدثت أبي الذي كان يمثل نقابة البحارة فتوصل إلى توفير ذلك العمل على متن السفينة لفانشو، وتم ترتيب الأمر على نحو حاذق، وتم

تمرير فانشو سريعاً عبر تحضير كافة الأوراق المطلوبة، وبعد أسابيع قليلة كان قد انطلق. وقد بلغتني أخباره عدّة مرّات، وتلقّيت منه بطاقات بريديّة من هنا وهناك، يكتب فيها أموراً من قبيل: كيف حالك، وما إلى ذلك. وقد أسعدني أن أتمكّن من مساعدته، ثم انفجرت كلّ هذه المشاعر الطيّبة بالفعل في وجهي. فقد كنت في المدينة ذات يوم، قبل أربع سنوات، أسير في فيفث أفنيو، وصادفت فانشو هنالك في الشّارع مباشرة، وأسعدني أن أراه، وكنت مندهشاً حقاً وسعيداً، ولكنّه لم يكلف نفسه حتّى عناء محادثتي. لقد كان الأمر كما لو أنّه نسي من عساني أكون، وبدا متصلّباً، ويوشك أن يكون وقحاً، واضطّرت إلى دفع بطاقة تحمل عنواني ورقم هاتفني في يده دفعاً، ووعد بالاتّصال بي، ولكنّه بالطبع، لم يتّصل بي قطّ، وبمقدوري القول إنّ ذلك قد ألّمني كثيراً، ورحت أحدث نفسي قائلاً، يا لابن الكلبة ذاك! من يحسب نفسه؟ بل إنّهُ لم يحدّثني بما يفعله، وإنّما تجنّب أسئلتي، وانطلق مبتعداً، فحدّثت نفسي قائلاً: وداعاً لعهد الكليّة، وداعاً للصدّاقة! وقد خلّف ذلك مذاقاً مريراً في فمي. وقد اشترت زوجتي أحد كتبه، وقدمته إليّ هديّة في عيد ميلادي، وإنّي لأعرف أنّ ما فعلته سلوك طفوليّ، ولكنّ قلبي لم يطاوعني على فتحه. وإنّما قبع هنالك على الرّف ليتراكم عليه الغبار. إنّهُ أمر غريب، أليس كذلك؟ الجميع يقول إنّهُ من روائع الأعمال ولكنّي لا أستطيع الاعتقاد بأنّه سيكون بمقدوري إرغام نفسي على قراءته».

كان هذا هو التعقيب الأكثر وضوحاً الذي انتزعته من كلّ من

قابلتهم، وكان لدى بعض العاملين على متن الناقلة ما يقوله، ولكن ما من شيء أفاد مقاصدي بصورة حقيقية، فعلى سبيل المثال تذكّر أوتيس سهارت الرسائل العاطفية التي كتبها فانشو على لسانه، وعندما اتّصلت به هاتفياً في باتون روج، تحدّث عنها باستفاضة. بالغة، بل واقتطف بعض العبارات التي ابتكرها فانشو (عزيزتي ذات الأقدام المتألّقة الأصابع، امرأتي التي تشبه القرع المهروس، شرّيرتي التي تشبه صفصافة الأحلام، وما إلى ذلك) وراح يُغرّب في الضحك، خلال حديثه، وقال إنّ الشيء اللعين حقاً هو أنّ سو آن بينما كان يرسل إليها هذه الخطابات كانت تبادل شخصاً آخر الحبّ، ويوم عاد إليها بادرت بإعلان أنّها بسبيلها إلى الزواج، وأضاف إنّ ذلك كان من محاسن الصّدق، «فقد قابلت سو آن في بلدتي خلال العام الماضي، فإذا بوزنها قد وصل إلى حوالي ثلاثمائة رطل الآن، وهي تبدو مثل امرأة بدينة في رسم كاريكاتيري - تتبختر في الشارع في سروال برتقالي، وقد تدلّت كتل الشحم حولها، وقد أضحكني ذلك، أضحكني أن أتذكّر الرسائل، لقد أطرائي فانشو ذاك كثيراً، وكان يُسمعي بعض سطورته تلك، فإذا بي أشرع في التدرج على الأرض كالقرد من فرط الضحك. إنّهُ أمر مؤسف ما حدث له، فالمرء يكره أن يسمع بشخص أفسد بطاقة سفره في الدّنيا قبل الأوان».

وكان جيفري براون الذي يعمل الآن كبيراً للطّهاة في مطعم في هيوستون، مساعداً للطّاهي على متن السفينة، وقد تذكّر فانشو باعتباره عضو الطّاقم الأبيض الوحيد الذي تعامل معه بروح الصداقة والودّ. قال براون: «لم يكن الأمر سهلاً، فقد كان الطّاقم في معظمه

من أجلاف الجنوب، وكان أحدهم يوشك أن يبصق عليّ في معرض تحيّي، ولكن فانشو وقف إلى جانبي، ولم يُبدِ اكتراثاً بما يقولونه، وعندما كُنّا نصل إلى بيتاون وأماكن من هذا القبيل، كُنّا نمضي إلى الشاطئ لتناول بعض الشراب، ولمصاحبة الفتيات، وما إلى ذلك، وكنت أعرف هذه البلدات أفضل من معرفة فانشو، وقد أبلغته بأنّه إذا أراد البقاء معي فليس بمقدورنا ارتياد مشرب البحارة المعتاد، وكنت أعرف ما سيصير إليه أمري في أماكن من ذلك النوع، ولم أرد الوقوع في المشكلات، قال فانشو: لا مشكلة هناك، وكُنّا ننطلق إلى الأحياء الزنجيّة من غير مشكلات على الإطلاق. وفي معظم الوقت كانت الأمور بالغة الهدوء على متن السفينة، بلا مشكلات على الإطلاق، فما من شيء لا أستطيع تدبّر أمره، ولكن جاء ذلك العميل الخشن لقضاء عدّة أسابيع، رجل يدعى كتبيرت، إذا كنت تصدّق وجود هذه الاسم، روي كتبيرت. كان عامل صيانة لآلات السفينة، غيبياً، صحّاباً، طُرد في نهاية المطاف من السفينة عندما قَدَّر كبير المهندسين أنّه لا يؤدّي واجبه في العناية بالمحرّكات لأنّه لا يعرف عنها شيئاً. وقد عمد إلى الغشّ في الاختبار للحصول على هذا العمل، وهو الرّجل المناسب لوضعه في قاعة المحرّكات إذا كنت تريد نسف السفينة. كان هذا الكتبيرت غيبياً، خسيساً وغيبياً، ولديه ذلك الوشم على ظاهر أصابع يده: م. ح. ب. ع. على اليد اليمنى وم. ق. ت على اليد اليسرى. وعندما ترى هذا النوع من الهراء الأبله فإنك ترغب في الابتعاد عنه. وقد تباهى هذا الرّجل أمام فانشو بأنّه قد اعتاد قضاء أمسيات السّبت في بلدته بولاية الأاباما جالساً على أحد التلال الفاصلة بين ولايتين ومطلقاً النّار على السيّارات. ولاشكّ

أنه رجل جذاب أيًا كان الشكل الذي تعبر به عن الأمر، ثم هناك عينه تلك، البالغة الاحمرار والمشوهة، ولكنّه كان يحبّ التباهي فيما يتعلّق بهذا الأمر أيضاً، ويبدو أنّ إصابته قد حدثت ذات يوم عندما أصابته شظية زجاج، وقال إنّ ذلك قد وقع في سيلما بينما كان يلقي بالزجاجات على مارتن لوثر كينج. ولست بحاجة إلى أن أحدثك بأنّ كتبیرت ذلك لم يكن من النوع الأثير عندي، وقد اعتاد أن يرمقني بنظرات طويلة مدمماً بما لا يتبيّن ومشيراً لنفسه، ولكنني لم أكثرث به. وسارت الأمور على هذا النحو لبعض الوقت، ثمّ جرّب حظّه مع فانشو، وحدث ذلك على نحو أكثر وضوحاً من أن يتجاهله فانشو الذي يتوقّف، وبلتفت إلى كتبیرت ويقول: «ماذا قلت؟» ويقول كتبیرت الذي تبدو عليه الجلافة والصّلابه شيئاً من قبيل: «كنت أتساءل متى تعترم أنت وأرنب الأدغال الزواج، يا عزيزي؟!» طيّب، لقد كان فانشو مسالماً وودوداً، وسيّداً مهذباً حقاً، إذا كنت تدرك ما أعنيه، ولذا لم أكن متوقّعا ما حدث. كان الأمر يشبه مشاهدة الرّجل الأخضر على شاشة التلفزيون، الرّجل الذي يتحوّل إلى وحش، أعني أنّه يغضب فجأة، ويندفع حائقاً، وقد استبدّ به الغضب فتجاوز حدوده، أمسك بكتبیرت من ياقة قميصه، وألقى به إلى الحائط، وألصقه به، وضغط عليه، وراحت أنفاسه تتردّد جيال وجه الآخر، ويقول فانشو وقد اتّقدت النّار في عينيه: «لا تقل ذلك ثانية أبداً، لا تقل ذلك ثانية أبداً وإلاّ قتلتك». ولتحلّ بك اللّعة إذا لم تصدّقه فيما هو يقول ذلك، فقد كان على استعداد للقتل، وقد عرف كتبیرت ذلك، فإذا به يقول: «كنت أمزح، كنت أُلقي مزحة صغيرة فحسب». عندئذٍ انتهى الأمر بسرعة بالغة. لم يدم الحادث بكامله إلّا

أقلّ من نصف طرفة عين، وبعد يومين فصل كتيرت من عمله .  
وكان ذلك بمثابة ضربة حظ أيضاً، فلو أنه بقي وقتاً أطول فما من  
أحد كان يمكن أن يعرف ما سيحدث» .

تلقيت عشرات الإفادات من هذا النوع، من الرّسائل، من  
المحادثات الهاتفية، من المقابلات . واستمرّ الأمر شهوراً، وفي كلّ يوم  
كان نطاق المادّة يتوسّع، وينمو بمتواليات هندسيّة مراكماً المزيد والمزيد  
من العناصر المرتبطة به، سلسلة من الاتصالات التي اكتسبت بالفعل  
حياة خاصّة بها . كانت المادّة كائناً عضوياً جائعاً بلا انتهاء، وفي  
النهاية أدركت أنه ما من شيء يحول دون أن تصبح في ضخامة العالم  
ذاته، فحياة تمسّ حياة أخرى وهذه بدورها تمسّ ثالثة، وبسرعة  
أخرى تغدو الاتصالات بما يستعصي إحصاؤه . لقد علمت بأمر امرأة  
بمدينة في بلدة صغيرة في لوزيانا، وعلمت بعنصريّ مجنون يعلو  
الوشم أصابعه وله اسم يتحدّى الفهم، وعلمت بأمر عشرات  
الأشخاص الذين لم أسمع عنهم شيئاً من قبل قطّ، وكلّ منهم كان  
جزءاً من حياة فانشو . وربما كان كلّ ذلك على مايرام، وربما كان  
بمقدور المرء أن يقول إنّ فائض المعرفة ذلك هو على وجه التّحديد  
الشيء الذي يبرهن على أنني وصلت إلى موضعٍ ما . فقد كنت، في  
نهاية المطاف، تحرّياً، وعملي هو البحث عن بدايات الخيوط، وإذا  
جوهت بمليون جزئية من المعلومات العشوائية الزائفة، واجتذبت  
خطاي إلى مليون درب من دروب التّحقيق الزائفة، فقد تعين عليّ  
العثور على الدّرب الذي سيفضي بي إلى حيث أريد الدّهاب . وحتى  
الآن كانت الحقيقة الأساسيّة هي أنني لم أعر على ذلك الدّرب . فلم



يكن أي من هؤلاء الناس قد رأى فانشو أو تلقى اتصالاً منه خلال سنوات، وما لم أشك في ما أبلغني به الجميع، وما لم أبدأ بإجراء تحقيق عن كل منهم، فقد كان عليّ الافتراض بأنهم يقولون الحقيقة.

أعتقد أن ما وصل إليه الأمر كان مسألة منهاج، وبمعنى من المعاني كنت أعرف كل شيء يتعين العلم به فيما يتعلق بانشو، والأمور التي علمت بها لم تُعلمني أي شيء له أهميته، ولم تتجاوز أيّاً من الأمور التي كنت أعرفها بالفعل، أو إذا شئنا التعبير عن الأمر بصورة مختلفة قلنا إن فانشو الذي عرفته لم يكن هو نفسه فانشو الذي أبحث عنه، فقد كان هناك انقطاع في موضع ما، انقطاع مفاجئ يستعصي على الفهم، ولم تبرر الأمور التي قالها لي مختلف الأشخاص الذين طرحت عليهم الأسئلة هذا الانقطاع. وفي النهاية فإن إفاداتهم قد أكدت فحسب أن ما حدث ما كان يمكن أن يحدث. أن فانشو كان عطوفاً، أنه كان قاسياً، تلك كانت قصة قديمة، وكنت أعرفها عن ظهر قلب. وما كنت أبحث عنه كان شيئاً مختلفاً، شيئاً ما كان بمقدوري حتى تخيله: فعلاً لا عقلاً تماماً، شيئاً يتناقض مع شخصيته كلية، تناقضاً مع كل ما كان عليه فانشو حتى لحظة اختفائه. وواصلت محاولة القفز إلى المجهول، ولكنني في كل مرة هبطت فيها كنت أجد نفسي في أرض مألوفة لديّ، محاطاً بما هو أكثر ألفة عندي.

كلما أوغلت في المسير ضاقت الاحتمالات، وربما كان ذلك أمراً جيداً، لست أدري. وقد عرفت أنني في كل مرة أمني فيها بالفشل، فإن ذلك - إن لم يسفر عن أي شيء آخر - يؤدي إلى أن تنقص أماكن البحث مكاناً. وقد مرّت الشهور، شهور أكثر مما أودّ أن أقرّ به. وفي

شباط (فبراير) وآذار (مارس) أمضيت معظم وقتي باحثاً عن كوين، التحري الخاص الذي عمل لحساب صوفي، ومن الغريب أنني لم أستطع العثور على أثر له، ويبدو أنه لم يعد يمارس عمله، لا في نيويورك ولا في أي مكان آخر. ولبعض الوقت تحرّيت تقارير الجثث التي لم يتقدّم أحد للتعرف على هوية أصحابها، ورحت أطرح الأسئلة على العاملين في معرض جثث المدينة، وحاولت اقتفاء أثر أعضاء عائلته، ولكن ذلك لم يسفر عن شيء. وكما لاذ أخير بحثت إمكانية الاستعانة بتحرّ خاص آخر للبحث عنه، ثم قرّرت ألا أفعل ذلك، فقد شعرت بأن في رجل مفقود واحد كفاية، وشيئاً فشيئاً استنفدت الاحتمالات الباقية. وفي منتصف نيسان (أبريل) وصلت إلى الاحتمال الأخير. انتظرت بضعة أيام أخرى، على أن يحلّ الحظ بساحتي، ولكن شيئاً لم يحدث، وفي صبيحة الحادي والعشرين من نيسان (أبريل)، مضيت في نهاية المطاف إلى وكالة سفريات وحجزت مقعداً على متن الطائرة المتجهة إلى باريس.

كان يفترض أن أرحل يوم الجمعة. وفي يوم الثلاثاء مضيت مع صوفي لشراء جهاز لتشغيل الأسطوانات. وكانت إحدى شقيقاتها الأصغر سنّاً توشك على الانتقال إلى نيويورك، وكنا نعتزم إهداءها جهاز تشغيل أسطواناتنا القديم، وكانت فكرة شراء جهاز جديد تراودنا منذ عدّة أشهر، وقد منحنا هذا عذراً للانطلاق للحصول على الجهاز الجديد. وهكذا مضينا إلى قلب المدينة في يوم الثلاثاء ذاك، وابتعنا الجهاز، ثم حملناه إلى الدار في سيارة أجرة، وعلّقناه في الموضع الذي كان يشغله الجهاز القديم، ثم وضعنا الجهاز القديم في

الصندوق الجديد، ورحنا نحدّث أنفسنا بأنّ في ذلك حلّاً حازقاً. وكانت كارين ستصل في أيار (مايو)، وفي غضون ذلك أردنا أن نبقي الجهاز القديم بعيداً عن العيان، وعند ذلك صادفتنا مشكلة.

كان مجال التخزين محدوداً، كما هو الحال في معظم شقق نيويورك، وقد بدا أنّه لم يعد لدينا فراغ يذكر. وكانت الخزانة الوحيدة التي يمكن أن يعلّق عليها أيّ أمل موجودة في غرفة النوم، ولكنّ الغرفة كانت بالفعل مليئة بالصناديق، ثلاثة عميقة وثلاثة مرتفعة وأربعة تمتدّ بالعرض، ولم يكن هناك مجال على الرفّ في الأعلى. وكانت تلك هي الصناديق الورقيّة التي تضمّ متعلّقات فانشو (الملابس والكتب وغير ذلك من الأشياء) وقد كانت هناك منذ انتقالنا، ولم أدرِ أنا وصوفي ما الذي يتعيّن علينا القيام به حيالها منذ قامت بتنظيف شقّتها القديمة، ولم نرغب في أن تحيط بنا ذكريات فانشو في حياتنا الجديدة، ولكن في الوقت نفسه بدا أنّ من الخطأ الاكتفاء بإلقاء هذه الأشياء بعيداً، وكانت الصناديق بمثابة نوع من الحلّ الوسط. وبالفعل فقد بدا أنّنا لم نلاحظها، وقد أصبحت جزءاً من الطابع العام للمنزل، مثل ألواح الأرضيّة المكسورة تحت سجادة غرفة الجلوس، وشأن الشقّ في الجدار فوق فراشنا، وغدت خفيّة في غمرة حياتنا اليوميّة. وأمّا الآن، وفيما فتحت صوفي باب الخزانة، فقد تغيّرت حالتها المزاجيّة فجأة.

- كفانا من هذا!

قالتها صوفي وهي تجلس على أرضيّة الخزانة، ونحّت الملابس التي تغطّي الصناديق متدلّية فوقها، وجعلت حمالات الملابس تفرقع،

وباعدت ما بين الأشياء في إحباط، وكان ذلك غضباً مفاجئاً، وبدأ موجّهاً إليها أكثر مما هو موجّه إليّ.

كنت أقف إلى الجانب الآخر من الفراش، أتطلع إلى ظهرها:

- كفانا مِمّ؟

قالت، وهي ماتزال تحرّك الثياب جيئة وذهاباً:

- من الأمر بأسره، كفى من فانشو وصناديقه!

- ما الذي تريدن عمله بها؟

جلست على الفراش، ورحت أنتظر ردّاً، ولكنها لم تقل أيّ شيء

فعدت إلى التساؤل من جديد:

- ما الذي تريدن عمله بها يا صوفي؟!!

التفتت، وواجهتني، وكان بمقدوري إدراك أنها على وشك

الانخراط في البكاء. قالت:

- ما جدوى الخزانة إذا لم يكن بمقدورك استخدامها؟

تردّد صوتها مرتجفاً، وقد فقدت سيطرتها عليه، وأضافت:

- أعني أنه ميت. أليس كذلك؟ وإذا كان قد مات، فلماذا نحتاج

إلى كلّ هذه... وكلّ هذه النفاية. الأمر يشبه العيش مع جثة.

قالتها مشيرة إلى الصناديق، ومدّقة في كلماتها.

قلت:

- بمقدورنا إذا أردت أن نتصل بجيش الخلاص اليوم للتبرّع بها

له.

- اتّصل بهم الآن، قبل أن تقول كلمة أخرى.

- سأفعل ذلك، ولكن سيتعيّن علينا أولاً أن نفتح الصناديق

ونصنّف محتوياتها.

- لا، أريد التخلّص من كلّ شيء، كلّ شيء في الحال.  
قلت:

- ذلك أمر طيّب، بالنّسبة إلى الملابس، لكنني أردت الإبقاء على الكتب لبعض الوقت، فقد كنت أعتمز إعداد قائمة بها، والتدقيق فيما يتعلّق بوجود ملاحظات على الهوامش، وبمقدوري الفراغ من ذلك في غضون نصف ساعة.

نظرت إليّ صوفي غير مصدّقة، وقالت:

- إنك لا تفهم أيّ شيء، أليس كذلك؟

وعندئذٍ، وفيما هي تنهض واقفة، فاضت الدّموع من عينيها، دموع طفلة، دموع لا تحتجز شيئاً وتنساب على وجنتيها وكأنّها لا تعرف بوجودها. وأضافت:

- لم يعد بمقدوري الوصول إليك، إنك لا تسمع ما أقول.

- إنني أبذل قصارى جهدي، يا صوفي!

- لا، إنك لا تفعل هذا، تعتقد ذلك، ولكنك لا تفعله، ألا

تدرك ما يجري، إنك تعيده إلى الحياة.

- إنني أقوم بتأليف كتاب، ذلك هو كلّ ما هنالك، مجرد كتاب،

ولكنني إذا لم أحمل الأمر على محمل الجدّ، فكيف لي أن أمل في إنجازه؟

- ليس الأمر مقتصراً على ذلك، إنني أعرف هذا، وبمقدوري أن

أشعر به، إذا أريد لنا أن نعيش فينبغي أن يموت هو. ألا تفهم

ذلك؟ وحتى إذا كان على قيد الحياة فإنه ينبغي أن يموت.

- عمّ تتحدّثين؟ إنه ميّت، بالطبع.

- لن يظلّ كذلك طويلاً، لن يظلّ ما دمتَ تُبقي الأمر على توهّجه .

- ولكنك أنتِ من دفعني إلى البدء به، لقد أردت أن أقوم بإنجاز الكتاب .

- ذلك كان منذ مائة عام، يا عزيزي، إنني خائفة للغاية من أن أفقدك، لن أستطيع تحمّل حدوث ذلك .

- لقد أوشك الأمر على الانتهاء، كوني على يقين من ذلك، وهذه الرحلة هي الخطوة الأخيرة .

- ثمّ ماذا بعد ذلك؟

- لسوف نرى . ليس بمقدوري أن أعرف ما أنا بسبيلي إليه إلّا بعد أن أبلغه .

- ذلك ما كنت أخشاه .

- في وسعك الذهاب معي .

- إلى باريس؟

- إلى باريس، في وسعنا نحن الثلاثة أن نذهب معاً .

- لا أعتقد ذلك . ليس والأمور على ما هي عليه الآن، اذهب وحدك، فعلى الأقلّ إذا ما عدت سيكون ذلك لأنك أردت العودة .

- ماذا تعنين بقولك «إذا»؟

- عنيت ما قلت . «إذا»، تمّهما في القول «إذا ما عدت»

- ليس بمقدورك تصديق ذلك .

- لكنني أصدّقه . إذا مضت الأمور على هذه الشاكلة فسوف أفقدك .

- لا تتحدّثي على هذا النحو، يا صوفي!

- لست أستطيع لذلك دفعاً، إنك شديد القرب من الذهاب.  
بالفعل، وفي بعض الأحيان أستطيع أن أراك وأنت تختفي أمام  
ناظري.

- ذلك هراء.

- أنت مخطئ، إننا نقرب من النهاية، يا عزيزي، ولست تدري  
بذلك، لسوف تختفي، ولن تُقدِّر لي رؤيتك مرة أخرى.

بدأت الأشياء أكبر على نحو غريب بالنسبة إليّ في باريس . كانت السماء أكثر حضوراً منها في نيويورك، وتقلباتها أكثر هشاشة، ووجدت نفسي منجذباً إليها. وطوال اليوم أو اليومين الأولين رحبت أرقبها على الدوام جالساً في غرفتي بالفندق، ومتأملاً السحب، ومنتظراً حدوث شيء ما. تلك كانت سحباً شمالية، سحب الأحلام التي تبدل على الدوام، متجمعة على هيئة جبال رمادية هائلة، تنهمر منها زخات قصيرة تتفرق ثم تتجمع من جديد؛ تندرج عبر الشمس وينعكس عنها الضوء على أشكال تبدو مختلفة دائماً. ولسماء باريس قوانينها، وهي تسري على نحو منفصل عن المدينة الواقعة تحتها. وإذا كانت المباني تبدو ثابتة ومستقرة على الأرض ولا سبيل إلى تدميرها فإن السماء تلوح رجة وغير منتظمة ومتعرضة لاضطراب دائم. وطوال الأسبوع الأول ساورني شعور بأنّي قلبتُ رأساً على عقب. كانت تلك مدينة تنتمي إلى العالم القديم، وليس لها علاقة بنيويورك، بسماؤها الوثيدة الحركة، وشوارعها الفوضوية، وسحبها الرقيقة، ومبانيها العدوانية. لقد شرّدت، وجعلني ذلك، على نحو مفاجئ، بعيداً عن الثقة بنفسني، فأحسست بقبضتي تتفكك، وتعيّن عليّ أن أقوم مرة على الأقل كلّ ساعة بتذكير نفسي بسبب وجودي هنا.

لم تكن لغتي الفرنسية جيّدة، كما أنها لم تكن رديئة، فلديّ من المفردات ما أتفهّم به ما يقوله الناس لي، ولكنّ الحديث كان صعباً، وحلت أوقات لم أكن أتلفظ فيها بكلمة عندما أغالب نفسي لأقول أبسط الأشياء. وأعتقد أنّه كان في ذلك سرور خاصّ، سرور معايشة



اللغة كمجموعة من الأصوات، والإجبار على التحليق إلى سطح الكلمات حيث تختفي المعاني، فلكي أفهم ما يقوله الناس كان عليّ أن أترجم كل شيء في صمت الانجليزية، الأمر الذي كان معناه أنني حتى عندما أفهم فإنّ فهمي كان على مبعده، إذ أقوم بالعمل مرتين، وأحصل على نصف نتيجة. فقد ضاعت مني فروق المعاني، والارتباطات الشعورية، والتيارات الباطنية. وفي النهاية قد لا يكون من قبيل الخطأ القول بأن كل شيء كان يضيع مني.

ومع ذلك فقد مضيت قدماً، واستغرق مني البدء بالتحقيق عدّة أيام، ولكن بمجرد قيامي بإتصالي الأول تابعت الاتصالات الأخرى. غير أنه كان هناك عدد من خيبات الأمل، فقد توفي فيشنجرادسكي، وعجزت عن تحديد مقر إقامة أيّ من التلاميذ الذين قام فانشو بتدريس اللغة الإنجليزية لهم، ورحلت المرأة التي قامت بتشغيل فانشو في صحيفة «النيويورك تايمز» ولم تعدّ تعمل هناك منذ سنوات. وكانت مثل هذه الأمور في عداد المتوقع ولكنني لم أتقبلها في سر، إذ كنت أعرف أنه حتى أصغر ثغرة يمكن أن تكون قاتلة، وكانت تلك بالنسبة إليّ فراغات خاوية، مساحات بيضاء في الصورة، وأياً كان مدى نجاحي في تغطية مناطق أخرى فإنّ الشكوك ستظل قائمة، الأمر الذي كان معناه استحالة انتهاء العمل بصورة حقيقية.

تحدثت مع آل ديدمون، ومع ناشري كتب الفنّ الذين عمل فانشو لديهم، ومع المرأة التي تُدعى آن (أتضح أنها كانت صديقة لفانشو). وتحدثت مع المنتج السينمائي فقال لي بإنجليزية تشوبها لكنة روسية: «أعمال عَرَضِيَّة، هذا هو ما كان يقوم به، ترجمات،

ملخصات للسيناريوهات، بعض الكتابات التي تضع زوجتي اسمها عليها. كان فتى لماًحاً ولكنه أكثر تصلباً مما ينبغي، مغرقاً في نزعته الأدبية، إذا كنت تعرف معنى ما أقوله. أردت منحه فرصة للتّمثيل، بل وعرضت عليه إعطائه دروساً في ركوب الجياد واجتياز الحواجز تمهيداً لفيلم كنا سنقوم بتصويره. فلقد أحببت ملاحظه، وحدثت نفسي بأن بمقدورنا أن نصنع منه شيئاً، ولكنه لم يكن مهتماً، وقال لي إن لديه بيضات أخرى يتعين عليه قليها، أو شيئاً من هذا القبيل، ولم تكن لذلك أهمية، بالفيلم كان يدرّ الملايين، وفيم أكثرائي بما إذا كان الفتى يرغب في التّمثيل أو لا؟

كان هناك شيء يتعين تتبّعه هنا، ولكنني جلست مع هذا الرجل في شقته التي تشبه القصر في هنري مارتان أفنيو، منتظراً كل جملة من قصته التي رواها بين المحادثات الهاتفية، وفجأة أدركت أنني لست بحاجة إلى سماع المزيد. كان هناك سؤال واحد له أهميته ولم يكن بمقدور هذا الرجل أن يردّ عليه. ولئن بقيت وأصغيت إلى ما يقوله فإنني سأحصل على المزيد من التفاصيل، والمزيد من الأمور التي لا أهمية لها، وكومة أخرى من الملاحظات التي لا جدوى منها. لقد كنت أظاهر بتأليف كتاب منذ وقت طويل، وشيئاً فشيئاً نسيت الغرض الذي أرمي إليه، وقلت لنفسي مرّداً على نحو واع صدى ما قالته صوفي: كفى! كفى من هذا! ثم نهضت واقفاً وغادرت المكان.

كانت النقطة الجوهرية أنّ أحداً لم يعدّ يراقبني ولم يعدّ يتعين عليّ التّظاهر، على نحو ما كنت أفعل في البيت، لم يعدّ من الواجب عليّ

تضليل صوفي باختلاق عمل أشغل به نفسي بلا انتهاء . لقد انتهت التمثيلية، وبمقدوري في النهاية أن أنحي جانباً كتابي الذي لا وجود له . وعلى امتداد نحو عشر دقائق، خلال عودتي إلى الفندق الذي أقيم به على الجانب الآخر من النهر، أحسست بسعادة تفوق ما شعرت به على امتداد شهور فلقد تمّ تبسيط الأمور، والهبوط بها إلى وضوح المشكلة الواحدة، ولكن عندئذٍ، وفي اللحظة التي استوعبت فيها هذه الخاطرة، أدركت مدى سوء الموقف حقاً. لقد كنت بسبيلي إلى الوصول للنهية الآن، ومازلت بعيداً عن العثور عليه. ولم تطفُ على السطح قط الغلطة التي كنت أبحث عنها. لم تكن هناك بداية خيوط ولا مؤشرات ولا طرق للسّير فيها فلقد دُفن فانشو في مكانٍ ما، ودُفنت حياته معه، وما لم يكن راغباً في أن يتمّ العثور عليه فليست أمامي أدنى فرصة للقيام بذلك.

ورغم ذلك فقد مضيت قُدماً محاولاً الوصول إلى النهاية، إلى النهاية ذاتها، مضطرباً في عماء عبر اللقاءات الأخيرة، ومن غير رغبة في الاستسلام إلا بعد أن أقابل الجميع . وأردت الاتصال هاتفياً بصوفي، بل ومضيت في أحد الأيام إلى حدّ الذهاب إلى مكتب البريد والانتظار في الصّف أمام موظف الاتصالات بالخارج، ولكنني لم أنجز الأمر، فقد كانت الكلمات تعوزني باستمرار الآن، وأفزعني فكرة فقدان أعصابي خلال الاتصال الهاتفي . فما الذي يفترض أن أقوله في نهاية المطاف؟ وبدلاً من ذلك بعثت إليها ببطاقة بريد تحمل صورة لوريل وهاردي، وكتبت على ظهرها «الزّيجات الحقيقية لا معنى لها على الإطلاق، انظري إلى الثنائي على الجانب الآخر! إنه برهان على

أَنْ كُلَّ شَيْءٍ مُمْكِنٌ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ رُبَّمَا كَانَ عَلَيْنَا الْبَدْءُ بِاعْتِمَارِ قُبْعَاتِ الدَّرْبِيِّ . عَلَى الْأَقْلَى تَذَكُّرِي تَنْظِيفِ الْخِزَانَةِ قَبْلَ عَوْدَتِي . قَبْلَاتِي لِبِنٍّ .

قَابَلْتُ أَنْ مِيشُو فِي أَصِيلِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَقَدْ نَدْتُ عَنْهَا إِيمَاءَةً تَدَلُّ عَلَى الْفِرْعِ عِنْدَمَا وَجَلْتُ الْمَقْهَى الَّذِي اتَّفَقْنَا عَلَى الْإِلْقَاءِ فِيهِ (مَقْهَى لُورُوكِيهِ فِي بُولِيْفَارِ سَانَ جِرْمَانَ) وَمَا قَالَتْهُ لِي عَنْ فَانَشُو لَمْ يَكُنْ مَهْمًا: أَيُّهَا قَبْلَ الْآخَرِ، مَا الَّذِي حَدَثَ وَأَيْنَ كَانَ ذَلِكَ، مِنْ قَالِ مَاذَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ . وَخِلَاصَةَ الْأَمْرِ أَنَّهُ مَزِيدٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ عَيْنِهَا . وَلَكِنْ مَا سَأَذْكُرُهُ هُوَ أَنَّ شَعُورَهَا . الْأَوَّلِي الْمَزْدُوجِ بِالْمَفْاجِئَةِ كَانَ السَّبَبُ فِيهِ الْحَقِيقَةُ الْقَائِلَةُ إِنَّهَا حَسْبَتَنِي فَانَشُو . وَكَمَا عَبَّرَتْ عَنِ الْأَمْرِ فَقَدْ سَاوَرَهَا الشَّعُورُ بِذَلِكَ لِحِزِّهِ مِنَ الثَّانِيَةِ ثُمَّ انْحَسَرَ عَنْهَا . وَلَقَدْ لَوْحِظْتُ هَذَا التَّشَابُهَ مِنْ قَبْلِ ، بِالطَّبَعِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِمِثْلِ هَذَا الْعَمَقِ وَبِهَذَا التَّأثيرِ الْفُورِيِّ . وَلَا بَدَأْتُ أَنِّي قَدْ أَفْصَحْتُ عَنْ رَدِّ فَعْلِي ، إِنَّمَا سَارَعْتُ إِلَى الْإِعْتِذَارِ (كَأَنَّمَا أَخْطَأْتُ فِي شَيْءٍ) وَعَادْتُ إِلَى هَذِهِ النَّقْطَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ خِلَالَ السَّاعَتَيْنِ أَوْ السَّاعَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي أَمْضَيْتُهَا مَعًا ، بَلْ خَرَجْتُ ذَاتَ مَرَّةٍ عَنِ سِيَاقِ حَدِيثِهَا لِتَنَاقُضِ نَفْسِهَا : «لَمْ أُدْرِ فِيمَ كُنْتُ أَفْكَرُ . إِنَّكَ لَا تَبْدُو شَبِيهًا بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، لَا بَدَأْتُ أَنَّهُ الْجَانِبُ الْأَمْرِيكِيُّ فِيكُمَا مَعًا» .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَجَدْتُ الْأَمْرَ مِثْرًا لِلْقَلْبِ ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ الْحِيلُولَةَ دُونَ شَعُورِي بِالذَّهْوَلِ ، فَلَقَدْ كَانَ شَيْءٌ رَهيبٌ يَشُقُّ طَرِيقَهُ إِلَى الْحَدُوثِ ، وَلَمْ تَعُدْ لِي سَيْطَرَةٌ عَلَيْهِ . كَانَتْ السَّمَاءُ تَعْتَمُ فِي الْأَعْمَاقِ ، وَكَانَ هَذَا أَمْرًا مُؤَكَّدًا ، وَكَانَتْ الْأَرْضُ تَهْتَزُّ ، وَوَجَدْتُ مِنَ الْمُتَعَذِّرِ عَلَيَّ الْجُلُوسَ سَاكِنًا ، وَمِنَ الصُّعْبِ التَّحَرُّكَ ، وَبَدَأْتُ أَنِّي مِنْ لِحِظَةٍ إِلَى أُخْرَى فِي

مكان مختلف، وأني أنسى أين كنت. ورحت أحدث نفسي بأن الأفكار تتوقف حينها يبدأ العالم، ورددت على نفسي بأن النفس هي في العالم أيضاً، وبالمثل الأفكار التي تصدر عنها. وكانت المشكلة هي أنني لم أعد قادراً على القيام بضروب التمييز الصحيحة. فهذا لا يمكن قط أن يكون ذلك، والتفاحات ليست برتقالات والخوخات ليست برقوقات، وأنت تشعر بالفارق على لسانك، ثم تعلم بجلية الأمر وكأنه يجري في أعماقك. ولكن كل شيء كان قد بدأ باكتساب المذاق نفسه بالنسبة إليّ، ولم أعد أحسّ بالجوع، ولم يعد بمقدوري إجبار نفسي على الأكل.

وفيا يتعلق بآل ديدمون فربما كان هناك قدر أقل مما يمكن قوله، ولم يكن بمقدور فانشو أن يختار راعين أفضل مواءمة منها، ومن بين جميع من قابلتهم في باريس كانا الأكثر رقة والأشدّ تراحماً. لقد وجّهنا إلى الدعوة لزيارتها في شقتها، وتناول بعض الشراب، ومكثت لتناول العشاء، ثم عندما حلّ وقت تناولنا الطبق الثاني من قائمة الطعام كانا يجثاني على زيارة بيتها في «فار»، وهو البيت الذي سكنه فانشو، وقال إنه لا يتعين أن تكون زيارتي له زيارة قصيرة لأنها لا يعتزمان الذهاب إلى هناك إلا في آب (أغسطس). وقالت السيدة ديدمون إنه كان مكاناً مهماً بالنسبة إلى فانشو وأعماله، ولاشك أن آفاق كتابي ستسّع إذا ما رأيتَه بنفسي. ولم أستطع مخالفتها، وما إن ندت عني هذه الكلمات حتى نهضت السيدة ديدمون لإصدار تعليماتها بإجراء الترتيبات الضرورية لي بفرنسيتها الدقيقة والمتألّقة.

لم يعد هناك ما يبقيني في باريس، وهكذا استقلت القطار في

أصيل اليوم التالي . وكانت تلك هي نهاية المسار بالنسبة إليّ، مساري الجنوبي إلى النسيان . ولدى وصولي إلى البيت تبخّر الأمل الذي كنت أعلّقه (الاحتمال الواهن المتمثل في أن فانشو قد عاد إلى فرنسا والخاطرة المجافية للمنطق والقائلة بأنه قد لاذ بالمكان نفسه مرّتين). كان البيت خاوياً، ولا وجود لأثر أحد . وفي اليوم الثاني، ولدى فحصي الغرف الواقعة في الطابق العلويّ صادفت قصيدة قصيرة كان فانشو قد سطرها على الحائط، ولكنني كنت أعرف هذه القصيدة بالفعل، وتحتها كان هناك تاريخ هو: ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٧٢ م . إنّه لم يعدّ إلى هنا قطّ ولقد ساورني الآن شعور بالحماقة لتفكيري في ذلك .

ونظراً لعدم توافر ما هو أفضل فقد أمضيت أياماً كثيرة في الحديث مع الناس بالمنطقة، المزارعين القريين، القرويين، أناس من البلدات المجاورة، وقدمت نفسي بإطلاعهم على صورة لفانشو، متظاهراً بأنني أخوه، وإن كان قد ساورني شعور بأنني تحمّر سريّ بالمعنى الواضح والبسيط، مهرّج يتشبّث مستميتاً بقشّات . وقد تذكّره بعضهم ولم يتذكّره آخرون، بينما ذكر فريق ثالث أنّه ليس متأكّداً، ولم يكن لذلك من أثر، وقد وجدت لكنة الجنوب ممّا يستحيل اختراقه (براءاتها المتدحرجة ونهاياتها الأنفيّة) وبمشقة كنت أدرك ما يقال لي . ومن بين جميع من رأيتهم كان شخص واحد قد أتصل به منذ رحيله . كان هذا الشخص هو الجار الأدنى، وهو مزارع من مستأجري الأرض يقيم على بعد قرابة ميل على امتداد الطّريق، وكان رجلاً عجيباً، ضئيل الجرم، في نحو الأربعين من العمر، وأكثر قذارة من أيّ شخص قابلته في حياتي، وكان بيته بناءً رطباً متداعياً يعود إلى القرن

السَّابع عشر، وبدا أنه يقيم هناك بمفرده، بلا رفيق سوى كلب  
وبندقية صيد، وكان من الجليّ أنه فخور بأنه كان صديق فانشو،  
ولكي يبرهن لي على صداقتها الحميمة أطلعني على قُبعة رعاة بقر  
بيضاء أرسلها إليه فانشو بعد عودته إلى أمريكا. ولم يكن هناك مبرر  
يدعو إلى عدم تصديق هذه القصة التي رواها. وكانت القُبعة ماتزال  
في صندوقها الأصلي، ولم يعتمرها الرَّجل فيما يبدو قطّ، وأوضح لي  
أنه يذخرها للحظة المناسبة، ثم انطلق في فيض من حديث سياسي  
واجهت صعوبة في ملاحقته. قال إنّ الثَّورة آتية، وعندما تحلّ فإنه  
سيشتري جواداً أبيض وبندقية آليّة، ويعتمر قبّعة، وينطلق عدواً  
على الطّريق الرئيسي في البلدة، مطلقاً النّار على جميع أصحاب  
الحوانيت الذين تعاملوا مع الألمان خلال الحرب، وأضاف أنّ ذلك  
سيحدث تماماً كما في أمريكا. وعندما سألته عمّا يعنيه ألقى عليّ  
محاضرة مليئة بالدمدمة والهلوسة عن رعاة البقر والهنود. وقلت محاولاً  
مقاطعته: ولكنّ ذلك حدث منذ وقت بعيد. قال مصراً، لا، لا،  
إنه مايزال يحدث اليوم، ألم أسمع بحوادث إطلاق النّار في فيث  
أفنيو؟ ألم أسمع بالأباشي؟ كان الجدول أمراً لا طائل وراءه، ودفاعاً  
عن جهلي حدّثته بأنني أقيم في حيّ آخر.

ظللت في البيت بضعة أيّام أخرى. وكنت أعتزم عدم القيام بشيء  
أطول وقت ممكن، وأن أنال قسطاً من الرّاحة، فقد كنت مرهقاً،  
وكنت بحاجة إلى استجماع قواي قبل العودة إلى باريس. وانقضى  
يومان، ورحت أتريّض في الحقول، وأنجول في الغابات، وأجلس في  
الشّمس عاكفاً على قراءة ترجمات فرنسيّة لروايات تحريراً أمريكيّة. وكان

ينبغي أن يكون ذلك خير علاج، إذ مكثت في مكان ناءٍ، تاركاً نفسي أطفو حراً، ولكن ما من شيء من هذا قدّم يد المساعدة لي، فالبيت ما كان ليترك مجالاً لي، إذ بحلول اليوم الثالث شعرت بأنني لست وحدي، وأنه ليس بمقدوري أن أغدو بمفردتي في ذلك المكان. لقد كان فانشو هنالك، وأياً كان دأبي في محاولة عدم التفكير فيه فإنني لم أوفق في الهرب، وقد كان هذا شيئاً غير متوقع، ومثيراً للحنق. فالآن، وقد كفت عن البحث عنه غداً أكثر حضوراً بالنسبة إليّ عن ذي قبل، وانقلبت العملية كلها رأساً على عقب، فبعد كل هذه الشهور التي أمضيتها في محاولة العثور عليه، ساورني شعور بأنني الشخص الذي تمّ العثور عليه، وبدلاً من البحث عن فانشو كنت بالفعل ألوذ بالهرب منه، والعمل الذي حدّته لنفسي - الكتاب الزائف والجولات اللانهائية - لم يكن إلا محاولة لإبعاده، ذريعة لإبقائه بعيداً عني بقدر الإمكان، ذلك أنه إذا كان بمقدوري إقناع نفسي بأنني أبحث عنه فإنه ينبغي على ذلك أنه في موضع آخر، موضع آخر بعيد عني، بعيد عن الحدود القصوى لحياتي. ولكنني كنت على خطأ، فقد كان فانشو موجوداً على وجه الدقة في الموضع الذي أوجد فيه، وقد كان هنالك منذ البداية، ومنذ اللحظة التي وصلت فيها رسالته كنت أكافح لأتصوره، لأراه على نحو ما كان يمكن أن يكون، ولكن ذهني كان على الدوام يستحضر فراغاً خاوياً، وفي أفضل الأحوال كانت هناك الصورة المحسنة: باب غرفة مغلقة، ذلك كان مدى الأمر: فانشو وحده في تلك الغرفة، وقد حُكم عليه بالعزلة الصوفية - ربّما كان يحيا، ربّما كان يتنفس، يحلم، والله وحده يدري ماذا أيضاً. لقد اكتشفت الآن أن هذه الغرفة موقعها داخل جمجمتي.



حدثت لي أمور بعد ذلك، فقد عدت إلى باريس، ولكنني عندما وصلت إلى هناك لم أجد ما أقوم به، ولم أرغب في مقابلة الذين سبقت لي رؤيتهم، ولم تواتني الشجاعة للعودة إلى نيويورك، وأصابني الجمود، وهو شيء لا سبيل إلى التخلص منه. شيئاً فشيئاً لم أعد أدري أين أنا. وإذا كان بمقدوري قول أي شيء عن هذه الفترة على الإطلاق، فإن ذلك يرجع إلى أن لدي أدلة وثائقية تساعدني في ذلك، فهناك على سبيل المثال أختام سمة الدخول والخروج في جواز سفري وبطاقة الطائرة وفاتورة فندقية وما إلى ذلك، وهذه الأشياء تبرهن لي أنني مكثت في باريس ما يزيد على الشهر، ولكن ذلك أمر مختلف للغاية عن التذكر، وعلى الرغم مما أعرفه فإنني مازلت أجده مستحيلًا. إنني أرى الأمور التي حدثت، وتترأى لي صور لنفسي في أماكن شتى، ولكن من بعيد فحسب، وكأنما كنت أراقب شخصاً آخر. وما من شيء من ذلك يساورني الشعور بأنه من ذكرياتي، وهي شيء يغوص في الأعماق دائماً. وأما هذه الأشياء فهي هناك في البعيد، أبعد مما بمقدوري أن أشعر به أو ألمسه، أبعد من أي شيء له علاقة بي. لقد فقدت شهراً من عمري، وحتى الآن فإنه من المتعذر عليّ الاعتراف بذلك، وهو أمر يفعمني بالشعور بالخجل.

يُعدّ الشهر وقتاً طويلاً، وأكثر من الكفاية لكي يتداعى إنسان فيه. وتعاودني هاتيك الأيام نثراً إذا ما عادت إلى ذاكرتي على الإطلاق، نتفاً وأجزاء تأتي أن ينضمّ أحدها إلى الآخر. أرى نفسي متهاوياً وقد استبدّ بي السكر في الشارع ذات ليلة، ثم أنهض مترنحاً ماداً يدي إلى أحد أعمدة الإنارة، ثم أفرغ ما بجوفي على حداثي.

وأشاهد نفسي جالساً في دار سينما والأنوار مضاءة وقد التفّ حولي جمع من الناس، عاجزاً عن تذكُّر الفيلم الذي رأيته لتوّي، والملح نفسي ضارباً في شارع سان دنيس ملتقطاً عاهرات لمضاجعتهن، ورأسي يتقد بتذكُّر الأجسام، حشد لا نهاية له من النهود العارية والأفخاذ العارية والمؤخّرات العارية، أرى عضوي يُمَصّ، والملح نفسي في فراش مع فتاتين تقبل إحداهما الأخرى، أرى امرأة زنجية هائلة الجرم تباعد ما بين ساقها فوق مرحاض وتغسل فرجها. لن أحاول القول بأنّ هذه الأشياء ليست حقيقية، أو أنّها لم تحدث، وكلّ ما في الأمر أنّي لا أستطيع تبريرها، كنت أضاجع إلى حدّ تفجير نخي، وأغرق في الشراب إلى حدّ الرّحيل لعالم آخر. وإذا كان المقصود هو تشويه فانشوفانٍ مرحي الصّاحب قد تُوجّج بالنّجاح. فلقد مضى - ومعه مضيت.

غير أنّ النهاية واضحة بالنسبة إليّ، إذ لم يُقدَّر لي نسيانها، ويساورني الشعور بأنني محظوظ لتذكُّري هذا القدر، فالقصة بأسرها جوهرها هو ما حدث في النهاية، ولولا هذه النهاية القابعة في أعماقي الآن لما كان بمقدوري الشروع في تأليف هذا الكتاب، والأمر نفسه ينطبق على الكتابين اللذين سبقاه، «مدينة الزجاج» و«الأشباح». فهذه القصص الثلاث هي في نهاية المطاف القصة نفسها، ولكن كلّ قصة منها تمثّل مرحلة مختلفة في وعيي بما تدور حوله. ولست أزعّم أنّي قد حللت آية مشكلات، وكلّ ما أشير إليه هو أنّه قد حلّت لحظة لم يعد يخيفني فيها أن ألقى نظرة على ما حدث، وإذا كانت الكلمات قد جاءت في أعقاب ذلك فإنّ هذا لا يرجع إلي شيء إلاّ إلى أنّي لم يكن أمامي خيار إلاّ قبولها، وتحمّل مسؤوليتها والمضيّ إلى

حيث أرادت لي الذَّهاب . ولكنَّ ذلك لا يجعل الكلمات مهمّة بالضرورة، فقد كنت أبذل قصارى جهدي لوقت طويل لأقول وداعاً لشيء ما، وهذا الجهد هو كلّ ما يهمّ، فالقصة ليست في الكلمات وإنما في الجهد.

ذات ليلة ألفت نفسي في حانة قرب ميدان البيجال، و«ألفت» هو التعبير الذي أودّ استخدامه، ذلك أنني لست أدري كيف وصلت إلى هناك، ولست أذكر أنني دخلت هذا المكان على الإطلاق. كانت واحدة من تلك الحانات السيئة الصّيتة المألوفة في ذلك الحيّ: ست فتيات أو ثمانٍ عند البار، وفرصة للجلوس إلى إحدى الموائد مع إحداهن، وابتياح زجاجة شمبانيا بثمان باهظ، ثمّ إذا كان المرء يميل إلى ذلك فهناك إمكانية الوصول إلى اتفاق مالي معيّن والاختفاء في غرفة بالفندق المجاور مع الفتاة. ويبدأ المشهد بالنسبة إليّ وأنا جالس إلى إحدى الموائد مع فتاة، بعد أن تلقينا لتونا الدلو الذي يضمّ زجاجة الشمبانيا، وأذكر أنّ الفتاة كانت من بنات تاهيتي، وترتدي فستاناً من نسيج أبيض شبكيّ لا شيء تحته، أسلاك متقاطعة فوق بشرتها السّماء الناعمة، وكان التأثير الذي يتركه مثيراً على نحو رائع، وأذكر نهديها المستديرين وقد لاحا من الفتحات التي تشبه الماس، والنعومة الغلابة لجيدها عندما انحنيت فوقه وقبلته. وأبلغتني باسمها، ولكنني أصررت على مناداتها فايواي، وقلت لها إنّها منفيّة من تايبيه، وأنا هرمان مفليل، بحار أمريكي قطع الطريق الطويل الممتد من نيويورك لإنقاذها، ولم تكن لديها أدنى فكرة عمّا أتحدّث عنه، ولكنها واصلت الابتسام، ولاشكّ في أنّها كانت تحسبني مجنوناً

وأنا أوصل الثرثرة بفرنسيتي المختلطة، بينما لم تكثرث هي، وراحت تضحك عندما أضحك، وتسمح لي بتقبلها حينما أردت.

كنا نجلس في جزء غائر بزواية الحانة، وكان بمقدوري أن ألمح من مجلسي باقي القاعة. وأقبل الرجال وانصرفوا، أطل بعضهم برأسه عبر الباب ومضى لشأنه، وبقي بعضهم لتناول قدح من الشراب عند البار، ومضى واحد أو اثنان إلى مائدة على نحو ما فعلت. وبعد حوالي ربع الساعة أقبل شاب كان من الواضح أنه أمريكي، وبدا لي عصبياً، وكأنه لم يلج مثل هذا المكان من قبل قط. ولكن فرنسيته كان جيدة على نحو مدهش، وفيما هو يطلب بصورة بليغة قدحاً من الويسكي عند البار ويشرع في الحديث مع إحدى الفتيات، أدركت أنه يعتزم البقاء بعض الوقت. ورحت أرقبه من ركني المنعزل، مواصلاً تلمس ساق فاياواي بيدي، وإسناد وجهي في سكون ودعة عليها، ولكن كلما طال وقوفه هناك زاد تشتتي. كان طويل القامة، رياضي التركيب، له شعر بولن الرمال، وأسلوب صريح، وصبياني إلى حد ما، وخننت أنه في حوالي السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين، وأنه ربما كان خريج إحدى الجامعات، وإلا فإنه محام شاب يعمل لحساب إحدى الشركات الأمريكية في باريس. ولم أكن قد رأيت من قبل، ومع ذلك كان هناك أمر مألوف فيما يتعلق به، شيء حال بيني وبين صر في اهتمامي عنه: نفحة قصيرة، نقطة تشابك غريبة قوامها التعرف. وجربت مطابقة عدّة أسماء عليه، ومررت به في رحلة عبر الماضي، وفككت بكثرة المعارف، ولكن ما من شيء طفا على السطح، فقلت لنفسي مستسلماً في النهاية: إنه لا أحد. وعندئذٍ

ومن قلب المجهول، ومن خلال سلسلة متشابكة من التّدايعات  
أنهيت الخاطرة مضيّفاً: وإذا كان لا أحد، فلا بدّ أنه فانشو.  
وضحكت بصوت عالٍ إزاء نكتتي هذه فضحكت معي فايواوي  
المتيقظة دائماً. وكنت أعرف أنه ما من شيء يمكن أن يكون أكثر عبثاً،  
ولكنني قتلها مرّة أخرى: فانشو، ثمّ قتلها من جديد: فانشو. وكلّما  
قتلتها أسعدني قولها أكثر، وفي كلّ مرّة كانت تخرج فيها الكلمة من  
فمي تتبعها ضحكة من القلب. وأسكرني رنين الكلمة ودفعني إلى  
الضحك عالياً، وشيئاً فشيئاً بدا أنّ الحيرة تسيطر على فايواوي، وربما  
ظنّنت أنني أشير إلى ممارسة جنسيّة بعينها، طارحاً نكتة لم تستطع  
فهمها. ولكن تكراري الكلمة سلبها معناها، وبدأت تسمعها وكأنها  
تهديد. وتطلّعت إلى الرّجل عبر القاعة ونطقت الكلمة مجدّداً. كانت  
سعادتي ممّا لا يقاس، وانتشيت بزيف يقيني ذاته، محتفلاً بالقوّة  
الجديدة التي أضفيت على نفسي لتوي. كنت الكيمائي الرّبيع القدر  
الذي يمكنه تغيير العالم حسب رغبته. إنّ هذا الرّجل هو فانشو لأنني  
قلت إنّ ذلك، وذلك هو كلّ ما في الأمر. ولم يعد ثمة ما يوقفي.  
ومن غير أن أتوقّف لأفكر في الأمر همست في أذن فايواوي بأنني سأعود  
توأ، وانتزعت نفسي من ذراعَيْها الرائعتين وانطلقت إلى شبيه فانشو  
عند البار. وفي أفضل تقليد للهجة أكسفورد قلت:

- طيّب، أيها العجوز، تخيّل ذلك، ها نحن نلتقي من جديد!

التفت نحوي، ونظر إليّ مدقّقاً، وانحسرت الابتسامة التي كانت  
ترتسم على شفّتيه متحوّلة إلى تقطّية. وفي النهاية تساءل:

- هل لي بك معرفة؟

قلت، وكليّ مرح:

- طبعاً، تعرفني. اسمي ملقيل، هنري ملقيل، ربّما قرأت بعض كتيبي.

لم يدرِ هل يعاملني على أنني سكيرٍ تعتعه السكر. أم على أنني مجرمٍ خطر، وظهرت الحيرة على ملاحظه. وكانت حيرة رائعة، وقد استمتعت بها تماماً.

قال في نهاية الأمر مغتصباً ابتسامه واهنة:

- طيب، ربّما قرأت كتاباً أو كتابين.

- لاشكّ أنّه الكتاب الذي يدور حول الحوت.

- نعم، الكتاب الذي يدور حول الحوت.

قلت بإيماءة يداخلها السرور:

- يُسعدني سماع ذلك.

ثمّ وضعت ذراعي حول كتفه، وقلت:

- وهكذا، يا فانشو، ما الذي جاء بك إلى باريس في هذا الوقت

من العام؟

- عفواً، لم أسمع الاسم.

- فانشو.

- فانشو؟

- فانشو. ف-ا-ن-ش-و.

قال، مسترخياً، ومفترقاً عن ابتسامه عريضة، وقد عادت إليه ثقته بنفسه مجدداً:

- طيب، ذلك هو منبع المشكلة، لقد ظننتني شخصاً آخر. ليس

اسمي فانشو، وإنما ستلمان، بيتر ستلمان.

أجبت ضاغطاً عليه قليلاً:

- لا مشكلة هنالك، إذا أردت أن تسمي نفسك ستلمان فلا مانع عندي، فالأسماء ليست مهمة في نهاية المطاف، وإنما المهم هو أنني أعرف من أنت حقاً. أنت فانشو، وقد عرفت ذلك في اللحظة التي دخلت فيها هذا المكان، وقلت لنفسني: «هوذا الشيطان العجوز نفسه، ترى ما الذي يفعله في مكان من هذا القبيل؟»  
كان الآن قد بدأ يضيق ذرعاً بي فنحى ذراعي عن كتفه وتراجع إلى الوارء، وقال:

- يكفي هذا، لقد أخطأت، فدع الأمر يقف عند هذا الحد، فلم أعد أرغب في المزيد من الحديث معك.  
قلت:

- فات الأوان، وذاع سرك، أيها الصديق، وما من سبيل أمامك للاختباء مني الآن.  
قال مبدياً الغضب للمرة الأولى:  
- دعني وشأني. إنني لا أحادث المجانين، دعني وشأني وإلا فلن تسلم العاقبة!

لم يستطع الآخرون في الحانة فهم ما كنا نقوله، ولكن التوتّر غداً جلياً، وكان بمقدوري الشعور بالعيون وهي ترقبني، وباستطاعتي الإحساس بالحالة المزاجية وهي تتبدل من حولي. وبدا ستلمان وقد أصيب بالذعر فجأة، فألقى نظرة عجلى على المرأة وراء البار، وتطلع في خشية إلى المرأة الجالسة بجواره، ثم اتخذ قراراً عاجلاً بمغادرة المكان، ونحاني عن طريقه وشرع في السير نحو الباب. وكان

بمقدوري ترك الأمر ينتهي عند هذا الحد، ولكنني لم أفعل، فقد بدأ الدفء يدبُّ في عروقي ولم أرغب في أن يذهب إلهامي هدرًا. وعدت إلى حيث كانت فاياواي جالسة، ووضعت عدّة مئآت من الفرنكات على المائدة. وقد أدعت الاستياء في معرض الردّ على هذا، فقلت: «هذا أخي، إنه أحق، سألحق به»، وفيما هي تمدّ يدها إلى النقود أرسلت إليها قبلة عبر الهواء، واستدرت، وغادرت المكان.

كان ستلمان يتقدمني بعشرين متراً أو ثلاثين، وهو يغذّ السير موعلاً في الشّارع، فمضيت بالسرّعة نفسها، متمهلاً لأتجنّب رسدي، ولكن من غير أن أدعه يغيب عن ناظري، وبين الحين والآخر كان يلتفت إلى الوراء وكأنه يتوقّع أن أكون هناك، ولكنني لا أعتقد أنه رأني إلاّ بعد خروجنا من الحيّ بمسافة، وقد غدونا بعيدين عن الزحام والضجيج، وانطلقنا عبر قلب الضّفة اليمنى الهادئ والمعتم. وكانت المواجهة قد جعلته يجفل، وراح يتصرّف شأن رجل يعدو إنفاذاً لحياته، ولكن ذلك لم يكن بالأمر المتعذّر الفهم؛ فقد كنت الشيء الذي نرهبه جميعاً: الغريب العدواني الذي تلفظه الظلال، الخنجر الذي يصيبنا في الظهر، السيّارة المسرعة التي تصدمنا حتّى الموت. وقد كان محقّقاً في الهرب، ولكن خوفه لم يُسفر إلاّ عن جعلني أتمسك بما اعتزمته، وأغراني بمطاردته، وجعلني أصمّم على ذلك إلى حدّ السعار. ولم تكن لديّ خطّة ولا فكرة واضحة عمّا سأقوم به، ولكنني تعقّبتة دونما أدنى شكّ، مدركاً أنّ حياتي بأسرها متوقّفة على ذلك. ومن المهمّ التأكيد على أنّه بحلول ذلك الوقت كنت قد غدوت صافي الذهن، لا تذبذب، ولا حُمار، وإنّما وضوح الذهن كلّه.



وأدركت أنني أتصرف على نحو مذهل في ضراوته. وكنت أعرف أن ستلمان ليس فانشو. وكان بمثابة اختيار تعسفي، وكان بريئاً تماماً ولا دراية له بشيء. ولكن ذلك كان هو الذي أفعمني بهجة، عشوائيته وطابعه الذي تدور له الرؤوس وهو نابع من الصدفة المحض. ولم يكن له معنى، وبسبب هذا كان حافلاً بكل معاني الدنيا.

حلت لحظة كانت الأصوات الوحيدة التي تتردد فيها هي وقع أقدامنا. ونظر ستلمان إلى الوراء من جديد، ورآني آخر الأمر، وشرع في التحرك بمزيد من السرعة مندفعاً في صورة هرولة وناديته: «فانشو!» وناديته ثانية: «فات الأوان، إنني أعرفك يا فانشو!» ثم في الشارع التالي: «انتهى كل شيء، يافانشو! لن تبتعد أبداً». لم يقل ستلمان شيئاً في معرض الرد، بل لم يكثر بالالتفات. وأردت مواصلة محادثته، ولكنه الآن كان يعدو، ولو أنني حاولت الحديث فلن يؤدي ذلك إلا إلى التقليل من سرعتي، فتخلّيت عن توبيخاتي السّاخرة، وانطلقت في إثره. ولست أدري أيّ مسافة قطعناها في غمار العدو، ولكن بدا أنها استمرت طوال ساعات، وقد كان أصغر مني سنّاً، أصغر مني سنّاً وأكثر قوّة، وأوشك على الإفلات مني، وأوشكت أن أكلل بالإخفاق، فدفعت نفسي منطلقاً في شارع مظلم، متجاوزاً مرحلة التّداعي والغثيان ملقياً نفسي عليه في توتر محتدم من غير أن أسمح لنفسي بالتوقف. وقبل أن أصل إليه بوقت طويل، بل قبل أن أعرف أنني بسبيلي إليه بوقت طويل، شعرت بأنني لم أعد بداخل نفسي، وأنه ليس بمقدوري التّفكير في طريقة أخرى للتعبير عن الأمر. فلم أعد أستطيع الشعور بنفسي على الإطلاق. وانحسر عني

الشعور بالحياة، وحلّ مكانه إحساس عجائبي بالنشاط والخفة، سمّ عذب ينداح في دمي، رائحة العدم التي لا سبيل إلى إنكارها. وقلت محدثاً نفسي إنّ هذه هي لحظة الموت، وهذا هو الوقت الذي سألقى فيه حتفي. وبعد ثانية واحدة لحقت بستلمان، وأمسكت به من ظهره، وارتطمنا بالرّصيف وكلانا ينخر كالخنزير لدى السقوط. وكنت قد استنفدت كلّ قواي، والآن غدت أنفاسي أكثر تقطعاً من أن أدافع عن نفسي، وأكثر استنزافاً من أن أقتحم غمار الصّراع. ولم يتفوّه أحدنا بكلمة واحدة، ولعده ثوانٍ اشتبكنا في الممشى الجانبي، ولكنّه أفلح عندئذٍ في التملّص من قبضتي، وبعد ذلك لم يكن بمقدوري القيام بشيء. وبدأ بلکمي بقبضيته وركلي بمقدّمَيّ حذائه وضربي في كلّ أنحاء جسمي، وأذكر أنّي حاولت حماية وجهي بكفّي، وأذكر الألم وكيف أذهلني، وإلى أيّ حدّ شعرت بهذا الألم، وكيف أنّي أردت يائساً ألاّ أحسّ به. ولكن لا يمكن أن يكون الأمر قد دام طويلاً، ذلك أنّه ما من شيء آخر تعود إليّ ذكراه. فلقد مرّقتني ستلمان إرباً، وعندما فرغ مني كانت البرودة قد دبّت إليّ. وفي وسعي تذكّر الاستيقاظ في الممشى الجانبي، وشعوري بالدهشة لأنّ الوقت ما يزال ليلاً، ولكنّ ذلك هو كلّ ما هنالك، وقد تبدّد كلّ ما عداه.

لم أتحرك من غرفتي بالفندق طوال الأيام الثلاثة التي أعقبت ذلك. ولم تكن صدمتي راجعة لشعوري بالألم، وإنّما لأنّ الألم لم يكن بالغاً بحيث يُفضي بي إلى الموت. وقد أدركت هذا في اليوم الثاني أو الثالث. وفي لحظة معيّنة أدركت، فيما كنت راقداً في الفراش أحدّق في خشب مصاريع النافذة الموصدة، أنّي قد اجتزت الأمر حياً. وبدا

الشُّعور بالبقاء على قيد الحياة غريباً، وغير مفهوم تقريباً. وكان أحد أصابعي قد كسر، وجرح جانبا رأسي كلاهما جراحاً بليغة، وحتى التنفّس كان يثير الشُّعور بالألم. ولكنّ ذلك لم يكن جوهر الأمر، فقد كنت على قيد الحياة، وكلّما أمعنت التّفكير في الأمر قلّ فهمي له، ولم يَبْدُ ممكناً أنّي قد نجوت بحياتي.

في وقت لاحق من تلك اللّيلة عينا أبرقت لصوفي بأنني في طريق العودة.

أوشك على الوصول إلى النهاية، وهناك شيء واحد لم أذكره، ولكنه لم يقع إلا في وقت لاحق، بعد أن انقضت ثلاث سنوات. وفي غضون ذلك تعددت الصعوبات والمآسي، ولكنني لا أعتقد أنها تنتمي إلى القصة التي أحاول أن أرويها. فبعد عودتي إلى نيويورك افترقت عن صوفي حوالي العام، وأقام كل منا بمفرده، وكانت قد يشئت مني، وامتدت شهور من الحيرة والاضطراب قبل أن أستعيدها في نهاية المطاف. ومن المنظور المتقدم لتلك اللحظة (أيار (مايو) ١٩٨٤ م) فإن ذلك كان الشيء الوحيد المهم. وفيما عداه فإن حقائق حياتي كانت أموراً عرضية بصورة خالصة.

في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٨١ م ولد أخ لبين أسميناه بول إحياء لذكرى جد صوفي، وبعد عدة أشهر (في تموز (يوليو)) انتقلنا إلى موضع آخر عبر النهر حيث استأجرنا الطابقين العلويين من مبنى حجري في بروكلين. وفي أيلول (سبتمبر) بدأ بن بالذهاب إلى الحضانة، وذهبنا جميعاً إلى مينسوتا لقضاء عيد الميلاد هناك. ولدى عودتنا كان بول يسير على قدميه بمفرده، وزعم بن الذي كان يطويه تحت جناحيه تدريجياً أنه المسؤول كلية عن هذا التطور.

أما فيما يتعلق بفانشو فلم أت وصوفي على ذكره قط، وكان هذا اتفاقاً صامتاً أبرمناه معاً، وكلما طال امتناعنا عن الحديث عنه زادت قوة برهنة أحدهما على ولائه للآخر. وبعد إعادتي المبلغ الذي كان قد دفع تحت الحساب، إلى ستيوارت جرين وتوقفي رسمياً عن كتابة سيرة حياة فانشو، لم نأت على ذكره إلا مرة. وقد حدث ذلك يوم

عقدنا العزم على أن نقطن معاً من جديد، وكان ذلك على أسس عملية بصورة صارمة. وقد واصلت كتب فانشو ومسرحياته جلب دخل جيد. وقالت صوفي إننا إذا أردنا أن نظلّ متزوّجين فإنّ استخدام هذا المال لأنفسنا ينبغي أن يكون أمراً مستبعداً. وقد وافقتها على ذلك، ووجدنا سبلاً أخرى لكسب ما نحتاج إليه، ووضعنا عوائد حقوق النّشر في وديعة لحساب بن، ثمّ في وقت لاحق لحساب بول كذلك، وكخطوة أخيرة في هذا الاتجاه استعنا بوكيل أدبي لإدارة شؤون أعمال فانشو، مثل طلبات عرض المسرحيات ومفاوضات إعادة الإصدار والعقود وكأفة ما ينبغي عمله في هذا الشأن. وقد تصرّفنا بقدر استطاعتنا، ولئن كان بمقدور فانشو أن يقضي علينا فإنّ ذلك لن يكون لأننا أردناه أن يفعل ذلك، بل لأننا أردنا نحن أن نقضي على أنفسنا. وقد كان ذلك هو السّرّ في أنني لم أكثرث قطّ بإطلاع صوفي على الحقيقة، لا لأنّ الحقيقة تخيفني وإنّما لأنه لم تعدّ لها أهميّة. وكانت قوتنا تكمن في صمتنا، ولم تكن لديّ نيّة القضاء على هذه القوّة.

ورغم ذلك فقد كنت أعرف أنّ القصّة لم تنته، إذ تعلّمت ذلك من الشهر الأخير الذي أمضيته في باريس، وتعلّمت شيئاً فشيئاً القبول به. ولم تكن المسألة إلّا مسألة وقت ينقضي قبل أن يقع الشيء الذي سيعقب ذلك. وبدا لي هذا حتمياً، وبدلاً من محاولة الاستمرار في إنكاره، وبدلاً من تضليل نفسي بالفكرة القائلة بأنّ في وسعي التخلّص من فانشو، فقد حاولت أن أعيد نفسي للأمر، حاولت أن أجعل نفسي متأهباً لأيّ شيء، وأعتقد أنّ قوّة هذا «الأيّ شيء» هي

التي جعلت من الصُّعب سرد القِصَّة، ذلك أنه عندما يمكن لأيِّ شيء أن يحدث فإنَّ تلك هي على وجه الدِّقَّة اللَّحظة التي تبدأ الكلمات خلالها بالتعزُّر، وبقدر ما غدا فانشو حتمياً فإنه لم يعد موجوداً. وقد تعلَّمت تقبُّل هذا، تعلَّمت معاشته على النحو الَّذي أتعايش به مع فكرة موتِي. ولم يكن فانشو نفسه موتِي، ولكنَّه كان كالموت، وقد أدَّى وظيفة الكلمة المجازيَّة التي ترمز للموت في أعماقي، ولولا انهياري في باريس لما فهمت هذا، فأنا لم أمت هناك، ولكنني دنوت من الموت، وحانت لحظة، وربما لحظات، ذقت فيها الموت، ورأيت نفسي ميتاً. وليس هناك علاج لمثل هذا الصدم، ذلك أنه ما إن يحدث حتَّى يواصل الحدوث، وتظَلَّ تحيا معه طوال عمرك.

وصلت الرُّسالة في أوائل ربيع ١٩٨٢ م. وفي هذه المرَّة كانت تحمل خاتم بريد بوسطن، وكان مضمونها موجزاً وحاداً وأكثر تعجُّلاً من ذي قبل، فقد جاء فيها: «مستحيل أن أواصل الصَّمود أكثر من هذا، لا بدَّ من محادثتك. ٩ ميدان كولومبوس، بوسطن؛ أول نيسان (أبريل). هذه هي النِّهاية، أعدك بذلك».

كان أمامي أقلُّ من أسبوع لألتمس عذراً للذهاب إلى بوسطن، وقد تبينَ أن ذلك أكثر صعوبة ممَّا ينبغي أن يكون عليه، وعلى الرَّغم من أنني أصررت على الرغبة في ألا تعرف صوفي أيَّ شيء (إذ شعرت بأنَّ ذلك هو أقلُّ ما يمكنني القيام به من أجلها) إلاَّ أنني أحجمت فجأة، وعلى نحوٍ ما، عن الإدلاء بكذبة أخرى، على الرَّغم من أنه كان من المتعيَّن القيام بذلك. انقضى يومان أو ثلاثة دون تحقيق أيِّ تقدِّم، وفي النِّهاية ابتكرت قصَّة تعوزها البراعة عن اضطراري إلى

مراجعة بعض الأوراق في مكتبة جامعة هارفارد، وليس بمقدوري أن أتذكر أيّ أوراق كان يُفترض أن عليّ مراجعتها، وأحسب أنني قلت إنها تتعلّق بمقال كنت بسبيلي إلى كتابته، ولكنّ ذلك يمكن ألا يكون ما قلته، والأمر المهمّ هو أن صوفي لم تُثرِ أية اعتراضات. قالت: جميل، امضِ قدماً! وما إلى ذلك. وأوحى لي شعور غريزي بأنها تشكّ في أن شيئاً بسبيله إلى الحدوث، ولكنّ ذلك ليس إلا مجرد شعور، وسيكون ممّا لا طائل وراءه أن تتكهّن بصدده هنا. وفيما يتعلّق بصوفي فإنني أميل إلى الاعتقاد بأنه ما من شيء جرى إخفاؤه.

حجزت مقعداً على القطار المتّجه إلى بوسطن في وقت مبكر من أوّل نيسان (أبريل). وصبيحة رحيلي نهض بول من فراشه قبل الخامسة بقليل ودلف إلى فراشنا. وانتشلت نفسي بعد ساعة، وخرجت دوغماً صوت من الغرفة، وتوقّفت لدى الباب قليلاً لألقي نظرة على صوفي والصّغير في الضّوء الرّمادي الكابي. إنهما الجسمان الذي أنتمي إليهما وقد تمّدا وغفلا عن كلّ شيء. وكان بن في مطبخ الطّابق العلوي، وقد ارتدى ملابسه، يتناول موزة ويرسم صوراً. وقمت بقلي البيض لنا معاً، وأبلغته بأنني أوشك على ركوب القطار المنطلق إلى بوسطن، وأراد أن يعرف أين تقع هذه المدينة.

قلت:

- إنها على بعد حوالي مائتي ميل من هنا.
- هل هذه مسافة بعيدة كالفضاء؟
- إذا مضيت صُعداً في خط مستقيم فإنك ستكون قريباً من الفضاء.

- أعتقد أنك يجب أن تذهب إلى القمر، فالمرحلة الفضائية أفضل من القطار.

- سأقوم بهذا في طريق العودة، فلديهم رحلات منتظمة من بوسطن إلى القمر في أيام الجمعة، وسأحجز مقعداً لحظة وصولي إلى هناك.

- طيب، ويمكنك عندئذٍ أن تحكي لي عن الرحلة.

- إذا عثرت على حجر قمرى فسوف أحضره لك.

- وماذا عن بول؟

- سأحضر له حجراً قمرياً كذلك.

- كلا، شكراً لك.

- ما معنى ذلك؟

- لست أريد حجراً قمرياً، فبول يمكن أن يضعه في فمه، ويختنق.

- ماذا تريد بدلاً منه؟

- أريد فيلاً.

- ليست هناك أية فيلة في الفضاء.

- أعرف ذلك. ولكنك لن تذهب إلى الفضاء.

- صحيح.

- وأراهن أن هناك فيلة في بوسطن.

- ربما كنت على حق. هل تريد فيلاً وردياً أم فيلاً أبيض؟

- أريد فيلاً رمادياً، فيلاً مكتنزاً به كثير من التجاعيد.

- لا بأس، ذلك هو أيسر ما يُعثَر عليه من الفيلة. هل تريده

ملفوفاً في علبة أم ينبغي أن أحضره إلى الدار مشدوداً بمَقود؟



- أحسب أن عليك أن تعود راكباً على ظهره إلى الدار، جالساً على قمته، وقد وضعت تاجاً على رأسك، مثل الإمبراطور تماماً.

- إمبراطور ماذا؟

- إمبراطور الأطفال الصغار.

- هل ينبغي أن تكون لديّ إمبراطورة؟

- بالطبع. أمي هي الإمبراطورة، لسوف تحب الأمر وقد ينبغي أن نوقظها ونبلغها بذلك.

- دعنا لا نوقظها، فانا أفضل أن يكون الأمر مفاجأة لها عند عودتي إلى الدار.

- فكرة جيدة، وعلى أية حال فهي لن تصدقها إلا عندما تراها.

- بالضبط. ولسنا نرغب في أن تحسّ بخيبة الأمل في حالة عدم عثوري على الفيل.

- آه، لسوف تعثر عليه، يا أبي، لا تقلق في هذا الشأن.

- كيف يمكنك أن تكون واثقاً للغاية على هذا النحو؟

- لأنك الإمبراطور، والإمبراطور يحصل على أي شيء يريد.

ظلّ المطر يهيم طوال اليوم، بل لقد أذرت السماء بتساقط الثلج لدى بلوغنا بروفيدانس. وفي بوسطن ابتعت لنفسي مظلة، وقطعت الميلىن أو الأميال الثلاثة الأخيرة سيراً على الأقدام. ولاحت الشوارع كثيفة في الهواء الرمادي الضارب إلى الصفرة، وفيما انطلقت إلى ساوث إند لم أكد أقابل أحداً، إلا أحد السكارى ومجموعة من المراهقين وعامل إصلاح الهواتف وكلبين أو ثلاثة من الكلاب الضالة. وكان ميدان كولومبوس يتألف من عشر دور أو اثني عشرة

داراً في صفّ واحد تطلّ على جزيرة مكسوّة بالحصى تعزلها عن الشّارع العام . وكان المنزل رقم تسعة هو أكثرها تداعياً، وكان يتألّف من أربعة طوابق، شأن المنازل الأخرى، ولكنّه متهاكك تبرز ألواح الخشبيّة من الرواق، وتمسّ حاجة واجهته الحجرية إلى الترميم . ورغم ذلك فقد كانت فيه متانة مؤثّرة في النفس وروعة تعود إلى القرن التّاسع عشر وقد واصلت الإطلال من صدوعه . وقد تصوّرت بداخله حجرات رحبة ذات سقوف عالية وأفاريز مريجة المنظر بجوار النوافذ المطلّة على الخليج، وزخارف صيغت من الجصّ، ولكنني لم يقدر لي أن أرى أيّاً من هذه الأشياء، ذلك أنّي لم أتجاوز قطّ القاعة الأماميّة .

كان هناك مصفق معدنيّ صديّ في الباب، عبارة عن نصف كرة في محورها مقبض، وعندما رفعت المقبض أحدث صوتاً يحاكي صوت شخص يحاول التقيؤ، صوتاً مكتوماً، محتقناً، لم يمضِ إلى بعيد . وانتظرت، ولكنّ شيئاً لم يحدث . واستخدمت المصفق مرّة أخرى، ولكنّ أحداً لم يجيئ، ثمّ اخترت الباب بيدي فأدركت أنّه ليس موصداً، ودفعته فانفتح، وتوقّفت، ثمّ دلفت إلى الدّاخل . كانت القاعة الأماميّة خاوية، وإلى اليمين كان هناك درج بدرابزينه المصنوع من خشب الماهوجني وبدرجاته الخشبيّة العاديّة، وإلى يساري كانت غرفتان مزدوجتان موصدتان تضمّان ما لا أشكّ في أنّه قاعة استقبال، وإلى الأمام مباشرة كان باب آخر، موصد بدوره، وربّما كان يفضي إلى المطبخ . وتردّدت لحظة ثمّ قرّرت صعود الدّرج، وكنت على وشك الصّعود عندما سمعت شيئاً من وراء الغرفتين، طرّقاً واهناً تبعه

صوت لم أستطع تبيّنه . والتفت مبتعداً عن الدُرج وتطلّعت إلى الباب، وأصخت السّمع للصّوت من جديد، فلم يحدث شيء .  
ساد صمت طويل، ثمّ تناهى الصّوت من جديد، في همس تقريباً:

- ها هنا!

مضيت إلى البابين وألصقت أذني بالشقّ الممتدّ بينهما، وقلت:  
- هل هذا فانشو؟

تردّد الصّوت أكثر وضوحاً هذه المرّة:

- لا تستخدم ذلك الاسم! لن أسمح لك باستخدامه .

كان فم الشّخص الموجود بالدّاخل قريباً على نحو مباشر من أذني، ولم يفصل بيننا إلاّ الباب وحده، وكنا قريبين للغاية، إلى حدّ أنّه ساورني شعور بأنّ الكلمات كانت تنصبّ في رأسي صبّاً . لقد كان الأمر شبيهاً بالإصغاء إلى وجيب قلب رجل وهو يتردّد في صدره، كالبحث في جسم عن نبض . وتوقّف عن الحديث، وكان بمقدوري الشّعور بنفّسه وهو ينفذ عبر الشقّ .

قلت:

- دعني أدخل، افتح الباب ودعني أدخل!

تناهى الصّوت مجيئاً:

- ليس ذلك بمقدوري، علينا أن نتحدّث على هذه الشاكلة .

أحكمت قبضتي على مقبض الباب وهزرت البابين في إحباط

وقلت:

- افتح الباب وإلاّ حطّمته!

تناهى الصّوت :

- لا، سيظلّ الباب موصداً.

كنت قد اقتنعت بأنّ فانشو هو القابع في الدّاخل، وقد تمنّيت لو أنّه كان شخصاً ينتحل شخصيّة فانشو، ولكنّي تعرّفت في الصّوت ما يجعل الادّعاء بأنّه لأيّ شخص آخر أمراً غير وارد. قال :

- إنّي أقف هنا ومعني مسدّس؛ وهو موجّه إليك مباشرة، وإذا اقتحمت الباب عنوة فإنّي سأطلق النّار عليك.  
- لست أصدّقك.

- استمع إلى هذا!

قالها، ثمّ سمعته يبتعد عن الباب، وبعد ثانية انطلقت رصاصة من مسدّس، وتبع ذلك صوت تهاوي الجصّ على الأرض. وحاولت التّحديق عبر الشقّ الموجود بالباب، في غضون ذلك، على أمل اختلاس نظرة إلى الغرفة، ولكنّ الفراغ كان أضيق من أن يسمح بهذا، ولم أتمكّن إلّا من رؤية خيط من الضوء، شعاع رمادي واحد، ثمّ عاد الفم إلى موضعه ولم يعد بإمكانني حتّى رؤية خيط الضوء ذاك.  
قلت :

- ليكن! لديك مسدّس، ولكن إذا لم تدعني أشاهدك فمن أين لي أن أعرف أنّك من تزعم؟  
- لم أقل من أنا.

- دعني أعبر عن الأمر بطريقة أخرى. كيف أعرف أنّي أحادث الشّخص المقصود؟  
- يتعيّن عليك الوثوق بي.

- الثقة، في هذا الوقت المتأخر، هي آخر ما يمكنك توقعه مني.
- أقول لك إنني الشخص المقصود، وينبغي أن يكون ذلك كافياً، لقد جئت إلى المكان المضبوط، وأنا الشخص المقصود.
- حسبت أنك تريد رؤيتي، ذلك هو ما قلته في رسالتك.
- قلت إنني أريد الحديث معك، وهناك فرق بين الأمرين.
- دعنا نبتعد عن مناقشة التفاصيل الصغيرة.
- إنني أذكرك بما كتبه فحسب.
- لا تدفعني إلى أبعد مما يجب، يا فانشو، فليس هناك ما يحول بيني وبين الانصراف.

سمعت التقاط نفس مفاجئ، ثم لطمت يد الباب في عنف:  
 - لا تقل فانشو، لا تقل فانشو مرة أخرى أبداً!  
 تركت بضع لحظات تمضي، إذ لم أرغب في تفجير اندفاع آخر للمشاعر. وانسحب الفم مبتعداً عن الشق، وخيل إلي أنني أسمع تأوهات ألم من موضع في منتصف الغرفة. تأوهات أو نشيج، لم أستطع أن أحدد أيهما كان ما سمعته. ووقفت هنالك منتظراً من غير أن أدري ما عساي أقول عقب ذلك. وعاد الفم بالفعل إلى موضعه، وبعد صمت طويل قال فانشو:

- أمازلت هناك؟

- أجل.

- عفواً، لم أرد البدء على هذا النحو.

قلت:

- ما عليك إلا أن تتذكر أنني جئت إلى هنا لا لشيء إلا لأنك طلبت مني الحضور.

- أعرف ذلك، وأنا ممتنّ لك عليه .
- قد يكون عوناً أن توضح السبب في دعوتك لي إلى الحضور .
- فيما بعد، فلست راغباً بعدُ في الحديث عن ذلك .
- ماذا إذن؟
- أمور أخرى، الأمور التي حدثت .
- إنني مُصغٍ .
- لأنني لا أريدك أن تكرهني . هل بمقدورك فهم ذلك؟
- لست أكرهك . كان هناك وقت كرهتك فيه، ولكنّ ذلك انتهى الآن .

- غداً هو آخر أيامي . وكان عليّ التأكّد .
- هل كنت هنا طوال الوقت؟
- أعتقد أنني جئت إلى هنا منذ عامين .
- وقبل ذلك؟

- هنا وهناك، فقد كان ذلك الرجل يطاردني، وكان عليّ الاستمرار في التنقل، ومنحني ذلك ميلاً إلى السفر، ميلاً حقيقياً إليه، وكان ذلك بعيداً تماماً عما توقّعت، فقد كانت خطّتي هي أن أقبع ساكناً وأدع الوقت يمضي .

- إنك تتحدّث عن كوين؟
- نعم، التحرّي الخاصّ .
- هل عثر عليك؟
- مرّتين، إحداهما في نيويورك، والأخرى في الجنوب .
- ولماذا كذب في هذا الشأن؟

- لأنني أخفته حتى الموت، وكان يعرف ما سيحدث له إذا اكتشف أحد جليّة الأمر.

- لقد اختفى، ولم أستطع العثور له على أثر.

- إنه في مكان ما، ليس ذلك بالأمر المهم.

- كيف أفلحت في التخلص منه؟

- قلبت كل شيء رأساً على عقب. كان يحسب أنه يتعقبني، ولكنني في الحقيقة كنت أنا أتعقبه. وقد عثر عليّ في نيويورك، بالطبع، ولكنني أفلت منه، هارباً من بين ذراعيه. وبعد ذلك غدا الأمر كالقيام بلعبة، فقد انطلقت أمامه تاركاً أطراف خيوط له في كل مكان، وجعلت من المستحيل عليه أن يجديني، ولكنني كنت أراقبه طوال الوقت، وعندما حان الوقت أوقعته في الشرك، وقد مضى إليه قُدماً.

- يا للبراعة!

لا، كان ذلك غباء. ولكن لم يكن إمامي أيّ خيار آخر، فإمّا أن أقوم بذلك وإمّا أن تتمّ إعادتي رغماً عني، الأمر الذي كان يعني أن أعامل على أنني مجنون. وقد كرهت نفسي لقيامي بذلك، فقد كان يقوم بواجبه فحسب، في نهاية المطاف، وقد جعلني ذلك أشعر بالأسف عليه. والشفقة تثير اشمزازي ولاسيّما عندما أجدها في أعماق نفسي.

- ثمّ؟

- لم أستطع التيقن ممّا إذا كانت حيلتي قد آتت أكلها أو لا، وحسبت أنّ كوين قد يطاردني من جديد، وهكذا واصلت الانتقال،

حتى عندما لم أكن مضطراً لذلك . وقد فقدت عاماً من عمري على هذا النحو .

- إلى أين مضيت؟

- إلى الجنوب، الجنوب الغربي، أردت البقاء حيث الدفء، ورحلت سيراً على الأقدام، ووقدت في العراء، وحاولت الذهاب إلى حيث لا يوجد الكثيرون . إنَّها بلاد هائلة، مثيرة للذهول على نحو مطلق . وفي وقت من الأوقات أقمت في الصَّحراء حوالي شهرين، وفي وقت لاحق سكنت في كوخ عند أطراف محمّية هوبي في أريزونا . وقد عقد الهنود مجلس القبائل قبل السَّماح لي بالسَّكن هناك .  
- إنَّك تُلقِّق ما تقول .

- لست أطلب منك تصديقي، وإنَّما أحدثك بجليّة الأمر، ذلك كلّ ما هنالك . وبوسعك أن تعتقد ما تشاء .  
- وبعد ذلك؟

- كنت في موضع ما من نيومكسيكو . وتوجَّهت ذات يوم إلى مطعم على طريق للحصول على ما أتبلِّغ به . وكان أحدهم قد ترك صحيفة على النضد، فالتقطتها وقرأتها، وعند ذلك اكتشفت صدور أحد كتبي .

- هل دهشت لذلك؟

- ليس هذا هو التَّعبير الذي أوثر استخدامه .

- ماذا إذن؟

- لست أدري . أحسب أنَّني غضبت، وأصابني الضيق .

- لست أفهم ما تقصد .



- غضبت لأنّ الكتاب كان نفاية .

- الكتاب لا يعرفون كيف يقيمون أعمالهم .

- لا ، كان الكتاب نفاية ، صدّقي ، كلّ ما أنجزته كان نفاية .

- إذن ، لماذا لم تتخلّص منه بإتلافه؟

- كنت أكثر ارتباطاً به من أن أفعل ، ولكنّ ذلك لا يجعله جيّداً ،

فالصّغير يرتبط بفضلاته ، ولكنّ أحداً لا يشير ضجّة حول الأمر ،

فذلك شأنه هو وحده .

- إذن ، لماذا جعلت صوفي تعذّبك بأن تطلعي على عمالي؟

- لتهدئتها ، ولكنك تعلم ذلك بالفعل ، ولا بدّ أنك خمنت منذ

وقت طويل ، ذلك كان العذر الذي لجأت إلى انتحاله ، وأمّا السّبب

الحقيقي فهو العثور على زوج جديد لها .

- وقد نجح ذلك .

- لم يكن بدّ من أن ينجح ، فأنا لم أختر أيّ شخص ، كما تعرف .

- والمخطوطات؟

- حسبت أنك ستلقي بها ، فلم يخطر ببالي قطّ أنّ أحداً سيحمل

هذه الأعمال محمّل الجذّ .

- ماذا فعلت بعد أن قرأت أنّ الكتاب قد صدر .

- عدت إلى نيويورك . لقد كان من العبث القيام بذلك ، ولكنني

كنت منفعللاً أكثر ممّا يجب بعض الشيء ، ولم أعد أفكر بذهن صافٍ ،

واستدرجني الكتاب إلى ما فعلته ، وكان عليّ أن أصارعه من جديد ،

فبمجرّد صدور الكتاب لم يعد بمقدوري التراجع .

- حسبت أنك لقيت حتفك .

- هذا ما كان يفترض أن تعتقده، وإذا لم يؤدِّ إلى أيِّ شيءٍ آخر فإنه برهن لي على أن كوين لم يعد مشكلة قائمة، ولكنَّ هذه المشكلة الجديدة كانت أسوأ بكثير. كان ذلك عندما كتبت لك تلك الرّسالة .  
- كان عملاً أثمياً إقدامك على كتابة تلك الرّسالة .

- كنت غاضباً منك، وأردت أن تعرف طعم العذاب، وأن تعيش الأمور التي أعيشها، وفي اللّحظة التي أعقبت إلقائي للرّسالة في صندوق البريد ندمت على كتابتها.

- كان الأوان قد فات .

- نعم، كان قد فات .

- هل طالت إقامتك في نيويورك؟

- لست أدري، ربّما ستّة أشهر أو ثمانية، فيما أظن .

- وكيف كنت تحيا؟ من أين لك المال لتواصل العيش؟

- كنت أسرق الأشياء .

- لم لا تقول الحقيقة؟

- إنني أبذل قصارى جهدي، وأقول لك كلّ ما يمكنني إبلاغك

به .

- ماذا فعلت في نيويورك بخلاف ذلك؟

- رحمت أراقبك . أراقبك أنت وصوفي والصّغير، بل جاء وقت عسكرت فيه خارج المبنى الذي تقيمون فيه، لمُدّة أسبوعين أو ثلاثة، وربّما لمُدّة شهر كامل . تعقبّتك حينما ذهبت، بل إنني اصطدمت بك مرّة أو مرّتين في الشّارع، وحدّقت في عينيك مباشرة، ولكنك لم تلاحظ ذلك قطّ . لقد كان شيئاً مذهلاً ألاّ تستطيع رؤيتي .

- ذلك كله من بنات أفكارك .

- ربما لم أعدُ أبدو كما كنت قبلاً .

- ليس بوسع أحد أن يتغير إلى هذا الحد .

- أعتقد أنه ما من أحد يستطيع أن يتعرف عليّ . ولكن ذلك كان

من حسن طالعك، فلو حدث شيء فربما أقدمت على قتلك . فطوال

الوقت الذي أمضيته في نيويورك كانت خواطر قاتلة تجيش في نفسي،

أفكار من النوع السيئ . وأوشكت هنالك على الوصول إلى نوع من

الرعب .

- ما الذي أوقفك؟

- لقد وجدت في نفسي الشجاعة للرحيل .

- كان ذلك شيئاً نبيلاً منك .

- لست أحاول الدفاع عن نفسي، وكل ما هنالك أنني أحكي لك

القصة .

- وبعد ذلك؟

- أبحرت إلى الخارج من جديد . كانت ماتزال لدي بطاقة البحار

الخاصة بي، ووقعت عقداً للعمل على متن ناقلة بضائع يونانية كانت

شيئاً مقززاً يشير الغثيان حقاً من البداية إلى النهاية . ولكنني كنت

جديراً بذلك، وكان على وجه الدقة ما أردت . ومضت السفينة إلى

كل مكان - إلى الهند، اليابان، كافة أرجاء العالم، ولم أنزل منها مرة

واحدة . ففي كل مرة كنا نصل فيها إلى مرفأ كنت أمضي إلى قمرتي،

وأوصد الباب على نفسي . وقد أمضيت عامين على هذا النحو، من

غير أن أرى شيئاً أو أفعل شيئاً، وكنت أحيأ وكأني ميت .

- بينما كنت أحاول كتابة قصة حياتك .

- أهذا ما كنت تفعله؟

- هكذا يبدو .

- خطأ كبير .

- ليس عليك أن تخبرني بذلك ، فقد اكتشفته بنفسني .

- رست السفينة في ميناء بوسطن ذات يوم فقررت مغادرتها ،

وكنت قد ادخرت مبلغاً كبيراً فيه أكثر من الكفاية لشراء هذا المنزل .

وقد أقمت هنا منذ ذلك الوقت .

- ما هو الاسم الذي كنت تتحلله؟

- هنري دارك ، ولكن ما من أحد يعرف من أكون ، فأنا لا أخرج

أبداً ، وهناك امرأة تأتي مرتين كل أسبوع وتجلب لي ما أحتاج إليه ،

ولكنني لم أقابلها قط ، وإنما أترك لها كلمة في أسفل الدرج ، مع المال

الذي أدين به لها ، وهو ترتيب بسيط وفعال ، وأنت أول شخص

أحاده خلال عامين .

- هل فكرت في أنك قد جننت؟

- أعرف أن الأمر يبدو كذلك لك ، ولكنني لست مجنوناً ، صدقني ،

ولست حتى أرغب في تبديد طاقتي في الحديث عن ذلك ، فما أحتاج

إليه لنفسي مختلف للغاية عما يحتاج إليه الآخرون .

- أليس هذا المنزل أكبر مما يحتاج إليه شخص واحد؟

- أكبر بكثير ، فلم أغادر الطابق الأرضي منذ انتقالي إلى هنا .

- إذن لماذا اشتريته؟

- ثمنه زهيد للغاية ، وقد أحببت اسم الشارع ، فهو يخاطب

ذوقي .

- ميدان كولومبوس؟

- نعم .

- لست أفهم ما تعني .

- لقد بدا فالاً طيباً . أعود إلى أميركا، ثم أعرّ على منزل في شارع  
أطلق عليه اسم كولومبوس . كان في ذلك منطق معين .

- وهذا هو المكان الذي تعزم أن تلقى حتفك فيه؟

- بالضبط .

- تحدّث رسالتك الأولى عن سبع سنوات، وما زال أمامك عام

تحياه .

- لقد برهنت لنفسي على ما أردت، وليست هناك حاجة لإطالة

أمد الأمر، فقد نال مني التعب، وسئمت من كلّ شيء .

- هل طلبت مني القدوم إلى هنا لأنك حسبت أنني سأمنعك؟

- لا، على الإطلاق، لست أتوقّع أيّ شيء منك .

- ما الذي تريده إذن؟

- لديّ بعض الأشياء يتعيّن أن أعطيها لك . ففي وقت من الأوقات

أدركت أنني مدين لك بإيضاح ما فعلته، على الأقلّ محاولة للقيام

لذلك، وقد أمضيت الأشهر الستة الأخيرة محاولاً كتابة هذا

الإيضاح .

- حسبت أنك ودّعت الكتابة إلى الأبد .

- هذا شيء مختلف، وليست له صلة بما اعتدت القيام به .

- أين هذا الإيضاح؟

- وراءك . على أرضية الخزانة الموجودة تحت الدّرج، في كرّاسة

همراء .

استدرت، وفتحت باب الخزانة، والتقطت الكراسة. وكانت كراسة بالحجم المؤلف، ذات مشبك جانبي لولبي، تضم مائتي صفحة مسطرة، وألقيت نظرة عجلى على المحتويات فألفت كل الصفحات مليئة بالكتابة: الخط المؤلف نفسه، الحبر الأسود عينه، والحروف الصغيرة ذاتها. ونهضت وعدت إلى الشق بين البابين. تساءلت:

- ماذا تريد الآن؟

- امض بها إلى الدار، واقراها.

- ماذا لو لم يكن بمقدوري ذلك؟

- احتفظ بها، إذن، للصغير، فقد يرغب في رؤيتها عندما يكبر.

- لست أعتقد أن لك أي حق في طلب ذلك.

- إنه ابني.

- لا، ليس كذلك، إنه ابني أنا.

- لن أصرّ على ذلك، فاقراها أنت إذن. لقد كتبت من أجلك على

أي حال.

- وصوفي؟

- لا، لا ينبغي أن تبلّغها بالأمر.

- ذلك هو ما لن أفهمه أبداً

- صوفي؟

- كيف أمكنك أن تهجرها على ذلك النحو؟ ما الذي فعلته لك؟

- لا شيء. لم يكن الخطأ خطأها. لا بد أنك تعرف ذلك الآن.

وكل ما في الأمر أنني لم يقصد بي أن أحيا كالأخرين.

- وكيف قصد بك أن تحيا؟

- كل ذلك موجود في الكراسة . وكل ما أفلحت في قوله الآن لن يؤدي إلا إلى تشويه الحقيقة  
- هل هناك شيء آخر .

- لا ، لست أعتقد هذا ، فقد نكون وصلنا إلى النهاية .  
- لست أصدق أن لديك الجرأة على إطلاق النار علي . ولكن  
حطمت الباب الآن فإنك لن تُحير حراكاً .  
- لا تخاطر بذلك ، فلسوف تلقى حتفك للشيء .  
- لسوف أنتزع المسدس من يدك ، وألطمك حتى تغيب عن  
الوعي .

- ليس هناك طائل من وراء ذلك . إنني ميت ، بالفعل ، فقد  
تجرعت السم منذ ساعات .  
- لا أصدقك .  
- ربما ليس بمقدورك أن تعرف ما هو حقّ مما هو زائف ، ولن يُقدّر  
لك أن تعرف أبداً .

- سأستدعي الشرطة ، وسيحطم رجالها الباب ، ويجرونك إلى  
المستشفى جراً .  
- ما إن يتردد صوت عند الباب حتى أطلق رصاصة على رأسي ،  
وليست هناك طريقة تفوز بها .

- هل الموت شديد الإغواء؟  
- لقد عايشته حتى الآن طويلاً ، وهو كل ما بقي لي .

لم أعد أدري ما عساي أقول . فقد استنفدني فانشو . وفيما كنت  
أسمعه وهو يلتقط أنفاسه على الجانب الآخر من الباب ساورني شعور

بأن الحياة تُمتَصَّ مَنِيَّ امتصاصاً. قلت وقد عجزت عن التَّفكير في أيِّ شيءٍ آخر:

- أنت أحمق، أنت أحمق، وتستحقُّ الموت جزاءً وفاقاً.

عندئذٍ غلبني شعور قاهر بالضعف والبلاهة، وشرعت في لطم الباب وكأنني طفل، وقد أخذتني الرَّعدة، وأخذت أدمدم باهتياج، وقد أوشكت على الانخراط في البكاء.

قال فانشو:

- خير لك أن تذهب الآن، ليس هناك ما يدعو لإطالة هذا

الوضع.

قلت:

- لست أريد الذهاب، فما زالت لدينا أمور يتعيَّن علينا الحديث

عنها.

- لا، ليس لدينا ما نتحدَّث عنه. انتهى الأمر. خذ الكرّاسة وعُدْ

إلى نيويورك، هذا هو كلُّ ما أطلبه منك.

كان الإعياء قد استبدَّ بي حتَّى لقد ظننت لوهلة أنني سأهوي متداعياً، وتشبَّت بمقبض الباب مستنداً إليه، وطغى السواد داخل رأسي، ورحت أقاوم الإغماء الزاحف. وبعد ذلك لم أعد أذكر ما حدث، فقد ألفت نفسي في الخارج، أمام المنزل، والمظلة في إحدى يديّ، والكرّاسة الحمراء في اليد الأخرى. وكانت السّماء قد انقشعت، ولكنَّ الهواء كان مايزال رطباً، وكان بمقدوري الشّعور برطوبة جاثمة في رثتيّ. ورحت أرقب شاحنة كبيرة وهي تفرقع قريباً مني في زحمة حركة المرور. وتابعت بناظري نورها الخلفيّ الأحمر إلى



أن عجزت عن تبينه . وعندما رفعت عينيّ عالياً أدركت أن الليل قد  
أوشك على أن يسدل أستاره . وشرعت في السير مبتعداً عن المنزل ،  
واضعاً قدماً أمام الأخرى بصورة آليّة ، وعاجزاً عن التّركيز في المكان  
الذي أمضي إليه . وأظنني قد سقطت أرضاً مرّة أو مرّتين ، وأذكر أنني  
رحت أنتظر عند أحد المنعطفات في محاولة لإيقاف سيّارة أجرة ، ولكن  
ما من سيّارة توقّفت لي . وعقب ذلك بلحظات انزلت المظلة من  
يدي وهوت إلى بُريكة من ماء المطر فلم أكرث لالتقاطها .

كانت السّاعة قد تجاوزت لتوها السّابعة عندما وصلت إلى محطة  
ساوث . وكان قطار المحطة إلى نيويورك قد غادر قبل ربع ساعة ، ولم  
يكن من المقرّر أن يغادرها قطار آخر إلى نيويورك إلّا في الثامنة  
والنّصف ، فانتعدت أحد الكراسي الخشبيّة . والكرّاسة الحمراء على  
حجّري . ومضى ركّاب متأخرون عن مواعيدهم يتشرون بلا انتظام ،  
وأحد المشرفين على نظافة البوابات يتحرّك ببطء على الأرضيّة بمسحة  
للتّنظيف ، ورحت أصغي إلى رجلين كانا يتحدّثان عن  
«الريديسوكس» ورائي ، وبعد عشر دقائق من مقاومة حافز يدعوني إلى  
ذلك فتحت الكرّاسة وقرأت بانتظام مدّة ساعة تقريباً ، متنقلاً في  
النّص إلى الأمام وإلى الوراء ، محاولاً تبين مغزى ما كتبه فانشو . وإذا  
كنت أمتنع عن قول شيء عمّا وجدته هناك فإنّ مردّد ذلك إلى أنني لم  
أفهم إلّا القليل للغاية . لقد كانت كلّ الكلمات مألوفة عندي ، ومع  
ذلك فقد بدا أنّها صيغت معاً على نحو غريب وكأنّما كان الهدف  
النّهائي أن تلغي إحداها الأخرى . وليس بمقدوري التّفكير في أيّة  
طريقة أخرى للتّعبير عن الأمر ، فكلّ جملة تمحو سابقتها ، وكلّ عبارة  
تجعل العبارة التالية مستحيلة . فمن الغريب ، إذن ، أن يكون الشّعور

الَّذِي بَقِيَ مِنْ هَذِهِ الْكَرَّاسَةِ هُوَ شَعُورٌ بِقَدْرِ كَبِيرٍ مِنْ صَفَاءِ التَّفْكِيرِ .  
فَقَدْ بَدَأَ الْأَمْرَ كَمَا لَوْ أَنَّ فَانشُو عَرَفَ أَنَّ عَمَلَهُ الْأَخِيرَ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ  
يَنْسِفَ كُلَّ مَا أَتَوَقَّعَهُ مِنْهُ ، فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ كَلِمَاتُ رَجُلٍ نَدِمَ عَلَى أَيِّ  
شَيْءٍ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَى السَّوْأَلِ بِطَرَحِ سَوْأَلٍ آخَرَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ بَقِيَ كُلُّ  
شَيْءٍ مَفْتُوحًا ، وَغَيْرَ مَمْتَهٍ ، لَكِي يَتَمَّ الْبَدْءُ بِهِ مِنْ جَدِيدٍ . وَلَقَدْ فَقدتِ  
طَرِيقِي بَعْدَ الْكَلِمَةِ الْأُولَى ، وَمِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَصَاعِدًا لَمْ يَكُنْ  
بِمَقْدُورِي إِلَّا أَنْ أَتَلَمَّسَ مَا أَمَامِي ، مَتَعَثِّرًا فِي الظَّلَامِ ، وَقَدْ أَعْمَى  
نَاضِرِي الْكِتَابِ الَّذِي دُبَّجَ خَصِيصًا مِنْ أَجْلِي . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ شَعُرْتُ  
تَحْتَ هَذِهِ الْحَيْرَةِ بِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَتَسِمًا بِإِرَادَةِ مَنْ طَابَعَ مَعِينَ بِأَكْثَرِ مَا  
يَنْبَغِي ، شَيْئًا أَكْثَرَ كَمَالًا مِمَّا يَنْبَغِي ، وَكَأَنَّمَا كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي يَرِيدُهُ فِي  
نَهَايَةِ الْمَطَافِ حَقًّا هُوَ أَنْ يَجْذَلَ ، حَتَّى وَلَوْ مَضَى إِلَى حَدِّ خَذْلَانِ نَفْسِهِ .  
غَيْرَ أَنِّي يُمْكِنُ أَنْ أَكُونَ مَخْطِئًا ، فَلَمْ أَكُنْ فِي حَالَةٍ تَسْمَحُ لِي بِقِرَاءَةِ أَيِّ  
شَيْءٍ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، وَأَيُّ حَكْمٍ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ الصَّوَابُ قَدْ  
جَافَاهُ . لَقَدْ كُنْتُ هُنَاكَ ، أَقْرَأُ هَاتِيكَ الْكَلِمَاتِ بَعِينِي ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي  
أَجِدُ أَنَّ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ الثَّقَةَ بِمَا أَقُولُهُ .

رَحْتُ أَتَجَوَّلُ ضَارِبًا فِي مَسِيرِي نَحْوَ الْقَضْبَانِ . وَكَانَ الْمَطَرُ قَدْ عَادَ  
إِلَى الْهَطُولِ مِنْ جَدِيدٍ ، وَكَانَ بَوَسْعِي أَنْ أَرَى نَفْسِي فِي الْهَوَاءِ أَمَامِي  
وَهُوَ يَنْطَلِقُ مِنْ فَمِي فِي انْدِفَاعَاتٍ ضَبَائِيَّةٍ صَغِيرَةٍ . وَمَزَقَتْ صَفْحَاتِ  
الْكَرَّاسَةِ صَفْحَةً تَلَوَّ الْأُخْرَى مَكُورًا إِيَّاهَا فِي يَدَيَّ ، وَأَلْقَيْتُ بِهَا فِي  
سَلَّةِ مَهْمَلَاتٍ عَلَى الرَّصِيفِ . وَلَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى الصَّفْحَةِ الْأَخِيرَةِ فِيهَا  
كَانَ الْقَطَارُ يَشْرَعُ فِي مَغَادِرَةِ الْمَحْطَةِ .



... هناك الرجل الذي يمضي في كل مكان بمجموعة من عصي قرع الطبول، لاطماً بها الرصيف بإيقاع طائش، عبثي، منحنيًا على نحو مرتبك وهو يتقدم في الشارع ويقرع الإسمنت مراراً وتكراراً. وربما كان يحسب أنه يؤدي عملاً مهمًا، ولو لم يقم بما هو عاكف عليه فلربما انهارت المدينة، وربما كان القمر سيخرج عن مداره، ويرتطم بالأرض. وهناك من يحدثون

أنفسهم، ومن يدمدمون، ومن يصرخون، ومن يلعنون، ومن يتأوهون ألماً، ومن يسردون على أنفسهم القصص وكأنهم يحكونها لشخص آخر. وهناك الرجل الذي رأيته اليوم جالسا وكأنه كومة من القمامة أمام محطة جراند سنترال، والحشود

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

عن لوحة لبول روبورتس

تنطلق متجاوزة إياه، وهو يقول بصوت عالٍ مليء بالفرع: «فرقة المارينز الثالثة... التهام النحل... النحل يزحف خارجاً من فمي». أو المرأة التي كانت تهتف برفيق خفي: «وماذا إذا لم أكن أريد ذلك! وماذا إذا لم أكن أريد ذلك!»

الكتاب

دار الآداب

مطبعة ٨٠٣٧٨ - ٨١١٣٣

عدد ٤١٢٢ - ١١ بيروت